

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكمة / العدد الثلاثون / ربيع / ٢٠٢٠

عمر شبلي

الثقاف في خدمة الثقافة

د. درية فرحات

بين سيميائية العنوان والمضمون في ديوان "صدي الروح"

د. علي رضا كركي

التنظيم الاجتماعي والشخصنة في الادارة الصناعية

د. سلمى عطا الله

اقتراحات أنيس فريحة في تحديث اللغة العربية وتعليمها

صفاء عباس

آليات البناء السردي في قصيدة "نيرون" لخليل مطران

جوزيان جرجس عازار

مدى توافق الخرائط في كتب الجغرافيا المدرسية

هدى محمد الرزوق

الإعلام في الرواية إبان الربيع العربي

علي إسماعيل عبد الله

التناوب الصوتي والتمايز الدلالي في القرآن الكريم

نوال يوسف

تعريف التربية

سناء عجاج خضر

المصطلح الحديث وترجمته

جعفر حسن عبد الله

تزاوج الأنماط الزخرفية في الواجهات البناء البيروتني

عمر شبلي

قراءة في "كرسي على الزبد"

د. فادي أسعد نصيف

فلسفة الجهاد النبوي المكّي والمدني

أسعد محسن حسن قاسم

الزسوميات وتأثيرها في الجيل الرقمي

د. هنادي أمين

الحج الشامي في العصر العثماني

سامي يحيى

التجريدية الغنائية وتحولاتها في الشرق

د. عماد غملوش

أثر النفط في السياسة الأمريكية (الשבعينيات)

زهراء الموسوي

يا واحة الظل

- موقف "المنافذ الثقافية"

من قضايا الانتماء الفكري والأدبي والروحي

للأمة العربية والاستجابة الإيجابية للتحدي

المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكمة تُعنى بأحوال الثقافة والفكر والأدب

نائب رئيس التحرير
د. درية فرحات

رئيس التحرير
عمر محمد شبلي

الهيئة الثقافية والإدارية

د. هالة أبو حمدان	د. عماد هاشم	د. علي أيوب
د. نصر قرحاني	د. هبة الحشيمي	د. عيدا زين الدين
د. زهور شتوح (الجزائر)	د. ندى الرمح	د. منال شرف الدين
د. رضا العليبي (تونس)	د. منى دسوقي	د. سمية طليس
أ. حكمت حسن	أ. مروان درويش	أ. زينب راضي
أ. إيمان صالح	أ. سوزان زعيتر	أ. فاطمة البزال
أ. رولا الحاج حسن		

اللجنة المحكّمة

د. ديزيريه سقّال	د. حسن جعفر نور الدين	د. محمد فرحات
د. فؤاد خليل	د. لارا خالد مخول	د. علي حجازي
د. جمال زعيتر	د. مها خير بك ناصر	د. محمد عواد
د. عائشة شكر	د. أحمد رباح	د. يوسف كيال
د. ماغي عبيد	د. سعيد عبد الرحمن	

المدير المسؤول
علي حمود

إخراج
عبد القادر نجيب كرزي
٧٠ / ٦٢١٤١٠

تصميم المجلة
عبير سمير نجم

العدد الثلاثون - ربيع ٢٠٢٠

موقع المجلة الإلكتروني - www.al-manafeth.com
تطلب المجلة من دار النهضة العربية - بيروت - شارع جامعة بيروت العربية
للمراسلات: 00961 1 833270 darnahda@gmail.com

الإشتراكات السنوية:

لبنان - للأفراد ١٠٠ ألف ليرة لبنانية - للمؤسسات ١٥٠ ألف ليرة لبنانية

باقي الدول العربية:

لأفراد ١٠٠ دولار - للمؤسسات ٢٠٠ دولار
للمراسلات: chebli_omar@hotmail.com

المحتويات

التثاقف في خدمة الثقافة	
عمر شبلي	٥
التنظيم الاجتماعي والشخصنة في الإدارة الصناعية نموذج المنشآت الصناعية في جنوب لبنان	
د. علي رضا كركي	٨
اقتراحات أنيس فريحة في تحديث اللغة العربية وتعليمها قراءة في كتابيه: «في اللغة العربية وبعض مشكلاتها» و«تبسيط قواعد اللغة العربية على أسس جديدة»	
د. سلمى عطالله	٢٦
آليات البناء السردية في قصيدة «نيرون» لخليل مطران	
صفاء عباس: «طالبة دراسات عليا»	٣٤
بين سيميائية العنوان والمضمون ديوان صدى الروح للشاعر حسين مصطفى أنموذجاً	
د. درية فرحات	٤٩
مدى توافق الخرائط في كتب الجغرافيا المدرسية مع خصائص الخرائط الجيدة	
جوزيان جرجس عازار	٥٦
المصدر في ديوان أباريق مهشمة	
الباحثة هدى محمد الرزوق	٨٨
التناوب الصوتي بين صوتي الواو والياء والتمايز الدلالي في القرآن الكريم	
علي إسماعيل عبدالله	١٠١
تعريف التربية	
نوال يوسف	١١٠
المصطلح الحديث وترجمته	
سناء عجاج خضر	١٣٠
تزاوج الأنماط الزخرفية في الواجهات التقليدية للبناء البيروتية	
جعفر حسن عبد الله	١٤٣
قراءة في «كرسي علي الزيد» للشاعر محمد علي شمس الدين	
بقلم عمر شبلي	١٥٨

	فَلَسَفَةَ الْجِهَادِ النَّبَوِيِّ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ بَحْثٌ حَوْلَ الْقَوَاعِدِ الْعَامَةِ لِلْجِهَادِ النَّبَوِيِّ
١٩٩ د. فادي أسعد نصيف
	الرَّسْمِيَّاتُ وَتَأْثِيرُهَا فِي الْجِيلِ الرَّقْمِيِّ
٢١١ أسعد محسن حسن قاسم
	الحج الشامي في العصر العثماني
٢٢٦ د. هنادي أمين
	التجريدية الغنائية وتحولاتها في الشرق أعمال الفنان عادل قديح أنموذجاً
٢٤٤ سامي يحييا
	أثر النفط في السياسة الأمريكية (السبعينيات)
٢٦٢ د. عماد غملوش
	قصة: بين الأمس واليوم
٢٩٨ ربيع عرندس
	الكائنُ القلْبُ
٣٠٠ فاطمة علي سليمان
	يا واحة الظلِّ
٣٠٥ زهراء الموسوي
	الإعلام في الرواية إبان الربيع العربي «رواية أجنحة الفراشة أنموذجاً»
٣٠٧ الباحثة هدى محمد الرزوق
	Des images révolutionnaires qui parlent Eliane Toni Abboud
٣٢١ Docteure ès lettres
	Développement langagier du nouveau être social
٣٣١ Dr. Berrissoul Samira
	Writers for Post-Conflict Peace
٣٥٥ Dr. Rula Yazigy- Lebanese University
	Characteristics of an effective leader
٣٦٤ Ziad Chakra

التثاقف في خدمة الثقافة

عمر شبلي

المادية التي نراها في الفعل الإنساني المتحوّل عن فكرٍ متحوّلٍ إلى لغة. أبداً لا قيمة لعقلٍ لا يحمله جسد.

إنّ حركة التاريخ تثبت أن التثاقف يبدأ من اللغة أولاً، لقد انطلقت الحضارة الإسلامية من لغة عربية صحيحة، ولكنها كانت ضد الانغلاق على لغة يحدها عصر غير متمازج بالأمم الأخرى، تماماً كما جاء في القرآن الكريم الذي حمل فكراً انقلابياً ولغة جديدة بدأ التحول الفكري ينتج أمة جديدة وحضارة جديدة. ووجدنا أنّ هذا التثاقف اللغوي، والتثاقف المعرفي قد فتحا الأفاق لحضارة استطاعت أن تلامس روح عصرها وتتأثر به، وتؤثر فيه. إن في القرآن الكريم كلماتٍ معرّبة، وليست عربية التكوين والمصدر، ولكن القرآن الكريم أخضعها للزلاقة التي تناسب التركيب اللغوي العربي والصياغة الصرفية. ومن الألفاظ المعرّبة في القرآن الكريم: «الفرديوس، جهنّم، السندس، الإستبرق، الدينار، والنمارق،

مخطئ من يظنّ أن التثاقف غزو ثقافي، كما يروج أصحاب الفهم الحصري للثقافة، الذين يرون أنّ كلّ وافدٍ من الخارج يلغي الخصوصية الفكرية لثقافة الأمة. إنّ هذا الفهم القاصر يروّجُه مثقفو الكتاب الواحد، إنهم يأخذون اللغة إلى الحجر الصحي، ويضعونها في صناديق مقفلة لا تحسّ بحركة الكون التي تصيب الثقافة، تلك الحركة الدائبة التي بها ينمو الوعي الاجتماعي، وكلُّ إنجازات الفكر البشري الحضارية. لقد اندثرت أمم، وزالت بدخول لغاتها منطقة الحصار الذاتي المنغلق على أحادية لا تقبل التماسّ مع أضواء ونتائج اللغات الأخرى، والعزل في حقيقته مصابٌ دائماً بالأوبئة التي لا علاج لها نتيجة الحصار المفروض على اللغة والفكر في آن. إن الفكر لا يتحوّل إلى إنجاز حضاري إلاّ باللغة. وكلّ التقدم الذي وصلت إليه الحضارات الإنسانية كان ينتقل من الفكر إلى اللغة التي تحملهُ، ثم إلى إنجازاته

لا تحملها الكلمة المباشرة والجملة المباشرة. لقد نقل القرآن الكريم الكلمة العربية من ماديتها لتحمل معنى روحياً يوحى بانطلاق اللغة إلى ميادين الفكر المتقدم. إن كلمة الصلاة خرجت من ماديتها في النص القرآني، وكذلك الزكاة والجهاد والقيامة وغيرها الكثير الكثير.

لقد كانت الصورة المادية مسيطرة على الكلمة العربية، وبدأت تنحو منحى أبعد مع تقدم الفكر العربي، ففي قولنا مثلاً «صفقة البيع» نجد أنها صارت نقلاً للكلمة من ماديتها. كانت قبل تطور معناها تعني ضرب اليد على اليد دليل اتفاق بين متبايعين، وكذلك كلمة عقد إذ كان المعاهدان على أمر يعقدان طرف ثوبيهما. وقد جاء في كتاب فقه اللغة لمحمد مبارك ما يلي: «هناك قوانين تسيطر على اللغات بصورة عامة كما تسيطر قوانين الطبيعة في كل مكان. إن اللغة حادثة اجتماعية، وقد أخذ علم الاجتماع ينظر إلى الحوادث ينظر إلى الحوادث الاجتماعية كما ينظر علم الطبيعة إلى الحوادث الطبيعية... أوليست اللغة متصلة بحياة شعب من الشعوب تنتقل معه في الآفاق المادية والمعنوية، وتنعزل معه إذا انعزل وتختلط بغيرها إذا اختلط... ثم هي ترافقه في آفاق حياته الفكرية».

ليست هناك فكرة مستمرة في الوجود

وغيرها». لقد صارت عربية، وفتحت الفكر العربي على أفكار ناتجة عن هذه الكلمات. واستمرت عملية التثاقف مع اللغات الأخرى حتى بلغت مدى متقدماً في العصر العباسي. وهذا التثاقف أخصب اللغة العربية وأخصب الفكر العربي الذي أنتج علم الكلام وفلسفة الاعتزال، وترجم معظم المعارف الإنسانية التي تزخر بها ثقافتنا العربية الإسلامية. إذن «في البدء كانت الكلمة». وأصبحت الكلمة إنجازاً فكرياً، ومادياً فيما بعد. وقتها لم يُعق التثاقف تقدمنا ونهضتنا، بل كان رافداً لها، على عكس الذين يظنون أن الفكر الغربي الوافد إلى ثقافتنا اليوم هو غزو ثقافي. إن هذا المنطق هو منطق الأمم الضعيفة، فالأمة القوية تجادل الثقافة بالثقافة، وتحاور الثقافة بالثقافة، وترد على الفكر بالفكر. والنتيجة في الحالين يكون خطوة إلى الأمام. إنك لا تستطيع أن ترفض وأنت ضعيف، وضعف الأمة يبدأ من وهن لغتها، لأن لغتها وعاء أفكارها، وأفكارها هي حجارة نهضتها. وعندما كانت الأمة متقدمة فكرياً في العصر العباسي لم تكن تُغزى ثقافياً، بل كانت العملية تثاقفاً إبداعياً.

الغريب أن القرآن الكريم الذي أنجز تثاقفاً معرفياً ولغوياً مع الأمم الأخرى قد تحوّل عند بعض المسلمين إلى نص راكٍ لا يسمح لأحد بالتجرؤ على تحميل النص ما

غير فكرة التغيير الذي هو صفة الكون الحقيقية، فإن كنت لا تستطيع أن تدخل في النهر مرتين فإنّ عليك فهم حقيقة الثقافة نفسها، ثباتها يعني موتها، وتحولاتها تعني استمراريتها. وليس هناك أبدية سوى أبدية التغيير الدائم التي هي في النهاية فعل ثقافي. ولأن الثقافة إنجاز اجتماعي فهي متحركة، والحرية سمة حركة الثقافة، وهكذا تتحول الثقافة إلى فعل ثوري بحكم رفضها الثبات في كليّة لا تتغيّر.

التنظيم الاجتماعي والشخصنة في الإدارة الصناعية نموذج المنشآت الصناعية في جنوب لبنان

د. علي رضا كركي

وقد افترض تايلور كمدخل لدراسته «أنه يمكن للأفراد أن يرتبطوا بأعمالهم أكثر مما لو كانوا آلات صنعت خصيصاً لتعطي أكبر كفاءة ممكنة، وأنه إذا أُحسن استخدام الحوافز استطاع العامل أن يؤدي عمله بطريقة أكثر كفاءة، وأن المكافآت المالية الناتجة عن زيادة الكفاءة الإنتاجية، والتي تكون هي الأخرى نتيجة استخدام الإدارة العلمية يمكن أن تستخدم لزيادة دخل العمال ورجال الإدارة، الأمر الذي يحقق التعاون المنسجم بين الجماعتين»^(٢).

لقد أكدت دراسات ألتون مايو أهمية العنصر الإنساني، وتأثيره على كفاءة وأداء التنظيمات العمالية في تحقيقها لأهدافها الإنتاجية.

وتشير حركة العلاقات الإنسانية إلى أهمية الجماعات في تحديد سلوك العمل،

تمهيد

ظهرت حركة العلاقات الإنسانية داخل المنشأة بفعل دراسات ألتون مايو Elton Mayo، أحد أهم رواد علم اجتماع العمل الذي أجرى تجاربه في معامل وسترن إلكتريك Western Electric في هاوثورن Hawthorne ما بين عامي ١٩٢٦ و١٩٣٣. وقد هدفت تجاربه إلى دراسة تأثير الظروف المادية (أجر، أوقات راحة، إضاءة...) للعمل على مستوى الإنتاجية، وتوصل إلى أن زيادة الإنتاجية مرتبطة بالعلاقات الإنسانية التي تنشأ داخل المنشأة، وكانت هذه النتائج مناقضة لنتائج دراسات تايلور F. Taylor، الذي يحسب «أن العمل يتمثل في أبعاده التقنية البحتة»^(١).

(١) بلقاسم سلاطينه وآخرون: علم الاجتماع الإعلامي، دار الفجر للنشر والتوزيع، مصر ٢٠١٢، ص ٦١.

(٢) المصدر نفسه، صفحة ٦٢.

مع القائمين بالمنشآت الصناعيّة من أرباب عمل وعمال. وبناءً على تحليل المعطيات المختلفة، يمكننا فهم التّنين ومقابلته مع تراث علم الاجتماع الخاص بالتّنين، وذلك يمكن من تقديم شكل جديد من أشكال التّنين المتصل بالواقع الصناعيّ في لبنان.

التّنين الاجتماعيّ L'organisation Sociale

يأخذ التّنين معنيين: أولهما يدل على منظمة تضم أفرادًا أو جماعات، ينتظمون وفقًا لقوانين ونظم تحدد المهام والأهداف، وثانيهما يشير إلى تنظيم اجتماعيّ مكون من مركّب معقد قوامه العناصر الثقافيّة والبنائيّة. وقد عرّف على أنّه «تنسيق شامل لجميع عناصر بنية الفعل الاجتماعيّ»^(١). وهو تعريف شامل يطال البنية الثقافيّة والمنظومة القيمية اللتين تحيطان بالسلوك الإنسانيّ، سواء في بيئة العمل أو في البيئة الاجتماعيّة.

بشكل عام، يكون التّنين مجموعة قواعد لتسيير أعمال وموارد محددة، إذ تشكّل هذه القواعد منظومة يُسعى من خلالها إلى تحقيق مشروع معين، ويشتمل التّنين دائمًا على مكونين أساسيين هما: التنسيق (التعاون) والتّراتبيّة.

فالسّلك الفردي للعامل يُعد انعكاسًا لأفكار الجماعة. لذا، لا يمكن النّظر إلى العمال على أنّهم أفراد منعزلون، بل يجب النّظر إليهم، باعتبارهم أعضاء في جماعات لها تقاليدھا وسلوكاتها وضوابطها، ولها عرّف يلتزم به أعضاء هذه الجماعات.

تتمظهر إشكاليّة البحث حول توضيح التّنين داخل المنشأة الصناعيّة من خلال فلسفة الواقع الماديّ والكيفيّ لبيئة العمل مع إظهار أثر الشّخصنة في ذلك.

وقد تمّت دراسة خمسين منشأة صناعيّة من أصل ٥٣٦ (بحسب غرفة التجارة والصناعة في صيدا)، من خلال تعبئة خمسين استمارة مع أرباب عمل هذه المنشآت ومئة استمارة مع عمالها، أي عاملين من كل منشأة، فضلًا عن إجراء عدد من المقابلات مع العاملين خارج بيئة العمل، كما اعتمد المنحى التحليليّ لمعطيات الاستثمارات لتوضيح متغير التّنين والشّخصنة داخل المنشآت.

إنّ أهمّ ما هدف إليه البحث هو تحليل التّنين الاجتماعيّ في المنشآت اللبنانيّة، وذلك بالاعتماد على النّتائج والمعطيات الحقلية التي تم الحصول عليها بواسطة الملاحظة، فضلًا عن الاستمارة التي أجريت

(١) غي روشيه: مقدمة في علم الاجتماع العام - ٢ - التّنين الاجتماعيّ، تعريب مصطفى دندشلي، مكتبة الفقيه، بيروت ٢٠٠٢، صفحة ٨.

عدم احترام العناصر الثقافية التي يشترك فيها الجميع. وقد يتقيد بعض العمال بنظام العمل وأخلاقياته أكثر من البعض الآخر، وقد يستهتر بعض العمال بالمهام الموكلة إليهم. ويعود ذلك إلى مدى تمسك هؤلاء بالعناصر الثقافية وأخلاقيات العمل.

وتتمظهر العناصر البنائية في التزام جماعة العمل بالمهام والأنشطة الخاصة بها داخل المنشأة، وهي مهام وأنشطة تتضمن تقسيم العمل وإتقانه مما يؤدي إلى رسم صورة واضحة لطبيعة العلاقات الناشئة بين القائمين بالعمل، فيظهر جلياً العمال المهرة ورؤساء الأقسام والقادة من خلال الأدوار التي يؤديها هؤلاء، إذ تشكل هذه الأدوار السلوكيات المختلفة والهادفة التي يقوم عليها التنظيم الاجتماعي للعمل.

تعبّر الثقافة والقيم عن العناصر البنائية، وتكون هذه الأخيرة انعكاساً للعناصر الثقافية، وعليه يبني التنظيم الاجتماعي للعمل داخل المنشأة.

وتمثل المنشأة تنظيمًا اجتماعيًا يميزها عن تنظيمات أخرى مشابهة أو غير مشابهة، وذلك يعود إلى الالتزام والتقيد بالعناصر الثقافية والقيمية الخاصة ببيئة القائمين عليها.

إن الاستعانة بتراث علم الاجتماع

وقد ذهب روبير فارس في قاموس العلوم الاجتماعية إلى تعريف التنظيم بأنه «يدلّ في العلوم الاجتماعية على مجموعة (بشرية) مستقرة نسبيًا لجهة العلاقات الوظيفية المتبادلة بين العناصر المكوّنة لهذه المجموعة (أشخاصًا أو جماعات)، فينتج عن ذلك صفات وخصائص لا نجدها في هذه العناصر (منفردة)، مما يؤدي إلى وجود كيان متميز وفريد من نوعه»^(١).

هكذا، فالتنظيم يتشكل داخل الجماعة وتكون الجماعة الاجتماعية مظهرًا من مظاهره. يشير التنظيم إلى مدى تماسك الجماعة أو عدم تماسكها في بيئة العمل، فالسلوك الفردي لا يشكل تنظيمًا إلا إذا كان جزءًا من سلوكيات تشترك في تحقيق هدف واحد.

وينتظم سلوك الأفراد في دائرة العناصر الثقافية، إذ يشترك عمال المنشأة ببعض القيم، فهم يحترمون العمل ويتقيدون بالوقت المحدد له، ويعطون الإنتاج أهمية عالية تساوي أهمية العمل، ويقدرّون زملاءهم في العمل ويحترمون الرؤساء، إلا أن هذه القضايا لا تكون متساوية لدى الجميع. فقد يتخلل العمل بعض النزاعات التي قد تؤدي إلى توتر داخل المنشأة، وهذا الخلل قد يكون في

(١) المصدر نفسه، صفحة ٩.

الخاص بالتنظيم، من شأنه أن «ينمي لدينا الخيال السوسولوجي، ذلك المفهوم الذي أدخله رايت ميلز Wright Mills»^(١)، الأمر الذي يساعد على فهم الأشكال المتغيرة والمتغيرة تاريخياً للواقع التنظيمي، وينطوي هذا الفهم على وعي معمق للسلوكيات الاجتماعية للأفراد من خلال ربطها بالبناء الاجتماعي وبمنظومة القيم، إذ اعتقد رايت ميلز أنه من العسير دراسة اتجاهات الأفراد أو أي ظاهرة اجتماعية بمعزل عن المسار التاريخي المتضمن مختلف المؤثرات والظروف المساعدة في تغير التنظيم وتطوره.

فالتنظيم الاجتماعي الذي حكم المنشأة التقليدية في حقبة النظام الإقطاعي هو غيره الذي حكم المنشأة الصناعية إبان الفترة الصناعية. هكذا، فلكل مرحلة ظروفها وخصائصها وبالتالي تنظيم آخر يكون متصلاً ومتأثراً بهذه الظروف وهذه الخصائص.

فالتنظيم إذًا، هو الإطار الإنساني الذي تتحرك بداخله مجموعات نحو تحقيق هدف يعبر عن نمط التعاون داخل بيئة العمل أو داخل المنشأة.

وللتنظيم أهمية كبيرة في تحقيق النجاح

الإنتاجي والإنساني للمنشأة، ويتطلب التنظيم وحدة الهدف وعلاقات تشاركية تحوّل الفرد إلى جزء من قوة المنشأة، إذ لا يمكن للفرد تحقيق الفعالية المطلوبة إلا من خلال عناصر المنشأة كافة.

وتكون العلاقات الإنسانية في المنشأة صورة عن التنظيم المتبع داخلها، فهي إما أن تكون تعاونية تشاركية قائمة على التوازن والتكامل دالة على التوافق، وإما أن تكون أحادية متجهة لتحقيق أهداف الإدارة، وبذلك تعبر عن التسلط. لذا، تكون طبيعة العلاقات القائمة في بيئة العمل انعكاساً للتنظيم المتبع والمعتمد من قبل الإدارة. ويكون التنظيم عملية مستمرة التطور والتغير، ولا يعبر عن الثبات نظرًا إلى تغير الظروف الإنتاجية والاستهلاكية، وتكون الإدارة أساسية في هذا التغير وهذا التطور، إذ ترسم السياسات والخطط والأهداف وتقوم بتفويض السلطات والمهام وتتحكم بآليات التشغيل والصرف.

يسهل التنظيم التوافقي من عملية الاتصال بين القائمين على العمل، ما يؤدي إلى انسياب المعلومات المهنية بشكل سليم، يحقق التناسق بين مختلف أجزاء المنشأة، ويسهم في إكساب المهارات الخاصة

(١) محمد علي محمد: مجتمع المصنع، دراسة في علم اجتماع التنظيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالاسكندرية، مصر ١٩٧٣، صفحة ٣.

بالعمل. ويؤشر التّنظيم التّوافقي إلى كفاءة الإدارة وإلى أهدافها التطويرية، الأمر الذي ينتج عنه حسن سير العملية الإنتاجية. ويؤشر التّنظيم التّوافقي أيضاً إلى الأهداف التّمكينية للمنشأة ككل، فضلاً عن تمكين القوى العاملة فيها.

ويدل التّنظيم القائم على آليات الصّراع إلى التّغير الدائم داخل المنشأة، سواء على مستوى العلاقات أو على مستوى الإنتاج أو الأهداف، مما يجعل من تطوير وتمكين المنشأة أمراً صعباً.

يتضمن التّنظيم نوعين من قنوات الاتّصال داخل المنشأة: منها قنوات الاتّصال الرّسميّة وغير الرّسميّة، «ويقصد بالأولى تلك التي تطابق خطوط السّلطة النّظاميّة، وتصور العلاقات الوظيفيّة بين الوحدات المختلفة، أما الثّانية فتشير إلى عمليات إرسال واستقبال المعلومات والتّوجيهات على مستوى التّفاعل الاجتماعيّ التّلقائيّ بين جماعات العمل»^(١).

فالأتّصال الرّسميّ يعبر عن التّنظيم الرّسميّ الذي تتحدد من خلاله الوظائف والمهام والوحدات والأقسام، ويكون التّنظيم بدمج هذه الوظائف وهذه الوحدات في إطار تحقيق الهدف الإنتاجيّ.

ويلحظ التّنظيم الرّسميّ تقسيم العمل، وإكساب المهارات، وتحديد المسؤوليات والأهداف، فضلاً عن اهتمامه بتحديد المشكلات الإنتاجية والعمل على حلّها.

وتعبّر قنوات الاتّصال غير الرّسميّة عن العلاقة الطّبيعية التي تنشأ بين العاملين، وذلك بعيداً من أي تأثير أو تخطيط مسبق من قبل الإدارة، إنما يكون التّنظيم فيها مبنياً على التّواصل التلقائيّ الذي يحدث بين مرتكزات المنشأة. وعادة ما يكون عمال المنشأة في هذه الحالة أكثر اتجاهاً نحو تحقيق إشباع ذاتي على مستوى حاجاتهم الإنسانيّة من تحقيق هدف المنشأة، هذا إن كان للمنشأة في حال غياب التّخطيط من أهداف موضوعة.

وبشكل غير مخطط، تتكون علاقات اجتماعيّة وروابط بين أفراد التّنظيم تكون خارجة عن الغايات التنظيميّة، إذ غالباً ما تظهر علاقات غير رسمية بين العاملين، تؤثر في مواقفهم وأنشطتهم، ويقدر ما تتوافق أهداف التّنظيم مع أهداف الجماعات والأفراد، بقدر ما تتأثر العلاقات غير الرّسميّة بذلك، فتدفع إما باتجاه السّلبية أو باتجاه الإيجابية، وذلك بحسب مستوى التّوافق.

وقد يدفع إلى تشكل العلاقات غير

(١) المصدر نفسه، صفحة ٩٤.

الرّسمي، فإنّه بذلك تتجه المنشأة نحو الصّراع والعلاقات المتوترة التي من شأنها خلخلة مسار المنشأة الإنتاجي. ولكن يُشير واقع المنشآت موضوع الدّرس إلى استقرار واضح وملحوظ، وذلك على الرغم من وجود علاقات قوية بين العمال، فإن هذا الاستقرار إنما يعود إلى ظروف الواقع التّشغيلي في لبنان، لأنّ قلة الفرص وشبه غياب الخيارات، يدفعان العامل إلى إظهار السّكون والاستقرار مع عدم قناعته بعمله وعدم رضاه عن نتائج هذا العمل وارتباطه بزملائه بعلاقات غير رسميّة ومتينة، ويظهر الجدول التالي معطيات الأجر، وعلى الرّغم من تدنيه، فإنّ العمال راضون به:

الجدول رقم (١): قيمة الأجر الشهري الذي يتقاضاه العمال الصناعيون في المنشآت الصناعيّة

النسبة	التكرار	قيمة الأجر الشهري
٥٥%	٥٥	٦٧٥٠٠٠ وما دون
٣١%	٣١	٨٠٠,٠٠٠-١٢٠٠,٠٠٠
١٣%	١٣	١٦٠٠,٠٠٠-١٢٠٠,٠٠٠
١%	١	٢٢٥٠,٠٠٠-١٦٠٠,٠٠٠
١٠٠%	١٠٠	المجموع

تشير معطيات الجدول رقم (١) إلى أن أكثر من نصف العمال الصناعيين في جميع المنشآت إنما يتقاضون مبالغاً لا تتعدى

الرّسميّة بين أفراد التّنظيم الأجر المتدني أو المعاملة السيئة داخل بيئة العمل، أو الحاجة إلى الأمن والاستقرار والحاجة إلى تأكيد الذات وتحقيق الثقة، وغير ذلك من الدوافع التي تعزز التّنظيم غير الرّسمي داخل المنشأة الصناعيّة، ويمكن أن تُميز الجماعات غير الرّسميّة في التّنظيم من خلال ملاحظة علاقة وثيقة بين بعض العمال، أو من خلال جماعات ثانويّة تضم عددًا لا يتجاوز خمسة أفراد يرتبطون بعلاقات ظاهرة وقويّة.

تتألف هذه الجماعات في المنشأة الصناعيّة اللّبنانيّة من خلال وعي العمال لحاجاتهم ووعيهم واقعهم ومعرفتهم بقضايا بعضهم البعض، إذ «يشترك جميع أفراد النّوع البشري في الحاجة إلى الاستجابة العاطفيّة، ويسعى الفرد إلى الانتماء إلى الجماعة لأنّه اجتماعي... أو الحاجة إلى الشّعور بأنّ البيئة الاجتماعيّة بيئة صديقة، أو الحاجة إلى تحصيل مكانة مرتفعة داخل الجماعة»^(١).

هكذا، يستجيب الأفراد لبعضهم البعض، فيتشكلون في جماعات، وينتظمون في علاقات تكون قائمة على هموم وقضايا مشتركة، وإذا ما تضاربت أهداف التّنظيم الرّسمي مع طموحات أفراد التّنظيم غير

(١) سليم نعامة: علم الاجتماع الصناعي التحليلي، مطبعة عكرمة، دمشق ١٩٨٩، صفحة ٢٢.

الحد الأدنى للأجر (٦٧٥,٠٠٠ ل.ل)، فبلغت النسبة ٥٥٪، الأمر الذي يشير إلى ضعف المردود المادي على القوى العاملة، فالحد الأدنى للأجر لا يمكن من الحصول على مستوى معيشي جيد، فهو بالكاد يغطي كلفة الطعام والشراب لشخص أو شخصين، ما يدفع إلى دراسة أسباب اختيار العمل والبقاء فيه.

يتأثر التّظيم بشخصية وسلوك أصحاب العمل وبأهدافهم الإنتاجية، فقد يكون سبباً لتحقيق الأهداف، لأن أهداف أرباب العمل غالباً ما تكون ربحية، وهي بالأصل كذلك، وإلا لما كانت المنشأة، فإن أرباب العمل يسعون وباستمرار إلى شخصنة المنشأة وجعلها قيد تصوراتهم الخاصة بتحقيق الهدف.

وقد أكدت معطيات الجدول رقم (١) الخاص بالأجر هذا التوجه، لأنّ الأجور لم تتجاوز الحد الأدنى، فهي نتاج نمط سلوكي خاص بأرباب العمل يؤمن لهم مزيداً من الأرباح.

هذا، ولم يسع أرباب العمل إلى تطوير نمط سلوكهم الإنتاجي، الذي من شأنه تطوير الإنتاجية، ومن ثمّ الربحية، فلم يعمد أرباب العمل إلى تمكين القوى العاملة، لا لجهة الأجور ولا لجهة التدريب وإكساب المهارات (بحسب معطيات المقابلات) وإعطاء مزيد من الحرية، ذلك أن إعطاء مزيد

من الحرية والاستقلالية لعمال المنشأة من شأنه تفويض سلطة أرباب العمل، وهكذا تتضارب الأهداف، فهل يفضل أرباب العمل تقليص سلطتهم على حساب مزيد من الربحية؟ أو يفضلون تمكين سلطتهم وتطويرها مع الحفاظ على مستوى أرباح محدد؟؟

تدفع هذه التساؤلات إلى وضع الفرضية التالية: إن شخصنة المنشأة من خلال فرض القانون الخاص لربّ العمل يحول دون تطوير (الإدارة التشاركية والتمكين) المنشأة ومن دون زيادة الأرباح. فأرباب العمل إنّما يسعون إلى تمكين سلطتهم أكثر من سعيهم إلى تطوير المنشأة ككيان متفاعل ومنتج وأكثر ربحية. إن شخصنة المنشأة تكون في جعلها قيد نمطية سلوكية تنظيمية، يكون فيها رب العمل الأول والأخير، فهو الأمر النهائي، وإليه ترجع مختلف شؤون المنشأة، فيراقب ويوجّه ويصدر تعليماته بشكل يتناسب مع أهدافه السلطوية والربحية.

وبالنسبة إلى الشخصنة، يرى المختصون في علم النفس «أنّ شخصنة الأمور لا تعود بالنفع على صاحبها، وتعرّف على أنّها الحكم على الآخرين أو على أفكارهم، ووجهات نظرهم وتصرفاتهم، من منطلق شخصي أو رؤية شخصية، وتعدّ هروباً من المناقشة وتقديم

الحجج، حيث لا تلقى رواجاً إلا لدى الأشخاص المصابين بحب التعالي. وتعتبر الشّخصنة مظهرًا من مظاهر السلبية، ونمطًا ثقافيًا تقابله الحيادية، أحدثته التغيرات المتواصلة والعميقة في المفاهيم والنظريات، ومن مساوئ الشّخصنة أنها تؤدي إلى نسف جهود الموهوبين والطّامحين وتقودهم إلى الإحباط، وتؤدي إلى عدم تحرير الأفكار من قيود الجهل والتّخلف»^(١).

الجدول رقم (٢): وجود شكلاً تنظيمياً يسمح بممارسة العمال مهامهم بشكل مستقل عن الإدارة

وجود تنظيم أو عدمه	التكرار	النسبة	النسبة
وجود شكّل تنظيمي يسمح للعمال العمل بحرية	٢٥	%٥٠	%٥٤
وجود شكّل تنظيمي لا يسمح للعمال العمل بحرية	١٠	%٢٠	-
عدم وجود أي شكل تنظيمي يحدد المهام	١٥	%٣٠	%٤٦
المجموع	٥٠	%١٠٠	%١٠٠

تشير معطيات الجدول رقم (٢) إلى تصريح أرباب العمل الإيجابي بنسبة ٥٠٪

في كل من المنشآت الصناعيّة، وذلك للإفادة عن وجود شكل تنظيمي يسمح للقوى العاملة القيام بمهامها بشكل مستقل عن الإدارة. إلا أن تصريح أرباب العمل، جاء ليعبر عن وجود نمط محدد يسمح أو لا يسمح بالاستقلالية، الأمر الذي يشير إلى أن الإجابة لم تكن لتعبر عن نتاج العلاقات الاجتماعية داخل المنشأة، إنما عن إرادة أرباب العمل في ذلك، فهم يسمحون أو لا يسمحون وذلك في معرض الأمر والنهي، في حين أن أي من أشكال التّنظيم داخل المنشأة إنما يكون نتاج العلاقات التي تنشأ بين القائمين على العمل جراء العملية التشاركية الهادفة إلى إنتاج يمكن المنشأة ككل. لذا، فإنّ إجابات أرباب العمل التي جاءت منقسمة بشكل متساو، ما بين السماح من جهة وعدم السماح وانعدام أشكال تنظيمية من جهة أخرى، إنما جاءت لتؤكد شخصنة شؤون المنشأة، وتركزها في دائرة أهداف وتطلعات أرباب العمل تلك التي ظهرت ما بين السلطوية والربحية.

لقد تبين من خلال تحليل معطيات الجدول رقم (٢) وجود نوع من الحرية ونوع من التسلط وآخر من التسيب، إذ يفهم من إجابات أرباب العمل وجود تنظيم يسمح بالعمل بشكل مستقل عن الإدارة.

فذلك يؤكد شخصنة المنشأة أي أنه يؤكد فرضية اتجاه ربّ العمل إلى تمكين سلطته، وإن كان ذلك يمنع من التطوير وزيادة الأرباح. ومن خلال الحالات الثلاث نستدل على أنّ مفهوم الشخصنة إنّما هو سمة سلوك أرباب عمل المنشآت الصناعيّة اللبنانيّة عامة والجنوبية خاصة. فالشخصنة تقوم على فرض علاقات وأنشطة وسلوكات ترجع بشكل رئيسي إلى مزاج أرباب العمل وكيفية تحديدهم لمسار المنشأة من خلال أهدافهم الإنتاجيّة والرّبحيّة.

ولا يمكن الفصل بين أرباب العمل أو أصحاب العمل أو الإدارة، حيث في المجتمع الرأسمالي «يكون فيه مالكو وسائل الإنتاج هم [مديروه] في آن واحد»^(١). لذا يقصد بأرباب العمل كلّ من الإدارة وأصحاب العمل أو الملاك.

وقد عدّ أوجيست كونت أن التّنظيم الذي ينشأ تلقائيًا يكون قويًا، حين قرر «أنّ التّنظيم الذي يظهر تلقائيًا يفوق دائماً الذي تقيمه الجهود الإنسانيّة عن طريق التخطيط والتدبير»^(٢)، ليس من الصّحة الحكم على مثل هذا التّنظيم بأنه قوي، فهو قد يكون قويًا ولكن غير فعال، وذلك بحسب البيئة التي يتولّد فيها، ففي بيئة تتوفر فيها

وكذلك يفهم من إجابات أرباب العمل وجود تنظيم لا يسمح بالعمل المستقل، في حين يفهم من إجابات أرباب العمل الخاصة بعدم وجود تنظيم في الأصل، أن هناك نوعًا من التّسيب داخل المنشأة، لكن من خلال تحليل هذه الأنواع من الإجابات نجد أن أرباب العمل يسيطرون بشكل مطلق على آليات الإدارة وشؤون العمل، فالإقرار بوجود تنظيم يسمح، أو بوجود تنظيم لا يسمح، أو بعدم وجود هذا التّنظيم في الأصل، يدلّ على تركيز آليات الإدارة بيد أرباب العمل، كما يدلّ على أنّ هذا التّنظيم إن وجد، فإنّه أشبه بنظام داخليّ للعمل يتضمن تحديد سلوكات العمال، وهو ليس تنظيمًا ناشئًا عن التفاعل داخل المنشأة بين مرتكزاتها المختلفة من أرباب عمل وقوى عاملة. فأرباب العمل بعد تحديدهم لأهدافهم يسعون إلى تقسيم العمل داخل المنشأة، تارة يسمحون بالاستقلالية في أداء المهام، وتارة لا يسمحون، واستدراكًا يجد البعض منهم أنه لا يوجد أي تنظيم يحكم بيئة العمل إنّما يتابعون بأنفسهم مختلف شؤون المنشأة بشكل مباشر. وهنا يجد أرباب العمل أنه لا داعي لوجود أي نوع من التّنظيمات في ظل مباشرتهم شؤون العمل،

(١) ريمون آرون: صراع الطبقات، ترجمة عبد الحميد الكاتب، سلسلة زدني علمًا، منشورات عويدات، بيروت ١٩٨٣، صفحة ٢٣٤.

(٢) علي عبد الرزاق جليبي: علم الاجتماع الصناعي، دار المعرفة الجامعية، مصر ١٩٩٦، صفحة ١٣٤.

الخيارات يكون فعالاً، ولا يكون كذلك في بيئة لا تتوفر فيها خيارات تشغيلية، حيث سلطة رب العمل والأهداف الربحية. ولكن مع وجود الإدارة الحديثة ووجود خطط وأهداف ترسم المسار الإنتاجي، فلا بد عندها من تكوّن تنظيم اجتماعي حديث يكون أكثر قوّة في تحقيق الأهداف الموضوعية، ذلك أنه يتمتع بالمرونة المطلوبة والضرورية التي تتماشى مع الحداثة والتطوير في وضع سياسة المنشأة الاقتصادية والاجتماعية.

وقد رأى ماكس فيبر أن البناء الاجتماعي للمصنع، إنّما يعود بشكل كبير إلى التنظيم الرسمي للمصنع أو إلى البيروقراطية. وقد أجمعت الدراسات التي تناولت أعمال ماكس فيبر السوسولوجية على «أنّ نماذج السلطة والبيروقراطية عنده تحتلّ مكانة لا نظير لها»^(١).

ورأى فيبر أنّ السّمة الأساسية للبناء الاجتماعي داخل المنشأة تكمن في «التّمايز الداخلي للأدوار وللسلطة. فيفرق بين أولئك الذين يحملون المسؤولية ويقبضون على زمام السلطة، أو بين رئيس يتمتع بالسلطة العليا، وبين الأفراد الذين على الرغم من كونهم تحت إشراف الرئيس إلا أنّهم يمارسون سلطة على الأعضاء الآخرين في

الوقت نفسه، هؤلاء الأفراد يكونون الهيئة الإدارية»^(٢).

لكن الواقع داخل المنشأة الصناعية اللبنانية هو خلاف ذلك، فالمنشأة تخضع لسيطرة أرباب العمل بشكل مطلق، ولا يوجد هناك من سلطة موكلة إلى القوى العاملة، إذ يقوم أرباب العمل بإصدار التوجيهات والإرشادات الموجبة وعلى العمال التقيّد بها.

١ - مظاهر التّنظيم

للتّنظيم عدّة مظاهر، فهو انعكاس لإرادة القيادة، ويتشكّل من سلوكيات وأعمال تسعى إلى تحقيق هدف واحد أو عدة أهداف، وأيضاً يرتبط التّنظيم مع الجماعة الاجتماعية بعلاقة وجودية، فكلاهما يدل على وجود الآخر، كذلك يتمظهر التّنظيم عبر أساليب الاتّصال. لذا، سنعرض بعضاً من مظاهر التّنظيم داخل المنشأة.

أ - القيادة

تعد القيادة أحد أهم مظاهر التّنظيم، إذ يناط بها التخطيط والمراقبة وتقييم الأنشطة الصناعية المختلفة، ولا يمكن فصل القيادة عن السلطة، فأرباب العمل في المنشآت الصناعية اللبنانية يقومون بأدوار عدة تتلخص بالقيادة والسلطة، فهم

(١) المصدر نفسه، صفحة ٢٤٢.

(٢) المصدر نفسه، صفحة ٢٤٤.

تؤكد معطيات الجدول رقم (٣) تركّز السّلطة والإدارة بيد أصحاب العمل، الأمر الذي يحول دون استقلالية العمال في أدائهم مهامهم، وجعلهم رهينة إرادة ومزاج أرباب العمل، وهو ما يؤشر مجدداً إلى شخصنة المنشأة وإلى نمط السيطرة الذي يحكم مسار المنشأة الاقتصادي والاجتماعي.

يخططون ويراقبون ويوجهون ويمارسون مهام التوظيف والصراف ويحددون الأجور وكل ذلك في سبيل تحقيق الأهداف المرتبطة بالاستثمار الصناعي، وذلك ما سيظهر في معطيات الجدول التالي.

الجدول رقم (٣): وجود توجيهات مباشرة من قبل أرباب العمل وكيف يؤدي العمال مهامهم؟

النسبة		وجود توجيهات مباشرة		كيف يؤدي العمال مهامهم
لا	نعم	لا	نعم	
٪١٨	٪٧٢	٩	٣٦	كلّ حسب البرنامج المعد له
٪١٠		٥		يقوم كل عامل بما يراه مناسباً
٪٢٨	٪٧٢	١٤	٣٦	المجموع
٪١٠٠		٥٠		

هكذا، تتأكد مرة ثانية فرضية البحث، إذ إن أرباب العمل إنما يفضلون تمكين سلطتهم أكثر من سعيهم إلى تمكين المنشأة ككل، أي إنهم يهتمون بتوطيد قيادتهم للمنشأة ككيان يتفاعل في سبيل تحقيق الأهداف.

وللقيادة أشكال عدة، تتلخص بأربعة أنماط: ١ - القيادة الدكتاتورية، ٢ - الأتوقراطية، ٣ - الديمقراطية، ٤ - الفوضوية. فالقيادة الدكتاتورية تلك التي تفرض نظام عقوبات يمارس على العمال عند الخطأ، فيمثل العمال عندها بالإرشادات خوفاً من العقاب، وليس قناعةً

تشير معطيات الجدول رقم (٣) إلى اهتمام أرباب العمل في المنشآت الصناعية بإصدار توجيهات مباشرة، الأمر الذي يشير إلى تمسكهم بالسّلطة، والتحكم داخل المنشأة. وقد مثّلت نسبة وجود توجيهات ٪٧٢، وهي نسبة عالية تدل على تمسك أرباب العمل بآليات السيطرة والتحكم على مسار العمل داخل المنشأة، فضلاً عن تصريح أرباب العمل بأنّ بعض العمال يقومون بعملهم بناءً على خطة مسبقة أعدت لهم، الأمر الذي يوحي ويؤشر إلى سلطة شبه مطلقة يمارسها أرباب العمل داخل المنشأة.

بصوابية هذه الإرشادات. أما القيادة الأتوقراطية فهي التي تؤشر إلى تركز السلطة والإدارة بشخص رب العمل، إذ يمتاز رب العمل بشخصية قوية تفرض نفسها على المنشأة بكافة مرتكزاتها، فيكون رب العمل هو الأمر والنهي، ولا يستطيع أحد من معارضته خوفاً من الصرف التعسفي. أما القيادة الديمقراطية فهي التي تقوم على عدم تركز السلطة والقرار بشخص رب العمل، إذ تتوزع الأدوار والمراكز ويتمتع جميع القائمين بالعمل بسلطة معينة لا تتعارض مع سلطة أخرى، لتخدم مجموع السلطات مصلحة المنشأة ككل. أما القيادة الفوضوية فإنها تقوم على الحرية المطلقة لجميع مرتكزات المنشأة، فيحدد العمال مهامهم وكيفية تنفيذها بمنأى عن الإدارة، الأمر الذي يؤدي إلى فوضى إنتاجية قد تسهم في تحقيق الخسارة، وبعد عرض أشكال القيادة الأربعة نجد أن المنشآت الصناعيّة اللبنانيّة تنتمي في الغالب إلى قيادة اتوقراطية، وذلك بحسب معطيات الجدول رقم (٣).

والواقع أن القيادة بمختلف أشكالها لا تكون مجردة أو أنها وليدة المنظومة الفكرية لأرباب العمل، إنما تكون انعكاساً للنظام العام وللبيئة الثقافيّة. ففي المجتمع الرأسماليّ الذي يتيح الحرية الاستثمارية،

ويحمي حركة المستثمرين، تجد الشخصية الدكتاتورية والأتوقراطية مكاناً لها في القطاعات الاقتصادية. ففي بلد مثل لبنان، يتمتع بليبرالية استثمارية منفلتة وبحماية المبادرة الفردية وتشجيعها من خلال قوانين نافذة، فضلاً عن تعثر الحراك المطليّ والعمل النقابيّ وقصور المؤسسات الرّسمية عن المراقبة يكون الاستثمار في القطاع الخاص بإيجابياته وسلبياته ملقى على عاتق القائمين به، فلا تتدخل الدولة بشؤون المنشأة ولا تراقب سير العمل ولا تحمي العمال بقوانين خاصة. فرب العمل هو الأول والأخر يمارس قانونه الخاص داخل المنشأة ولا يمكن للعمال معارضته، فهو بحسب قانون العمل اللبنانيّ صاحب السلطة المطلقة، إذ شرح أن «المؤسسة مجموعة عقود عمل فردية مبرمة بين صاحبها وكل فرد من أجزائها (قد يكون العقد شفويّاً)، للأول السلطة المطلقة يرسم سياستها العامة المبنية على حق ملكيته لها، يختار من أراد من الأجراء، ينظم عملهم في حدود نظامها الداخلي الذي انفرد في وضعه بالطريقة التي يراها الأنسب لمصلحته الاقتصادية، يراقب ويعاقب من يخالف إرادته، لا حدود لسلطته المطلقة هذه سوى الأحكام

الأمرة المنصوص عليها في قانون العمل^(١). هكذا، تكون القيادة الأتوقراطية مقبولة بحسب قانون العمل اللبناني.

ب - الجماعة

لا يكون التّنينظيم الاجتماعي للعمل على مستوى الفرد، إنما يكون التّنينظيم في جماعات العمل، وتعد الجماعة وحدة كيانية يتولد من خلالها التّنينظيم، «فالتّنينظيم الاجتماعي يصبح حقيقة واقعة عندما توجد الجماعة الاجتماعية أو الرابطة، إذ إن الأفراد الذين ينضمون إلى عضوية هذه الجماعة يدركون بوضوح أن عليهم أن يقوموا بأداء أفعال معينة، وبصورة منظمة، من أجل تحقيق هدف مشترك. ويلاحظ أنه ليس من الضروري أن يتساوى كل هؤلاء الأعضاء في مدى فاعلية أداء الأدوار. كما أن الهدف المشترك الذي تتجه إليه الأفعال المنظمة قد يكون بسيطاً أو معقداً»^(٢).

وعليه، فإن سلوك الأفراد داخل بيئة العمل، إنما يكون مركباً ولا يتبع أمزجة وقناعات العمال منفردين. فالعامل يتصرف في المنشأة انطلاقاً من منظومة خاصة تحدد الأدوار والمراكز، بشكل يجعل سلوكه

مؤاتياً لأهداف المنشأة الإنتاجية والربحية، وبذلك يأتي السلوك جزءاً مكملاً لمجموعة سلوكيات تؤلف التّنينظيم الاجتماعي للعمل.

وعندما نتحدث عن الجماعة الاجتماعية أو جماعة التّنينظيم، فإننا لا نلحظ القيادة كوحدة منفصلة في التّنينظيم، إنما يكون الجميع في بوتقة واحدة، وهذه البوتقة لا تؤشر إلى طبيعة القيادة ونوعها، إلا أننا عندما ندرس الأدوار والمراكز داخل جماعة العمل، يبرز حينها دور القائد ومركزه، بوصفه مظهرًا من مظاهر التّنينظيم.

وقد عبّر رالف دافيز بقوله «إن نمو البناء التّنينظيمي هو في الواقع أمر يتصل بتوزيع المسؤولية، وذلك بدوره يثير مشكلتين مهمتين: الأولى تكامل الوظائف المكوّنة لوحدات التّنينظيم على نحو يسمح بوجود تعاون تام، والأخرى تحديد العلاقات بين الجماعات الوظيفية بصورة تظهر معها القيادة الرئاسية الفعالة»^(٣).

وعليه، يكون دور القيادة مهماً في ذلك، من خلال وضع التّنينظيم الرّسمي الذي يحدد الوظائف والمهام، ويحدد العلاقات بين مختلف الأقسام، وهذا ما تعوزه

(١) القاضي محمد علي الشخبي: المفهوم الحديث للمؤسسة وانعكاساته في مشروع قانون عمل جديد، أبحاث الندوة القانونية المتخصصة، منشورات فريدريش آيبرت في بيروت، بيروت ١٩٩١، صفحة ١٦.

(٢) محمد علي محمد: مجتمع المصنع، صفحة ١٠٠.

(٣) المصدر نفسه، صفحة ١٥١.

المنشآت الصناعيّة اللبنانيّة، لا سيما تلك الواقعة في جنوب لبنان.

يبرز التّنظيم الاجتماعيّ للعمل في المنشأة الصناعيّة الجنوبية على شكل علاقات تلقائيّة غير رسمية، تفرضها طبيعة العمل الجماعيّ لتحقيق هدف محدد. وقد يعود ذلك إلى صغر المنشأة الصناعيّة الجنوبية، فالتّنظيم الاجتماعيّ للعمل الذي يتخذ طابعاً رسمياً قائماً على التخطيط والتوجيه، إنما يكون في المنشآت الصناعيّة الكبرى ذات الأعداد العمالية الكبيرة، فالعدد يفرض تنظيمًا مخططاً له، فضلاً عن الأهداف الموضوعية للمنشأة، وهو أمر يفترض ظهوره في المنشآت الصناعيّة الكائنة في جبل لبنان، إذ تتركز أغلبية المنشآت الصناعيّة الكبيرة، وذلك بحسب الجدول التالي:

الجدول رقم (٤): التوزيع الجغرافي للمنشآت الصناعيّة اللبنانيّة بحسب مسح عام ٢٠٠٧

تشير معطيات الجدول رقم (٤) إلى صغر حجم المنشأة الصناعيّة في الجنوب اللبنانيّ، الأمر الذي يجعل من إدارتها حكراً لمزاج وخطط وتنظيم رب العمل، وبذلك يكون كل شيء على عاتق رب العمل، ويكون التّنظيم الاجتماعيّ بين العاملين على شكل علاقات تلقائيّة غير معلنة.

فالعلاقات الاجتماعيّة الخاصة ببيئة العمل تعبّر عن وجود التّنظيم وعن المسؤوليات الملقاة على عاتق كل فرد من أفرادها، ولا يكون التّنظيم إلا من خلالها، فالجماعة باختصار عبارة عن أفراد يقومون بسلوكات مختلفة تسعى إلى تحقيق هدف واحد، فينبني من خلال هذه السلوكات التّنظيم الاجتماعيّ للعمل.

ومن الأهمية بمكان، معرفة عدد الأنشطة والمهام التي يقوم بها العمال داخل المنشأة. لذا نعرض الجدول التالي لتبيان ذلك.

المحافظة	بيروت	جبل لبنان	شمال لبنان	البقاع	جنوب لبنان	النبطية	المجموع
عدد المنشآت	٢٣٩	٢٠١٠	٥١٨	٧٤٤	٤٢٠	١٠٢	٤٠٣٣
النسبة/من المجموع	%٥,٩	%٤٩,٨	%١٢,٨	%١٨,٤	%١٠,٤	%٢,٥	%١٠٠
متوسط عدد العمال في المنشأة	١٩	٢٥	١٧	١٨	١٢	١٢	٢١ عامل ٨٢٨٤٣ = ٢١ ٤٠٣٣

المصدر: www.industry.gov.lb

الجدول رقم (٥): عدد الأنشطة التي يقوم بها عمال المنشآت الصناعيّة

عدد الأنشطة	التكرار	النسبة
١	٩٤	%٩٤
٢	٥	%٥
٣	١	%١
المجموع	١٠٠	%١٠٠

تظهر معطيات الجدول رقم (٥)، أن غالبية عمال المنشآت الصناعيّة، إنّما يقومون بنشاط واحد، وهو دليل على امتهان كل عامل للدور الذي يقوم به وعليه ينعكس ذلك على التّنظيم داخل المنشأة، فيصبح أكثر وضوحًا وأقل تعقيدًا. فالعامل منشغل بنشاط واحد ويرتبط مع غيره بحدود هذا النشاط، مما يجعل من العلاقات والتّنظيم داخل المنشأة أكثر انسيابيّة وأقل توترًا. وهكذا تكون المسؤوليات الملقاة على عاتق العمال أقل خطورة، لذا ترسم صورة التّنظيم داخل المنشأة بشكل أوضح مما يكون عليه حين يقوم العامل بأكثر من نشاط وأكثر من مهمة.

تؤشّر معطيات الجدول رقم (٥) إلى وضوح الجماعة الاجتماعيّة للعمل، فهي مجموعة من عمال وأرباب عمل يقومون بمهام وأنشطة محددة، ينتظمون بتلقائيّة منسجمة مع الواقع ومع طبيعة الأدوار التي يقومون بها، يتفاعلون داخل العمل لتحقيق

الأهداف التي يحددها أرباب العمل، ويشكلون جزءًا تفاعلهم هذا التّنظيم الاجتماعيّ للعمل في المنشآت الصناعيّة اللبّانيّة.

ج - الاتّصال

يعد الاتّصال مظهرًا من مظاهر التّنظيم الاجتماعيّ للعمل، فهو من مقومات الأنشطة التعاونية بين العمال أنفسهم وبين العمال وأرباب العمل، فالاتّصال وسيلة البناء التّنظيمي لتحقيق التكامل بين مختلف أجزاء المنشأة وأقسامها، ناهيك عن كونه الأداة التي يتم عبرها إرسال الإرشادات والتوجيهات من القيادة إلى عمالها، ويدلّ مدى التقيد بهذه الإرشادات وهذه التوجيهات على التفاعل داخل المنشأة، فضلاً عن الأجواء التشاركية الجامعة ما بين المرسل والمرسل إليه.

فالاستجابة السريعة من قبّل المرسل إليه تؤكد صحة الاتّصال، وما يتضمّن من توجيهات، وتكون دالة على أخلاقيات المتلقين. تكون أخلاقيات العمل من خلال بيئة عماليّة متصالحة مع نفسها ومع أهدافها، وواعية في إدارة شؤونها، ومراعية لأدوار ومراكز كل القائمين بالعمل.

ويعتمد الاتّصال على اللّغة كوسيلة رئيسة تعبّر عن إرادة القيادة في فعل ما

اختلاف منطق الاتّصال بين كل من القيادة والعمال، فضلاً عن اختلاف العمال أنفسهم بعضهم عن بعض، فالقيادة الواعية تدرك واقع العمال، وتعرف مدى اختلافهم وكيف تتم إدارة هذا الاختلاف لمصلحة المنشأة والأهداف الإنتاجية.

ولا يكون الاتّصال المكتوب أكثر قدرة على إيفاء الغرض من الاتّصال الكلامي المباشر، إذ تتطلب الكتابة أسلوباً يراعي مستوى كل عامل. لذا يكون للاتّصال الكلامي أكثر وقعاً وتأثيراً في بيئة العمل.

ويعبر الاتّصال عن نوع القيادة وأخلاقيات أرباب العمل، فالاتّصال المتوتر يشير إلى العلاقات المتوترة داخل المنشأة، والاتّصال الهادئ يشير إلى قيادة مستقرة منسجمة مع بيئة العمل.

وبما أن الاتّصال وسيلة تحقق التفاعل داخل المنشأة، وبما أنه أداة لنقل المعلومات والخبرات والتوجيهات، فضلاً عن المشاعر الإنسانية، سنعرض الجدول التالي لمعرفة أجواء المنشأة ومدى درجة الاستقرار أو التوتر داخلها.

تراه يناسب الهدف الإنتاجي، وقد تكون وسيلة الاتّصال خطة موضوعة تحدد المهام وطرق تنفيذها، لكن طوارئ العمل تستدعي التدخل المباشر والاتّصال السريع، فيكون الاتّصال حينها بين مرسل ومرسل إليه.

يُظهر الاتّصال بين القيادة والعمال مستويات مختلفة من التفكير والوعي، إذ نجد عمالاً مهرة وعمالاً أقل مهارة وعمالاً متخصصين. ويكون الاتّصال قائماً على منطق القيادة في تحديد مصالحها وأهدافها، إذ تتصل القيادة بعمالها بشكل يراعي مستوى تلقي كل عامل، فهي لا يهتمها هذا المستوى، إنّما تسعى إلى جعل المتلقي واعياً لما تريد. لذا، تتباين مستويات الاتّصال داخل المنشأة، فلكل عامل لغة وطريقة معينة في التلقي، وهذا لا يكون إلا لدى قيادة كانت قد خبرت عمالها ودرست أحوالهم كل على حدة «فالإدارة في تنظيمات العمل تستعين بأساليب للاتّصال تتسق مع منطق الكفاية، بينما يسعى العمال إلى الاتّصال بالإدارة من خلال منطق مختلف، يستخدم لغة العواطف والمشاعر الاجتماعية»^(١). هذا ما صرّح به روثلسبرجر بعد دراساته التي أكدت

(١) محمد علي محمد: مجتمع المصنع، صفحة ١٣٨.

الجدول رقم (٦): إشراف أرباب العمل على عمليات الإنتاج والتصريف ولماذا؟

لماذا	الإشراف		النسبة	
	نعم	لا	نعم	لا
للدقة والتنظيم	٤٥	٥	٩٠٪	١٠٪
لا أثق بأحد	-	-	-	-
المجموع	٤٥	٥	٩٠٪	١٠٪
	٥٠		١٠٠٪	

من العمال خارج المنشأة. فالعمال داخل المنشأة لا يعبرون عن رفض أو عدم استجابة أو عدم تقيد بتوجيهات القيادة، بل كانوا يصرحون عن رفضهم لذلك خارج حدود المنشأة، وذلك من خلال عدد من المقابلات التي تمت معهم في منازلهم، فهم يُظهرون الطاعة داخل العمل ويعبرون عن سخطهم ورفضهم لذلك في بيئتهم الخاصة. ويمكن تفسير ذلك من خلال خوفهم من إحداث توتر وصراع داخل العمل مع رؤسائهم أو زملائهم، مخافة فقدانهم العمل أو صرفهم بشكل تعسفي، فالعمال بذلك جماعة واعية لواقعها الوظيفي، منتظرة الفرصة الأفضل لتغيير هذا الواقع.

الحصيلة المعرفية

يتلخّص تعريف التنظيم بأنه تنسيق شامل لجميع عناصر بنية الفعل الاجتماعي، وقد شمل هذا التنظيم البنية الثقافية والقيمية اللتين تحيطان بالسلوك الفردي أو الجماعي.

وبما أنّ التنظيم لا يكون إلا نتاجاً لسلوكات الجماعة، فإنه يؤسس لكيان متميز ومستقل يختص بجماعة محددة تنضوي في بيئة محددة أيضاً.

لقد ظهر التنظيم في المنشآت الصناعية اللبنانية كأداة بيد الإدارة وأرباب العمل، إذ يتم توجيه هذه الأداة لتحقيق الأهداف

بعد معطيات الجدول رقم (٣) الخاص بوجود توجيهات مباشرة، يُبين الجدول رقم (٦) توجه أرباب العمل إلى الإحكام على كامل مرتكزات وشؤون المنشأة، إذ أظهرت معطيات الجدول اعتماد أكثر من (٩٠٪) من أرباب العمل على الإشراف المباشر والقائم على الاتصال المباشر مع العمال، فالدقة والتنظيم قد استحوذاً على قدر كبير من الاهتمام لدى أرباب العمل، ما يُشير وبشكل واضح إلى شخصنة المنشأة والإحكام على شؤونها بشكل شبه كلي وذلك حفاظاً منهم على الدقة في العمل والتنظيم القائم على قوانينهم وإرشاداتهم.

تبين مظاهر الاتصال داخل المنشأة الصناعية اللبنانية أخلاقيات أرباب العمل التي تعبّر عن التشدد في شؤون العمال، وعدم إتاحة الفرصة أمامهم للتعبير عن وجودهم الفاعل وآرائهم في شؤون عملهم، وهو الأمر الذي تمت ملاحظته لدى كثير

ويقومون بالاتّصال المباشر مع العمال، وبالتالي يؤثرون بشكل مباشر بالجماعة الاجتماعيّة للعمل، الأمر الذي يؤكد شخصنة المنشأة الصنّاعيّة اللّبنانيّة، وإن كان ذلك يضع حدوداً للربحية.

لائحة المصادر

- ١ - بلقاسم سلاطينيه وآخرون: علم الاجتماع الإعلامي، دار الفجر للنشر والتوزيع، مصر ٢٠١٢.
- ٢ - ريمون آرون: صراع الطبقات، ترجمة عبد الحميد الكاتب، سلسلة زدني علمًا، منشورات عويدات، بيروت ١٩٨٣.
- ٣ - سليم نعام: علم الاجتماع الصناعي التحليلي، مطبعة عكرمة، دمشق ١٩٨٩.
- ٤ - علي عبد الرزاق جليبي: علم الاجتماع الصناعي، دار المعرفة الجامعية، مصر ١٩٩٦.
- ٥ - غي روشيه: مقدمة في علم الاجتماع العام - ٢ - التنظيم الاجتماعيّ، تعريب مصطفى دندشلي، مكتبة الفقيه، بيروت ٢٠٠٢.
- ٦ - القاضي محمد علي الشخبي: المفهوم الحديث للمؤسسة وانعكاساته في مشروع قانون عمل جديد، أبحاث الندوة القانونية المتخصصة، منشورات فريدريش ايرت في بيروت، بيروت ١٩٩١.
- ٧ - محمد علي محمد: مجتمع المصنع، دراسة في علم اجتماع التنظيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالاسكندرية، مصر ١٩٧٣.

المواقع الإلكترونيّة

1 - www.mawdoo3.com

2 - www.industry.gov.lb

الربحيّة الخاصة بأصحاب المنشآت من دون تمكين العمال وحصولهم على الضمانات المكتسبة.

وقد سعى أرباب العمل إلى تمكين سلطتهم على حساب بناء منشأة تعبر عن الكيان الإنسانيّ المتفاعل، الأمر الذي أظهر فرض شخصية رب العمل على التّنظيم الاجتماعيّ داخل المنشأة وأبرز مفهوم شخصنة المنشأة، فضلاً عن شخصنة التّنظيم الاجتماعيّ داخلها.

تتركز السّلطة في المنشآت الصنّاعيّة اللّبنانيّة بأيدي أرباب العمل، إذ لا وجود لسلطة موكلة إلى العمال، فأرباب العمل يباشرون ويشرفون ويصدرون أوامرهم بحسب ما يرونه يناسب أهدافهم.

وللتّنظيم مظاهر ثلاثة، تظهر القيادة كواحدة من أهم مظاهر التّنظيم، فلا وجود لتنظيم يفنقر لقيادة ناظمة، وكذلك يتمظهر التّنظيم بشكل الجماعة ومدى تماسكها، فكلاهما يتبادل علاقة وجودية، فالتّنظيم يدل إلى جماعة العمل، كما أن الجماعة تدل على تنظيم يظهر حدودها ومدى التزامها ببيئتها. وللتّنظيم أيضاً مظهر تفاعلي يعبر عنه بالاتّصال، فمن خلال الاتّصال تحدد المهام والأعمال.

وقد ظهرت القيادة في المنشآت الصنّاعيّة اللّبنانيّة بشكل محدّد، فالقادة هم أرباب العمل، وهم الذين يصدرون الأوامر،

اقتراحات أنيس فريحة في تحديث اللّغة العربيّة وتعليمها

قراءة في كتابيه: «في اللّغة العربيّة وبعض مشكلاتها»

و«تبسيط قواعد اللّغة العربيّة على أسس جديدة»

د. سلمى عطالله(*)

٢ - التّصعيد، أيّ قدرة هذه اللّغة على التّجريد أو الصّعود باللفظة من معناها الحسّي إلى المعنويّ. وهذه صفة تتّصف بها كلّ لغة حيّة راقية.

٣ - الاشتقاق وهو صفة تغني اللّغة كثيراً، إذ تُردّ الكلمات إلى جذورها، وعلى هذا الجذر الذي يشبه جذع شجرة تقوم أغصان تتفرّع إلى فروع، والفروع إلى فروع.

٤ - التّوليد الذي يكون على نوعين: صوغ كلمات جديدة لا عهد للعربيّة بها من قبل كالأمركيّة والماهيّة والحيثيّة... أو إسباغ معنى جديد على كلمة لم توضع لهذا المعنى مثل القاطرة والمحرك والجريدة والهاتف...

٥ - التّعريب أي نطق كلمة أجنبيّة على

إن اللّغة العربيّة هي من أقدم لغات العالم الحيّة وأكثرها غنى وأصالة، وهي عالمياً خامس لغة بحسب عدد الناطقين بها، والأمم المتّحدة اعتبرتها واحدة من أهمّ اللّغات السّت المعتمدة والمعمول بها في منظمات الهيئة. وهي، من أكثر من ألف عام، انتشرت وازدهرت وحملت تطوّر العرب وطموحاتهم وعلومهم. ترجمها الآخرون واستفادوا منها كثيراً، حتى أنّهم تعلموها رغبة في التّعرف إلى حضارتها وأخذ علومها. وهي، بحسب أنيس فريحة، استطاعت، في عصور ماضية، أن تكون لغة شعر ودين وعلم وفلسفة، تبعاً لميزات عديدة تميّزت بها:

١ - الدّخيرة اللّغويّة التي جعلت اللّغة العربيّة تفوق بغناها ومعاجمها أيّة لغة ساميّة أخرى.

(*) أعدتها د. سلمى عطالله أستاذة التّقد الحديث ومنسقة دائرة اللّغة العربيّة في جامعة سيّدة اللّوزة، لبنان.

نهج العربية وأوزانها، أي دخول هذه الكلمات في عداد مفرداتها.

٦ - القياس وهو يقوم على فلسفة لغوية اجتماعية: ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب. وهو ثورة على القائلين بصفاء اللغة وصحتها وبلاغتها في عصر معين، ولا مبرر علمي له...

لكن إلى جانب هذه الميزات يلحظ «أنيس فريحة» وجود ما يعوق اللغة عن مماشاة الزمن، ويجعلها «تسكع في المؤخرة»...^(١) فما الذي يؤدي بها، بحسب رأيه، إلى هذا الواقع أو المشكلة؟

يرى «أنيس فريحة» أن مشاكل اللغة العربية تنحصر في خمس نقاط، هي:

أولاً: الازدواج اللغوي ووجود لغتين مختلفتين اختلافاً كلياً: عامية وفصيحة. نفكر نتكلم نصلّي نغني نلعب نحبّ بلغة محكية، وعندما نقف موقفاً رسمياً نتلبس شخصية لغوية ثانية. وبهذا تصبح اللغة «مخدومة لا خادمة».^(٢)

ثانياً: تقييد الفصيحة التي كانت لهجة معينة في الزمان والمكان بأحكام وضوابط مرهقة مبنية على قواعد الشعر العربي بالدرجة الأولى، وعلى منطق «أرسطو» في اللغة والذي لم يعد يؤخذ

به والمبني على السببية. فهناك العلة والمعلول والعامل والمعمول والتقدير والإضمار... ثم عمدوا إلى وضع قاعدة شاملة. ولأن اللغة لا ينطبق عليها قانون طبيعي عام، كانت القواعد الفرعية وما نتج منها من استثناءات وشواذ...

ثالثاً: كتابة الفصيحة على نمط اللغات السامية الأخرى، «أي بالحروف الصامتة فقط من دون الإشارة إلى الحروف المصوتة التي تسبغ على الكلمة حياة».^(٣) ما يجعل القراءة عملية شاقة ويلغي الغاية منها، إذ ينبغي علينا أن نفهم لنقرأ لا أن نقرأ لنفهم.

رابعاً: عجز العربية في حالتها الحاضرة عن اللحاق بالعلوم والفنون والفلسفة. وقد رأى «فريحة» أن مسؤولية هذا العجز تتوزع على الناطقين بها الذين لم يعملوا على تطويرها، كما على اللغة بحد ذاتها.

خامساً: مشكلة تدريس اللغة العربية وأدبها. وهذه المشكلة هي متعددة الوجوه، تكمن في المادة والبرنامج وإعداد المعلم ووضع الكتب وأساليب التدريس...

انطلاقاً من هذ الواقع، سعى «أنيس فريحة» إلى وضع اقتراحات رآها نافعة

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠.

(١) في اللغة العربية وبعض مشكلاتها، ص ٩.

(٢) في اللغة العربية وبعض مشكلاتها، ص ١٠.

لتبسيط قواعد العربيّة وتعليمها على أسس جديدة. واقتراحاته هذه تتماشى مع مبادئ أساسيين: سهولة عرض القواعد وتقريبها من مدارك المتعلّمين، ومجاعة منطق هذه اللّغة.

يرى «أنيس فريحة» أنّ القاعدة اللّغويّة هي وصف لواقع لغويّ، وهي وُضعت بالاستقراء والاستنباط^(١). فأبّ أسلوب هو أبسر الأساليب لإيصال هذه القاعدة إلى المتعلّمين؟

ترتكز اقتراحات «فريحة»، بالإضافة إلى اعتماد كتب متدرجة في الصعوبة والتّفصيل، على مبادئ أربعة، هي:

١ - العدول نهائياً عن تعليم قواعد العربيّة في المدارس الابتدائيّة، والانصراف إلى تعليمها بالمثل^(٢) قراءة وتصريفاً وإنشاءً واستظهاراً وتعبيراً. وهذا لا يعني التّوقّف عن تعليم القواعد إنّما ليس بمصطلحها القديم وبشكلها القديم. وذلك لثلاثة اعتبارات:

(أ) إنّ صرف اللّغة ونحوها نوع من التّجريد الفلسفيّ، والفلسفة فوق مدارك المتعلّمين الأطفال. اللّغة وفلسفتها من مباحث الجامعات أو على الأقلّ من المباحث التي يمكن معالجتها في السّننتين الأخيرتين

من مرحلة الدّراسة الثّانويّة. فأن نقول للأطفال هذا مرفوع وهذا منصوب وهذا فاعله مقدّر وهذا مستثقل وهذا متعذّر... فأمر سيحفظونها غيباً ويردّدونها من دون فهم.^(٣)

(ب) إنّ حفظ القاعدة في سنّ مبكرة والتّوكيد عليها لا يعين المتعلّم على القراءة الصّحيحة والإنشاء. في مثل هذه السنّ يجب أن نحرص على أن نعلّم الطّالب نماذج صرفيّة ونماذج نحويّة وعلى إغناء ذخيرته اللّغويّة^(٤). فعوضاً من أن نقول له أوزان الفعل هي أفعل وفعلّ وتفعلّ، نعطيه أكبر عدد من الأفعال من هذه الأوزان ليتعلّمها وليحفظها، وبعيداً من أن نقول له «تقدّم» على وزن تفعلّ، و«أكرم» على وزن أفعل، أي إنّ الأفعال في العربيّة فئات متعدّدة الأشكال، وإنّ فعل «تقدّم» من فئة تفعلّ.

(ج) إنّ اللّغة أسبق في الزّمن من القاعدة التي استنبطت بناء على لغة قائمة. فهذه القاعدة هي وصف دقيق يتناول أوّلاً مفردات اللّغة وما يطرأ عليها من تغيير (وهو علم التّصريف)، وثانياً التّركيب وما يطرأ على الكلمات من تغيير إعرابيّ في هذا التّركيب (وهو علم النّحو)، وثالثاً الأساليب الجميلة في التّعبير. فكيف

(٢) في اللّغة العربيّة وبعض مشكلاتها، ص ٥٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(١) تبسيط قواعد اللّغة العربيّة على أسس جديدة، ص ٢٣.

(٣) تبسيط قواعد اللّغة العربيّة على أسس جديدة، ص ٢٥.

يحقّ لنا أن نعكس الأمر فنعلّم أطفالنا الوصف لمادّة أو لشيء لا يعرفونه؟ الأفضل أن نعلّمهم المادّة المراد وصفها. قبل أن نعلّم فصيلة الورد وتركيبها وعملية تلقيحها... نعرّفهم إلى الوردة ونحفّزهم على الاستمتاع بجمالها وطبيعتها...^(١) فلماذا سمّي النّحو نحوًا، أليس ليكون نماذج تحتذى ويُقتدى بها عند التّركيب؟

٢ - تعليم اللّغة على مراتب وبشكل وحدة تسعى لعدم التّجزئ بين مادّتي الصّرف والنّحو، بل تعلّمان كوحدة مترابطة متّسقة منطقيًا. فقواعد أيّ لغة هي وحدة تامّة لا تتجزّأ، ويجب أن تدرّس كوحدة. وهذا ما يفرضه علينا منطق اللّغة ذاتها. إنّ اللّغة كالبناء التّامّ الجميل يتألّف من ثلاثة أمور:

(أ) موادّ خام يقابلها في اللّغة المفردات، وموضوعها الكلمة.

(ب) تركيب هندسيّ وهو جوهر البناء يقابله في اللّغة علم التّركيب أو علم النّحو، وموضوعه الجملة المفيدة والعناصر التي تتركّب منها.

(ج) فنّ وزخرف وهو ما يضيف على الموادّ الخام وعلى الشّكل رونقًا وجمالًا وسحرًا، ويقابله في علم اللّغة علم

الأساليب التّعبيريّة وعلم البيان والبديع والفصاحة والبلاغة، ويقابله التّعبير البليغ والجميل.

ومن الطّبيعيّ أن يتمّ البدء بالتركيب، بالإنشاء بغية إكساب المتعلّم الذّخيرة اللّغويّة الكبيرة والكافية، وإفهامه أنّ العربيّة لغة اشتقاقية.

وهذا الأمر يكون في إعادة النّظر في أمر استنباط القاعدة وتبويب القواعد على أساس معقول لا يسبّب عند المتعلّم ارتباكًا^(٢).

وقد كان لـ «أنيس فريحة» مأخذان على طريقة القدماء في استنباط القواعد: (أ) التّوكيد في تعليم اللّغة هو توكيد على آخر الكلمة وما يحدث فيها من تغييرات في الحركة (النّصب، الرّفْع، الجرّ، الجزم).

(ب) وجود خطأ في التّبويب، على الأقلّ من وجهة نظر الطّالب، (حشر النّواصب والجوازم في درس المضارع ذلك لأنّها تحدث تغييرًا في آخره). بكلام آخر التّبويب مبنيّ على أساس حركة الحرف الأخير من الكلمة لا على أساس المعنى أو على أساس نماذج الكلام^(٣). ويرى «أنيس فريحة» أنّها يجب أن تدرّس في ثلاثة أبواب

(١) المصدر نفسه، ص ٢٧. (٢) تبسيط قواعد اللّغة العربيّة على أسس جديدة، ص ٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٢-٣٣.

● **مرتبة التّركيب** وهي علم النّحو، و«أنيس فريحة» يفضّل تسميتها بـ «علم التّركيب».

● **مرتبة الأساليب** وهي تعنى بعلم المعاني أو البيان والبديع، و«أنيس فريحة» يفضّل تسميتها «درس الأساليب».

فالصفة مثلاً غير موجودة في باب واحد بل موزّعة بين بابي الصّرف والنّحو تحت المواضيع الآتية: الصّفة، الصّفة المشبّهة، اسم الفاعل، اسم المفعول، صيغ المبالغة، أفعال التّفصيل، النّسبة، النّعت. و«أنيس فريحة»، في هذا المجال، يطرح السّؤال التّالي: لماذا لا نعلم الصّفة وكلّ ما يتعلّق بها: وزنها، اشتقاقها، تثنيها، جمعها، وكلّ ما يتعلّق بها من أحكام في باب واحد؟^(٢)

٢ - **استنباط القواعد والأحكام بطريقة وصفية تقريرية** من دون ذكر **العلة والسبب**. وذلك بإلغاء كلّ ما له علاقة بفلسفة العلة، والذي يرهق الطّلاب وينفّرهم من درس العربيّة والإقبال عليها، كمثّل الفاعل ونائب الفاعل، المقدّر والمضمر، والمستثقل والمتعذّر، والمتعلّق، والاشتغال، و«سدّ مسدّ الخبر»، و«لا محلّ له من الإعراب»... فإذا قبلنا اللّغة كما هي

مختلفة: باب الأمر، باب النّفي، باب الشّروط. ولأنّ الطّلاب يعرفون صيغة الأمر بالسّليقة نستطيع أن نعلّمهم أنّنا في الفصحى نقول، مثلاً: قم، لا تقم، ليقم. ونسمّي الأوّل الأمر المثبت، والثّاني الأمر المنفي، والثّالث الأمر الموجّه للغائب. وهكذا نكون قد تخلصنا من إدراج لام الأمر ولا النّاهية في جملة جوازم المضارع، خصوصاً أنّ قولنا إنّ المضارع مجزوم هو أمر فوق مدارك الطّلاب الصّغار، وعلمناهم وظيفة «لا النّاهية» و«لام الأمر»، أي نكون قد وضعنا التّوكيد على المعنى والاستعمال لا على حركة آخر المضارع^(١).

وفي هذا المجال يقترح «أنيس فريحة» إعادة استنباط القواعد على أساسين:

١ - تحليل اللّغة إلى عناصرها الرّئيسة تحليلاً علمياً يعين في إعادة تبويب القواعد على أساس جديد. ففي مراحل متقدمة تعلم قواعد اللّغة الأساسيّة من خلال ثلاث مراتب:

● **مرتبة المفردات** التي تعنى بأحكام الكلمة المفردة من حيث الاشتقاق والتّصريف (ما يعرف عند العرب بعلم الصّرف، وما يفضّل «أنيس فريحة» تسميته بـ «علم الاشتقاق».

(١) تبسيط قواعد اللّغة العربيّة على أسس جديدة، ص ٣٣. (٢) المصدر نفسه، ص ٣٩-٤٠.

على أساس أنّها تحدّرت إلينا هكذا، بهذا الشّكل وليس بغيره، عندئذ تنتفي صعوبات جمّة يشكو منها المعلّم والطّالب^(١).

ويقترح «أنيس فريحة» في هذا المجال إعادة تبويب هذه القواعد على الشّكل التّالي، أو وفق المراتب الثلاث التي سبق ذكرها:

٢ - ١ باب قواعد الكلمة المفردة من جهة التّغييرات التي تطرأ عليها في عمليّتي الاشتقاق والتّصريف، أي علم الصّرف خالياً من فلسفة العلة. وبهذا لا نقسم الكلمة إلى ثلاثة أقسام بل إلى ستّة: اسم، فعل، صفة، ظرف، ضمير، أداة. ويدرس كل قسم كوحدة تامّة، فعندما ندرس الفعل ندرس كلّ ما له علاقة به: أوزانه، الرّمن، التّصريف، ما يشتقّ منه...

٢ - ٢ باب أحكام التّركيب حيث يُعلّم التّركيب على أنّه درس في الجملة المفيدة والعناصر التي تتركّب منها، وفي أنواع الجملة العربيّة وعددها. ونماذج التّركيب الأساسيّة في كلّ لغة قليلة العدد: الجملة البسيطة، المركّبة، الاستفهاميّة، المنفيّة، المشروطة، التي فيها أداة استثناء... وحيث نقارب الجملة أيّ جملة على أنّها تتركّب من: شيء نتكلّم عليه (موضوع الكلام)، شيء نقوله عن المتكلّم عليه

(الخبر) وتكملة وروابط... وبهذا، مثلاً، نلغي تقسيم الجملة إلى نوعين: اسميّة وفعليّة، ونلغي قواعد الإعراب الخاصّة بهما، بالإضافة إلى بعض المصطلحات المركّبة والغامضة...^(٢)

٢ - ٣ باب الأساليب التّعبيريّة وموضوعه التّعبير البليغ والجميل، من دون الغرق في قوانين هذا العلم (التّشبيه، الاستعارة، الكناية، التّورية، الجناس...) لأنّ هذه القوانين لا تعين على امتلاك هذه الأساليب والإنشاء وفقها أو تذوّقها، وتجزئ اللّغة العربيّة وتجعلها مجرد زخرف. ويقترح «أنيس فريحة» في هذا المجال، ألاّ يدرس هذا الأمر كدرس مستقلّ في المرحلة المدرسيّة، بل كدرس ممتع مورّع بين درسين: الإنشاء والأدب، شعراً ونثراً...^(٣)

٣ - تعليم قواعد اللّغة على أساس الفهم والإفهام، وعلى ضرورة عدم قصر النّحو على أواخر الكلمات، وبالتالي، التّأكيد في تعليم قواعد اللّغة على قضيّة الفهم والإفهام، لأنّ اللّغة فهم وإفهام^(٤). هذا الأمر يقضي بالنتيجة إلى إلغاء تعليم الإعراب التّقليديّ بسبب ما يشوبه من غموض واختلاف اللّغويين في تخريجه،

(٢) تبسيط قواعد اللّغة العربيّة على أسس جديدة، ص ٤٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٠.

(١) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٨-٤٩.

ولأنّه غير ضروريّ للفهم... والاستعاضة عنه بتحليل الجملة إلى عناصرها الرئيسيّة التي سبق وذكرناها (المتكلّم عليه، ما نقوله عن المتكلّم عليه، وتكملة وقيود وروابط) وبهذا يتمّ الاستغناء عن عدد من الأبواب... بعد أن تمّ التوكيد في تدريس اللّغة على لفظة «أنشي» و«قس عليه» لا على لفظة «أعرب». فمجرد إعطاء القاعدة لا يعين الطالب على الإنشاء، بل اللّجوء إلى تمارين الإنشاء والقياس كأداة لترسيخ القواعد وإلغاء الذّخيرة اللّغويّة عندها يتمّ الانتقال إلى القواعد. وبالتالي، يفترض الابتعاد عن الإعراب الذي فيه مأخذ عديدة نبّه إليها القدامى والمحدثون.

أخيراً، أنا شخصياً، وبعد مرور أكثر من ثلاثين سنة من التّعليم الذي طال مختلف المستويات والأعمار، أجد نفسي أوافق «أنيس فريحة» في الكثير من الأمور التي أثارها، ومنها مشكلة الازدواج اللّغويّ وما تحدّثه من صعوبات تعلّميّة، كما مشكلة ضبط اللّغة التي تجعل المتعلّم أمام واقع أن يفهم ليقراً لا أن يقرأ ليفهم. بالإضافة إلى هاتين المشكلتين، أتوقّف عند ضرورة تأخير تعليم القواعد، إنّما ليس إلى السّننتين الأخيرتين من المرحلة الثّانويّة، إذ يمكن البدء بتعليمها في الحلقة الثّالثة من مرحلة التّعليم الأساسيّ، وبشكل متدرّج في الصّعوبة والكميّة. كما عند مبدأ حفظ

القاعدة الذي لا يعين الطالب على اكتساب واضح ومتين للّغة يمكنه من مقارنة اللّغة قراءة وفهماً وإنتاجاً شفهيّاً وخطيّاً. وهذا أمر يمكن لكلّ معلّم أن يعاينه من خلال الهوة الكبيرة القائمة بين مهارات اللّغة المختلفة، حيث يقيم المتعلّم فصلاً بين القاعدة والتّطبيق الإنتاجيّ... وقد يكون اقتراح «فريحة» الذي يقضي بتعليم اللّغة قبل القاعدة وإعادة التّبويب على أساس المعنى والاستعمال لا على أساس حركة آخر الكلمة أو الإعراب، والعمل على التّطبيق بالمثل والمحاكاة هو، بالنّسبة إليّ الأهمّ، فهو أمر واقعيّ وحقيقيّ يساعد على اكتساب أفضل للّغة. وقد تكون المطالعة من أكثر الوسائل التي تساعد المتعلّم في هذا المجال، وذلك بمحاكاته اللّامباشرة للنّماتج المقرّوة، فنرى، عندها، متعلّماً يكتب بشكل صحيح من دون أن يعرف السّبب، ومتعلّم كهذا أفضل من متعلّم يعرف الأسباب كلّها لكنّه لا يستطيع توظيفها في التّعبير والإنتاج... إذًا علينا تحاشي التّركيز على الإعراب، والعمل، في المقابل، على القواعد الوظيفيّة التي تسهم في ردم الهوة بين المهارات، وتسهّل عمليّة مقارنة اللّغة كوحدة متكاملة من دون أيّ تجزيء.

لكنني، وبكل تواضع، ضدّ «أنيس فريحة» في اعتباره اللّغة مسؤولة عن العجز الحاصل. إذ إنّ اللّغة بريئة من هذه التّهمة،

لأنَّ اللُّغة من الحياة الإنسانيَّة ولها،
والتَّعاطي معها شكل من أشكال الأداء
الحياتيِّ، فإن عاش الإنسان عاشت وإن
مات ماتت... فنحن اليوم، عاجزون لذا
صارت لغتنا عاجزة... إذًا، نحن المسؤولون
عمَّا وصلت إليه لغتنا، لأننا تخلَّينا جميعًا
وبإرادتنا عن إنجازاتنا العلميَّة وعن
حضارتنا الفكريَّة وشخصيَّتنا القوميَّة التي
استوعبتها اللُّغة العربيَّة وعبَّرت عنها
بسهولة في ذاك العصر الذَّهبيِّ. رفضنا
تطوُّرًا ثمَّ لجأنا إلى لغة أخرى وتطوُّر ليس
لنا لكي نسترب بهما ما لدينا من ضعف.
نسينا ماضيًا مزدهرًا ووقفنا فارغي الأيدي
أمام حاضر ضعيف نتوسَّل فيه الآخر
ونأخذ منه لغاته وعلومه وفكره وحضارته
وتقاليده...

فهل ندرك يومًا مخاطر ابتعادنا عن
لغتنا وإهمالنا لها وعدم سعيِّنا لتطويرها
ووضعها في سياق الحضارة الحديثة وما
فيها من تطوُّرات متسارعة، أو أنَّنا سنبقى
في سباتنا ملقَّين النَّهم جزاقًا على هذه اللُّغة
المنتظرة من سنين من ينهض منَّا وينهضها
معها؟

المصادر

- ١ - فريحة، أنيس. في اللغة العربية وبعض مشكلاتها. بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٨٠.
- ٢ - فريحة، أنيس. تبسيط قواعد اللغة العربية على أسس جديدة: اقتراح ونموذج. بيروت: منشورات الجامعة الأميركيَّة، ١٩٥٩.

آليات البناء السردى في قصيدة «نيرون» لخليل مطران

صفاء عباس: «طالبة دراسات عليا»

سعت الدراسات اللسانية الحديثة المتمثلة في البنيوية الشعرية وغيرها من نظريات النقد الجديد إلى جعل القصيدة نصًا شعريًا شفافًا، يفضي إلى عوالم خفية، قابلة للتأويل، حيث يغدو النص الشعري خارج سيطرة قارئه، ويغدو صاحب النص أحد القراء، وهذا ينتج من الغوص أكثر في العالم الجوّاني لصاحب النص الشعري. ولكن النص يظل أيضًا مرتبطًا بعالمه

الخارجي ومع النصوص المحيطة به؛ والتي كانت سبب نتاجه. وهذا يعني أن النصّ يجمع أصواتًا متعددة أو وجهات نظر مختلفة، ويستوعب تعيينيات المكان، وتحيينات الزمان، وتسميات مختلفة، وآليات سردية مختلفة قد يستعيرها من الموروث الواقعي التاريخي أو الشعبي أو الأسطوري أو الرمزي... تمثلت جميعها في مفهوم «التناس الأدبي»^(١) أو «المتعاليات

(١) أخذت هذه الكلمة عن مصطلح غربي «Intertextualité»، الجزء الأول «Inter» وهو لفظ يدل على التبادل، والثاني «Textualité» يدل على النص. أما اصطلاحًا فنجد في القاموس المعرفي الجديد لعلوم اللغة «Dictionnaire Encyclopédique des sciences du langage» ما يفيد تعريفه، فقد وضع هذا المفهوم العالم الروسي ميخائيل باختين «Mikhail Bakhtine» في معرض حديثه عن «مبدأ الحوارية» بين النصوص أو تعدد الأصوات، وقد طورته الناقدة الفرنسية البلغارية الأصل جوليا كريستيفا «Julia Kristeva»، وأجرت عليه استعمالات إجرائية لافتة، في دراستها الشهيرة «ثورة اللغة الشعرية» (La Révolution du langage poétique) عام ١٩٧٤، والتي عينت فيها التناس على أنه «التفاعل النصي في نص بعينه»، وتوسعت في تبين قابلياته الإجرائية، إذ تناولت أحوال التناس في شعر لوتريامون «Lautréamont» تحديداً، متوقفة أمام عمليات «التحوير» التي أقامها الشاعر على نصوص عديدة معروفة، بما يشبه «اختطافها»، أو تحويلها عن مجراها. ووسّع النقد هذا المفهوم ليصل إلى أن النص المادي لا يمكن أن يكون إلا جزءاً من نص عام، وهذا ما مهّد إلى التحول من مفهوم البنيوية في النص الأدبي إلى ما بعد البنيوية. أما في المعاجم العربية فنجد «التناسك» يفيد أحد معانيها معنى الأزحام، فقد جاء في المُنجد: تناسّ القوم: أي ازدحوا.

انظر في المُنجد في اللغة والأدب والعلوم، لويس معلوف، الطبعة التاسعة عشرة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص ٨١١.

النصيّة»^(١). وأكّد النقد أنّ «الأسلوب هو الرجل» لأنه يجعل النتاج مرتبطاً بالذات المنتجة وبتأثيرات المكان والزمان في تكوين النص.

ومن الطبيعي أنّ بعض تجارب الشعر العربي الحديث منذ مطلع القرن العشرين تأثرت بدعوة التجديد الشعري، فسعت إلى التخفف من قيود الغنائية والاستقلالية

= وتناول النقد العربي الحديث مفهوم التناص فقد عرّف على أنه تشكيل نص جديد من نصوص سابقة وخلاصة لنصوص تماهت فيما بينها فلم يبق منها إلا الأثر، ولا يمكن إلا للقارئ النموذجي أن يكتشف الأصل، فهو الدخول في علاقة مع نصوص بطرق مختلفة «يتفاعل بواسطتها النص مع الماضي والحاضر والمستقبل وتفاعله مع القراء والنصوص الأخرى».

انظر في النقد والدلالة نحو تحليل سمياي للأدب، محمد عزام، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٦، ص ١٤٨.

(١) يرتبط مفهوم التناص الأدبي بمفهوم المتعاليات النصية التي تناولها الناقد والباحث الفرنسي جيرار جنيت «Gérard Genette» أحد أهم أعلام الشعرية الحديثة في كتابه «تطريسات» (Palimpsests)، عام ١٩٨٢، عندما درس مجموعة العلاقات النصية التي تجعل نصًا ما يتعالق مع نص آخر يشمل ضمنياً أو تصريحياً، مؤكداً أن موضوع الشعرية هو «جامع النص» (le paratexte) أو ما أسماه لاحقاً بـ «النصية الجامعة للنص» وجعلها خمسة علاقات كان من بينها التناص الأدبي، قائلاً: «والأجدر أن أقول اليوم، وبسعة أكبر، بأن هذا الموضوع هو النصية المتعالية (Transtextualité)، أو التعالي النصي للنص (Transcendance textuel du texte)، والذي أعرفه مسبقاً، وبطريقة إجمالية بكل ما يجعله في علاقة ظاهرة أو ضمنية مع نصوص أخرى».

انظر في المدخل النظري من كتاب أطراس: الأدب في الدرجة الثانية. ترجمة المختار حسني للفصل الأول، فكر ونقد، ١٩٩٩.

(٢) هو خليل بن عبده بن يوسف مطران (١٨٧١-١٩٤٩)، شاعر، غوّاص على المعاني، من كبار الكتاب. له اشتغال بالتاريخ والترجمة. ولد في بعلبك بلبنان وتعلم بالمرسة البطريركية ببيروت. وسكن مصر، فتولى تحرير جريدة «الأهرام» بضع سنين، ثمّ أنشأ «المجلة المصرية» وبعدها جريدة «الجوائب المصرية» يومية، ناصر بها مصطفى كامل «باشا» فقي حركته الوطنية، واستمرت أربع سنوات. وصنّف «مرآة الأيام في ملخص التاريخ العام- ط» واشترك مع الشاعر حافظ إبراهيم في ترجمة «الموجز في علم الاقتصاد - ط» خمسة أجزاء عن الفرنسية، وترجم عدة «روايات» من تأليف شكسبير وكورناي وراسين وهيجو وبول بورجيه. وعلت شهرته، ولقّب بشاعر القطرين، وكان يشبه بالأخطل، بين حافظ وشوقي. وشبهه المنفلوطي بآبن الرومي في تقديمه العناية بالمعاني على العناية بالألفاظ. وكان غزير العلم بالأدبين العربي والفرنسي، رقيق الطبع، ودوداً، مسالماً، قلّ أن ذكر أحداً بغير الخير، و«ديوان شعره - ط» في أربعة أجزاء، (ديوان الخليل، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٩٤٩). توفي بالقاهرة.

انظر في معجم المُجدد في الإعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين بيروت، الطبعة السابعة ١٩٨٦، ص ٣٢٠.

الغرب الرومانسيين^(٢)، فترك تراثاً قصصياً جديراً بالدراسة استقاه من الواقع الاجتماعي في لبنان ومصر، ومن ثقافته التاريخية ومن تراثه الشعبي.

وقد ظهرت في الفصل الثاني من ديوانه مجموعة من القصائد التي نجح في نظمها وصياغتها بأسلوب متميز؛ جمعت بين الشعر والسرد القصصي، وكان من بينها قصيدة «نيرون»^(٣).

فما هي أهم العناصر التي ينبغي دراستها لاكتشاف آليات البناء السردية في هذه القصيدة؟

- الخلفية التاريخية الواقعية للقصيدة

لقد اطلع خليل مطران على التاريخ واستفاد من أحداثه الكبرى^(٤)، فبعد قراءة القصيدة للمرة الأولى يكتشف القارئ

عناصر جديدة على الشعر العربي في قصائده، بطريقة جمعت بين التراث العربي والثقافة الغربية والعصر الجديد^(١).

وعلى الرغم من أن الشعر العربي ومنذ بداياته قد أدخل السرد القصصي على القصيدة، إلا أن مطران كتب القصيدة القصصية في مطولات هادفة إلى غرض تسير القصيدة إلى تأكيده في البيت الأخير، فقد تكتفت قصيدة نيرون كلها في بيتها الأخير الرائع الذي حوى كل تفاصيل القصيدة حين قال في نهايتها:

كُلُّ قَوْمٍ خَالِقُو نَيْرُونِهِمْ

قَيْصَرٌ قَيْلٌ لَهُ أَوْ قَيْلٌ كَسْرِي

لقد هدف مطران من توسيع السرد القصصي على فنون الشعر العربي، لكي يخلق موضوعاً مترابطاً في قصيدته كاملاً في الصياغة والتصوير على نحو شعراء

(١) رواد التجديد في الشعر العربي الحديث، أنس داود، مكتبة عين شمس، دار الجيل للطباعة، ١٩٧٥، ص ٤١.

(٢) يجيب خليل مطران في سياق تأكيده أنه أجراً من؟ أحمد شوقي وحافظ إبراهيم على التجديد، فيقول: «ليس قصدي بالتجديد أن نقنع بقليل من الألفاظ والعبارات، إنما أقصد بالتجديد أن يخلق الشاعر موضوعاً من أوله لآخره ويصوغه ويصوره ويفصله على النحو الذي وجدنا كل شعراء الغرب العبقريين قد نحوه في مولدات قرائتهم (...). وهذا أمر لم يقدم عليه ولم يفكر فيه (عندنا) أحد للآن».

عن مشاركة للدكتور جورج طراد بعنوان وعي النقد ومبادئ التأسيس (خليل مطران أنموذجاً)، مؤتمر النقد العربي الحديث بين التنظير والتأسيس، المعهد العالي للدكتوراه، الجامعة اللبنانية، في ١٢-١٢-٢٠١٩.

(٣) ديوان الخليل، خليل مطران، دار الجيل، بيروت، طبعة جديدة، ١٩٧٧، ص ١٠١-١٢٤.

(٤) افتتح مطران ديوانه بقصيدة تاريخية (١٨٠٦-١٨٧٠) يصف فيها انتصار نابليون الأول على الألمان في معركة يانا ودخوله برلين ثم انتصار الألمان على نابليون الثالث ودخولهم باريس. وأول تأليف مطران كان في التاريخ فقد ألّف كتاباً سماه «مرآة الأيام في التاريخ العام». في جزءين صدر الأول منهما سنة ١٨٩٧ وفيه يجمع آراء كان قد قرأها في كتب التاريخ.

انظر في كتاب خليل مطران باكورة التجديد، ميشال جحا، دار المسيرة بيروت، ط ١، ١٩٨١م، ص ١٥٠.

أحداثًا دالة على قصة حصلت بين حاكم وشعبٍ ما. ويستكمل البحث مسيرته في طيات التاريخ ليكتشف خلفية واقعية لهذه الحكاية يدور موضوعها حول إمبراطور لُقِّب بـ «نيرون» ابن الامبراطور «كلوديوس» بالتبني، حكم دولة «روما» من عام ٥٤ م إلى ٦٨ م. وقد صعد إلى العرش وهو لا يزال صغيرًا، قليل الخبرة، فكانت بداية حكمه ركيكة لا أساس متين لها.

ثم مرّت السنوات معتدلة تتسم بالاستقرار بفضل مساعدة معلّمه «سينيكا» له في إدارة أمور الحكم، ولكن سرعان ما بدأ «نيرون» باتباع أساليب عديدة من العنف والظلم لأبناء شعبه. فقتل وعذب وقهر كثيرًا من الناس. واتسعت دائرة استبداده تدريجيًا حتى وصل به الحال قتل أقرب الناس إليه بسبب خوفه من انتزاع الحكم منه، وكان من بينهم أمه ومعلّمه.

ولم تقتصر جرائمه على القتل فقط بل تجرأ ليقوم يومًا ما بأبشع جريمة شهدها التاريخ، فقد أحرق مدينة روما عام ٦٤م، بعد أن أشعل النار فيها لسبب لخصه خليل مطران بقوله:

فاز نيرونٌ بأشهى ما اشتهى

محرقًا روما ليستبدعَ فكرا

لقد جلس نيرون في برج مرتفع متفرجًا على ما أنجزه من دمار مستمتعًا برؤية الخوف في عيون شعبه، يغني أشعار

«هوميروس»، ويستمتع برؤية المشاهد صوتًا وصورةً ليشبع شغفه المزيف بالفن. اتخذ «نيرون» من ذلك الحريق مصدرًا لإبداعاته المزيفة مدعيًا أنّ الفن يستجيب له بما فعل، وسانده شعبه على التماهي والاستبداد بتأييدهم له والخضوع لحكمه الظالم. ازداد ظلمه أكثر عندما اتهم المسيحيين - كانوا أقلّة آنذاك - بإشعال ذلك الحريق خافيًا الحقيقة، وبإسقاط سلطته على جنوده، مقدّمًا لهم العطاء الوفير ليسكتهم. فأمرهم بمعاقبة المسيحيين، وعذبهم بصور وحشية، وأطعمهم للنمور والأسود.

ونتيجة طبيعية لازدياد ظلمه واستبداده قامت الثورات وتكاتف المسيحيون وانقلب جنوده عليه، وفشل في إخماد ثورة جنوده، فأمروا بعزله وحكموا عليه بالقتل. واختلفت الروايات في سرد طريقة موته، فبعضها تروي أنه هرب إلى كوخ بعيد لأحد خدامه، وقتل نفسه فيه. وبعضها تقول إن عبدًا كان قد استأجره أمره بقتله وذلك في العام ٦٨م.

ومقارنةً بأحداث حكاية «نيرون» خارج إطار القصيدة، يمكننا ملاحظة أن الشاعر قد ذكر في قصيدته أهم الأحداث المؤثرة فيها، لكنه غير في بعض الأحداث الفرعية، فمثلاً ذكر في قصيدته أنّ «نيرون» قتل بنفسه معلّمه «سينيكا» وهو ما يختلف عن الحكاية

الواقعية المروية، وهو ما يعود إلى عاملين: الأول رغبة مطران في تكثيف صفات «نيرون» السيئة لمقاصد تعبيرية معينة أرادها، والثاني لاختلاف الروايات وتعدد مصادرها.

- الترابط السردى بين أقسام القصيدة

إذا تأملنا البناء الفني لهذه القصيدة نراها قصيدة طويلة، نظم فيها الشاعر ما يقارب ٣٢٦ بيتاً شعرياً، قسّمها طباعياً إلى عشرين مقطعاً، يرتبط كل واحد بسابقه وبتاليه بعلاقات بنائية معينة، كان أهمها الأحداث السردية المتشابكة، فبين الأسباب والنتائج تنبني القصيدة ويشتد وثاقها. يتمثل هذا الترابط ببنائها السردى الذي يحتم تسلسل معين في سرد الأحداث، يمنعنا من تغيير مواضع هذه المقاطع أو من حذفها.

يبدأ الترابط من عنوان القصيدة «نيرون» المنتقى بعناية من قبل الشاعر، فهو الشخصية المحورية والأساسية التي يدور حولها موضوع القصيدة، والتي تنتج عنها أغلب الأحداث. ومن خلال هذا العنوان يمكننا الاستدلال إلى موضوعها من خلال التعرف على هوية هذه الشخصية، والبحث في سيرتها، واكتشاف أهم الأحداث التي قام بها. هذا ما يؤمن رابطة متينة بين عنوان القصيدة ومنتها الشعري.

يعرض البحث أقسام هذه القصيدة معتمداً على بنائها الطباعي، ويُقدّم الفكرة الرئيسة لكل قسم، ليصل في النهاية إلى تبيان الترابط السردى القائم في الأحداث:

- القسم الأول: «ذلك الشعب... قفراً»

الفكرة الرئيسة: هي عبارة عن مناسبة عامة للقصيدة، ومدخل تمهيدي أو مطلع استهلالي سردي يعرفنا بالشخصية الرئيسة «نيرون»، كما يحدد المكان والزمان.

- القسم الثاني: «إنّما... دُخراً»

الفكرة الرئيسة: بداية لحكم عادل ومستقر، ثم ظهور بوادى أعمال «نيرون» الإجرامية المتمثلة بقتله أقربائه والناس المحيطة به.

- القسم الثالث: حذروه شرّاً... وترّاً

الفكرة الرئيسة: تحذير معلّم «سينيكا» له من شرّ أعماله، وفشله في ذلك، وتحريض أصحاب الفتن نيرون على قتل معلمه.

- القسم الرابع: «عدّ عن ذلك... بقراً»

الفكرة الرئيسة: قتل نيرون لأمه بعد أن قتلت بدورها عمّه لتعطي الحكم لابنها.

- القسم الخامس: «هكذا الباغي... هزراً»

الفكرة الرئيسة: استمرار ظلم نيرون، وتمجيد الشعب لأعماله تمجيداً زائفاً.

- القسم السادس: «أفتدري... ليضرى»

الفكرة الرئيسية: تداخلات حكائية عن الامبراطور «قيلولا» كمثل آخر عن الحاكم الفاسد والمتسلط، ولتبيان دور الشعب الجاهل والخاضع في تثبيت حكمه.

– القسم السابع: «لا سفاك... أقرأ»

الفكرة الرئيسية: ادعاء نيرون الفن وازدياد وتيرة غروره المتماشية مع سكوت الشعب وتمجيد فنّه.

– القسم الثامن: «قال... عرى»

الفكرة الرئيسية: حوار مباشر بين الشعب ونيرون، وهو حوار مفتعل من زاوية الراوي، يصف لنا صورة الطرفين حيث يتقابل الجهل والضعف والذل أمام التسلط والنفوذ والظلم. ثم يسرد زهاب الحاكم إلى أثينا لإلقاء الشعر، وذا عصيته.

– القسم التاسع: «ذاك تأويل... صخرًا»

الفكرة الرئيسية: عودة نيرون إلى بلاده وإستقباله بحفاوة وإخفاء الحزن، وعرض لزيينة لا مثيل لها.

– القسم العاشر: «فاز نيرون... خمراً»

الفكرة الرئيسية: حرق روما وانتشار اللهب في كل قسم فيها ووصف دقيق لحال الناس ولمشاهد النيران وهي تلتهم كل شيء أمامها.

– القسم الحادي عشر: «دققَ التبر...

كدرًا»

الفكرة الرئيسية: المناظر الوصفية مستمرة ملقياً الشاعر لومه على الشعب.

– القسم الثاني عشر: «قام... زمرا»

الفكرة الرئيسية: وصف «نيرون» الحريق كلوحة اجتمعت فيها عناصر الإبداع رسمًا وشعرًا وموسيقى، مستلذًا بما يرى مستبدًا فكريًا، ووصف دقيق للحيوانات والمباني والناس.

– القسم الثالث عشر: «هكذا... سطرًا»

الفكرة الرئيسية: الرسم بلا ريشة ولا حبر.

– القسم الرابع عشر: «دمرت... حُرًا»

الفكرة الرئيسية: تدمير حاضرة الدنيا (روما)، وقتل الناس وسخرية الشاعر من نيرون وفنّه.

– القسم الخامس عشر: «إنّ... وترا»

الفكرة الرئيسية: الشعب هو المسؤول عن استمرار حكم نيرون.

– القسم السادس عشر: «بم غرّ...

شهرًا»

الفكرة الرئيسية: محاولة نيرون إسكات القوم، واتهام المسيحيين (النصارى) بحرق روما ليستر ذنبه، جمعهم ومعاقبتهم بإطعامهم للنمور الجائعة وازدياد أعماله الشنيعة والإجرامية.

– القسم السابع عشر: «خاب... فطفرا»

الفكرة الرئيسية: ولادة الحقد والثأر عند النصارى والاستيلاء على الحكم بعد فترة زمنية.

– القسم الثامن عشر: «درت... قدرا»

الفكرة الرئيسية: سيطرة النصارى على الحكم، والأمر بقتل نيرون، ولكنه أمر عبداً له لكي يقتله.

– القسم التاسع عشر: «من يلم...

أخرى»

الفكرة الرئيسية: لوم الشاعر مجدداً شعب روما الذي لم يقف في وجه الظلم، ولم يردعه.

– القسم العشرون والأخير: «كل قوم...

كسرى»

الفكرة الرئيسية: رسالة عامة لكل الشعوب في كل زمان ومكان يدعو الشاعر إلى توخي الحذر والوعي التام لعدم خلق نيرون جديد.

إذا أردنا أن نجتمع بالترتيب هذه الأفكار المتمثلة في كل مقطع في القصيدة سنكتشف ملخص الحكاية من بدايتها إلى نهايتها، وذلك بسبب ترابط أحداثها. في الحقيقة هذا الترابط هو ليس كترابط الأحداث في الرواية لأن الشاعر قام بانتقالات زمنية كبيرة، فمثلاً قال:

«درت الأمة من ظالمها

كلما جرَّ عليها الظلم دفرا

وعلى ذاك تغابت مرة

بعد أخرى، وتمادى مستشراً،

اختصر الشاعر فترة زمنية طويلة من

نضال النصارى للاستيلاء على الحكم في «روما»، والسعي إلى الانقلاب على «نيرون» وإلى عزله وقتله.

- الشخصيات وتحركاتها في إطار زمني ومكاني معين

لم يشدد مطران على ذكر شخصيات الحكاية بقدر ما شدّد على ذكر الأحداث المتأتية عنها، لأن الهدف الأساس من هذه القصيدة هو إيصال رسالة معينة للقراء من وراء هذه الحكاية، ما يرفع من أهمية أحداث الحكاية أو الحكمة الحكائية المحكمة التي بدأت بوضع أول مستقر يتمثل بتسلم «نيرون» الحكم، ثم ظهر العنصر المسبب لتأزم الأحداث وهو قتل أقربائه والذين يحيطون به للاحتفاظ بالحكم، وتوالت الأحداث تدريجياً وتآزمت وصولاً إلى القمة عند حرقه «روما»، ثم اتهام النصارى، فاندلاع الثورات وصولاً إلى الحل في عزله وقتله...

أمّا الشخصيات فتتقسم إلى طرفين أساسيين:

– الطرف الأول: هو الطرف الظالم المستبد، المتمثل بالحاكم «نيرون» الذي ظلم شعبه، وقتل الناس، واستبد بالحكم، وادّعى الفن، وحرق روما.

– الطرف الثاني: فهو الشعب الذي ينقسم بدوره إلى ثلاث فئات.

– الفئة الأولى: هي الأكثرية (عامّة الناس)، يعمّ عليها الجهل والسذاجة. في بداية القصيدة كانت صامته لا حركة لها سوى الخضوع لظلم حاكمها. تقف موقف الضعيف الذي يقبل الخضوع، ويُقبّل اليد التي تقيده. كانت نهايتها الحرق، وهي نتيجة عادلة لصمتها وعجزها.

– الفئة الثانية: تضم حاشية الامبراطور وجنوده ومن يحيط به في الحكم. هذه الفئة كانت واعية ومدركة لمساوئ حكم «نيرون» الظالم. أغلبها تجاهل هذا الواقع وسعى وراء مصالحه الشخصية وأهوائه، كأُم نيرون (مصدر الفساد) التي قتلت زوجها لتولي ابنها الحكم، زرعت الفساد فيه فحصلت نتيجة أعمالها بعد أن قتلها ابنها. أمّا جنود «نيرون» وحاشيته فارتشيت بالعطاء الوفير، وعاشت في رفاهية ورخاء، ما يجعلها شريكة في جرائم الحاكم. ونستثني منها «سينيكا» (معلم نيرون) فقد كان الشخصية الوحيدة من هذه الفئة التي أدركت ظلمه وحاولت توجيهه وتحذيره من عاقبة مساره، لكنه ظلمه وضحّى به لكي لا يعيق طريقه. وجود هذه الشخصية ضروري في الحكاية لأنها تشير إلى مصير التحرك منفرداً في الحكم، حيث لا يمكن سماع صوت شخص بين زحمة من الناس ولو ملأ صراخه أرجاء المكان.

– الفئة الثالثة: هي فئة قليلة من عامة

الشعب تمثل الطائفة المسيحية (النصارى) آنذاك، خصّها الشاعر بأهمية معيّنة لما لها من دور بارز في تحرير دولة «روما» من حكم الطاغية «نيرون». تعرضت هذه الفئة في بداية الحكاية للقهر والظلم، وعاشت في فقر وإذلال، ما خلّف حقداً وكرهاً تجاهه، فتكاثفت وثارَت ضد حكمه خاصةً بعد اتهامه لها بحرق «روما»، ومعاقبتهم عبر إطعامهم للشمور والأسود (قمة الظلم). جاء تحرك هذه الفئة جماعياً بعكس المعلم «سينيكا»، فنتج عن ذلك قوة لا يمكن إيقافها، فاستطاعت أن تقلب مسار أحداث الحكاية بعزل الحاكم وبقتله وباستلام الحكم وهي نتيجة عادلة ومستحقة.

نجح مطران في توصيف شخصيات هذه الحكاية ونقل تحركاتها ضمن أطر زمنية ومكانية، على الرغم من القالب الشعري العمودي الجامد الذي حدّ من انسيابية الألفاظ الخبرية وسرد الأحداث وتتابع الجمل. وتحركت هذه الشخصيات في إطار مكاني محدد، تعيّن في تحركات الشخصية الرئيسية «نيرون» الذي كان انتقل من روما إلى أثينا، ثم عاد إلى روما. أمّا الزمان فقد تفنن الشاعر في التلاعب به، واستغلّه كعنصر فاعل في سرد أحداث حكايته، حيث انطلق من الحاضر (لحظة الصفر) ليروي أحداثاً حصلت في الماضي. وكرّر الشاعر في استعماله لهذه التقنية (العودة بالزمن إلى الوراء)، فقال مثلاً:

«عدّ عن ذلك واذكر قتله

أمه كم عظة في طي ذكرى»

وعاد بنا أيضًا إلى زمن أمه عندما قتلت عمّه لتوليه الحكم في بعض الأبيات، ثم يعود الشاعر ليتابع التحرك الأساسي الذي يسير إلى الأمام ليكمل لنا الأحداث، ويرجع مجددًا إلى الوراثة لزمّن الامبراطور «قيلقولا» (والد نيرون) الذي سخر من شعبه من خلال تعيين حصانه عضوًا في مجلس حكمه، فقدمه الشاعر كشاهد آخر على أعمال الظلم والفساد المتأصلة في عائلة «نيرون» من جهة، وليبيّن من جهة أخرى، سذاجة هذا الشعب وخضوعه.

تساعد هذه التقنية في توصيف المشهد وتخيّله، فكأنها تقدّم لقطات مشهدية جامعة بين الوصف والسرد وربما الحوار، شبيهة باللقطات السينمائية في الأفلام. ويتابع مطران سرد هذه الوقائع في حيّز زمني أساسي يتقدم ببطء، تعترض طريقه أحداثٌ تعيده إلى الوراثة، ليصل أخيرًا إلى ذكر الفاجعة الكبرى حرق «روما» وشعبها؛ نجح مطران من خلال وصفه لهذه الفاجعة في المقطع الثاني عشر وأن يعكس حالة «نيرون» النفسية، عندما حاول بكتابته الشعرية أن يُصوّر هوس «نيرون» بالفن، فقسم هذا المقطع إلى ثلاث وحدات داخلية تصف هذا الحريق شعرًا فتصويرًا ثم سماعًا، وكأن الشاعر يعرض أمامنا مشهدًا

سينمائيًا كاملًا في مقطع شعري واحد يشكّل جوهر عمله الشعري، فهو بتقسيمه هذا يجسّد شعريًا شكلاً ومضمونًا هوس «نيرون» النفسي بالفن الذي يصل عنده إلى درجة الاختلال العقلي ما دفعه إلى حرق «روما» والاستمتاع برؤية الناس يتألمون ويصرخون ويعانون ليجمع أنواع الفن (الشعر، الرسم، الموسيقى) في عمل فني واحد حقيقي يعبر عن وجع وألم واقعي يشبع به رغباته المريضة.

«قام سورّ حول «روما» ساطع

ناشرًا أعلامه كمثًا وضمّنا

ينظر الغاشم في أقسامها

جدّقه رسماً وموسيقى وشعرا»

ينتهي الشاعر بقول تعميمي يتحرر من أطره الزمانية والمكانية ليكون حكمة صالحة في كل مكان وزمان، في الماضي والحاضر والمستقبل. يوجّه الشاعر من خلالها دعوة مفتوحة للقارئ توعيه وتقدّم له عبرة من هذه الحكاية ورسالة إنسانية تذكره بدوره كمواطن قد يخلق بجهله وخضوعه حاكمًا فاسدًا مثل نيرون. قائلًا:

كلّ قوم خالقو «نيرونهم»

قيصر قيل له أم قيل «كسرى»!

- أسلوب الحوار والوصف السردي

كثرت الجمل الخبرية في هذه القصيدة خاصةً الفعلية، وأكثر الشاعر من استخدام

يدور حوار مباشر بين الشعب وحاكمه، وهو حوار على لسان الشاعر يفتعله، ينطلق من ذاته الشعرية والإنسانية ومن رؤيته الساخرة في الحكم على الأمور، ليساعد القارئ على توصيف الشخصيات وإظهار صفاتهم وسلوكهم المسيبة في الوصول إلى عاقبة نهايتهم، قائلًا:

«قال: بي حسن، فقلت: وبه
يا فقيد الشبه، فُقتَ الناس طرًا»
استعمل الشاعر هذا الحوار وضمّنه قصيدته ليظهر خضوع الشعب لحاكمه والتفاعل الطبيعي القائم بين الأسباب والنتائج المحتومة؛ حيث كان مدح الشعب المزيف لـ «نيرون» نتيجة لزيادة غروره وبطشه.

- خليل مطران بين الشاعر والراوي

أخذ الشاعر دور الراوي الذي يروي أحداث قصة تاريخية واقعية، تخلّت هذه الأحداث بعض المساحات الخاصة بالشاعر؛ ظهر فيها برأيه أو بوجهات ذاتية خاصة به يرى من خلالها هذه الأحداث ويحكم عليها^(١)، فقال مثلًا:

الأفعال الماضية التي تفيد الحركة والدالة على أحداث حصلت في الزمن الماضي (فاز نيرون - شبت النار - زحفت رابية - جمعت أقسام...).

كما نجد أفعالاً بصيغة المضارعة في الأبيات الدالة على الوصف «المباني تتهاوى - الجذى تترامى - الدمى تنقضُ جمرًا...» خدمت هذه الأفعال فن التصوير المشهدي في القصيدة؛ فالشاعر أراد أن ينقل لنا بدقة الأحداث وينقل صورة المأساة ليضعها أمامنا، وكأنه يرسم أمامنا لوحة حيّة من أحداث ماضية يجسدها في مشهدية حركية. ضمّن الشاعر قصيدته الصور والمحسنات اللفظية، كالتشبيه للمساعدة على التصوير الفني الذي يمكن أن يستوعبه البناء الشعري للقصيدة ما يزيد من شعريتها، قائلًا:

«فتلقاه بروما أهلها
كتلقي فاتح فتحًا أغرًا»
كما كثرت أفعال القول في المقاطع السردية القائمة على الحوار بين شخصيات الحكاية، خاصة في المقطع الثامن حيث

(١) ينتج من المحاكاة بين الشعر والسرد ثلاثة أنواع شعرية: الرواية الخالصة التي يرويها الشاعر ذاته ويتكلم فيها بمفرده، وهي تشمل ما نعرفه اليوم بالجنس السرد الخالص، والرواية بالمحاكاة حيث تتكلم الشخصيات وحدها وهي الجنس الدرامي والنوع الثالث هو المزودج حيث يتكلم الشاعر ذاته تارة، والشخصيات تارة أخرى، وهو الشعر الملحمي.

مرايا نرسييس الأنماط النوعية والتشكلات البنائية لقصيدة السرد الحديثة، حاتم الصكر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٩. ص١٦

«لستُ محزونًا على القوم وهل
كبدٌ تلقى على الأندال حرى
غير أنني لي على ابداعه
عتب فنٍ وهو بالإبداع أدري»
كلُّ قومٍ خالقو نبيرونهم
«قيصر» قيل أم قيل له «كسرى»

استغل الشاعر الراوي هذه المساحات
كي يتجه إلى القارئ ويخصّه بالاهتمام،
فهو يريد أن يقيم علاقات تواصلية بينهما
ليرسل رسائل ضمنية إنسانية توعي
الشعب على مبدأ الحرية والمطالبة بها،
ويحفّز شعورهم بالوعي السياسي ودورهم
الفاعل في انتقاء الطبقة الحاكمة.

ونستدل على ظهور الراوي الذاتي
المتسلل بين الأحداث السردية من خلال
وجود ضمير المتكلم: «أني - لي - ضمير
الرفع المتحرك (لستُ)». هذا ما يشير إلى
أمرين أساسيين الأول هو أن وجود الراوي
هو من آليات السرد القصصي، والثاني هو
أن وجوده الذاتي الذي يسعى من خلاله إلى
التأثير على المتلقي وتوجيهه يدل على
النزعة الشعرية الذاتية المسيطرة على هذا
النص الشعري.

ما يجعل هذه الآليات السردية تقنيات
استعارها الشاعر من السرد ووظفها في
البناء الشعري الطاعني والمسيطر. وما يؤكد
ذلك أيضًا الهيئة الشعرية العمودية التي
عرفتها القصيدة العربية الكلاسيكية القائمة

على البيت الشعري بشطريه المتناظرين
وبأوزانه الخليلية وبقافيته الواحدة.

كما أن النزعة الشعرية الذاتية المتحكمة
بالنص والمتمثلة بوجود الجمل الإنشائية
المقابلة للجمل الخبرية خير دليل على ذلك؛
فنرى التنوع الظاهر في أساليب التعبير
كالاستفهام:

«أين منها شأنٌ مُفني عُمره
يتقرى الخلقُ أو يقرأ سفرًا؟»

كما استعمل التوكيد:

«إنَّ روما جعلت «نيرونها»
وهو شرُّ القومِ مما كان شرا»

واستعمل أسلوب التعجب:

«وإذا حرّك رأسًا أكبروا
وحية، لله ذاك الوحي دُرًا!»

واستعمل «الشرط» و«النفى»:

«يختلُّ الناسَ فرادى فإذا
أجمعوا رأيًا أدار الطعنَ نثرًا»

«لم يخل ذلك «نيرون» ولم
يرَ من يأمنها يأمُن وترا»

عرف الراوي مسار أحداث هذه الحكاية
مسبقًا، فوظف السرد في بنائه الشعري

المهيمن، وسردها ضمن تنوع أسلوبه
ذاتي مستنكرًا حينًا بسؤاله، ومتعجبًا حينًا
آخر من الجهل المسيطر على شعب روما،
مؤكدًا النتيجة الحاصلة وهي أن روما
(الشعب) هي التي جعلت نبيرونها وقوته.

القارئ ويثير فضوله في معرفة الأحداث اللاحقة.

- أهداف الشاعر من نظم القصيدة

كان لخليل مطران أسباب كثيرة دفعت به إلى نظم هذه القصيدة، قائلًا في ديوانه: «أتيتُ بمجهود في التماس غاية، وما اتيتُ بأية»^(١). فما هي غاية الشاعر الرئيسية؟ وما أهم العوامل التي أثرت عليه؟

من خلال العودة إلى سيرة خليل مطران الشاعر والأديب والصحفي ومقاربتها بما جاءت به القصيدة يمكننا الكشف عن أهم العوامل التي أثرت على عملية نظم هذه القصيدة وعلى بنائها الشعري.

١ - العامل الفني:

تأثر الشاعر بالثقافة الأوروبية، وخاصةً الفرنسية بعد أن اطلع على أدب الرومانسيين وأفكارهم. فأراد أن ينقل صورة التطور الأدبي إلى بلده بهدف التجديد ومواكبة التطورات الثقافية الأدبية والجمالية، وهذا ما أثر على بناء قصيدته وعلى أسلوب كتابته الشعرية؛ فأدخل عنصر المطولات السردية في الموضوع الواحد لإنشاء تجربة جديدة من شأنها أن ترد اتهام اللغة العربية بالعجز عن مجازاة الثقافة الغربية؛ ونجح مطران في ذلك،

ظهرت ضمن الهيئة البصرية الطباعية علامات غير لغوية تشير إلى آليات السرد في ذلك الوقت، حيث أنّ الجمل الخبرية حتمت على الشاعر استعمال علامات الترقيم في بعض الأحيان لغايات نحوية وشكلية تحدد نهاية الجمل، وتسهّل عملية القراءة عند المتلقي، خاصةً في المقاطع الحوارية التي تستوجي استعمال علامات ترقيم خاصة كالنقطتين (:). بعد فعل القول:

«قال: بي حسن، فقالت: وبه

يا فقيد الشبه، فُفَّتْ الناس طرًا»

ونرى الفاصلة (،) أيضًا لتحديد نهاية الجمل، وغيرها من علامات الترقيم كعلافة الاستفهام والتعجب... واستعمل الشاعر المزدوجين (" ") للدلالة على أسماء العلم: «روما» - «نيرون» - «كسرى»...

وكثر أيضًا أدوات الترابط المستخدمة من أحرف عطف «و - ثم - ف» التي تزيد من ترابط الجمل وأحداث الحكاية. كما استعمل الشاعر بعض الكلمات الدالة على السرد القصصي الحكائي لمخاطبة القراء، كـ «سنرى، عدّ عن ذلك...» وهي كلمات نسمعها على لسان الرواة دائمًا، تفتج أبواب التواصل بين الراوي والمتلقي، فيثير بواسطتها الراوي عنصر التشويق عند

(١) ديوان الخليل، خليل مطران، المجلد الثاني، دار الجيل، بيروت، طبعة جديدة ١٩٧٧، ص ١٠٠.

فجدد في الأسلوب والبناء الفني للقصيدة العربية، ودمج عناصر أدبية مغايرة في طبيعتها عن الشعر في بناء قصيدته (عناصر السرد)، ليحقق وحدتها العضوية من دون أن ينسلخ عن تراثه الشعري العربي، ملتزمًا بهيئة القصيدة العمودية القديمة القائمة على البيت الشعري بشطريه المتناظرين وبأوزانه الخليلية وبقافيته الواحدة.

ولذلك كان مطران من شعراء مدرسة الإحياء، وكانت حركة الإحياء مقدمة لظهور مدرسة الكلاسيكية الحديثة،

٢ - العامل الإنساني:

لا يرى مطران الشعر مجرد وظيفة لغوية جمالية، بل عليه أن يكون رسالة وجدان وفكر ودعوة لإصلاح للأجيال الحاضرة واللاحقة؛ فكانت الغاية الأساسية من نظم قصيدته إيصال رسالة إنسانية ضمنية تصلح المجتمع وتساهم في تربيته.

لم ينتق مطران حكاية تاريخية عربية ليفخر بتراثه التاريخي، بل وقع اختياره على حكاية تاريخية عالمية فوظف التراث الأدبي العالمي كاستشهاد مناسب لنقل ما يريد إيصاله إلى القارئ. فمن هذه الحكاية يستخلص القارئ عبرة توعيه من أجل المطالبة بحقوقه كإنسان وكمواطن له دور فاعل في تحديد مصير عيشه.

٣ - العامل السياسي:

نلاحظ في أشعار مطران نزعة سياسية واضحة، فهو دائمًا يهاجم الحكم السياسي الديكتاتوري المستبد وينادي إلى تحرير الشعوب كارهاً جهلهم وعاتباً عليهم. فمثلاً يقول الشاعر في مقتل «بزرجمهر»:

«سجدوا لكسرى إذ بدا إجلالاً

كسجودهم للشمس إذ تتلالا

هم حكموه فاستبد تحكماً

وهم أرادوا أن يصول فصالا

والجهل داء قد تقادم عهده

في العالمين ولا يزال عضالا»

هذه النزعة السياسية الساعية إلى تحرير الشعوب تتجلى بوضوح في سيرة الشاعر؛ فقد قام بنشر أول قصيدة له باسم «معركة ايانا» التي لقيت مقاومة عنيفة لما فيها من انتهاج حديث في الشعر، حيث علا صوته تأثراً على الاستبداد الحميدي ودعا إلى الوعي القومي، فلاحقه الحكام وأوقفوه وضيقوا عليه، فهرب إلى باريس وأقام فترة طويلة يدرس الأدب الفرنسي والانكليزي، واتصل برجال الحركة الوطنية التركية من أعضاء حزب «تركيا الفتاة»، فضيقت عليه الحكومة التركية أكثر، ثم قصد مصر وشارك بشارة تقلا في تحرير جريدة «الأهرام» كما أنشأ جريدة «الجوانب المصرية» وهي صحيفة يومية اشترك في

تأسيسها مع الشيخ يوسف الخازن^(١).

حفل تاريخ الشاعر بالانضالات السياسية والوطنية، كما حفلت نصوصه الشعرية بالرسائل الضمنية الهادفة إلى تحرير الشعوب.

قائلاً: «كنت أرى آلام الشعوب وتعاستها، وأنكرها واعتقد أنها متأتية من جهل الشعوب، فأردت أن تشعر الشعوب بمسؤوليتها بحقها في الحياة الحرّة السعيدة، وأن لا تتنازل عنه على الرغم من التهديد»^(٢).

تعبر رسالة الشاعر زمن الماضي فانتزعت منه أحداث حكاية الامبراطور «نيرون» لتصل إلى زمن الشاعر، متوجهة إلى الشعوب العربية الخاضعة بإرادتها لظلم واستبداد الحكّام العرب، الواقفة موقف الصامت المتفرج على الانتهاكات الإنسانية الحاصلة. وتتعدى هذه الرسالة حاضر الشاعر إلى المستقبل لتعبّر عن واقع كثير من الدول العربية التي لا تزال تشهد نيرونها الخاص، متوجهة من جهة إلى الشعوب العربية المريضة المصابة بداء الجهل حتى يومنا هذا - فهو على حد قوله لا يزال عضالاً - مقدرة كل محاولات

الشعوب الثائرة على ظلم وفساد نيرونها، من جهة ثانية.

وظّف الشاعر خليل مطران آليات السرد في بناء قصيدته «نيرون» لمقاصد تعبيرية أرادها وقد حققت وحدتها العضوية، وعكست شعريتها، فجاءت في بناء متماسك طويل ذا نزعة قصصية ملحمية بين السرد والشعر، من جهة، وبين القديم والجديد من جهة أخرى، له قوة خطابية شعرية فاعلة ومؤثرة على القارئ. اندمجت كل هذه العناصر في بوتقة دلالية واحدة مثلت تجربة شعرية أصيلة أبقت على هوية القصيدة العربية المعروفة وعلى خصائص البناء الشعري، ولكنها جاءت بروح جديدة فتحت أبواب التناسل بين الأنواع الأدبية وبين النصوص الأدبية والتاريخية. وكانت هذه القصيدة خير مثال على إمكانيات القصيدة الموروثة بقيودها في الوزن والقافية التي لا تحد الوحدة الموضوعية والعضوية إذا تيسر للعمل الفني شاعر عظيم كمطران يعرف عمق هذه الإمكانيات ويوظفها بما يخدم أغراضه الفنية.

(١) خليل مطران باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث، ميشال جحا، ص ٧٩-٨٥.

(٢) الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش، ميشال خليل جحا، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٩٩، ص ٩٠.

لائحة المصادر والمراجع

- أنس داود، رواد التجديد في الشعر العربي الحديث، دار الجيل للطباعة، ١٩٧٥.
- جورج طراد، وعي النقد ومبادئ التأسيس (خليل مطران أنموذجاً)، مؤتمر «النقد العربي الحديث بين التنظير والتأسيس، المعهد العالي للدكتوراه، الجامعة اللبنانية، في ١٢ - ١٢ - ٢٠١٩.
- جيرار جنبت، كتاب أطراس: الأدب في الدرجة الثانية. ترجمة المختار حسني للفصل الأول، فكر ونقد، ١٩٩٩.
- حاتم الصكر، مرايا ترسيب الأنماط النوعية والتشكلات البنائية لقصيدة السرد الحديثة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٩٩٩.
- خليل مطران، ديوان الخليل، المجلد الثاني، دار الجيل، طبعة جديدة، بيروت، ١٩٧٧.
- خير الدين الزركلي، معجم المُتجدد في الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة السابعة، بيروت، ١٩٨٦.
- لويس معلوف، المُتجدد في اللغة والأدب والعلوم، الطبعة التاسعة عشرة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
- محمد عزام، النقد والدلالة نحو تحليل سمياني للأدب، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٦.
- ميشال جحا، خليل مطران باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث، دار المسيرة، ط١، بيروت، ١٩٨١م.
- ميشال جحا، الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش، دار العودة ودار الثقافة، ط١، بيروت، ١٩٩٩.

بين سيميائية العنوان والمضمون ديوان صدى الرّوح للشاعر حسين مصطفى أنموذجاً

د.درية فرحات^(١)

إنسانيّ أو يشوّه الإنسان ويبعده عن الحياة، أي يبعده عن الحرية والكرامة والجمال والانسجام في الظاهر والباطن على السّواء.

الشّعر خطاب لغويّ يفرغ في قالب نظام اصطلاحي، يشكّل بالضرورة عملية اتّصال. وليس هناك من نتاج شعريّ لا يتضمّن عناصر مرجعية مهما كان مشحوناً بالقوّة وبالتّعبير، ويحدث التّآلف بين هذه العناصر مستندة إلى اللّغة الشعريّة التي تشكّل الوعاء الذي يحمل مشاعر الشّاعر وأحاسيسه، في نتاج تلاحم وانصهار اللفظ مع المعنى مكوّناً نسيجاً جديداً أو مولوداً جديداً نسميه النّصّ. ويستمدّ النّصّ الأدبيّ وجوده من لقائه بالمتلقي، وعلى هذا الأساس يمكن حسابان عنصر التّقبل جانباً مهماً في تذوّق النّصوص والوقوف على ما تشتمل عليه من جوانب فنيّة، تدفع به إلى

الشّعر هو مجمل عواطف النّفس ونزواتها، يبدو تارة زفرات حرّى يُصعّدها صدر هائج، وطوراً ابتسامات عذبة تعلو ثغراً جميلاً. وقد تتسع دائرته بعض الأحيان، فيعبّر عن عواطف جمهور من النّفوس، بل ربّما عبّر عن عواطف أمة بأسرها، والشّاعر هو الذي يشعر بعواطفه الشّخصيّة أو بعواطف غيره من حبّ وبغض وفرح وحزن، فيراها منعكسة على مرآة نفسه فيبرزها إلى الخارج بطريقة تجعلنا شاعرين معه ببعض تلك العواطف.

وقد يصعب تعريف الشّعر، لكنّنا نقترّب منه إذا قلنا إنّ الشّعر حياة ومسوّغ حياة، ومن الطّبيعيّ أن يدافع عن أجمل وأنبل ما في الحياة وهو الإنسان. ومن الطّبيعيّ أيضاً أن يكون الشّعر في جانب كبير منه على أقلّ تقدير، وبصورة غير مباشرة في معظم الأحيان حرباً مقدسة على كلّ ما هو غير

(١) أستاذة متعاقدة في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب الفرع الخامس - صيدا.

إعادة بناء الرؤية على حسب طبعه ونفسيته.

والنصّ الذي بين أيدينا هو «صدي الروح»^(١) للشاعر الأستاذ حسين مصطفى، يرسل لنا ما في وجدانه وقلبه وإحساسه، ويهدي ديوانه إلى الذين يبادلونه الحبّ والتقدير والاحترام، فهو يتوجّه إلى متلقيه يدعوهم إلى التناغم معه، واللافت في إهدائه هو الخصوصية الجامعة، الخصوصية التي تشترط الحبّ والتقدير والاحترام، والجامعة لأنها قد تكون لكلّ من يمتلك هذه الخلال. وتستمر هذه المشاركة مع الشاعر فيذكر في مقدمته أنّ كتابه هذا هو أصداء للروح ينثرها حيث للأرواح صدى، فيجتمع مع القراء في الحبّ والمعاناة والرؤى. فكيف تجلّت هذه الرؤية في ديوان الشاعر، وكيف سيكون التلاقي بين روح الشاعر ومتلقيه؟

ولعلّ أوّل ما يستوقفنا في ديوان الشاعر هو عنوانه، والعنوان تعريف للمكتوب، به يعرف الكتاب ويتميز عن غيره، وهو تجميع واختزال لنوى كتابية متناثرة وموسعة في فضاء الكتاب، وقد قال

السّيوطي: «عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة موجزة في أوّله»^(٢)، إنّه مادة لغوية ترتبط بموضوعها الكليّ الذي تُعنونه، وتعمل على تلخيص المقاصد الكبرى والرئيسية فيه، تسهيلاً لعملية الاطلاع والبحث، فالمرسل «يتأوّل عمله ويجدد مقاصده، وعلى ضوء تلك المقاصد يضع عنواناً له، مع الحرص على الاقتصاد والتّركيز اللغويّ ما أمكن»^(٣). ودراسة العنوان من الآليات التي اهتمّت بها الدّراسات السّيميائية فكانت دراسة مجموع النّصوص التي تحيط بمتن الكتاب من جميع جوانبه: حواش وهوامش وعناوين رئيسية وأخرى فرعية وفهارس ومقدمات وخاتمة وغيرها من بيانات النشر المعروفة التي تشكل في الوقت ذاته نظاماً إشارياً ومعرفياً لا يقل أهمية عن المتن الذي يحيط به، بل إنّه يؤدّي دوراً مهماً في نوعية القراءة وتوجيهها^(٤).

يتكوّن عنوان الديوان من قسمين: عنوان أساسيّ وعنوان فرعيّ. العنوان الأساسيّ يتكون من كلمتين «صدي الروح»، ومن

(١) حسين مصطفى، صدي الروح، بيروت، دار المحجة البيضاء، ط١، ٢٠١٨.

(٢) السّيوطي، الاتقان في علوم القرآن، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط٢، ١٩٩١، ج ٢، ص ٢٣١.

(٣) محمد فكري الجزار، العنوان وسميوطيقا الاتّصال الأدبيّ، سلسلة دراسات أدبيّة، القاهرة، الهيئة المصريّة للكتاب، ١٩٩٨، ص ١٩.

(٤) عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، إفريقيا الشرق ٢٠٠٠، الدار البيضاء، بيروت، ٢٠٠٠ ص ٢٣.

(أل) التّعريفية للاسم لا تفيد بنفسها تحديداً للمعرّف بها، على عكس التّعريف بالإضافة، لأنّ التّعريف بالإضافة في اللغة خاص بإنّاج دلالة أكثر تحديداً كما يتّضح من (الصدى) و(صدى الرّوح)، هذه بالإضافة التي تفتح الباب لمجازات متعدّدة، وعليه فإنّ العنوان هنا استمدّ تعريفه من الاسم الذي تلاه لا من ذاته، فالمعنى لم يتمّ إلا بالكلمتين المركبتين معاً، والتركيّب الإضافي هنا يحدّد المعنى ويخصّصه.

والصدى لغويّاً يعني «رَجُعُ الصَّوْتِ يَرُدُّهُ جِسْمٌ عَاكِسٌ كَالْجَبَلِ أَوْ الْمَغَارَةِ، أَوْ بِهِ قَصْرٌ وَاسِعٌ الْأَرْجَاءِ»^(١)، وجاءت كلمة الرّوح، لتعمّق مفهوم الصدى، فما هذا التّرجيع إلا أنعكاس لما في الرّوح من آمال وآلام، أو أمان وأهات، أو أحلام وأضغاث واقع أليم، ويؤكد الشّاعر هذه الدّلالة السّيميائية للعنوان فيرى أنّ للأرواح صدى، وللأصداء روحاً، فما الدّيوان بقصائده إلا إنعكاس لهذه الذات العابقة بنبض الحياة.

أمّا العنوان الفرعي فاقصر على كلمة «شعر»، وهي كلمة مفردة نكرة جاء كمؤشر جنسي ومحدّد لطبيعة العمل ونوعه بوصفه شعراً، ومن هنا فهو حقّق غرضه في غلاف

عنوان فرعي «شعر»، وكما يقول جيران جينت فإنّ العنوان مجموعة من العلامات اللسانية يمكن أن توضع على رأس النصّ لتحده، ومن خلاله يمكن أن نصل إلى دلالات متعدّدة، فهكذا يقودنا عنوان هذا الكتاب إلى فهم دلالاته ووظيفته، فهو من أهمّ العتبات النصية الموازية المحيطة بالنصّ الرئيس، حيث يساهم في توضيح دلالات النصّ، واستكشاف معانيه الظاهرة والخفية إن فهماً وإن تفسيراً وإن تفكيكاً وإن تركيباً. ومن ثمّ فالعنوان هو المفتاح الضروري لسبر أغوار النصّ، والتعمق في شعبه التائهة، والسفر في دهاليزه الممتدة. إذ نحن أمام عنوان يحتاج إلى دراسة علاماته السيميائية من نواحٍ عدّة. فما هي البنى التي يتكون منها العنوان؟

يتكوّن العنوان الرئيسي من كلمتين، العلاقة القائمة بينهما هي علاقة بالإضافة، والإضافة لدى النّحاة هي ضم اسم إلى آخر مع تنزيل الثّاني من الأوّل منزلة تنوينية، أو ما يقوم مقام تنوينه، وبحيث لا يتمّ المعنى الممقصد إلا بالكلمتين المركبتين معاً، ولذلك كان للمضاف إليه وظيفة تعريف المضاف وتخصيصه وكأثّه ما جيء به إلا لينوب عن (أل) التّعريف التي حذفّت من الاسم الذي أضيفت إليه، ولكن

(١) ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، لا ط، جزء ١٥، مادة صدى، ١٩٩٢.

العنوان ليؤسس بخفاء بروتوكولات للقراءة وتوجيهها للقارئ في عملية القراءة ذاتها.

أمّا علاقة العنوان بالنصوص الموازية الأخرى، فقد اكتملت فجاء في أعلى يمين الصفحة اسم المؤلف تأكيداً للحضور وللذات المنجزة. وقد اشتمل الغلاف على الرّسمة التي جاءت على امتداد الغلاف وخلفية للعنوان، ومن مكوناتها المطر والبحر الهائج، والغيوم الداكنة السوداء، ولعلّها تشير الى ما في داخل الشاعر من اضطرابات وقلق جعلت روحه تنشد الأمان وفسحة الأمل، ويظهر في الرّسمة ما يشير الى صعود هذه الرّوح، وفي ذلك إشارة إلى نفسية الشاعر المتألّمة الحزينة وفي حلقها يعتصر الألم.

ومن خلال هذه العلامات في صفحة الغلاف، نرى أنّ هذا الديوان ينطلق من مفاتيح أساسية تصل إلى غاية الشاعر، فتصميم الغلاف لم يعد حلية شكلية بقدر ما يكون هو المؤشر الدال على الأبعاد الإيحائية للنصّ.

العنوان ودلالات القصائد الأخرى في الديوان:

ومتابعة العلامات السيمائية تقودنا إلى دراسة العناوين الأخرى في الديوان، فلا يقصد بالعنوان فقط العنوان المركزي للكتاب، إذ هناك ما يسمى بالعنوان الفرعي، وهو إشارة أو إشارات لغوية تحدّد بدقة

موضوع الكتاب، فداخل الكلّ الشاسع الذي يميل إليه العنوان المركزي، نجد تخصيصاً لجانب من جوانب الموضوع، أو مسألة خاصة أو نموذج بعينه. هو إذًا عنوان ثانٍ يحدّ من شساعة أفق التّصوّر التي يخلقها العنوان الرّئيس. إذا انطلقنا من العنوان وتصفّحنا عناوين القصائد داخل الديوان نرى أنّها تقودنا إلى تقسيم المحتوى إلى عدّة أقسام:

الأوّل منها ما له علاقة بالقيم الدّينية والمناسبات، فكانت قصيدة ذكرى المولد النبويّ الشّريف هي افتتاح الديوان، ويرد أيضًا في هذا المجال قصيدة عن نهج البلاغة للإمام علي، وإلى روح العلامة السيّد محمد حسين فضل الله، وقصيدة في تكريم المربيّة ليلي صياح، وإلى روح صديقه محمد عقل، وآخرها قصيدته إلى المعلم، واللّافت في اختياره لعناوين هذه القصائد أنّها جاءت مباشرة وواضحة، فحملت اسم المناسبة أو اسم الشّخصية، ولعلّ ذلك يعود إلى طبيعة مضمون هذه القصائد، وكثير الجدال حول «شعر المناسبات» وبات قضية إشكالية بين مطالب بهجره تمامًا وبين أصوات لا ترى ضيرًا في استمرارية حضوره ومواكبته لواقعنا، ومع ذلك فيمكن القول بأنّ شاعرنا حسين مصطفى قد انفلت من قيد المناسبة، ومن قبضة التّأبين، ليحلّق في فضاء الحياة

والموت أو في قيم الحياة ونشدان القيم الوطنية.

بعض منها على مباشرتها الواضحة كما في قصيدة «في رثاء والدي».

والثاني ما له علاقة بقضايا الوطن والعروبة وفلسطين، وما تتضمنه من فكر وعقيدة وتمجيد، ونقرأ في هذا القسم ما يقارب الستة عشر عنواناً، وقد تنوعت العناوين بين المباشرة كالقصيدة الموسومة بـ «فادي قنبر»، وهي موجهة إلى هذا البطل الفلسطيني، ومنها ما يصل إلى بعده المجازي الموحى كالقصيدة الموسومة بـ «شفار سيفك».

أما القسم الأخير فقد ارتبط بموضوع يتعلّق بالقلب والوجدان، أي موضوع الحبّ والغزل، وقد كثرت العناوين ضمن هذا القسم، فوصلت إلى ما يقارب الخمسة عشر عنواناً، ومن الطبيعيّ أن تلبس لغة الشاعر في اختياره لهذه العناوين، فجاءت معبرة عن حقل الحبّ: غزل - حباً - خيالي - ملاكاً - الهوى - قبل - شوق - أحبك - شريك - عاشق - حبيبة... وغيرها.

أما القسم الثالث من عناوين القصائد فيندرج ضمن موضوع القيم والمثل فنقرأ ما يقارب سبع قصائد، فيها تمجيد للعلم والعمل، وفيها أيضاً ما له علاقة بالفساد المستشري في البلاد.

ودراسة هذه العناوين بأقسامها ترتبط بالعنوان الأساسي للديوان، وإذا كان العنوان الخارجي يعنون الكتاب ككل، فإنّ العناوين الداخليّة تسم الأجزاء الصغرى وتحدّد مضامينها أو توحى بها، أو ترتبط بها بأي شكل من أشكال الارتباط التام أو الجزئي، واللافت أنّ الشاعر لم يختار لديوانه عنواناً من العناوين الداخليّة، لكنّه عنوان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بكل قصيدة من الديوان، لأنّه، عود على بدء، كما ذكر الشاعر في مقدمة ديوانه، يقول:

صدي الروح، اقرأني

بالشعر نرتقي معاً

والكتابة بيت المعرفة

افتح صديّ وحدودك وتطلّعاً⁽¹⁾

وفي القسم الرابع تتجمّع القصائد التي لها علاقة بالعائلة أمّاً وأباً وزوجة وأبناء، مع الإشارة إلى قصيدة يُشير فيها إلى علاقته بالأصدقاء، وقد وصلت إلى سبع قصائد بعنوانها الكبير مع انشطار بعضها إلى فروع عديدة. وقراءة عناوين هذا القسم ترقى بلغتها إلى الشعريّة ورقة اللّغة في معظمها، كما في العناوين: «نغم في القلب»، «ترانيم قدسية» / «أغلى أمانينا»، وحافظت

(1) حسين مصطفى، صدي الروح، ص 7.

أبنائه ومن وطنه ومن حبيبته السّمراء
وحُرم نعمة الحرّيّة:

من يدخل بستاني الأخضر

من تنشق عطراً

من يسكر

من يشرب ماء الكوثر

هل يحلم بالأطياب

أم يغرق بالأحباب^(١)

ويؤكد الشّاعر عاطفته عبر تكرار كلمة «بابا» في التي يفقد سماعها، فيرى الجنة في هذه الكلمة. هي مشاعر صادقة ترسم صدى الرّوح.

وكم هو جميل هذا الإحساس عند الشّاعر في إعلان انتمائه العروبيّ: «عربيٌّ وافتخاري أن أكونا». هذا الانتماء يدفعه إلى التّماهي مع قضايا وطنه وأمتّه العربيّة، فتكون صرخته المدوي الدّاعية إلى الغضب: فيقول في قصيدة فادي قنبر: «أطلق حقداً فجّر غضباً»، ليتكرر هذا المعنى في قصيدة لمناسبة يوم الأرض: «أطلق حجراً... أشعل صرخة»، هي دعوة صريحة للتّخلّص من العهر السياسي، وليكون هذا الحجر هو القادر على تطهير وجه العرب الي تدنّس قاداته بإثم العمالة الخزي والعار:

فبغاة بلادي لا ترحم

ففي كلماته الموجزة يعبّر عن معانٍ عديدة، هي دعوة منه إلى الارتقاء، ولن يكون ذلك إلا عبر الشّعور، وما المعرفة إلا عبر الكتابة، وما هذه الخربشات على الورق إلا نتيجة قراءة ما في روحه، فكان ترجيع هذه المشاعر والأحاسيس، دافعاً للتّطلع إلى الأمام وإلى ما بعد الحدود، وما أجمل ما يقدّمه الشّاعر من صدى روحه إلى الناس جميعاً.

إنّ قيمة الجمال الذي يحمله عنوان ديوان شعريّ ما، هو محاولة للكشف عن الطاقة الإبداعية الكبرى الكامنة في صناعة العناوين. فالعنوان الموجز المسبوك بجمال وفنيّة، يكسب القارئ بهجة تفكيكه للكشف عن المعنى، ولل يكسب الديوان إذا لم يتحقّق التوازي بين العنوان والمضمون.

وفي هذه العجالة من الحديث سنسمح لأنفسنا أن نقدّم نماذج أبداع فيها شاعرنا، واستطاع أن يخرج ما في مكنونات صدره المزدحم بالأهات والآلام، وهل أجمل من عاطفة الإبوة، فكيف إذا حُرم الأب منها، أو أجبرته الظّروف على الابتعاد عن أبنائه، فجاءت ترانيم قدسيّة معبرة عن هذا الإحساس الدّافق في صدر الشّاعر، وقد كتبها في في الفترة التي سُجن فيها في سوريا، فيها مناجاة سجين متألّم، حُرم من

(١) المصدر نفسه، ص ١٠١.

بالنهد تبيع شريف ضمائرهما

تختال على موت حرائرها

وجباه السادة لا تندي^(١)

لكنّ الأمل مرسوم أمامنا بوجود مقاوم
مناضل يواجه العدو الخارجي والداخلي،
فيؤكد الشاعر دعوته بالمقاومة:

قاوم.. ناضل.. أطلق دمك القاني

أشهر حجرًا.. كفاً

طهر وجه العرب^(٢)

واللافت أنّ الشاعر قد وحد رؤيته في
هاتين القصيدتين، فكانت إحداهما صدى
للثانية، وتكاملاً معاً ليرسما وحدة سارية
عند الشاعر، فتشابها بالمعاني وبالتفاعيل،
وما ذلك إلاّ لأنهما مرآة لصدى روح الشاعر
المقاومة والمناضلة.

تمخضت نصوص الديوان من رحم
دلالات لغوية بديعية واتحاد بين التعبير
والمضمون في إطار البيئة التجريبية
للشاعر، فهي مزيج لفنون وآداب وتجارب
مرّ بها الشاعر واختزلها في عقله الباطن
مكوّنة له نبراساً وضوءاً تنير له المعاني
كلما أراد أن ينسج منها نصاً فنياً مميزاً،
متوجّحاً ذلك بعنوان يحدد هوية الديوان،
ويختزل المقصود، ويوحى بالبعيد، وبما أنّه
كذلك فهو يغري المتلقين ويثيرهم للاطلاع
على محتويات الديوان.

المصادر والمراجع

- ١ - ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، لا ط، جزء ١٥، مادة صدى، ١٩٩٢.
- ٢ - بلال، عبد الرزاق، مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، إفريقيا الشرق ٢٠٠٠، الدار البيضاء، بيروت، ٢٠٠٠.
- ٣ - الجزائر، محمد فكري، العنوان وسميوطيقا الاتصال الأدبي، سلسلة دراسات أدبية، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٨.
- ٤ - السيوطي، الانتقان في علوم القرآن، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٩٩١، ج ٢.
- ٥ - مصطفى، حسين، صدى الروح، بيروت، دار المحجة البيضاء، ط ١، ٢٠١٨.

(١) المصدر نفسه، ص ١٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩.

مدى توافق الخرائط في كتب الجغرافيا المدرسية مع خصائص الخرائط الجيدة

جوزيان جرجس عازار

المعارف بل المهارات المبنية على أسس معرفية، إذ «إنّ التعلّم هو صفة من صفات الإنسان الذي يسعى دائماً إلى العلم والمعرفة وسبر أغوار المجهول. أمّا تعليمياً فهو يختص بالتلميذ الذي يسعى من خلال تعلّمه نحو تحقيق ذاته بدوافعها واحتياجاتها ورغباتها، عبر: اكتساب العلوم والمعارف والمهارات» (الشكر، ٢٠١٠، ص٧٩). هذه المهارات تكون متنوّعة وعلى عدّة مستويات: مهارات النظرية النقدية، مهارات التحليل والبحث، مهارات التخطيط والتنظيم... تؤدي كل مادة دراسية دورها في تحقيق أهداف التربية الحديثة، والجغرافيا كسائر العلوم التطبيقية توظّف أهدافها في سبيل تنمية المهارات عند المتعلّمين، ولکنها تتميّز بمسألة استخدام الخرائط، «وتعتبر الخرائط أكثر الوسائل التي يلجأ إليها الجغرافي لأهميتها الخاصة كونها الأداة التي يمكن أن توزّع عليها معظم المعلومات الجغرافية. وقد دفعت هذه

مقدمة إنّ التقدّم السريع في مجال التكنولوجيا المعلومات والاتصال، له أثر كبير على الأفراد والمجتمعات وعلى العالم بأسره، بما لهذا التطوّر من دور مهم محوري شمل كافة جوانب الحياة وأخذت تبحر في عالمنا حتى جعلت العالم قرية صغيرة، ففي كل يوم تكتشف العديد من الوسائل والأساليب التي تساعد في خدمة الإنسان وزيادة معلوماته ورفع مستوى قدراته. «(الحربي، ٢٠١٩، ص١). مع تزايد مصادر المعلومات تغيّرت نظرة المتعلّم للمعلّم فلم يعد هذا الأخير المصدر الوحيد للمعرفة، فكبسة زرٍ يتمكّن المتعلّم من الاطلاع على كم هائلٍ من المعلومات تلغي دور المعلم كناشر للمعرفة. وللحفاظ على دور المعلّم في العملية التعليمية - التعليمية، لا بد من المعلم اختيار دور أكثر فعالية مع جيل التكنولوجيا وهو: تنمية مهارات المتعلّم. تتوجه التربية الحديثة نحو تعليم يسعى لاكساب المتعلم ليس فقط

الشروط اللازمة للخرائط الجيدة. لذا تمّ اختيار البحث بعنوان: «مدى توافق الخرائط في كتب الجغرافيا المدرسية مع خصائص الخرائط الجيدة».

١ - إشكالية البحث: بالرغم من تعدّد الأبحاث التي تناولت خصائص الخرائط الجيدة التي يمكن المعلم والمؤلف من الاطلاع عليها بسهولة، وبالرغم من أنّ تأليف الكتب في دور النشر التابع لمؤسسات خاصة يخضع لتجديد مستمرّ فإنّ الاحتياجات تتكرّر حول وجود ثغرات في الخرائط بحيث لا تتوافق مع خصائص الخرائط الجيدة، ممّا يفقد الخريطة قيمتها العلمية وبالتالي يؤثّر على تعليم مادة الجغرافيا فيترقّع التلميذ من صف لآخر دون إكتساب مهارة أساسية في تعليم الجغرافيا وهي: قراءة، وتحليل، وتنفيذ خريطة، ممّا يؤثّر سلبيّاً على معدّل مادة الجغرافيا في الشهادة المتوسطة وهو الأدنى بين المواد الاجتماعية (١١,٧٨)، حسب إحصاءات المركز التربوي للبحوث والانماء للعام الدراسي ٢٠١٨ - ٢٠١٩. لذا من المهم البحث عن مدى توافق الخرائط في كتب الجغرافيا مع خصائص الخرائط الجيدة، ووضعها بين أيدي المشاركين في العملية التربوية (مؤلف، معلّم، متعلّم)، من أجل تحقيق أحد أهم الاهداف العامة والخاصة لمادة الجغرافيا.

الحقيقة الكثير من الجغرافيين إلى ترديد أن الجغرافيا لا شيء سوى الخرائط Geography is nothing but maps إلى القول If you can't map it scrap it بمعنى أن المعلومات الجغرافية التي تحصل عليها إذا لم تكن تستطيع تعريفها وتمثيلها على الخريطة فإنّها معلومات تخرج عن نطاق الجغرافيا» (الجوهرى، ١٩٩٧، ص ١٠). يكتسب المتعلّم المهارات في العملية التعليمية - التعليمية بالاعتماد على الكتاب المدرسيّ الذي يحتلّ «موقعا أساسيا في العملية التعليمية - التعليمية إذ أنه يجسّد الغايات والأهداف - التربوية والعلمية والمدنية للمناهج الجديدة التي أعطته وظائف متعددة حسب المفهوم الحديث للمنهج، إن الاستثمار المنظمّ للمستندات هو الأكثر استخداماً في المدارس حالياً لأنّ المعلّم يعتمد بشكل كبير على الكتاب المدرسي» (بدران، ٢٠١٢، ص ٧٢). كذلك تعتمد الامتحانات الرسمية على الخرائط وقراءتها وتحليلها، ويعبّر التربويون والمهتمون بديداكتيك الجغرافيا عن نقدهم لهذه الخرائط بعد كل امتحان رسميّ سواء في الشهادة المتوسطة أو في الشهادة الثانوية العامة بجميع فروعها، ممّا يؤكّد على ضرورة الاهتمام بهذه الوسيلة التعليمية الأساسية في تدريس الجغرافيا وفي تقويم تحصيل التلاميذ لكي تستوفي

بناءً على ما سبق يمكن طرح الإشكالية التالية: هل تتوافق الخرائط الواردة في كتب الجغرافيا المدرسية مع خصائص الخرائط الجيدة؟ يتفرع من هذا السؤال الأساسي سؤالان فرعيان: للإجابة على هذه الإشكالية يحاول هذا البحث إيجاد أجوبة على الأسئلة التالية: - هل تلبي الخرائط في كتب الجغرافيا شروط الخريطة الجيدة من حيث الشكل والمحتوى؟ وهل تساهم الأسئلة المرفقة بالخرائط بإكساب المتعلم مهارات قراءتها وتحليلها؟

٢ - فرضيات البحث بناء على الأسئلة أعلاه تمت صياغة الفرضيتين التاليتين: لا تتوافق الخرائط الواردة في كتب الجغرافيا مع خصائص الخرائط الجيدة، ولا تساهم الأسئلة المطروحة حول الخرائط بإكساب المتعلم مهارات قراءة وتحليل الخريطة الجغرافية.

٣ - أهداف البحث: بالإضافة الى الهدف العام وهو تحسين عملية تعلم وتعليم الجغرافيا، تهدف الدراسة إلى: توضيح مفهوم الخرائط، وأهميتها ووظائفها، وتحديد خصائص الخرائط الجيدة لتحقيق أهداف تدريس الجغرافيا، وإطلاع المعلمين والمؤلفين على كيفية إنتاج خرائط تعليمية تحقق الاهداف المرجوة، وطرح أسئلة حولها تساعد المتعلم على اكتساب مهارات الخرائط الجغرافية.

٤ - أهمية البحث: تكمن أهمية هذا البحث في أنه يلقي الضوء على الثغرات الموجودة في خرائط كتب الجغرافيا المدرسية، ويشكل نموذجاً لكيفية إعداد خريطة جغرافية صحيحة، يفيد معلّم ومعلّمت الجغرافيا وبالتالي تلاميذ، ويعمل على تطوير أسئلة الخرائط في كتب الجغرافيا بحيث تراعي الخصائص الجيدة، وتحقق الأهداف التعليمية، مما يعود بالإفادة على مؤلّفي كتب الجغرافيا المدرسية.

٥ - منهج البحث وأدواته: يستخدم في هذا البحث المنهج الوصفي - التحليلي الذي يعتمد على دراسة الواقع أو الظاهرة كما توجد في الواقع ويهتم بوصفها وصفاً دقيقاً ويعبر عنها تعبيراً كلفياً أو تعبيراً كميّاً (القيّم، ٢٠١٢، ص ١٢٩)، من خلال وصف وتحليل الخرائط الموجودة في كتب الجغرافيا المدرسية.

٦ - حدود البحث: تقتصر هذه الدراسة على دراسة وتحليل الخرائط في ثلاثة كتب جغرافيا الصف السابع الاساسي وهي تابعة للقطاع الخاص واختيرت لأنها الأكثر استخداماً في المدارس الخاصة، ولأنّ تواريخ إصدارها متقاربة، بينما استبعد الكتاب الرسمي لعدم استيفائه لشروط التجديد والتطوير تمّ إصداره سنة ١٩٩٧.

٧ - تنظيم البحث: لتحقيق اهداف البحث وللتحقّق من مدى صحة فرضياته، تمّ تقسيم البحث إلى قسمين، نظري وميداني تحليلي: **القسم النظري**: يشمل القسم النظري تعريف المصطلحات الواردة في البحث، والدراسات السابقة المرتبطة بالموضوع والتي أفادت البحث الحالي، بالإضافة إلى توضيح، مفهوم الخرائط، أنواعها، تطوّرها، وأهميتها في تدريس الجغرافيا، بالإضافة إلى خطوات استخدامها وصعوبات ذلك وصولاً إلى تحديد معايير الخريطة الجيدة.

أولاً: مصطلحات البحث: - التربية: «إن التربية هي إعداد الفرد إعداداً صالحاً للحياة الاجتماعية السليمة وهي مجموعة قيم تحددها الظروف التاريخية الإجتماعية لكل بلد، لذا هي ليست أوامر محددة لكل زمان ومكان، إنها مجموعة الأفعال والتأثيرات التي يمارسها إرادياً كائن بشري على كائن آخر، إنسان راشد على آخر فتّي، بهدف تكوين أفكار ومهارات واتجاهات في مجالات متنوعة سوف يخوضها حين يصبح راشداً». (بدران، ٢٠٠٨، ص ١) نستنتج إذن أنّ التربية هي العملية التي من خلالها يكتسب الفرد مهارات تمكّنه من العيش والتعايش في محيطه، وتتغيّر قيمها ومبادئها وفق ظروف وحاجات كل مجتمع، وأيضاً في المجتمع ذاته بين الماضي والحاضر...

- علم الجغرافيا: «الجغرافيا هي فن، أو علم رسم الأرض. في الواقع هذا التعريف، منذ فترة طويلة، يتوافق مع محتوى رسم الخرائط. الجغرافيا موجودة منذ العصور القديمة، خلال هذه الفترة الطويلة غيرت في كثير من الأحيان هدفها الأساسي، فتغير معنى الكلمة نفسها». (Hervé et Marois, 2000, p.15). ويعرّف عبابنة علم الجغرافيا بأنه «العلم الذي تهتم موضوعاته بدراسة الإنسان والبيئة ممثلين في التفاعل الحيوي، الذي يعيش الإنسان فيه، لذا تهتم بعلاقة الإنسان ببيئته وأساليب تفاعله معها وآثار هذا التفاعل، كما يمكن القول أنها تدرس الأرض كونها مسكن الإنسان يتأثر ويؤثر فيه». (٢٠٠٦، ص ٢١). مما قد سبق يمكن التأكيد أنّ علم الجغرافيا كان، في العصور السابقة يرتكز على علم الأرض وعلى رسم الخرائط، ولكنّه عبر العصور تطوّر ليصبح العلم الذي يربط بين الظواهر الطبيعية والاجتماعية، العلم الذي يوجّه الفرد على كيفية التفاعل مع بيئته، وأخيراً أصبح علم المجال الذي يدرس كل ما يحيط بنا.

- **المهارة:** «يقصد بالمهارة القدرة على تمكّن الفرد من القيام بأداء عمل حركي معقّد بدقّة. وتعني المهارة الشيء الذي يتعلّمه الفرد ويقوم بأدائه بسهولة وبدقّة سواء أكان هذا الأداء جسمياً أو عقلياً». (شكرالله، د.ت. ص ٩٨). وكذلك

يمكن تعريفها أنّها «أداء مهمة ما أو نشاط معين بصورة مقنعة وبالساليب والإجراءات وبطريقة صحيحة» (www.uobabylon.edu.iq > lecture). إذًا اكتساب مهارة، هي اكتساب الفرد القدرة على القيام بأداء ما بالطريقة الصحيحة للوصول الى النتائج بوقت أقصر.

– **الأهداف التعليمية:** لقد عرّفت بدران الأهداف التعليمية على أنها «أهداف قصيرة المدى يعمل المتعلّم والمعلّم على تحقيقها خلال حصة تعليمية ويتمّ قياسها من خلال اختبارات متنوعة (شفهياً، كتابياً، وأدائياً)، لكنها مرتبطة بكافة الأهداف التي تعلوها وصولاً للغايات أو الأهداف العامة للمنهج» (مرجع سابق، ص ١٠٨). عرّفت الفتلاوي الهدف التعليمي بأنه: «وصف لنمط السلوك أو الأداء الذي نريد من المتعلّم أن يقوم به بعد التعلّم بطريقة ظاهرة يمكن ملاحظتها» (د.ت، ص ٩٠). إذًا الأهداف التعليمية هي أهداف يعمل عليها المتعلّم والمعلّم خلال حصة واحدة أو درس واحد، لذا يجب أن تكون قابلة للقياس، ويمكن تحقيقها.

المستندات: «هي أدوات ووسائل في خدمة الغايات» (أوديجيه، ١٩٩٣، ص ١٤). وقد أوضحت بدران أن المستندات «هي الوسيلة التعليمية الأساسية في تطبيق المنهج الجديد للجغرافيا، أنها أدوات مرتبطة بالأهداف المحددة للدرس،

تقدم المعطيات اللازمة للملاحظة والمقارنة والاستنتاج، ويعمل المدرس، بواسطة الأسئلة، على توجيه نشاط التلاميذ لكي يكتشفوا رسالة كل مستند أو للمقارنة بين رسائل المستندات والخروج باستنتاجات معينة، فيقومون ببناء معرفتهم بأنفسهم وبجهدهم الذاتي» (مرجع سابق، ٢٠١٢، ص ٧٨). وقد حدّدت لورو (Le Roux) الاستخدام الافضل للمستندات الجغرافية، «المستند الجغرافي في المدرسة لا تتم مقارنته بنهج عرضي استنباطي "Démarche (hypothético- déductive)"، بل هو يتبع منطق الدرس المحدد مسبقاً بواسطة المعلم والذي يعرفه هو وحده. نتيجة ذلك يحتفظ المعلم بمبادرة طرح التعليمات وتحديد المهمات، يبعد ما ليس ملائماً، يوجّه أسئلته ويركبها، يعمم الاستنتاجات عبر أمثلة اختارها بنفسه» (١٩٩٥، ص ١٣٧). إذًا المستند في الجغرافيا هو الوسيلة التعليمية التي من خلال استخدامها الصحيح في العملية التعليمية – التعليمية يتمكّن المعلّم من إكساب متعلّميهِ مهارات الملاحظة، والمقارنة، والاستنتاج.

– **الخريطة الطبوغرافية:** «هي خرائط تقوم على إظهار الأبعاد الثلاثية لأيّ نقطة محددة، أي بمعنى قيامها في توضيح جميع النقاط المحددة من حيث التضاريس،

وارتفاعها، أو المسقط الأفقي لأي معلم طبيعي أو صناعي موجود داخل المنطقة» (خليف، ٢٠١٨، مأخوذة من الموقع الإلكتروني: <https://mawdoo3.com>)

ثانياً: الدراسات السابقة: تشمل مجموعة من الدراسات المرتبطة بموضوع البحث وباللغتين العربية والأجنبية:

- **دراسة «إلهام بدران» (٢٠١٢)**
بعنوان: «مدى توافق المستندات في كتب الجغرافية المدرسيّة مع خصائص المستندات الجيدة - دراسة منشورة في مجلة حنون، العدد السادس والعشرون، (٧١ - ١١٢) - بيروت - لبنان. شملت الدراسة ثلاثة فصول. تناول الفصل الأول إشكالية البحث، والفرضيات، والأهداف. أما الفصل الثاني فهو القسم النظري فعرضت فيه الباحثة الدراسات السابقة بالإضافة الى مفهوم وخصائص وأنواع المستندات، وأهميتها، وظائفها، وفي الأخير معايير المستندات الجيدة. وانتقلت في الفصل الثالث إلى القسم التحليلي، حيث تمّ تحليل مستندات درس «التكامل الاقتصادي العربي» في كتب الجغرافيا للصف الثاني الثانوي - انسانيات، وقد شملت الدراسة ثلاث كتب (الكتاب الرسمي الصادر عن المركز التربوي للبحوث والإنماء، وكتابين صادرين عن دور النشر الخاصة، وهما دار الفكر اللبناني، ومكتبة حبيب). وعملت

الباحثة في هذا القسم على دراسة مدى توافق كل مستند مع خصائص المستندات الجيدة، وكيفية الاستفادة منها لتحسين العملية التعليمية - التعليمية. وقد خلصت أن المستندات في كتب الجغرافيا لا تتوافق مع خصائص المستندات الجيدة وبذلك لا يمكن الاستفادة منها وتحقيق الاهداف التعليمية المرجوة من خلال استثمارها. واستفاد البحث الحالي من المنهجية المتبعة في هذه الدراسة بتحليل المستندات ونقد الأسئلة المرفقة حولها.

- **دراسة مأمون محمد أحمد صقر، (٢٠٠٩)**، عنوانها «تقويم استخدام الخريطة في كتب الجغرافيا في المرحلة الأساسية العليا في فلسطين». تحتوي هذه الدراسة على خمسة فصول: الاول، خلفية الدراسة وأهميتها؛ الثاني، الإطار النظري الذي ضمّ ثلاثة محاور وهي التقويم، والخريطة، والجغرافيا؛ الثالث، الدراسات السابقة؛ الرابع، الطريقة والإجراءات؛ الخامس، نتائج الدراسة وتنفيذها، التوصيات والمقترحات. استعان البحث الحالي بالمحور الثاني من الفصل الثاني، الذي تناول موضوع الخرائط (مفهومها، مراحل تطورها، عناصرها، أهمية استخدامها، مهاراتها، وتصنيفاتها).

دراسة «إلهام بدران» (٢٠٠٨)، وهي أطروحة دكتوراه. بعنوان:

“L’enseignement de la Géographie au Liban:Analyse du nouveau curriculum et des manuels de l’enseignement secondaire.”

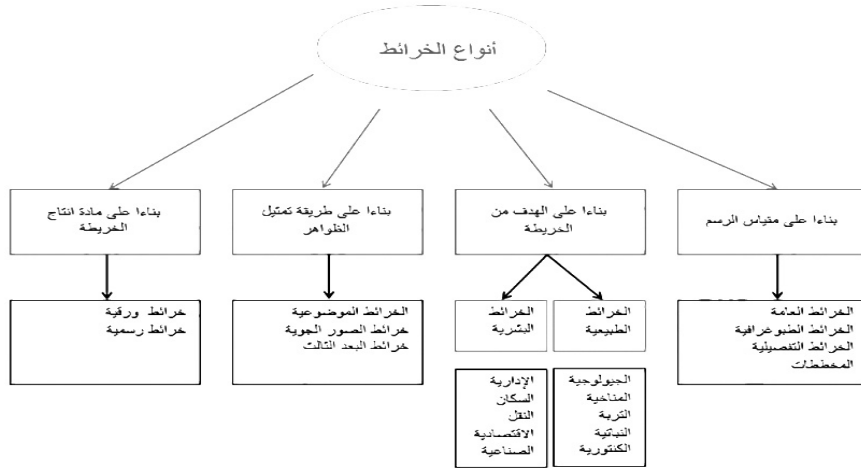
هدفت هذه الدراسة إلى توضيح المفاهيم الأساسية المتعلقة بعلم «الديداكتيك»، وتضمنت عرضاً لتطور منهج مادة الجغرافيا من العهد العثماني وصولاً إلى المناهج الأخيرة عام ١٩٩٧، وللظروف السياسية، والإجتماعية، والإقتصادية والمبررات العلمية والتربوية والديداكتيكية التي أدت إلى ظهور منهج ١٩٩٧ وطرحت تساؤلات عن كيفية تنظيم وتطبيق هذه المناهج. قسّمت الرسالة إلى مقدمة عامة، وثلاثة أقسام تناول كل قسم عدداً من الأبواب، خاتمة وإقتراحات.تناولت المقدمة أسباب إختيار الموضوع والإشكالية، أهداف البحث ومنهجيته، حدود البحث وتعريف المفاهيم. تضمن القسم النظري مواضيع عديدة: علاقة المجتمع بالتربية وعلاقته بالمدرسة، إصلاح المنهج التعليمي والتقويمي في مدارس لبنان، تاريخ المنهج التعليمي اللبناي، واقع معلّم الجغرافيا في القسم الثانوي في لبنان، ثمّ المشكلات التربوية قبل ١٩٩٧ وصولاً إلى خطة النهوض التربوي. تناول الباب الخامس:توضيح للإصلاح التربوي في لبنان عام ١٩٩٧ وذلك بإلقاء الضوء على المشاكل التي كانت تعاني منها التربية في لبنان ما قبل عام

١٩٩٧. أما القسم التحليلي فقد تناول نقد المنهج وكتب الجغرافيا المدرسية شكلاً وموضوعاً وإيديولوجياً.لقد تمّت الاستفادة من هذه الدراسة في توضيح أهمية استخدام المستندات في الجغرافيا، ماهية الخريطة وأهميتها في تعليم الجغرافيا.

ثالثاً: تعريف الخرائط: تعرّف «شوماكر Schoumaker» الخريطة بأنها «تمثيل مجرد واصطلاحي للحقيقة ترتبط بنظام الإسقاط المعتمد، بالمقياس، باختيار الأشياء الممثلة، الاشارات والألوان (شوماكر، ١٩٩٤، ص ٧٤). وعرّف سعادة الخريطة بأنها «عبارة عن رسم تخطيطي يمثل سطح الأرض بشكل عام أو جزء منها، حيث يتمّ فيها توضيح الحجم النسبي وموقع الجزء، بناءً على استخدام مقياس رسم معيّن للتصغير، إضافةً لاعتماد مسقط خريطة محدّد من بين المساقط المعروفة، الأمر الذي يسهم في توضيح الأنشطة البشرية والظواهر الطبيعية المتعددة لتلك المنطقة». (ذكرتها الحلايقة، مأخوذ من الموقع الكتروني، <https://mawdoo3>) الخريطة هي رسم مصغّر لسطح الأرض أو لجزء منه، يظهر باستخدام الرموز والإشارات والألوان التغييرات البشرية والطبيعية التي تحصل على الجزء المرسوم.حدّدت لورو الصور التي تمثلها الخريطة وهي باختصار: الخريطة هي: -

التغييرات في المجتمع، نقل الواقع ليصبح وسيلة تعليمية بين أيدي المتعلمين. اليوم لم يعد استخدام الخريطة يرتبط بالجغرافيين فقط، فقد أصبحت وسيلة تواصل بين الناس، تسهل عملية تنقلهم، وتنقل بضائعهم من وإلى، وتعددت أنواعها حسب وجهة استخدامها أو مقياسها أو جوانب أخرى، فما هي أنواع الخرائط؟

رابعاً: أنواع الخرائط: نظراً لتعدد استخدامات الخريطة في المجالات العلمية والتطبيقات وضع داود «تقسيمات للخرائط بناءً على أربعة عناصر: مقياس الرسم، الهدف من الخريطة، طرق تمثيل الظواهر، المادة المتوفرة عليها الخريطة، وقد مثلها بالرسم التالي:



شكل (١): - أنواع الخرائط. (داود، ٢٠١٢، ص ١٧)

صورة ترتبط بالمجتمع وتغييراته وتمثيلاًته.

- صورة تكنولوجية تحققت بواسطة بعض الأدوات، أو الأجهزة، أو بيد رسّام، انطلاقاً من معلومات مأخوذة بطريقة ما من الواقع، أو من الإحصاءات التي تعالج تصنّف، ترتب بشكل هرمي، وترمز...

- وسيلة تصويرية تستخدم لغة خاصة تجمع عدة متغيرات بصرية تنتشر أو تتركز على مساحة مسطحة.

- وسيلة تستخدم في التواصل، من خلال طرح الأسئلة التالية: من؟ أين؟ عن من؟ لماذا؟ متى؟.

- صورة علمية، وفنية، ووظيفية وتعليمية. (مرجع سابق، ص ١٤٠). وهكذا

نستنتج أنّ الخريطة في الجغرافيا هي صورة ذات وظيفة تعليمية تسهل عملية نقل

خامساً: تطوّر علم الخرائط: بدأ هذا العلم مع بداية التحركات البشرية على الأرض، فكان الإنسان في البداية يرسم صوراً لينظّم حياته، ومع تطور حياته وازدياد تحركاته (حروب، تنقل...) تطوّر هذا العلم حتّى أصبح اليوم يعتمد على التطوّر التكنولوجي. ونورد باختصار ما حدّده الزيدي ومسعود عن أهم العوامل التي ساهمت في تطوّر علم الخرائط: - الحاجة الى استخدام الخرائط في الحربين العالميتين الأولى والثانية.

- تقدّم العلوم الطبيعية والاجتماعية التي تعني بالظواهر المختلفة ومنها علم الجغرافيا. انتشار طرق التصوير الجوي والفضائي.

- استخدام نظم المعلومات الجغرافية GIS وتطبيقاتها المكانية.

- استخدام نظم GPS نظام الموقع الكوني الجديد باعتماده على الأقمار الصناعية. (٢٠٠٥، ص ١٢). أصبحت الخريطة وسيلة يستخدمها الإنسان بشكل يومي ومن المؤكّد أنّ لها أهمية كبرى في تدريس الجغرافيا.

سادساً: الخرائط في تدريس الجغرافيا. واكبت الجغرافيا المعاصرة التطورات العلمية الحديثة، فاتجهت نحو نظم جديدة، ومنها استخدام المستندات كوسيلة تجسّد الواقع في صورة أمام

المتعلّم. وقد ذكرت بدران أنواع المستندات المستخدمة في الكتب الجغرافية وهي: الصورة، الخريطة، الرسوم البيانية، الجداول، النصوص، والرسوم التوضيحية. من بينها جميعاً ترتبط الجغرافيا بالخريطة ارتباطاً وثيقاً، «وتبقى الخريطة هي الوسيلة الأكثر ارتباطاً بالجغرافيا، والأكثر استعمالاً في الأبحاث الجغرافية» (مرجع سابق، ص ٨٢). ويمكن القول أنّ الخريطة «ركيزة أساسية يعتمد عليها الجغرافي في تفسير الظواهر الطبيعية والبشرية على سطح الأرض كما تساعده في التعبير عن البيئة وعلاقتها بالإنسان وفهم إمكانياتها والمشاكل التي تواجهها وتوزيع الظواهر عليها» (زيادي، ١٩٩٣، ص ١٥). تعتبر الخريطة إحدى الوسائل التعليمية التي تعتمدها الجغرافيا المدرسية لجعل العملية التعليمية - التعليمية أكثر وضوحاً وأكثر واقعية عند المتعلّمين، إذ إنّ توظيف الخريطة في درس الجغرافيا يساعد على تكوين تقريب الأماكن وتكوين الصور الذهنية للكثير من المفاهيم والأفكار وترجمتها إلى واقع عملي يخفّف من حدة المساوئ المترتبة من التعلم اللفظي» (www.startimes.com)، كما أنّ استخدامها الصحيح ضروري فهي الوسيلة التي تواكب المتعلّم إلى ما بعد المدرسة وهذا ما أكّده هوغوني (Hugonie) أنّ

في الحياة وتساعدهم على مواكبة التطورات من حولهم. وتبقى الخريطة في الجغرافيا من أهم الوسائل التي تساعد التلميذ على تحصيل كافة مستويات بلوم لأنها تتطلب قراءة دقيقة تعتمد على المعرفة والفهم والربط والتحليل. وتستخدم الخرائط في تدريس الجغرافيا في عدّة مجالات، قد يستخدمها المعلم كمستند لشرح هدف من الأهداف التعليمية، لأنها تبني شكلاً مرجعياً ثابتاً وعالمياً يشكل الوسيلة الأكثر قدرة على إدخال المعلومة الخارجية الضرورية في مسألة ما للتفسير واتخاذ القرار» (برتان (Bertin) ١٩٩٧، ص.١٣٩)، أو يحوّل رسم الخريطة إلى نشاط صفي فيطلب من المتعلّمين رسم خريطة موضوعية بتقنية علمية واضحة وصحيحة، ومن المؤكّد أنّه يعتمد عليها في عملية التقويم، فالأسس الجديدة لإمتحان الجغرافيا تؤكّد على ضرورة وجود خريطة بين مستندات الامتحان، خصوصاً في صفوف الشهادة الرسمية، فما هي مكونات الخرائط الجغرافية؟

سابعاً: مكونات الخرائط الجغرافية:

تتكوّن الخريطة من مجموعة عناصر على المعلم إتقانها ليتمكّن من فهم الخريطة وتعليمها لتلاميذه، هذه المكونات بحسب «المّتمي» هي:

١ - عنوان الخريطة: يحدّد موضوع

«استخدام الصحيح للخريطة ليس مؤقت، فاستخدامها اصبح مهم في الصفّ وفي الحياة اليومية، وفي الحياة المدنية (اتخاذ قرار، التنظيم، التوزيع...)، ومن هنا من الضروري أن نبدأ في المدرسة بإعداد التلميذ على استخدام كافة وسائل رسم الخرائط». (١٩٩٢، ص١٣٧). لقد حدّدت المناهج الأهداف العامة لتعليم الجغرافيا ومنها، «تنمية مهارات استخدام المصطلحات وقراءة الخرائط بمختلف أنواعها...» (مناهج التعليم العام وأهدافها، ١٩٩٧، ص٧٣٧)، كذلك من ضمن الأهداف الخاصة في المرحلة المتوسطة «تنمية مهارات قراءة الخريطة ورسمها، واعتبارها، مع غيرها من الوسائل التعليمية، أدوات تعلّمية أساسية»، (المرجع نفسه، ص٧٥٦)، هذه الأهداف لا يتمّ تحقيقها إلاّ من خلال الاستخدام الصحيح للخريطة في الحصّة التعليمية. حالياً مع توسع آفاق استخدامات الأقمار الاصطناعية والتطوّر التكنولوجي المحيط بنا أصبحنا نعتمد على النظم الحديثة للتنقل (نظام المعلومات الجغرافية، GIS... وغيرها)، هذا كلّه يستوجب اكتساب قدرات ومهارات تطلّ عدّة مستويات (المعرفة، الفهم، التطبيق، التحليل...). وهكذا تعتبر الجغرافيا من أهم المواد الاجتماعية التي تسعى لإكساب المتعلمين المهارات الأساسية التي تفيدهم

الخريطة، ويدلّ على المنطقة المشار إليها. يعتبر العنوان من أهم عناصر الخريطة لأنه يختصر المعلومات الواردة فيها ويوضح الهدف من رسمها، لذا يجب التشديد على كتابته بشكل واضح، بخطّ عريض، خارج الإطار، وأسفل الخريطة.

٢ - **مفتاح الخريطة:** الوسيلة التي تفتح أذهان المتعلّمين لقراءة الخريطة، المفتاح يحتوي على جميع الرموز المرسومة داخل الخريطة، محلّ محلّ الكلمات حيث يصعب على من يرسم الخريطة كتابة جميع المعلومات فيها بخط واضح. لكل رمز دلالة الخاصة فيتمّ كتابة الرمز وبجانبه الدلالة التي يدلّ عليها. المفتاح الصحيح والكامل يسهّل عملية قراءة الخريطة، وفهمها وتحليلها.

٥ - **الإطار:** ما يحيط الخريطة، ويرتّب شكلها الخارجي فيخصّص بداخله أماكن لكل العناصر الباقية ويسهّل عملية رسم خطوط الطول ودوائر العرض. يأخذ الإطار شكل الخريطة التي يحيطها، المربع أم المستطيل. (٢٠١٨، مأخوذ من موقع الكتروني، <https://mwthoq.com>. وأخيراً، لا يمكن أن ننسى تحديد تاريخ رسم الخريطة، مصدر المعلومات وكيفية معالجة البيانات المستخدمة لرسمها، أو حتى تحديد المصدر الذي أخذت منه كاملاً للحفاظ على حقوق الملكية والنشر. إن هذه المكوّنات الخريطة توضح عملية تدريس الخرائط، فما هي المهارات المرجوة من تدريس الجغرافيا؟

ثامناً: قراءة وفهم واستخدام الخريطة: تؤكّد بدران «أنّ للخريطة مكانها في عملية النقل التعليمي الديدانكتيكي (تحولها من خريطة علمية إلى خريطة تعليمية)، ونحصل على بعض المعلومات بالإجابة على الأسئلة: كيف؟ أين؟ لماذا؟

٣ - **مقياس الرسم:** من الصعب ومن المستحيل رسم الخريطة بأبعادها الحقيقية كما في الواقع، المقياس يمثّل النسبة بين الطول الموجود على الخريطة والطول الموجود على أرض الواقع. تتنوّع المقاييس المستخدمة في رسم الخرائط باختلاف حجم المنطقة المراد تمثيلها، من أهم أنواع مقاييس الرسم: المقياس المباشر (الكتابي)، المقياس البياني أو النسبي، المقياس الخطي البسيط، ويجب إتقان قراءة كل أنواع المقاييس حتى نتمكّن من فهم الخريطة.

٤ - **مؤشّر الخريطة:** مهمّته تحديد

الخريطة أكثر تعقيداً من مهارة القراءة والتحليل حيث يتعلّم الفرد من القراءة لغة الخريطة، بينما يتعلّم في تفسيرها كيف يتحدّث بها» (محمود، ٢٠٠٥، ص ٢٣٩). من الأفعال المستخدمة لتحقيق هذه المهارة: إشرح، علّل، فسّر...

د - الإستنتاج من الخريطة: يتوصّل المتعلّم إلى إكتساب هذه المهارة في المرحلة الأخيرة، بعدما أن يكون قد اكتسب المهارات السابقة، فللخروج ببعض الاستنتاجات والتفسيرات التي تعبّر عن الظواهر الممثّلة في الخريطة، لا بد من المتعلّم أن يكون قادراً على قراءة الخريطة من خلال قراءة وفهم كل مكوناتها، تحليل وتفسير كل الظواهر والعلاقات المتضمنة في الخريطة. من الأفعال المستخدمة لتحقيق هذه المهارة: إستنتاج، قدر... ويمكن أيضاً إضافة مهارة مطابقة الخرائط أي المقارنة بين خرائط متجاورة وقد حدّدت «بدران» الخطوات اللازمة لذلك هي: «ذكر موضوع كل خريطة، المقارنة بين المقياس والمفتاح في كل منها، تحديد أماكن تطابق الظاهرتين ونوع الترابط، تحديد التباعد بين الظاهرتين في المناطق، استنتاج القاعدة أو الفكرة الأساسية، ذكر الإستثناءات أو الشواذات وتفسيرها» (٢٠١٨، ص ٦١). وهنا لا بدّ من من التأكيد على أنّه لاكتساب المتعلّم هذه المهارات، لا بد من أن يتقن المعلّم أولاً مهارات استخدام الخريطة.

لأي تلاميذ؟» (٢٠١٧، ص ٦٠). إنطلاقاً من أهمية الخريطة في العملية التعلّمية - التعلّميّة لمادة الجغرافيا، لا بدّ من تحديد مهارات قراءة وفهم الخريطة عند المتعلّمين ومهارة استخدام الخريطة عند المعلّم، وهذه المهارات بحسب محمود، مهارة قراءة الخريطة، مهارة تحليل الخريطة، مهارة تفسير الخريطة، ومهارة الاستنتاج من الخريطة.

١ - قراءة وفهم الخريطة عند المتعلّمين:

أ - قراءة الخريطة: تتمّ قراءة الخريطة من خلال إتباع الخطوات التالية: تحديد موضوع الخريطة ومصدرها، تحديد المواقع والاتجاهات على الخريطة، فهم المقياس، معرفة دلالة الرموز المستخدمة فيها. من الأفعال المستخدمة لتحقيق هذه المهارة: لاحظ الخريطة، إحسب المسافة، حدّد، عيّن...

ب - تحليل الخريطة: إدراك العلاقات القائمة بين الظاهرات الممثّلة على الخريطة، والمقارنة بينها. من الأفعال المستخدمة لتحقيق هذه المهارة: قارن، صنّف، رتّب...

ج - تفسير الخريطة: تفسير العلاقات القائمة بين الظواهر الممثّلة على الخريطة، تفسير السبب من وجود الظاهرة أو من إختفائها، معرفة أسباب التشابه والاختلاف بين الأماكن والظواهرات. «ويعدّ تفسير

٢ - استخدام الخريطة عند المعلم:
لاستخدام الخرائط بأسلوب هادف يتقن المعلم مجموعة مهارات وهي:

أ - إختيار الخريطة: اختيار خريطة تتوافق مع الأهداف الخاصة لموضوع الدرس، خريطة ذات مقياس يتناسب مع القدرات الذهنية للفتة المستهدفة، ذات مفتاح واضح، معلوماتها حديثة.

ب - تقديم الخريطة: لكل معلم أسلوب في التعليم، إنما للخريطة استراتيجية يجب اتباعها من جميع المعلمين، تبدأ بتقديم الخريطة بأسلوب مرن ومشوق من خلال عنوانها حتى يتمكن من جذب انتباه المتعلم.

ج - فهم الخريطة: استخدام الخريطة في تحديد الاتجاهات والمواقع، وتوضيح مضمون الخريطة من خلال قراءة وفهم مقياس ومفتاح الخريطة.

د - تحليل الخريطة: استخدام الخريطة في تحليل عناصر الدرس، وتفسير العلاقات بين الظواهر التي تمثلها الخريطة.

هـ - تفسير الخريطة: تستخدم الخرائط في توزيع وفهم وتوضيح الظاهرة والعلاقات القائمة داخلها.

و - الاستنتاج من الخريطة: التوصل على استنتاج العلاقات بين الظواهر والتنبؤ للاحتتمالات المستقبلية.

ز - استخدام الخريطة في التقويم:
من خلال الخريطة يطرح المعلم أسئلة تقويمية، تطال جميع المستويات تبدأ بلاخط، حدّد، وقد تصل الى مستوى استنتاج. ويتمكّن من خلال إجابات المتعلمين قياس مدى تحقّق الاهداف التعليمية المرجوة. بعد اكتساب قراءة وفهم وتحليل خريطة جغرافية يتحقّق عند المتعلمين فوائد تربوية، فما هي هذه الفوائد التربوية؟

تاسعاً: الفوائد التربوية لتعلم وتعليم الخرائط الجغرافية: ان استخدام الخرائط الجغرافية في العملية التعليمية - التعليمية، تحقّق للتلاميذ عدّة فوائد تربوية وقد ذكرها «مدخلي» على الشكل التالي:

- «تنمي لدى الطلبة القدرة على الملاحظة الدقيقة والتفصيلية وبشكل خاص الملاحظة عن قرب.

- تساعد الطلبة على فهم الأحداث الجارية وربط تلك الأحداث مع خبراتهم.

- تساعد على إيجاد جو من التسلية واستغلال أوقات الفراغ في رسمها أو صنعها أو قراءتها أو ربطها بالواقع.

- تساعد التلاميذ على تحديد مواقع الظواهر الجغرافية المختلفة وإظهار مساحات الأقاليم والدول والتعرّف على الحدود السياسية وبيان المسافات بين

- مهارة حساب المسافات والمساحات الموجودة على الخريطة إلى المسافات والمساحات الحقيقية باستخدام المقياس رسم الخريطة.
- مهارة قراءة رموز الخريطة تعني الفهم الواضح لرموز الخريطة، تساعد المتعلم على استخدام قدرات ذهنية عليا للانتقال من المعلوم الى المجهول.
- مهارة تحديد الأماكن، باستخدام خطوط الطول ودوائر العرض (شبكة الإحداثيات).
- مهارة تحديد الموقع النسبي، أي تحديد موقع بالنسبة لموقع آخر أكثر أهمية.
- مهارة تحديد الوقت، تبدأ بتحديد الساعة، اليوم، الأسبوع، الشهر، الفصل، في البيئة المحلية ومن ثمّ تنتقل لتحديد الوقت في جميع أجزاء الكرة الأرضية مهما قربت أو بعدت.
- مهارة المقارنات والوصول إلى الاستنتاجات، وهذا يتطلب قدرات ذهنية عالية فالمقارنة تعني فهم العلاقات لتحديد أوجه الشبه ونقاط الاختلاف بينها، أما الاستنتاجات فتعني إقتراح أفكار لم تتمّ الإشارة إليها بشكل مباشر. (١٩٩٢، ص ٥٣). ممّا سبق يظهر ضرورة تنمية مهارات استخدام الخريطة نظرًا لأهميتها التي تظهر في أنّها:
- الدول أو المدن إضافةً إلى توضيح التغيّرات الجغرافية والاقتصادية والسياسية والحربية والاجتماعية ودراسة الطرق البرية والبحرية.
- تساعد على تنمية المفاهيم الجغرافية ومفاهيم الأبعاد والأحجام وتنمية الميول والاهتمامات الايجابية فيما يخص الظواهر الطبيعية والبشرية السائدة في العالم إضافة إلى إدراك ما يتعلق بها من حقائق ومعلومات خلال وقت قصير». (٢٠٠٨، مأخوذ من الموقع الالكتروني: gis club). بالإضافة الى دورها التربوي تساهم الخرائط في تمكين المتعلم من عدّة مهارات أساسية في حياته اليوم، فما هي هذه المهارات؟
- عاشراً: المهارات المكتسبة من تعلّم استخدام الخريطة في الجغرافيا: أشار** سعادة في كتابه «تدريس مهارات الخرائط ونماذج الكرة الأرضية» إلى بعض المهارات التي يكتسبها المتعلم من خلال قراءة وفهم، وتحليل، الخرائط الجغرافية، والتي تساعده على اكتساب مهارات يستخدمها في حياته اليومية، أو على إكتساب مهارات ذهنية تعوّده على التحليل المنطقي والاستنتاج، وهي باختصار:
- مهارة استخدام الجهات الأصلية والفرعية في الحياة اليومية، وذلك بعد تطبيقها على الخرائط.

- تكسب الفرد القدرة على أداء الأعمال في يسر وسهولة، فمن يملك المهارة يتميّز عن الذي لا يملكها بأنه لا يستغرق وقتاً طويلاً في إنجاز العمل، بينما من لا يملك المهارة يستغرق وقتاً طويلاً لا يتناسب مع طبيعة العمل وما يحتاجه من وقت.
 - تكسب التلاميذ ميلاً إلى العلم، حيث إتقان المهارات الأساسية في العلم تجعل المتعلم قادراً على طرق أبوابه واستخدام تلك المهارات في الحصول على العديد من المعرفة مما يؤدي غالباً إلى زيادة اهتمام التلاميذ بالعلم والتعمق في دراسته.
 - يستطيع التلاميذ وصف الظواهر، الأمر الذي يساعد إلى حد كبير على تنمية قدراتهم العقلية التي تعتبر في مجملها من التفكير السليم.
 - تجعل التلاميذ قادرين على مسايرة التطورات العلمية والتكنولوجية.
 - تمكّن التلميذ من وضع خطط لحياته حيث يكون قادراً على تفسير الكثير من الظواهر الطبيعية التي تحدث اليوم» (نكرها، صقر، عن الطيب، وآخرون، ٢٠٠٣). هذه المهارات الذهنية تكملها مهارات حركية عندما يتعلّم التلميذ مهارة رسم خريطة، فما هي خطوات رسم خريطة؟
 - تكسب الفرد القدرة على أداء الأعمال في يسر وسهولة، فمن يملك المهارة يتميّز عن الذي لا يملكها بأنه لا يستغرق وقتاً طويلاً في إنجاز العمل، بينما من لا يملك المهارة يستغرق وقتاً طويلاً لا يتناسب مع طبيعة العمل وما يحتاجه من وقت.
 - تكسب التلاميذ ميلاً إلى العلم، حيث إتقان المهارات الأساسية في العلم تجعل المتعلم قادراً على طرق أبوابه واستخدام تلك المهارات في الحصول على العديد من المعرفة مما يؤدي غالباً إلى زيادة اهتمام التلاميذ بالعلم والتعمق في دراسته.
 - يستطيع التلاميذ وصف الظواهر، الأمر الذي يساعد إلى حد كبير على تنمية قدراتهم العقلية التي تعتبر في مجملها من التفكير السليم.
 - تجعل التلاميذ قادرين على مسايرة التطورات العلمية والتكنولوجية.
 - تمكّن التلميذ من وضع خطط لحياته حيث يكون قادراً على تفسير الكثير من الظواهر الطبيعية التي تحدث اليوم» (نكرها، صقر، عن الطيب، وآخرون، ٢٠٠٣). هذه المهارات الذهنية تكملها مهارات حركية عندما يتعلّم التلميذ مهارة رسم خريطة، فما هي خطوات رسم خريطة؟
- حادي عشر: خطوات رسم خريطة:**
- هذه المهارة، بالرغم من أنها تساهم في إكتساب المتعلمين مهارات ذهنية وحركية معاً، يبقى استخدامها خجولاً في المدارس، ربما لعدم تخصيص هدف مباشر لها في الأهداف العامة والخاصة لمادة الجغرافيا، أو لعدم توفر أماكن في المدارس مناسبة لأداء المهارات الجغرافية. لقد ذكر «محمود» مجموعة من الكفايات الضرورية لرسم وتبسيط خريطة وهي باختصار:
- تحديد الهدف الأساسي من رسم الخريطة.
 - جمع البيانات والمعلومات التي ستمثّل على الخريطة.
 - رسم مخطّط للشكل العام للخريطة.
 - نقل الخريطة من الكتاب أو من الأطلس مع مراعاة مقياس الرسم.
 - تصميم مفتاح الخريطة باختيار لون أو رمز محدد لكل فئة.
 - تلوين الظواهر على الخريطة وفق المفتاح.
 - كتابة عنوان الخريطة ومصدر الإحصائيات.
 - تحديد الاتجاهات على الخريطة، أقلّه مؤشّر الشمال.
 - توقيع الخطوط الرئيسية على الخريطة (دائرة الاستواء، خطّ غرينتش...).

- رسم الإطار المحيط بالخريطة.

- تنظيف الخريطة من البقع. (٢٠٠٥، ص. ٢٣٧)

ثاني عشر: صعوبات تعلّم الخريطة

لدى التلاميذ: من المؤكّد أنّ الفروقات الفردية بين التلاميذ تؤثر على مدى اكتسابهم لمهارات قراءة، وفهم، وتحليل الخرائط الجغرافية ولكن تبقى بعض الصعوبات التي تواجه كافة المتعلمين وتخفّف من قدرتهم على استيعاب الخرائط واكتساب مهاراتها وتمثّل في عدّة نقاط منها، «احتواء الخريطة على التفاصيل الزائدة يجعلها غير واضحة ويصعب على التلاميذ فهمها وقراءتها» (المرجع نفسه، ص ٢٣٥). كما أنّ النقص في العناصر الأساسية للخريطة (مقياس، مفتاح، مؤشّر) يجعلها غير واضحة ومن المستحيل قراءتها وفهمها، فلا يمكن قراءة خريطة دون التعرّف على مدلولات رموزها، ولا يمكن استيعاب الاختلاف بين المسافات دون تعلّم كيفية قراءة واستخدام المقياس، ولا يمكن تحديد مواقع بدقة دون الاعتماد على الاتجاهات. إن استخدام خرائط تعليمية جيّدة تتوافق مع المعايير العلمية والتربوية تخفّف من الصعوبات التي تواجه المتعلمين عند تعلّم مهارات الخرائط الجغرافية، فما هي معايير الخرائط الجيّدة؟

١٠ - معايير الخرائط الجيّدة:

الخريطة الصحيحة تسهّل تحقيق بعض الأهداف العامة والخاصة لمادة الجغرافيا، هي وسيلة تعليمية تساهم بإكساب المتعلّم أهداف تطال جميع مستويات بلوم، ومهارات متنوّعة، لذا يجب أن يخضع اختيارها من قبل واضعيها لمعايير معينة، وهذه المعايير قد حدّتها «بدران» في دراسة لها عن خصائص المستندات الجيدة في كتب الجغرافيا وهي باختصار على الشكل التالي:

أ - المعايير التقنية: يجب أن تكون الخرائط مقروءة، ذات ألوان ورموز واضحة، يمكن للمتعلّم التمييز بينها واستنتاج دلالاتها. أما الخرائط المستخدمة في التقويم وعادةً ما تكون باللونين الأسود والأبيض فينصح بالتقليل من رموزها لتبقى واضحة وسهلة فيتمكّن المتعلّم من قراءتها وفهمها، ونؤكّد هنا على ضرورة تضمّن الخرائط كافة مكوّنات الخرائط الجيّدة (عنوان، إطار، مقياس، اتجاه، مفتاح).

ب - المعايير العلمية: يجب أن تكون معلوماتها حديثة وموثوقة، وهذا ما يؤكّد ضرورة ذكر مصدرها وتاريخ إنتاجها.

ج - المعايير التعليمية: لكل مستند وظيفة تعليمية، قد تكون وظيفته توضيحية، (توضيح مفهومًا معينًا)، أو إعلامية (تحمل معلومة أو مهارة)، أو استنتاجية (تقدّم

العملية التعليمية - التعليمية لمادة الجغرافيا، من خلال تسليط الضوء على كيفية تعليم مهارات الخرائط الجغرافية. يتناول التحليل المحور الأول من كتب الجغرافيا المختارة للبحث وهو بعنوان: «مجال الأرض» (ملحق ١ - ٢ - ٣ -) وقد شمل هذا القسم خمسة دروس (شكل الأرض، تعيين المواقع على سطح الأرض، خريطة العالم من الكرة إلى المسطح، تمثيل المظاهر الجغرافية، خريطة العالم السياسية) بحسب المنهج اللبناني. غير أنّ كتب دور النشر الخاصة قد عدّلت في العناوين فنلاحظ أنه في الكتاب ملحق (رقم ٢ -) عدّلت عناوين الدروس في القسم الأول لتصبح ستة دروس (قسّم الدرس الثاني إلى درسين)، بينما بقي عدد وعناوين الدروس على حاله في الكتابين (ملحق رقم ١ -) و(ملحق رقم ٣ -)، لقد اقتصرنا الدراسة على الخرائط الواردة في هذه الدروس ولم تتناول الاعمال التطبيقية الملحقة بها، لأنّ وظيفتها هي تقويم الأهداف التعليمية وليس تعليم المهارات. إذن سيتمّ تحليل مدى مساهمة الخرائط في تكوين مهارات قراءة وفهم الخرائط الجغرافية من ناحيتين: من خلال تضمّنها كافة مكونات الخريطة الجيدة (إطار، مؤشّر، عنوان، مفتاح، مقياس)، وأيضاً من خلال نقد الأسئلة المطروحة

أجوبة عن الأسئلة المطروحة)، أو تحفيزية (تثير حماس التلميذ وحشريته وتدفعه للبحث عن المعرفة)، نقدية (نقد ومقارنة معلومات بين مستندين)، تقويمية (استخدام معلومات المستند لكافة أنواع التقويم). أما الخرائط فبالإضافة الى وظائف المستندات العامة هي تهدف إلى تنمية المهارات التي حدّناها سابقاً، فالخريطة الجيدة تكملها الأسئلة المطروحة والتي تساعد المتعلّم على اكتساب مهارة قراءتها، فهمها، تحليلها، تفسيرها، والاستنتاج منها.

د - الموقع في الدرس: ترتبط

الخريطة بالنص المطروح، ويجب أن تسبق النص المرتبط بها، فتظهر أهميتها وتعطى قيمة تعليمية. كذلك لا بد لهذه الخرائط أن تكون متوافقة مع الأهداف التعليمية في كل حصّة، والأسئلة المطروحة حولها يجب أن تتطلّب جميع المهارات المرجوة من استخدام الخرائط في تدريس الجغرافيا، فهل تتوافق الخرائط في كتب الجغرافيا مع الخصائص الجيدة للخرائط؟ وهل يتمّ استثمارها بأسئلة هادفة ذات صياغة صحيحة؟ هذا ما سيوضّحه القسم التحليلي من البحث.

ثانياً: القسم التحليلي: تحليل خرائط

كتابي الجغرافيا للصف السابع الأساسي: هذا البحث ليس موجّهاً ضد أيّ مؤلّف، أو دار نشر، بل يهدف إلى تحسين

طرح سؤال واحد فقط، يبدأ بفعل إجرائي (استنتاج)، إنَّ طرح سؤال واحد لا يحقق التدرّج بمهارات الخريطة من الاسهل الى الأصعب: قراءة، تحليل، تفسير، إنما يركّز فقط على مهارة الاستنتاج، فكيف يمكن لمتعلّم في بداية السنة الدراسية التوصل الى الاستنتاج قبل الملاحظة، والتحليل والتعليل؟

(*) في الكتاب رقم (٢)، استبدل دورالخريطة كوسيلة تعليمية ذات وظيفة توضيحية تساعد المتعلّم على معرفة شكل سطح الأرض، بدور تقويمي، فوضعت الخريطة ضمن الأنشطة والمهارات، بالرغم من أنه ورد في المنهج اللبناني للسنة السابعة في المرحلة المتوسطة، في الدرس الأول الهدف التالي: «صورة الكرة الأرضية وصور لسطح الأرض» (مناهج التزعليم العام وأهدافها، ١٩٩٧، ص٧٥٦)، وقد حدّد التربويون في تعريفهم للخريطة أنها صورة لسطح الأرض. (*) أما في الكتاب رقم (٣)، أحيطت الخريطة بإطار يظهر شكلها بوضوح، وكتب العنوان أسفلها إلى جانب رقم المستند، ولكنّه تضمّن معلومات تجوز أن تكون المفتاح الذي أغفل عنه في هذه الخريطة. وغابت إشارة جهة الشمال ولم يحدّد مقياس يساعد المتعلّم على نقل الصورة بذهنه من الكتاب إلى الواقع، إذن تفتقر إلى عدّة عناصر أساسية. من حيث

حولها تساعد المتعلّم على اكتساب المهارات المرجوة. والجدير بالذكر أنّ جميع خرائط كل من هذه الكتب المدرسية تتشابه من حيث مدى توفّر المكونات ومن حيث طريقة صياغة الأسئلة المطروحة حولها، ممّا جعل خرائط هذه الدروس ممثلة لمجمل خرائط الكتاب، ولكن تمّ اختيار هذه الدروس لأنها تتضمّن أهدافاً تعليمية تتحقّق من خلال استثمار الخرائط. كما سيتمّ عرض نتائج التحليل لخرائط كل درس في كل من الكتب الثلاثة.

الدرس الأول: شكل الأرض، صورها

وأبعادها: يهدف هذا الدرس إلى تعريف المتعلّم على شكل الأرض من خلال رسوم تظهر شكل سطحها، ومن هنا نتبيّن أهمية الاستثمار الجيد للخريطة الجغرافية في هذا الدرس.

(*) في الكتاب رقم (١)، استبدل عنوان الخريطة، بعبارة تشرح تفاصيل وأهداف الخريطة، بينما غاب كل من الاطار، والمفتاح، والمقياس عن المكونات المطلوبة التي تمثّلت فقط بالمؤشّر (وردة الجهات).تهدف هذه الخريطة الى اكساب المتعلّم مهارة قراءة الخريطة، (صورة السطح) ولكنها لا تتضمّن مفتاح أو مقياس لتيسير عملية القراءة. أما من حيث الأسئلة المرفقة، لم تطرح أسئلة توجّه التلميذ للوصول الى استنتاج شكل الأرض، إنما

التي يحتاجها في تعلّمه وفي تقويم تحصيله وأيضاً في تنقلاته اليومية. من هنا أهمية توفير الخريطة الصحيحة لكي تؤدي إلى تعلّم صحيح لدى المتعلّم. فهل تلبي الخرائط في الدرس الثاني شروط الخرائط الصحيحة والجيدة؟

(*) في الكتاب رقم (١)، تمثّلت المكونات الأساسية للخريطة الجغرافية بمؤشّر الشمال فقط، وغابت المكونات الأخرى بالرغم من أهمية وجودها، وكأنّه لا مضمون للخريطة يعبر عنه بعنوان ولا دلالات فيها يمثّلها المفتاح. كما وإنّ عدم إحاطة الخريطة بإطار يشير إلى حدودها كمستند تعليمي واضح، يؤدي إلى إعتقاد القارئ أنّ درجات خطوط الطول ودوائر العرض هي خارج الخريطة، إذ كتبت في الأسفل وإلى اليسار ولم توضع في إطار واضح يحدّد مكانها. من ناحية الأسئلة، تم استثمار هذه الخريطة بسؤال واحد فقط، يبدأ بفعل إجرائيّ «حدّد»، وهو متجانس مع الهدف المرجو من الدرس «يحدّد المتعلّم موقع مدينة أو بلد استناداً إلى شبكة الاحداثيات»، ومصاغ بطريقة ملائمة لإثارة تفكير التلميذ الذي يتعلّم تحديد المواقع. ولكن من المفيد أكثر لو أضيف سؤال آخر، مثلاً تحديد الموقع النسبي، تحديد الوقت (مع تعديل صغير لتوضيح المناطق الزمنية)، لقد أكّدت لورو في

الأسئلة، تفقد هذه الخريطة قيمتها التعليمية حيث أنّ السؤالين المطروحين تحتها لا يساهمان في استثمارها، إنّما السؤال الأول يفرض على التلميذ الاستعانة بالمستند السابق وبالحقيقة أنّه بحاجة للاستعانة به لأنه لا يوجد في الخريطة مفتاح للدلالة على ألوانها. والسؤال الثاني يتطلّب الاستعانة بثلاثة مستندات تظهر جميعها الفكرة نفسها، وقد بدأ هذا السؤال بفعل إجرائيّ (قارن)، ولكن طرح الأسئلة بحاجة إلى تدرّج، كما أكّد الحصري «أن تكون الأسئلة متسلسلة ومترابطة أي تظهر كخيوط يساعد على توليد الأفكار وهي محكمة الترابط فيما بينها وكل منها يقود إلى ما يليه» (١٩٩٥، ص ٢٩٠). فلا يجوز تعليمياً أن نطرح سؤال مقارنة قبل البدء بمهارات الاستخراج والاستنتاج. أما الجزء الثاني من هذا السؤال فقد بدأ بأداة إستفهام، ماذا؟ وهو سؤال مفتوح ويتوقّع منه عدّة إجابات قد لا يصيب من خلالها التلميذ الهدف المرجو.

الدرس الثاني: تعيين المواقع على

سطح الأرض: الخريطة وسيلة تعليمية تستخدم في تعليم الجغرافيا لتعيين المواقع وقد حدّدت مناهج الجغرافيا مجال الكفاية الأولى «تحديد مواقع واتجاهات» في كافة صفوف المرحلتين الإبتدائية والمتوسطة. من خلال التعلّم الصحيح والدقيق يتقن المتعلم مهارة تحديد المواقع والاتجاهات

دراساتها على أهمية المستندات في الجغرافيا، «لا يوجد درس جغرافيا بدون مستندات» (١٩٩٧، ص ١٠٢)، ولكن لا يمكن أن نحشو الدرس بمستندات ولا نستثمرها بشكل تام، فهذا يؤدي إلى ضغط المتعلم بالكمية بدلاً من التركيز على النوعية.

(* في الكتاب رقم (٢)، ظهر في الخريطة عنصر واحد من العناصر الأساسية لتكوين خريطة جغرافية صحيحة، وهو العنوان الذي كتب في أسفل الخريطة إلى جانب رقم المستند، وقد أوضح مضمون الخريطة «شبكة الإحداثيات على خريطة العالم»، بينما غابت جميع العناصر الأخرى بالرغم من أهميتها في تمكين المتعلم من قراءة وفهم الخريطة الجغرافية، فلا إطار واضح يرسم حدود دلالات الخريطة، ولا مفتاح يساعد المتعلم على اكتشاف خريطته، ولا وردة جهات واضحة تساعد المتعلم على تحديد الجهات الأساسية، إنما تمّ التركيز فقط على جهتي الشرق والغرب لمساعدة المتعلم على تحديد شرق وغرب غرينتش، وكأنّما الاحداثيات هي فقط بالنسب لخطوط الطول فأين دور دوائر العرض و جهتي الشمال والجنوب؟ من ناحية الأسئلة، جاءت متنوّعة، قسم منها يبدأ بفعل إجرائي واضح (حدّد، استنتج، صنّف، برّر)، وقسم آخر

يبدأ بأداة استفهام (هل)، يهدف بشكل مباشر إلى تصويب إجابة المتعلمين (شرق، غرب، شمال، جنوب). هذه الأسئلة بالرغم من أهميتها إلا أنها تطال فقط المستوى الأخير من مهارات الخريطة، «مهاراة تفسير الخريطة»، وكأنّه يسمح للمتعلّم البدء من رأس الهرم والوقوف عنده، دون الاعتماد على أصول التدرّج من الأسفل إلى الأعلى، وبهذا نخرّج أجيالاً لم تتعلّم على مقاعد المدرسة أصول التخطيط والتدرّج في كل عمل أو مهمة عليهم القيام بها. في هذا الكتاب تمّ التوقف على أهمية استخدام خطوط الطول لتحديد الوقت وذلك بعد تحويلها إلى مناطق زمنية. مع تزايد وسائل التواصل والمواصلات، وتحوّل العالم إلى قرية واحدة بات تنظيم جدولنا اليومي مرتبباً بالتوقيت المحلي والعالمي. من أهداف تعليم مادة الجغرافيا، إكتساب المتعلم القدرة على العيش في قرية عالمية واحدة. ومن هنا نرى ضرورة التوقّف عند هذه المهارة واكسابها لمتعلم اليوم. تتوجّه الخريطة هنا مباشرة نحو هدف تحديد الوقت، دونما التوقف على مهارات أخرى، فطرح سؤال واحد فقط لا غير، يتطلّب من المتعلم تحديد الساعة في بعض المناطق بالاعتماد على المناطق الزمنية، وأغفل عن الأهداف الأخرى في التعليم، ومنها التمييز بين خطوط الطول والمناطق الزمنية، أو

معرفة عدد المناطق الزمنية وكيفية توزّعها على سطح الأرض. ولكن كيف لخريطة لا تحمل مفتاحاً أو مقياساً أو مؤشراً لاتجاهات أن تساهم بتقديم صورة ذهنية واضحة للتلاميذ عن خصائص المناطق الزمنية في العالم تثبت في ذهن المتعلّم، وتسهّل عملية تطبيق معرفته ومهارته في حياته اليومية؟

(* في الكتاب رقم (٣)، استخدمت خريطين لتحقيق هدف استخدام شبكة الاحداثيات لتحديد المواقع. جاءت الخريطة الأولى غير واضحة، صعبة، مؤشّراتها لا تتناسب مع القدرات الذهنية لتلاميذ الصف السابع الأساسي، من حيث تدرّج الألوان، دول ومناطق دون حدود، خطوط منقّطة تمثّل دوائر العرض وخطوط الطول)، حتّى أنّه لا يوجد مفتاح أو مقياس يساعد المتعلّم على قراءة وفهم دلالاتها. أحيطت هذه الخريطة بإطار ذي خطّ واحد وعريض، حُصرت بداخله درجات خطوط الطول ودوائر العرض، ووردة الجهات الأساسية المرسومة بشكل كامل وواضح كما أشير إلى مضمونها من خلال عنوان مدوّن بأسفلها. أما الأسئلة المطروحة حولها فوضعت في أسفل الخريطة الثانية لأنّها تتطلّب الاعتماد على الخريطين معاً. مع أنّها لم تتناول هذه الخريطة بأيّ سؤال مباشر إذ لا يمكن الاعتماد عليها بسبب عدم وضوحها. وضعت الخريطة الثانية في أعلى

الصفحة التالية، وهي خريطة غير دقيقة، قد ترسّخ في ذهن المتعلّمين تصوّرات خاطئة لخريطة لبنان، لأنّها أهملت قسماً من لبنان ولم ترفق بمفتاح ليوضّح مؤشّراتها، أو أقسامها. شملت هذه الخريطة سهماً يشير إلى جهة الشمال، وأحيطت بإطار عريض بداخله خط الطول ودوائر العرض التي تمرّ في لبنان. أما عنوانها فجاء يوضح بدقة الموقع الفلكي لمدينة بيروت. بالنسبة للأسئلة المطروحة تحتها، التي تناولت الخريطين معاً معتمدةً على المعلومات المكتسبة. استخدم في السؤال الأول فعل حدّد من المستند، ولكن الجواب لا يمكن تحديده من المستند إنما يمكن استنتاجه، (حدّد أهمية خطوط الطول ودوائر العرض)، فكان من الأفضل التدرّج بالأسئلة، مثلاً: حدّد الموقع الفلكي لمدينة بيروت، أوضح كيفية تحديد الموقع الفلكي...، استنتج أهمية خطوط الطول ودوائر العرض. أما بالنسبة للسؤال الثاني وهو احتساب الوقت بين لبنان وفرنسا، لا يمكن اعتماد أي من الخريطين للإجابة عنه، فالخريطة الأولى هي خريطة العالم ولكنها لا تحمل أي حدود أو أسماء لدول فلا يمكن للمتعلّم تحديد موقع فرنسا أو موقع لبنان ليتوصّل لاحتساب التوقيت بينهما، والخريطة الثانية، خريطة لبنان فهي تظهر الموقع الفلكي لمدينة بيروت، فكيف يمكن للمتعلّم الاعتماد

عليها لاحتساب التوقيت بين لبنان وفرنسا؟
في هذا الدرس تم وضع خريطتين دون
الاستفادة منهما، فهل أصبح عدد أوراق
الكتاب أهم من محتواه وقيمه التعليمية؟

**الدرس الثالث: خريطة العالم من
الكرة إلى المسطح.** في هذا الدرس لم
تستخدم الخريطة بشكل مباشر، لذا تمّ
الاستغناء عنها في بعض الكتب، وارتبطت
بمستند ثانٍ في كتب أخرى.

(*) في الكتاب رقم (١)، استبدلت
الخريطة برسوم تظهر شكل سطح الأرض
وطرق الإسقاط. أما في الكتابين رقم (٢)
و(٣)، فكان للخريطة وجود خجول حيث
استخدمت فقط لتوضيح الإسقاط
الإسطواني.

(*) في الكتاب رقم (٢) وضعت
الخريطة داخل إطار واحد مع المستند الذي
يمثل الإسقاط الاسطواني وحتى لم تنفصل
عنه بترقيم المستند (٦ - أ و ٦ - ب)،
يجمع بينهما أسهم تشير إلى أنّ الخريطة
هي نتيجة هذا الإسقاط وهذا ما يؤكده
العنوان المدون تحتها، فلا هدف مباشر
هنا لاستثمار الخريطة الأساسية، ولا أسئلة
مباشرة حولها. أما في الكتاب رقم (٣)، فقد
وضعت الخريطة في إطار لوحدها وأشير
إليها بحرف مكمل لرقم المستند، (مستند
الإسقاط)، ودون في أسفلها عنواناً يشير
إلى أنّها نتيجة الإسقاط الاسطواني.

**الدرس الرابع: تمثيل المظاهر
الجغرافية من الصورة إلى الخريطة:**
بالتوافق مع الأهداف التعليمية ومنها
«المقارنة بين الصور الجوية والخريطة
الطبوغرافية»، يظهر في هذا الدرس
استخدام نوع آخر من الخرائط، وهو
الخريطة الطبوغرافية التي من خلال تعلّمها
الصحيح يتمكّن المتعلّم من التعرّف على
مفهوم جديد في مدلولات الخرائط وهو
«خطوط المستوى». وقد أظهرت دراسة
خرائط هذا الدرس في كتب العينة ما يلي:

(*) في الكتاب رقم (١)، أحيطت
الخريطة بنصف إطار يظهر في أسفلها
وعلى يمينها ويغيب عن الجهات الأخرى،
ولا يوجد في داخله أيّ مؤشر للاتجاهات.
أما العنوان فذكر تحت الرقم المشار إليها
كمستند في الدرس محدداً بصورة واضحة
طبيعتها (خريطة طبوغرافية). وتماشياً مع
الهدف التعليمي الثالث في الدرس: «يقارن
المتعلّم بين الصورة الجوية والخريطة
الطبوغرافية التي يمثلها، من خلال مفتاح
الخريطة»، تضمّنت هذه الخريطة
الطبوغرافية مفتاحاً يشير إلى مدلولاتها
وكيفية تحويلها من أرض الواقع الى صورة
في الكتاب بمقياس دقيق وسهل، ولكن جاء
حجم المفتاح ومدلولاته مساوياً لنصف
حجم الخريطة، ممّا يقلل من قيمتها
الديداكتيكية ويؤكد أنّ وجودها في هذا

الدرس مرتبط فقط بمفتاحها وهذه صورة عكسية للعلاقة بين الخريطة ومفتاحها. وما يؤكد ذلك هي الأسئلة المطروحة حولها والتي انحصرت بسؤالين، الأول، طبيعة المستند والتي لا حاجة له هنا إذ أنّ الجواب وارد في العنوان، والثاني تحديد العناصر الموجودة في الخريطة بالاعتماد على مفتاحها. هذا كله يهمل بصورة واضحة أهمية المهارات المكتسبة من عملية تعلّم وتعليم الخريطة الجغرافية، فلا أسئلة تمهيدية ولا أسئلة استنتاجية تدعو المتعلّم للتعمّق في خريطته وفهمها وتحليلها، وبالتالي ينسى ما تعلّمه، لأنّه لم يتمكّن من فهمه وربطه بما يحصل معه خارج حيطان الصفّ.

(*) أغفل الكتاب رقم (٢) الهدف التعليمي الذي وجدت الخريطة من أجل تحقيقه، إذ أدخلت الخريطة الطوبوغرافية إلى مستندات الدرس في البداية تحت رقم (٤) ضمن إطار واضح ومحدّد، ولكنّها لم تتضمّن مفتاحاً، فكيف سيتمكّن المتعلّم من المقارنة بالاعتماد على المفتاح دون مفتاح؟ وقد لاحظنا من خلال الأسئلة المطروحة حول الخريطة والتي تناولت أيضاً مستندين آخرين (مستند رقم ٣ ومستند رقم ٥) في الصفحة عينها، فقد تمّ تحويل عملية تطبيق الهدف التعليمي من خلال وضع مفتاح للمخطّط (مستند رقم ٥) وليس للخريطة،

وتمحورت الأسئلة حول هذا المستند بالاستعانة بالخريطة. هذه الخريطة التي لا يمكن أن يستعين بها المتعلّم لأنّها معقّدة، تحتوي الكثير من العناصر، مدلولاتها غير واضحة، باستثناء المقياس، ومؤشّر جهة الشمال. إنّها خريطة طوبوغرافية في كتاب تعليمي بين أيدي معلمين ومتعلمين دون فائدة ديداكتيكية، لذا جاءت الخريطة الطبيعية لتضاريس لبنان لتكمّلها. تضمّنت هذه الأخيرة كافة المكوّنات الأساسية للخريطة، عنوان واضح مدوّن بجانب رقم المستند، مفتاح دقيق يوضح رموز الخريطة، مقياس خطي في أسفلها وهومن النوع السهل، ومؤشّر لجهة الشمال في أعلى الخريطة يسهّل على المتعلّم تحديد المواقع والاتجاهات. أما الأسئلة الموجّهة حولها فقد هدفت إلى تعلّم التلميذ قراءة عناصر الخريطة، وهذا ما يقف عند حدود مهارة قراءة وفهم الخريطة ولا يتخطّاها ليتمكّن المتعلّم من اكتساب مهارات أعلى تطلّ المستويات العليا من هرم بلوم (تحليل، تركيب، تقويم).

(*) في الكتاب رقم (٣)، لم تتوافق الخريطة أيضاً مع الهدف التعليمي الذي يؤكد على استخدام مفتاح الخريطة الطوبوغرافية للمقارنة بينها وبين الصورة الجوية. وهنا يُلاحظ وجه الشبه بين الثغرات في هذين الكتابين من حيث

مباشر لاستثمارها كتبت تحت عنوان ورقم المستند، ويلاحظ خطأ في تسلسل أرقامها، لقد ورد رقم (٢) مرتين وهذا ما جعل التسلسل غير صحيح (١ - ٢ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥). من خلال الاجابة عن هذه الأسئلة يتمكن المتعلم من قراءة وفهم وتفسير الخريطة وبذلك يكتسب أكثر من مهارة على المستوى التربوي وعلى مستوى الحياة، وذلك بالرغم من الخطأ الوارد في السؤال رقم (٢) الذي يتطلب من التلميذ أن يحدّد بالنسبة لخطوط المستوى وهو لا يرى في الخريطة أو في مفتاحها أي توضيح لهذه الخطوط، وا لخطأ في السؤال رقم (٣) حيث استخدم فعل «سم»، بالرغم أن لجان الامتحانات الرسمية تشدّد دائماً على ضرورة استبداله بـ «أذكر اسم»، بذلك على التلميذ الالتزام بذكر اسم الظاهرة المتعارف عليه، وليس إعطاء إسم لها.

الدرس الخامس: خريطة العالم

السياسية: من خلال قراءة عنوان الدرس نلاحظ أن الهدف الرئيسي لهذا الدرس هو الاستثمار الجيد للخريطة الجغرافية والتي تتمثل هنا بخريطة العالم السياسية، وهذا يكون من خلال قراءة مكوناتها الأساسية والاجابة على الأسئلة المطروحة حولها، فماذا أعطى تحليل خرائط هذا الدرس؟

(* استخدم الكتاب رقم (١)، خريطة خاصة لكل هدف تعليمي، الهدف الأول

الاعتماد على مفتاح مخطّط بدل مفتاح الخريطة الطبوغرافية، بالإضافة إلى أن الخريطة في هذا الكتاب لم تتضمن أي مكوّن من مكوّنات الخريطة الأساسية، باستثناء العنوان والاطار المحيط بها. لم تستثمر هذه الخريطة بأيّ سؤال مباشر أو غير مباشر مما يفقدها دورها الديدانكتيكي (التعلّمي - التعلّمي). ويلاحظ في أسفل الصفحة سؤال وحيد يتناول كافة مستندات الصفحة، وعددها أربعة، هذا السؤال لا يملك قيمة تعليمية ولا يساهم في دفع التلميذ على التفكير أو الربط بين المستندات، لأنّه يتطلّب فقط ذكر الموضوع. في هذا الكتاب أيضاً وضعت في الصفحة التالية خريطة بعنوان مدوّن تحتها: «خريطة لبنان الطبيعية». وقد تمثّلت بمقياس واضح يتناسب مع التصورات الذهنيّة لمتعلّمي الصف السابع الأساسي، وبألوان زاهية تتوضّح مدلولاتها في مفتاح في أسفل يمين الخريطة غير أنّه لم يتمّ إظهار خط المستوى بالرغم أنه طُلب من المتعلّم التعرّف على هذه الخطوط في السؤال رقم (٢). في الأعلى إلى اليسار رسمت وردة الجهات كاملة، لتسهّل على المتعلّم تحديد الجهات والاجابة على الأسئلة أرقام (٣) و(٤) و(٥)، وأحيطت مجموعة المكوّنات بإطار ذات خط واحد باللون الأحمر. استكملت الخريطة بأسئلة تهدف بشكل

فتساعد المتعلّم على تحليل الخريطة (بين...، أذكر اسم...، أذكر أسماء)، وهذا يساعد على اكتساب المتعلم مهارة وصف الظواهر المحيطة به، الأمر الذي يساهم في تنمية قدراته العقلية. أما السؤال السابع فيطلب من المتعلّم تحديد النوعين الأساسيين من المسطحات المائية بالرغم من عدم ورود رموز لكل منهما في المفتاح، وكأننا نوجّه المتعلّم على الاستنتاج والتعليل والتحليل دون الاتكال على المعطيات الموجودة في المستند، لأنّ التلميذ قد يجيب عن أنواع المسطحات من الذاكرة، ممّا يطرح السؤال عن مدى ضرورة وجود الخريطة؟ بالنسبة للهدف التعليمي الثاني: «يدرك المتعلّم أن القارات مقسّمة إلى وحدات سياسية مختلفة المساحة وهي الدول»، قابله أيضًا خريطة في أعلى الصفحة الثانية من الدرس بعنوان «خريطة العام السياسيّة»، ظهرت في هذه الخريطة بالإضافة إلى الوحدات السياسيّة والمسطحات المائية الرئيسيّة في العالم، درجات خطوط الطول ودوائر العرض. أحيطت الخريطة أيضًا بإطار ناقص من الأعلى ومن اليسار، ضمّ بداخله وردة الجهات، ومقياس الخريطة، بينما غاب المفتاح عن المكونات الأساسيّة لهذه الخريطة. من ناحية الاسئلة المطروحة حولها، لقد بدأت بالاستنتاج (السؤال الاول والثاني)، ممّا يتناقض مع ضرورة التدرّج

«يحدّد المتعلّم مواقع القارات والمحيطات والبحار على خريطة العالم»، لتحقيقه اعتمدت خريطة في الصفحة الأولى من الدرس بعنوان «توزّع اليابسة والمياه على الخريطة»، وهو مذكور تحت رقم المستند وليس بعده كما هو متعارف عليه. تظهر هذه الخريطة مضمون العنوان، أي توزّع القارات الستة، والمسطحات المائية الممثلة بالمحيطات والبحار الرئيسيّة، بحسب مواقعها على سطح الكرة الأرضية، وبهذا تكون الخريطة سهلة لا تتضمّن الكثير من المعطيات التي تربك المتعلّم وتبعده عن المطلوب. حدّد مقياس الخريطة على يسارها في الاسفل، وفوقه مربع يضمّ مفتاح الخريطة الذي يشرح مدلولات لوني الأزرق والأصفر. أحيطت الخريطة بنصف إطار، فلا خط فوقها أو على يسارها. استثمرت هذه الخريطة بجموعة كبيرة من الأسئلة، لم ترقّم هذه الأسئلة، إنما وضع إشارة (●) لكلّ منها، هذا يحدّد من إمكانية المعلّم الإشارة على السؤال المراد التوقف عنده. يستدعي السؤال الأول التلميذ لاستخدام المفتاح ليتمكّن من قراءة مدلولات الخريطة، أما الأسئلة (رقم إثنين وثلاثة وتسعة عشر)، فتتطلب استخدام مهارة تحديد مواقع واتجاهات، بينما لا تضمّ الخريطة وردة جهات ولا حتى مؤشر الشمال. تنتقل الأسئلة لتصبح استنتاجيّة

والفهم وهذا ما يفقد الخريطة أهميتها التربويّة، وهنا يؤكّد دي بلانك (Desplanques) على أنّ «قراءة مظهر، فحص خريطة، لا يعني فقط وصف ما نلاحظ وإنما أيضاً أن نوضح ذلك من خلال وضع العناصر في علاقة لإظهار كيفية تنظيم المجال المعين» (١٩٩٤، ص ١٩). وقد طرحت أسئلة سطحيّة إجابتها كلمة واحدة، نعم أو كلا أو حتى ذكر اسم. واستخدم فعل «سمّ» أكثر من مرّة وهذا يتناقض مع شروط الأسئلة التعليميّة الجيدة.

(*) اعتمد الكتاب رقم (٣)، خريبتين منفصلتين في هذا الدرس. في الخريطة الأولى وُضع مؤشّر الشمال في اعلى الخريطة وهذا ما يسهّل على المتعلّم تحديد المواقع، وغاب مكونان أساسيان، المفتاح والمقياس. جاءت هذه الخريطة واضحة، كُتبت أسماء البحار بخط كبير واشير بأسهم إلى مواقعها. تنوّعت الاسئلة المطروحة حولها، بين اسئلة فهم؛ عدد القارات، سمّ المحيطات، (استخدم أيضاً فعل سمّ)، وأسئلة تطبيق: حدّد موقع. لم تطرح أسئلة استنتاج، مثلاً: القارة الأكبر مساحةً هي..... أو رتّب المحيطات حسب مساحة كل منها. الخريطة الثانية في هذا الدرس جاءت بعد عدّة مستندات، وانقسمت بين صفحتين، ممّا جعلها غير واضحة في

بمهارات الخريطة قراءة، فهم، تحليل، تفسير، واستنتاج، واستخدام الافعال المناسبة لكل مهارة، هذا وحتى أنّه لا يمكن استنتاج الاجابة عن هذين السؤالين من الخريطة مع غياب المفتاح الذي يصوّب تفكير المتعلّم، حتى أنّ العنوان لا يشير إلى دلالات الخريطة، ربما على المتعلّم هنا الاعتماد على الهدف التعليمي للاستنتاج وليس على الخريطة. أما الأسئلة الأخرى فقد بدأت بأفعال يجوز استخدامها لاكتساب مهارة قراءة وفهم الخريطة، بينما الاسئلة المطروحة بعدها تتطلّب مهارة تحليل واستنتاج.

(*) في الكتاب رقم (٢)، اعتمدت خريطة واحدة لتحقيق الهدفين معاً. حدّد المقياس في أسفل الخريطة، ومؤشّر الشمال في الأعلى، وقد جاءت هذه الخريطة مقسومة على صفحتين وهذا يشكل صعوبة عند المتعلّم لتركيز الكتاب في الوسط، وقد كتب بداخلها مجموعة من الأسماء ممّا يقلّل من وضوحها بالنسبة لتلميذ الصف السابع الأساسي. على الصفحة الثانية وضعت خريطة كل قارة في مصغرة عن الخريطة الأساسيّة مع الثغرة ذاتها، أيّ غياب المفتاح الذي يوضّح للمتعلّم دلالة الرموز (ظواهر الخريطة، قارة، دولة، محيط...). أما الاسئلة حولها، بالرغم من عددها الكبير (تسعة أسئلة)، إلا أنّها توقّفت عند مهارة القراءة

لأنه بحسب برتان «عن» استخدام الحجم/ القامة (La taille)، أو القيمة (La valeur)، هذه المتغيرات البصرية الوحيدة المرتبة بصرياً، كل قارئ يجب أن يقدر على ترتيب الرموز دون تردد، من الأكثر إلى الأقل». (برتان، ١٩٩٧، ص ١٤٧). والأسئلة المطروحة حولها، توقفت بأغلبيتها عند مهارة قراءة وفهم الخريطة ولم تتعمق أكثر في التحليل والربط والاستنتاج ممّا لا يساهم في إكساب المتعلم مهارات تربوية وحياتية أكثر. كما أظهرت هذه الدراسة بعض الفروقات بين الكتب المدرسية، إن من حيث عدد الدروس في المحور، أو من حيث مدى توافق المحتوى مع الأهداف التعليمية، أو من حيث استيفاء الخرائط لشروط تعليمية ضرورية. هذا الواقع يستوجب من المسؤولين التربويين القيام بخطوات تساهم في معالجة الثغرات وتطوير تعليم الجغرافيا.

ثالثاً: إقتراحات: بناءً على الدراسة الحالية يمكن تقديم الإقتراحات التالية:

١ - مراجعة دقيقة للكتب المدرسية من قبل المركز التربوي أو لجان إختصاص أخرى، لتصحيح الثغرات الموجودة فيها وخاصة المستندات التعليمية.

٢ - عقد دورات تدريبية لمؤلفي الكتب لتطوير كفاءاتهم في التأليف لأنّ: تأليف الكتب المدرسية يحتاج إلى دراسة

بعض المناطق، مثلاً: لا يتمكّن المتعلم من ملاحظة الجزر الموجودة في المحيط الأطلسي. أشير إلى جهة الشمال بسهم في اعلى يسار الخريطة، وحدد العنوان في اسفلها إلى جانب رقم المستند، وحدد المقياس داخل الإطار، إلا أنّ الثغرة الأساسية هي غياب المفتاح. أما الأسئلة المطروحة حولها، لم توجه لاستثمارها مباشرة، بل طلب من المتعلم الاعتماد على مجموعة مستندات «من خلال المستندات (٦ إلى ١٢)»، واستخدم بكافة الاسئلة فعل (سم)، وهذا يؤكد أنه تم استثمارها فقط لتعليم التلميذ مهارة القراءة والفهم.

ثانياً: مدى صحة الفرضيات: بعد هذه الدراسة، تبين لنا صحة الفرضيتين اللتين تم وضعهما واختبارهما:

١ - الخرائط في كتب الجغرافيا لا تتوافق مع خصائص الخرائط الجيدة.

٢ - الأسئلة المطروحة حول الخرائط لا تساعد المتعلم على اكتساب مهارات الخريطة الجغرافية.

إن بيّنت هذه الدراسة أن معظم الخرائط في الكتب الجغرافية لا تساهم في تنمية المهارات العلمية والثقافية عند المتعلمين، فالبعض منها غير مرفق بمفتاح أو بمقياس أو بمؤشر جهة الشمال، وهذا لن يسمح حتى بمشاهدة سريعة للمحتوى الخرائطي

لديهم القدرة على التحليل والربط والتفسير. وبما أنّ التعلّم يحصل نتيجة تفاعل ثلاثة أقطاب تشكل أطراف المثلث الديداكتيكي (triangle didactique)، المعلم، والمتعلم والمادة المعرفية. المعرفة يحددها المنهج الرسمي الذي يتجسّد بكتاب تعليمي فمن الضروري إعداد الكتاب ليكون وسيلة مفيدة يعتمد عليه المعلم لتسيير العملية التعلّمية - التعلّمية.

الملاحق ملحق رقم (١): الدرس الأول: شكل الأرض وصور أبعادها الكتاب رقم (١): السلسلة العلمية في الجغرافيا.

واختصاص بالإضافة إلى الخبرة التعلّمية». (بدران، ص ١٠٤).

٣ - تدريب المعلمين على كيفية اختيار الخرائط التعلّمية وتصحيح تلك الموجودة في الكتب المدرسية بحيث تحقّق أهدافها التعلّمية والشخصية.

الخاتمة: أصبحت الخريطة اليومية وسيلة تواصل متوقّرة بين أيدي جميع الناس، فهي تشكّل «جسراً يربط بين العالم الداخلي لعقل الإنسان والعالم الخارجي، والبيئة المحيطة به» (داود، ٢٠١٣، ص ١)، ومن هنا أهمية تعلّم استخدامها مما يسهّل على المتعلّمين عملية التنقل والتوجّه، وينمّي



انطلق ماجلان من إسبانيا وتوجه غرباً، ثم عاد بعرض بشارته إليها قادمين من الشرق. = استنتج مما تقدم الشكل العام للأرض.

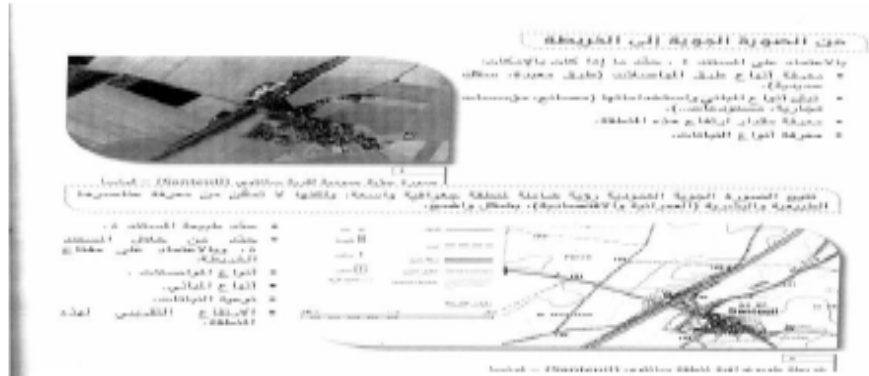
الكتاب رقم (3): الجغرافيا بالملاحظة والتطبيق.



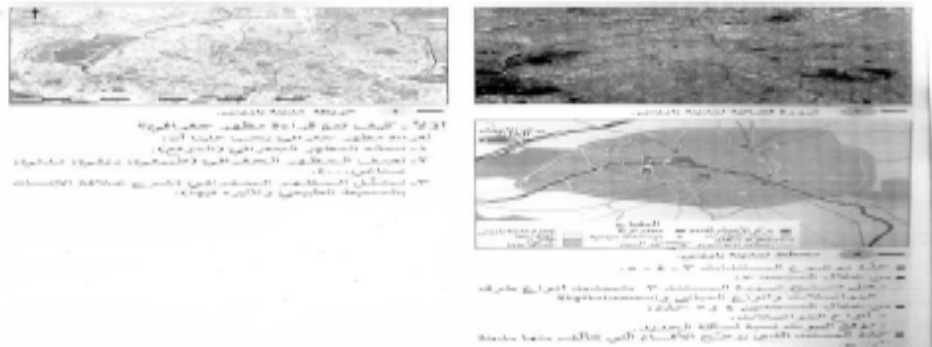
المستند (٩٢) : سطح الأرض، تغطيه اليابسة (سلاسل جبلية - هضاب ومنبسطة) والمسكحات المائية (محيطات - بحار وبحيرات ...). من خلال المستندين (٩١-٩٣)، حدّد سبب سيطرة اللون الأزرق على سطح الأرض. من خلال المستندات (٩٠-٩١-٩٢)، قارن مساحة اليابسة بمساحة المياه على سطح الأرض. ماذا تستنتج؟

الملحق رقم (٤): الدرس الرابع: تمثيل المظاهر الجغرافية من الصورة إلى الخريطة

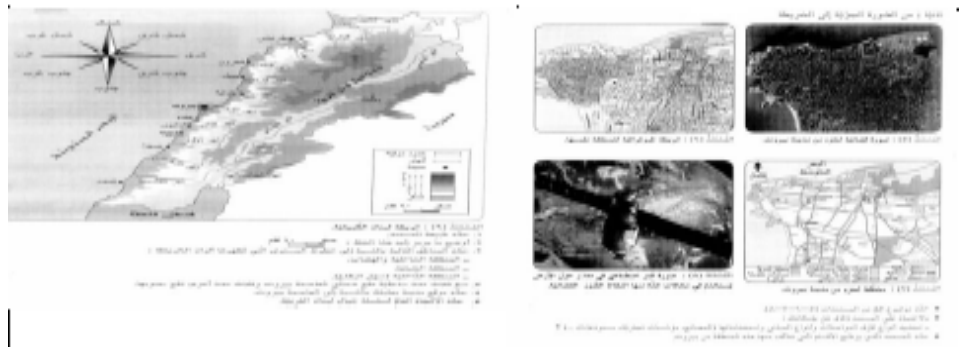
الكتاب رقم (1): السلسلة العلمية في الجغرافيا.



الكتاب رقم (2): الجغرافيا المنهجية الجديدة.

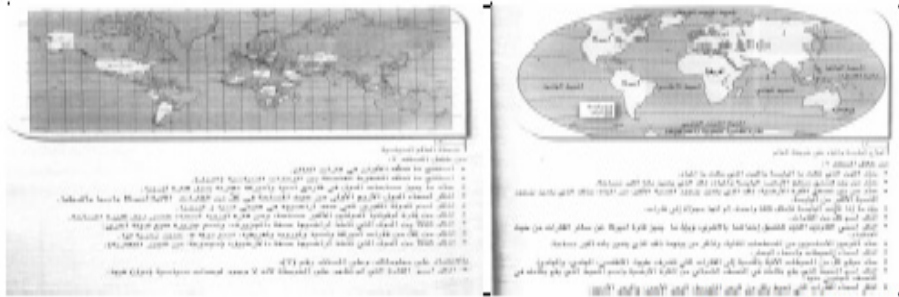


الكتاب رقم (3): الجغرافيا بالمساهدة والتطبيق.



الملحق رقم (٥): الدرس الخامس: خريطة العالم السياسيّة.

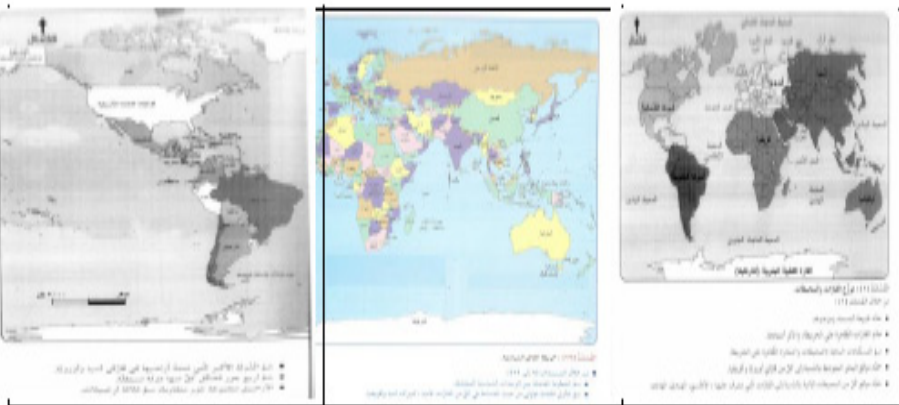
الكتاب رقم (١): السلسلة العلمية في الجغرافيا.



الكتاب رقم (2): الجغرافيا المنهجية الجديدة.



الكتاب رقم (3): الجغرافيا بالمساهدة والتطبيق.



والتعليم للاصفي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

١٥ - محمود، صلاح الدين عرفة (٢٠٠٥). تعليم الجغرافيا وتعلمها في عصر المعلومات، القاهرة: عالم الكتاب.

١٦ - الكتب المدرسية: أ - دار مكتبة حبيب (٢٠١٥)، السلسلة العلمية في الجغرافيا، بيروت.

ب - دار الفكر اللبناني (٢٠١٦)، الجغرافيا المنهجية الجديدة، بيروت.

ج - دار المكتبة الأهلية (٢٠١٩)، الجغرافيا بالمشاهدة والتطبيق، بيروت.

مواقع إلكترونية:

١٧ - الحربي، هيفاء (٢٠١٩)، مفهوم تكنولوجيا التعليم، تعليم جديد، مجلة إلكترونية. مأخوذة من الموقع الإلكتروني: <https://www.new-educ.com>

١٨ - خليف، سميحة (٢٠١٨)، مفهوم الخرائط الطبوغرافية مأخوذة من الموقع الإلكتروني: <https://mawdoo3.com>

١٩ - المئيمي، منى (٢٠١٨)، ما هي عناصر الخريطة، مأخوذ من الموقع الإلكتروني: <https://mwthoq.com>

ثانياً: باللغة الفرنسية

- 1 - Audigier, F. (coordinateur) (1993). Documents: des moyens pour quelles fins? Paris: institut national de recherche pédagogique.
- 2 - Bertin, J. (1997). La géographie et le traitement graphique de l'information, Paris.
- 3 - Desplanques, P. (coordinateur), (1994), La géographie en collège et en lycée, Paris.
- 4 - Hervé, G. et Marois, C. (2000). Initiation à la recherche en géographie, Montréal.
- 5 - Hugonin, G. (1992), Pratiquer la Géographie au Collège. Paris: IUFM, Armand Colin.
- 6 - Le Roux, A. (1997), Didactique de la géographie, I. U. F. M de l'académie de Caen, P.U.F.

المراجع

أولاً: باللغة العربية: كتب وأبحاث

١ - بدران، إلهام (٢٠١٣). مدى توافق الأهداف التعليمية - التعليمية في منهج الجغرافيا مع المعايير الصحيحة المحددة في المناهج الحديثة.

٢ - بدران، إلهام (٢٠١٣). مدى توافق المستندات في كتب الجغرافيا مع خصائص المستندات الجيدة. حثون، العدد السادس والعشرون، (٧١ - ١٠٢).

٣ - بدران، إلهام (٢٠٠٨). تعلّم وتعليم الجغرافيا، محاضرات جامعية، الجامعة اللبنانية: كلية التربية.

٤ - الجوهرى، يسرى (١٩٩٧). الخرائط الجغرافية. مصر: مكتبة الإشعاع للطباعة والنشر والتوزيع،

٥ - داود، جمعة (٢٠١٣). المدخل إلى الخرائط. النسخة الأولى.

٦ - زيادي، إبراهيم (١٩٩٣). مبادئ الخرائط والمساحة، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

٧ - الزيدي، نجيب، مسعود، حسين (٢٠٠٥). علم الخرائط، الطبعة العربية، عمان، الأردن: دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع.

٨ - سعادة، جودت (٢٠٠١)، أهمية تدريس مهارات الخرائط والكروت الأرضية، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين: نابلس - دار الشروق.

٩ - سعادة، جودت (١٩٩٢)، تدريس مهارات الخرائط ونماذج الكرة الأرضية. الطبعة الأولى.

١٠ - الشكر، إيليان (٢٠١٠)، أوراق جامعية، العدد ٣٣ - ٣٤ - ٣٥، (٧٣ - ٩٧).

١١ - شكرالله، عبد الرضا (د. ت). المهارات في تعلّم الجغرافيا. الكويت: جامعة الكويت.

١٢ - صقر، مأمون (٢٠٠٩)، تقويم استخدام الخريطة في كتب الجغرافيا في المرحلة الأساسية العليا في فلسطين.

١٣ - عبابنة، ضرار (٢٠٠٦)، المعايير الحديثة المعاصرة لعلم الجغرافيا، الطبعة الأولى، عمان الأردن: دار الكتاب العالمي.

١٤ - اللقاني، أحمد، وأبو سنينة، عودة (١٩٩٠)، التعلّم

المصدر في ديوان أباريق مهشمة^(١)

الباحثة هدى محمد الرزوق^(٢)

من هذا المنطلق جاءت دراستي للمصدر، متخذةً من ديوان «أباريق مهشمة» نموذجًا، لأنه ينقل من خلاله صورة ترسم الآلام التي يقبع فيها الشعب العربي من ظلم وتهجير. حيث تناولت أبنية المصادر في الديوان، فتطرقت إلى المصدر اللّازم، والمصدر المتعدّي وتوسّلت الدّراسة الإحصائية، لدراسة المصادر في ديوان البياتي دراسة تطبيقية لتبيّن دلالاتها المختلفة وتأثيرها على السياق.

المقدمة:

يقول ابن عصفور: «التّصريف أشرف شطري العربيّة وأغمضهما: فالذي يبيّن شرفه احتياج جميع المشتغلين باللغة العربية، من نحوّي ولغويّ، إليه أيّما حاجة، لأنّه ميزان العربيّة؛ ألا ترى أنّه قد يؤخذ جزء كبير من اللغة بالقياس، ولا يوصل إلى

ملخص البحث:

عرفت العربيّة المصدر الذي عدّه البصريّون أصل الأفعال والمشتقّات، في الوقت الذي رأى فيه آخرون ومنهم الكوفيّون أنّ الفعل هو أصل الاشتقاق في العربيّة؛ ومهما يكن من أمر فإنّ اللّغة العربيّة لغة اشتقاقية، وبهذه الصّفة اتّسعت اللّغة وتنوّعت في الأساليب والمعاني، وقد ذكر علماء العربيّة أنواعًا من المصادر كالمصدر الصّريح، والمصدر الميمي، ومصدر المرّة، ومصدر الهيئة، والمصدر الصّناعي، والمصدر المؤول بأنواعه... وقد هدفت هذه الدّراسة إلى ربط بنية الكلمة بالسياق الذي وردت فيه، لاكتشاف غاية الشّاعر الدّلالية عند استعماله مصدرًا مُعيّنًا دون آخر، إذ إنّ أيّ تغيير في بنية الكلمة يحمل تغييرًا في المعنى.

(١) ديوان «أباريق مهشمة» للشّاعر العراقيّ عبد الوهاب البياتي هو مدوّنة هذا البحث، وقد اعتمدت النّسخة الواردة في «الأعمال الشعريّة الكاملة»، الصّادر عن دار العودة في بيروت، عام ٢٠٠٨م، المجلّد الأوّل، ص ١٢٧ - ٢٠٠.

(٢) طالبة دكتوراه في جامعة القديس يوسف.

ذلك إلا من طريق التصريف... ومما يبيّن شرفه أيضًا أنه لا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلا به...»^(١).

وإنّ علم الصّرف يُساعد في معرفة قواعد هذه اللّغة وضوابطها الجامعة، ويؤدّي دورًا رئيسًا في بناء المعاجم وتبويبها وتنظيمها، ويُستثمر في دراسة العلاقة بين مباني الكلمات ومعانيها وخصائصها النحويّة والصوتيّة.

ويعدّ المصدر من المباحث الصّرفيّة التي اعتنى بأوزانها ومعانيها، لا سيّما إذا اتّصل ببعض المشتقّات، فالوزن المصدريّ يوظّف لأداء دور المشتقّ وتمثيل معناه.

من هنا انطلقت إلى دراسة المصدر ودلالاته في ديوان «أباريق مُهشّمة»، لـ «عبد الوهّاب البياتي»، لأنّه تعبّر صادق عن مشاعر كاتبه، وهو محاكاة قضية اجتماعيّة، ووصف سلوك المجتمع بآماله وآلامه؛ ولأنّه طرّح في قالب شعريّ مُحبّب للنفس، يجد فيه المُتلقيّ حلاوة اللفظ وقوّة المعنى ورسالة العبارة وعفوية الخيال. فشعره لم يتأتّى اعتبارًا، بل حمل تجربة وفكرًا ورؤية.

الإشكاليّة:

إنّ دراسة المصدر في ديوان «أباريق مهشّمة» تطرح إشكاليّة حاولتُ في هذا

البحث الإجابة عنها: هل ارتبط المصدر عند الشّاعر بالسّياق دلاليًّا؟ أم جاء اختياره لكلماته عبثيًّا؟

الفرضيات:

١ - إنّ انطلاق الشّاعر من معاناته وتجاربه ليخطّ بقلمه شعرًا، دفعه إلى استخدام مصادر معيّنة دون أخرى.

٢ - إنّ استخدام الشّاعر للمصادر لم يكن عبثيًّا، بل لعلاقة واضحة بالسّياق، فمن المتوقّع أن نجد صلة بين الكلمة والسّياق الذي وردت فيه.

٣ - لكي يُحدّد الشّخص معنى الحدث الكلامي، لا بدّ له من دراسة التّركيب الصّرفي للكلمة، وبيان المعنى الذي تُؤدّيه صيغتها.

الدّراسات السّابقة:

وُضعت عدّة دراساتٍ تتناول هذا الديوان، إلّا أنّها دراسات أدبيّة نقدية. وهنا تكمن أهميّة هذا البحث؛ إذ إنّّه يعتمد «المصادر» وسيلةً لكشف المعاني. ونذكر من تلك الدّراسات:

- البياتي من خلال ديوانه «أباريق مُهشّمة»: رسالة جامعيّة للأنسة نجاة عامودي، أُعدّت بإشراف الدّكتور جودة الرّكابي، الجامعة السّوريّة، كليّة الآداب

(١) ابن عصفور. الممتع في التصريف. ص ٣١.

١٩٥٦ - ١٩٥٨، إلا أنّ هذه الدّراسة أدبيّة ولم تُعطِ الصّرف والدّلالة أيّ اهتمام.

- «البياتي» شاعر النّضال والإنسانيّة: رسالة جامعيّة للأنسة نورس كم نقث، أعدت بإشراف الدّكتور جودة الرّكابي، الجامعة السّوريّة، كليّة الآداب ١٩٥٧ - ١٩٥٨، وهذه الدّراسة أدبيّة، ولم تتطرّق إلى المنحى اللّغويّ.

المنهج:

اعتمدت في هذه الدّراسة المنهج الوصفيّ التحليليّ، الذي يُشكّل أساساً لأيّة دراسة لغويّة، وهو يقوم على وصف ظاهرة لغويّة معيّنة، وفي بحثي سأقوم بوصف بنية الكلمة «المصدر»، ودراستها دراسة تحليليّة، تبين أسباب هذه الظّاهرة، والعوامل التي تتحكّم بها، ومن ثمّ استخلاص النّتائج، وسيكتمل وصفي بتنظيم هذه البيانات وتحليلها، واستنباط الاستنتاجات ذات الدّلالة والمغزى بالنّسبة للبحث، إذ إنّ بحثنا مرفق بتقارير إحصائيّة.

أولاً: المصدر بين أمّهات الكتب والمحدثين

- تعريف المصدر

«ذهب الكوفيّون إلى أنّ المصدر مشتقّ

من الفعل وفرع عليه، نحو: «ضربَ ضرباً، وقامَ قياماً»، وذهب البصريّون إلى أنّ الفعل مشتقّ من المصدر وفرع عليه»^(١).

وقد جاء في شرح شذور الذهب: «المصدر، وهو: اسم الحدث الجاري على الفعل... فإنّه وإن كان اسماً دالاً على الحدث، لكنّه لا يجري على الفعل»^(٢). ويقول عبد الصّبور شاهين: «المصدر هو اسم الحدث الذي تحمله مادّة الكلمة في أصولها الصّامته، وهو لا يأتي إلاّ من مادّة مخسبة يمكن أخذ المشتقات منها قياساً»^(٣). وعرفه عبّاس حسن بـ: «المصدر الأصليّ»، وهو ما يدلّ على معنى مجرّد، وليس مبدوءاً «بميم» زائدة، ولا مختوماً بياء مشدّدة زائدة، بعدها تاء تأنيث مربوطة»^(٤). وأشار إلى أنّ «كلمة: «مصدر» حين تذكر مطلقة بغير قيد يبين نوعاً معيّناً. أمّا غيره فلا بدّ أن يذكر معه ما يبين نوعه»^(٥). وقد يؤتى بالمصدر الصّريح لإرادة الحدث وحده دون إرادة صاحبه، أو إرادة زمنه نحو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] فإنّه يراد بالحمد مجرّد الحدث لا صاحبه، ولا زمنه»^(٦).

(١) الأنباري. الإنصاف في مسائل الخلاف. ٢١٧/١.

(٢) محمّد محيي الدّين عبد الحميد. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام الأنصاري. ص ٣٩١.

(٣) عبد الصّبور شاهين. المنهج الصّوتي للبنية العربيّة. ص ١٠٩.

(٤) عبّاس حسن. النّحو الوافي. ١٨١/٣.

(٥) م. ن. ١٨٥/٣.

(٦) فاضل السّامرائي. معاني النّحو. ١٣٠/٣.

ويعتبر السامرائي أنّ المصدر «هو الحدث المجرد، يستعمل أحياناً استعمال الفعل فيكون له فاعل، ومفعول به، وذلك كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [البلد: ١٤-١٥] وقوله: ﴿... إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمْ الْعَجَلِ﴾ [البقرة: ٥٤] (١).

يتبين لي من خلال هذه التعريفات أنّ استخدام الفعل أقوى من استخدام المصدر الذي لا يحمل سوى دلالة واحدة، هي تلك التي تدلّ على الحدث دون الزمان. أمّا وظيفة الفعل فهي تحديد الحدث والزمان وصاحب الفعل، فالحدث هو جزء من معناه، وهو يدلّ أيضاً على الزمان، وبذلك يختلف عن المصدر الذي يدلّ على زمان مطلق ويشترك في الأزمنة كلها.

- مصدر المرّة أو الهيئة

جاء في «شرح الشافية»: «والمرّة من الثلاثي المجرد الذي لا تاء فيه على فعلة، نحو: ضربة وقتلة، وبكسر الفاء للنوع: نحو: ضربة وقتلة، وما عداه على المصدر المستعمل، نحو إناخة، فإن لم تكن تاء زدتها، ونحو أتيته إتيانة ولقيته لقاءة شان» (٢).

ويقول «عبّاس حسن»: «المصدر الأصلي في دلالاته الأساسية الأولى خال من التقييد، بخلافه إذا دلّ على المرّة أو الهيئة فإنّه يكون في «المرّة» مقيداً - مع الحدث - بالدلالة على أنّ هذا الحدث مرّة واحدة، وفي «الهيئة» يكون مع الحدث مقيداً بوصف خال» (٣)، ويشير حسن إلى أنّه «لا بدّ من صياغة «فعلّة» الدالّة على «المرّة» من تحقّق شرطين: أن تكون لشيء حسّي، صادر من الجوارح الظاهرة والأعضاء الجسميّة، وأن يكون ذلك الشيء المحسوس غير ثابت؛ فلا تصحّ صياغة «فعلّة» للدلالة على أمر معنويّ عقليّ محض، كالذكاء... ولا تصحّ صياغتها من الأوصاف الثابتة، كالظرف...» (٤).

وكتب الدكتور «عبد الصبور شاهين»: «وهو من الثلاثي على وزن (فعلّة) لما دلّ على المرّة، كجلس جلسة... إلا إذا كان المصدر على وزن (فعلّة) فيدلّ على المرّة بالوصف: دعوة واحدة.

وعلى وزن (فعلّة) لما دلّ على الهيئة كجلسة وقعدة، ووقفّة. فإذا كان المصدر على (فعلّة) دلّ على الهيئة بالوصف: نشدة عظيمة، أو بالإضافة: نشدة الملهوف» (٥). ويتابع قائلاً عن الفرق بين المرّة والهيئة:

(١) م. ن. ١٢٦ / ٣.

(٢) شرح شافية ابن الحاجب. ١٧٨ / ١.

(٣) عبّاس حسن. التحو الوافي. ٢٢٥ / ٣.

(٤) م. ن. ٢٢٧ / ٣.

(٥) عبد الصبور شاهين. المنهج الصوتي للبنية العربيّة. ص ١١١.

«ويُفرق بين المرّة والهيئة بالوصف، فيقال في المرّة: ابتسامَة واحدة، وفي الهيئة: ابتسامَة هادئة»^(١).

وورد في شرح ابن عقيل: «إذا أُريد بيان المرّة من مصدر الفعل الثلاثي قيل فَعَلَة... وإذا أُريد بيان المرّة من مصدر المزيد على ثلاثة أحرف، زيد على المصدر تاء التأنيث»^(٢).

– المصدر الميمي

يقول سيبويه: «أما ما كان من فَعَل يَفْعُل فإنّ موضع الفعل مَفْعُل، وذلك قولك: هذا محبِسنا، ومضربِنا، ومجلسنا، كأنّهم بنوه على بناء يَفْعُل، فكسروا العين كما كسروها من يَفْعُل. فإذا أردت المصدر بنيته على مَفْعَل، وذلك قولك: إنّ في ألف درهم لَمَضْرَبًا؛ أي لَضْرَبًا»^(٣).

وسمّاه السّيوطي: «اسم المصدر... وهو ما دلّ على المصدر دلالة مغنّية عن أل، لتضمّن الإشارة إلى حقيقته»^(٤). وجاء في شرح شذور الذهب: «اسم المصدر، والمراد به اسم الجنس المنقول عن موضوعه إلى إفادة الحدث، كالكلام والثواب»^(٥).

وذكر «عبّاس حسن» عن دلالة المصدر الميمي: «أما من حيث الدلالة فيدلّ على المعنى المجرد – كالمصدر الأصلي – ويمتاز الميميّ بقوة دلّالته وتأكيدها. ولا يدلّ على بيان السبب إلاّ سماعًا»^(٦).

ثانيًا: أبنية المصادر الواردة في الديوان

– المصدر المتعدّي:

يقول سيبويه: «فالأفعال تكون من هذا على ثلاثة أبنية: على فَعَل يَفْعُل، وفَعَل يَفْعُل، وفَعْل يَفْعَل. ويكون المصدر فَعْلًا، والاسم فاعلًا»^(٧). ويؤكّد ذلك ابن مالك بقوله:

«فَعْلٌ قِياسُ مصدرِ المُعدّي

مَنْ نِى ثِلاثَةً، ك: «رَدًّا رَدًّا»^(٨)

ويقول ابن الحاجب في شافيته: «وفي المتعدّي، نحو ضَرَبَ، على ضَرْب»^(٩)، ويذكر سيبويه: «وقد جاء من مصادر ما ذكرنا على فُعْل، وذلك نحو: الشُّرْب والشُّغْل. وقد جاء على فِعْل نحو: فَعَله فَعْلًا، ونظيره: قاله قِيلاً»^(١٠). كما ويقول: «وقد جاء بعض ما ذكرنا من هذه الأبنية على

(١) م. ن. ص ١١١. (٢) ابن عقيل. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. ص ٤٣٦.

(٣) سيبويه. الكتاب. ٨٧/٤. (٤) السّيوطي. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع. ٥١/٣.

(٥) محمّد محيي الدّين عبد الحميد. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام الأنصاري. ص ٤١٧.

(٦) عبّاس حسن. التحو الوافي. ٢٣٦/٣.

(٧) سيبويه. الكتاب. ٥/٤. (٨) ابن عقيل. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. ص ٤٣٠.

(٩) الأسترابادي. شرح شافية ابن الحاجب. ١٥١/١. (١٠) سيبويه. الكتاب. ٦/٤.

فُعل. وذلك: لزمه يلزمه لُزومًا^(١)، ونجد أنّ ابن الحاجب يقول: «إذا جاءك فَعَلٌ مِمَّا لم يُسمع مصدره فاجعله فَعَلًا للحجاز وفُعلًا لِنَجْدٍ، ونحو هدى وقرى مختصّ بالمنقوص»^(٢).

وفي معاني الأبنية يقول السّامرائي: «قياس مصدر الفعل المتعدّي (فَعَل) كضربَ ضربًا وأكلَ أكلًا وفهمَ فهمًا، ما لم يكن حرفة فإنّه يكون على (فعالة) كسقي سقيًا وسقيّة»^(٣). ويقول الأستراباذي: «الغالب في الجرف وشبهها من أيّ باب كانت الفعالة بالكسر»^(٤).

كما وذكر عبّاس حسن: «أنّ الثّلاثي المتعدّي لا يكون إلاّ مفتوح العين أو مكسورها. أمّا مضمومها فلا يكون إلاّ لازمًا، نحو: حَسُنَ - ظُرِفَ...»^(٥).

- المصدر اللّازم:

في ما يختصّ بالمصدر اللّازم المفتوح العين يقول سيبيويه: «وأما كلّ عمل لم يتعدّ إلى منصوب فإنّه يكون فعله على ما ذكرنا في اللّذي يتعدّي، ويكون الاسم فاعلاً

والمصدر يكون فُعلًا، وذلك نحو: قَعَدَ قُعودًا»^(٦).

ويقول ابن مالك أن فَعَلَ اللّازم يأتي مصدره على فُعلٍ قياسًا:

«وَفَعَلَ اللّازم مثل قَعَدَا

له فُعلٍ باطّراد، كغدا»^(٧)

ويستثني بقوله:

«ما لم يكن مستوجبًا: فَعَلًا

أو فَعَلَانًا - فادرٍ - أو فَعَلَانًا

فأولُّ لذي امتناع كأبي،

والثّانِ للذي اقتضى تقلّبًا»^(٨)

من هنا، فإنّ ما دلّ على امتناع يكون مصدره على فَعَالٍ. يقول الأستراباذي: «والغالب في الشّراد والهيّاج وشبهه الفَعَال كالفِرار»^(٩). كما وأنّ ما كان مصدره على فَعَلَانٍ، فقد دلّ على التّقلّب والاضطراب. يقول سيبيويه: «ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني قولك: النَّزوان والنَّقْزان»^(١٠).

ويوضّح قول ابن مالك ما قاله عبّاس حسن: «وإن كان الماضي الثّلاثي لازمًا،

(١) م. ن. ٥/٤. (٢) الأستراباذي. شرح شافية ابن الحاجب. ١٥١ / ١ - ١٥٢.

(٣) فاضل السّامرائي. معاني الأبنية العربيّة. ص ٢٠.

(٤) الأستراباذي. شرح شافية ابن الحاجب. ١٥٣ / ١.

(٥) عبّاس حسن. النّحو الوافي. ١٩٤ / ٣. (٦) سيبيويه. الكتاب. ٩ / ٤.

(٧) ابن عقيل. شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك. ص ٤٣٠.

(٨) المصدر السابق نفسه. (٩) الأستراباذي. شرح شافية ابن الحاجب. ١٥٣ / ١.

(١٠) سيبيويه. الكتاب. ١٤ / ٤.

مفتوح العين، صحيحها، غير دالّ على إباء وامتناع، ولا على اهتزاز وتنقلّ وحركة متقلّبة، ولا على مرض، ولا سير، أو صوت، ولا على حرفة أو ولاية - فإنّ مصدره القياسي: «فُعول»^(١).

وذكر سيبويه بأنّ ما دلّ على مرض فإنّ مصدره على فُعال: «وقد جاء بعضه على فُعال كما جاء على فُعال وفُعول، قالوا: نَعَسَ نُعَاسًا... وأما السُّكَّات فهو داء... فهذه الأشياء لا تكون حتّى تريد الداء»^(٢).

كما ونجد عند الأستراباذي قوله: «والغالب في فمصدر الأدوية من غير باب فُعل المكسور العين الفُعال، كالسُّعال... والغالب في الأصوات أيضًا العال بالضّم، كالصّراخ... ويأتي فيها كثيرًا فعيل أيضًا، كالضّجيج...»^(٣).

كما ويذكر «السّامرائي» بأنّ فعيل تأتي للدلالة على السّير بالإضافة إلى دلالتها على الأصوات: «فعيل: وهو للدلالة على صوت أو سير كالصّهيل... والرّحيل والدّميل. وقد مرّ بنا أنّ الصّوت يكون أيضًا على (فُعال) كالدّعاء...»^(٤)، ويضيف بقوله: «وإذا اتّفق أن

يكون للصّوت وزنان: فعيل وفُعال فالذي يبدو أنّ (فُعالاً) أبلغ من (فعيل) وأقوى وذلك لأنّ مدّة الألف أطول من مدّة الياء»^(٥).

أمّا عن مكسور العين فيقول ابن مالك:

«وفُعيل اللّازمُ بآئه فُعل

كفَرَح، وكَجَوَى، وكَشَلَل»^(٦)

ويوضّح «عبّاس حسن» أنّ الفعل الماضي الثلاثي، إن كان «لازمًا، مكسور العين، غير دالّ على لون، أو على معالجة، أو على معنى ثابت، فمصدره القياسي: «فُعل» نحو: تَعِبَ تَعَبًا... فإنّ دلّ على لون، فالغالب في مصدره: «فُعلة»؛ نحو: سَمِرَ الفتي سُمرة... وإن دلّ على معالجة فمصدره: «فُعول»؛ نحو: قَدِمَ قُدومًا...»^(٧).

ثالثًا: دراسة المصادر دراسة تطبيقية

- المصدر:

ورد المصدر في الديوان مئة واثنين وثمانين مرّة، أي ما نسبته ١٩٪، وكان له عدّة دلالات:

ورد المصدر من فعل متعدّد غير دالّ على صناعة اثنين وسبعين مرّة، بنسبة ٣٩،

(١) عبّاس حسن. التّحو الوافي. ١٩٤/٣. (٢) سيبويه. الكتاب. ١٠/٤.

(٣) الأستراباذي. شرح شافية ابن الحاجب. ١٥٤ - ١٥٥.

(٤) فاضل السّامرائي. معاني الأبنية العربيّة. ص ٢٥.

(٥) م. ن. ص ٢٥. (٦) ابن عقيل. شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك. ص ٤٣٠.

(٧) عبّاس حسن. التّحو الوافي. ١٩٤ - ١٩٥ / ٣.

الشاعر ليصف لنا سوداوية الحال الذي يلتف حول عالمنا العربي، فالظلم تغلغل إلى زواياه، فأظلمت الحياة في عيون الشعوب:

«كَانَتْ مَدَائِنُنَا الْجَدِيدَةُ فِي الظَّلَامِ
بِمَنَازِلِ الأَمْوَاتِ، أَشْبَهَهُ، أَوْ قُرَى
النَّمْلِ - ... الْجَدِيدَةَ فِي الظَّلَامِ -
كَانَتْ مَدَائِنُنَا تُقَامُ

(ذكريات الطفولة - ١٧٢)

وهذا الحال كان دافعاً للشاعر كي يطلق أغانيه في الديوان، علماً تنتشل الأمة من الضياع وترشدها نحو السلام:

«هِيَ الأَرْضُ مَحْرَابُنَا السَّرْمَدِي
عَلَيْهَا سَنَبْنِي صُرُوحَ السَّلَامِ»

(الممالك - ١٧٥)

- ورد المصدر من اللّازم على وزن «فُعول» و«فَعَلَ» اثنين وثلاثين مرّة، أي ما نسبته ١٧,٧٪، للدلالة على حدث مجرد غير حسي، لا يبذل فيه جهد جسمي للوصول إلى غاية ما، وتوزّع بين قصائد الديوان: «موعد مع الربيع»، «الأسير»، «المحرقة»....:

«نُبِّرَتْ خُيُوطُ العَنَكُبُوتِ
وَعِنَاءَ حَطَّابٍ، أَبْحُ، يَفِيضُ مِنْ قَلْبِ
السُّكُونِ»

(الحديقة المهجورة - ١٨٩)

فالشاعر يتحدث هنا عن حديقة هجرها أصحابها فأصبحت جماداً ساكنة لا حركة

٧٪، متوزّعاً بين قصائد الديوان: «أباريق مهشمة»، «فيت مين»، «طيفها»، «الأفاق»...، ولقد استعمله الشاعر في ديوانه ليشير إلى الوضع المحزن الذي آل إليه الشعب العربي، نتيجة لظلم الاستبداديين، ولذلك نجد أنّ المصادر جاءت متعدية لأفعال تحمل معاني الظلم والأسى: «الظلم»، «مقت»، «الحزن»، «قيد»...، وذلك في معظم قصائد الديوان، لأنّ «البياتي» ضمّن ديوانه صرخات الشعوب المقهورة، وأرسلها إلى كلّ ضمير إنسانيّ علّه يستفيق:

«لَا تَقُولِي: «حَطْنَا شَاءً» وَدَاعَا! فَالِينَا
يَنْظُرُ (البَيْدُقُ) فِي خَوْفٍ وَ(صَمْتِي)
وَ(انْتَهِينَا)»

دُمِيَّةٌ أَلْقَى بِهَا طِفْلٌ، بَعِيدًا عَن يَدِينَا»

(تمّت اللعبة - ١٨٦)

فهنا نجد أنّ المصدر «صمّت» يحمل في طبيّاته حدثاً أدّى إلى تخلف العرب عن غيرهم من الشعوب وهو الصمّت، والشاعر أورد حدث الصمّت مصدراً قائلاً: «صمّتي»، ولم يقل: «أصمّت» كي لا يربطه بزمان، فصمّت العرب عن حقوقهم كان سائداً، ولا يزال إلى اليوم منتشراً في أمّتنا.

- كما ورد حوالي أربعين مصدرًا على أوزان قياسية وغير قياسية مورّعين بين قصائد الديوان، بنسبة تعادل ٢٢٪، أوردهم

فيها، هجرتها الذكريات فباتت خالية الأحاسيس، مجردة المعالجة^(١).

وكثر اللازم في قصيدة «الأسير» بحيث ورد فيها إحدى عشرة مرّة:

«يَا مَلَآكِي الصَّغِيرُ
هَلْ عَرَفْتِ الْأَلَمَ
وَالْبُكَاءَ الْمَرِيرُ
وَالهَوَى وَالنَّدَمَ»
(الأسير - ١٥٧)

فهذه القصيدة يسيطر عليها اليأس، لذا فهي خالية من أيّ جهد جسمي، فالشاعر يصوّر فيها أحداثاً مجردة تعترى الأسير، وتصوّر معاناته وألمه في الأسر: «الألم»، «النّدم»، «العدم»...

- الامتناع:

ورد المصدر على وزن «فعال» للدلالة على الامتناع ستّ عشرة مرّة، أي ما نسبته ٨,٨٪، وذلك في عدّة قصائد منها: «موعد مع الربيع»، «ذكريات الطفولة»، «الملجأ العشرون»...

«كَفَرَاغِ أَيَّامِ الْجُنُودِ الْعَائِدِينَ مِنَ الْقِتَالِ
وَكَوْحِشَةِ الْمَصْدُورِ فِي لَيْلِ السُّعَالِ
كَانَتْ أَغَانِينَا وَكُنَّا هَائِمِينَ بِلاِ ظِلَالِ»

(الملجأ العشرون - ١٣١)

فهنا استعمل الشاعر مصدر «القتال»

للدلالة على الجمود وامتناع المحاربين عن قتال عدوّ الحرّية. وتجدر الإشارة إلى أنّ المصدر «ضياء» ورد ثماني مرّات، متوزّعا في خمس قصائد، وقد اختلفت دلالاته من سياق إلى آخر:

ففي «ذكريات» الطفولة دلّ هذا المصدر على امتناع الخوف من الضياء:

«لَا نَرَهَبُ السُّورَ الَّذِي مِنْ خَلْفِهِ يَأْتِي
الضِّيَاءُ»

(ذكريات الطفولة - ١٧١)

وفي سياق آخر نجده يدلّ على امتناع الخوف من الظلام وحلول الضياء محلّه:

«الْبَابُ يُفْتَحُ، وَالضِّيَاءُ يَمَسُّ نَفْسِي مِنْ
جَدِيدٍ»

(موعد مع الربيع - ١٧٨)

- الصّوت:

ورد المصدر على وزن «فعليل» سبع مرّات، كما ورد على وزن «فُعال» ثلاث مرّات مع المصدر «بُكاء»، وذلك للدلالة على الصّوت، وانتشر الوزنان في قصائد مختلفة بنسبة ٥,٥٪:

«عَوِيلٌ يُلَاحِقُنِي أَيْنَمَا
هَبْتُ، وَظَلٌّ وَرَائِي يَسِيرُ»

(ممالك - ١٧٤)

والأصوات التي ذكرها الشاعر هي

(١) المعالجة: المحاولة الحسيّة.

أصوات تدلّ على الألم والحزن: «بكاء»،
«شهيق»، «عويل»...:

«الشَّمْسُ فِي الطَّرْقَاتِ تَحْتَضِنُ البُيُوتَ
وَتُثِيرُ فِي النَفْسِ الحَنِينَ إِلَى البُكَاءِ»

(عشاق في المنفى - ١٦٣)

فالأحداث التي يُعاصرها الشّاعر، دفعته
إلى نبذ الفرح، والتّعبير عن اختلاجاته
بصوت صارخ يحمل شهقات متوجّعة،
تشكو سوء الأوضاع في العالم العربيّ.

ومع أنّ وزن «فُعال» أبلغ وأقوى من
«فَعيل»، إلاّ أنّ الشّاعر استخدم الوزن
«فَعيل» في الدّلالة على الصّوت بشكل أكبر
من الوزن «فُعال»، وربّما كانت تلك إشارة
منه إلى الغُصّة التي تعترى صرخاته
فتخنقها، أو إلى محاولات البعض في كتم
صرخاته وإسكاتها كي لا تحرّك الشّارع
العربيّ.

– الدّاء:

ورد المصدر للدّلالة على الدّاء خمس
مرّات، أي ما نسبته ٢,٨٪، ونلاحظ أنّ داء
السّعال ورد ثلاث مرّات في قصيدتيّ
«الملجأ العشرون» و«الأفاق»:

«وَكَوْحَشَةَ المَصْدُورِ فِي لَيْلِ السُّعَالِ

كَانَتْ أَغَانِيَنَا وَكُنَّا هَائِمِينَ بِأَلَا ظِلَالِ»

(الملجأ العشرون - ١٣١)

فكأنّ الليل مصاب بهذا الدّاء، ولذلك فإنّه
لا يستطيع حجب أجنحته عن سمائنا.

– السّير:

ورد المصدر للدّلالة على السّير مرّتين
في قصيدة «القرية الملعونة» مع كلمة
«الرّحيل»، أي بنسبة ١٪:

«ولمّ العَوِيلُ؟

عَدَا الرّحِيلُ!

عَنْ هَذِهِ الأَرْضِ الحَبِيثَةِ – لَعْنَةُ العَيْشِ
الدّليل –

حَلَّتْ بِجِيلِ بَعْدَ جِيلِ

عَدَا الرّحِيلُ»

(القرية الملعونة - ١٦٩)

استخدم الشّاعر هذا المصدر للدّلالة
على اضطرار الشّباب لهجر أرض الوطن
والرّحيل عنه، بعدما تفشّى فيه الظّلم
والاستبداد.

– التّكثير:

ورد المصدر للدّلالة على التّكثير مع
كلمة «تذكار» الواردة مرّتين في قصيدة
«انتظار» أي بنسبة ١٪:

«قَلْبِي مِيَاهُ البَحْرِ تَحْمِلُهُ

تُفَاحَةً حَمْرًا... كَتَذْكَارِ»

(انتظار - ١٥٥)

وهنا استعمل الشّاعر المصدر «تذكار»
على وزن «تَفَعَال»، ليشير في هذه القصيدة
إلى حنينه لوطنه وهو في دار الغربة، ولذلك
يحشد في داخله الذّكريات، ويقلّب في
صفحات قلبه الذي طبع معالم أرضه، إذ ما

الإحباط والهزيمة التي يعيشها الناس، والخوف على مصير الأمة.

جدول إيضاحي لدلالات المصدر:

الظلم والأسى	٪٣٩.٧
سوداوية الحال	٪٢٢
حدث مجرد غير حسي	٪١٧.٧
الامتناع	٪٨.٨
الصوت	٪٥.٥
الداء	٪٢.٨
السير	٪١
التكثير	٪١
الألوان	٪١
القلق والاضطراب	٪٠.٥

استبدال المصدر بجملة «أن»:

استبدل الشاعر المصدر بجملة «أن» ثمانى مرّات، أي ما نسبته ٠,٦٪، وذلك في قصيدة «مذكرات رجل مجهول» بحيث تمّ الاستبدال فيها خمس مرّات، ومرّة واحدة في قصيدة «القنديل الأخضر» ومرّة في قصيدة «بعد الربيع» ومرّة في قصيدة «الرحيل الأول»:

إِنِّي لِأَحْجَلُ أَنْ أُعْرِي، هَكَذَا بُؤْسِي، أَمَامَ
الْآخَرِينَ
وَأَنْ أَرَى مُتَسَوِّلاً، عُرْيَانًا، فِي أَرْجَاءِ
عَالَمِنَا الْكَبِيرِ
وَأَنْ أَمْرَعُ ذِكْرِي فِي التُّرَابِ»

(مذكرات رجل مجهول - ٢٠٢)

ولعلّ استعانة الشاعر بجملة «أن» في: «أنّ أعري»، «أن أرى»، «أن أمرع»، جاءت

الذي يملكه بين جدران المهجر إلا تذكارات وطنه.

- الألوان:

ورد المصدر ليدلّ على اللون مرّتين فقط، أي ما نسبته ١٪، وذلك في قصيدتي «السّجين المجهول» و«ماو ماو»، وكان وروده مع المصدر «ظلمة»:

«عَبْرَ بَابِ السُّجْنِ، عَبْرَ الظُّلْمَاتِ
كُوخُنَا يَلْمَعُ فِي السَّهْلِ، وَمَوْتِي،
وَالنُّجُومِ»

(السّجين المجهول - ١٦٦)

استعمل الشاعر وزن «فُعلة» للدلالة على الظلام، لأنّ الظلمة هي اللون الذي يسود عالمنا، ففي «ماو ماو» استعان بالظلمة ليوضّح المأساة التي يعيشها العمّال الأفارقة، وفي «السّجين المجهول» جاءت الظلمة لتعكس الواقع الذي يعيش فيه السّجين.

- القلق والاضطراب:

ورد المصدر للدلالة على القلق والاضطراب مرّة واحدة في قصيدة «سارق النّار»، أي ما نسبته ٠,٥٪:

«عَصْرُ البُطُولَاتِ قَدْ وَلَّى وَهَذَا أَنْذَا
أَعُودُ مِنْ عَالَمِ المَوْتَى بِخِذْلَانِ»

(سارق النّار - ١٤١)

ف «خِذْلَانِ» جاءت لتصور لنا حالة

نهاية أمره، ولا تقول: (صيرورة الخشب رماد) للمعنى نفسه....

وتقول: (يعجبني صيرورتك رجلاً)، ولا تقول: (مصيرك رجلاً) فالمصير معناه نهاية الأمر بخلاف الصيرورة^(١). وتجدر الإشارة إلى أن الشاعر استعمل المصدر الميمي في قصائده، للدلالة على عنصر الذات:

«مَنْ قَبُوهُ الْأَرْضِيَّ تَضَرَّعَ - وَالْمَصِيرُ
يَرُوعُهُ - عَيْنُ السَّجِينِ
وَشَذَا الْخَمَائِلِ وَالصُّخُورِ»

(ريح الجنوب - ١٤٣)

فـ «المصير» هنا، حدث مجرد من كل شيء، لا يطابق «الصيرورة تروعه»، فإن المصير يحمل معه عنصراً مادياً، بينما الصيرورة تدلّ على فعل الصيرورة مجرداً.

– اسم المرّة والهيئة:

ورد اسم المرّة في الديوان خمس مرّات، أي ما نسبته ٠,٥٪، وذلك في قصيدة «الملجأ العشرون»، «سارق النّار» و«القرية الملعونة». ولقد استعملهم الشاعر للدلالة على المرّة:

«كَفَرَاغِ أَيَّامِ الْجُنُودِ الْعَائِدِينَ مِنَ الْقِتَالِ
وَكَوْحَشَةِ الْمَصْدُورِ فِي لَيْلِ السُّعَالِ»

(الملجأ العشرون - ١٣١)

لتعبّر عن خجل الشّاعر من وصف حال البؤس الذي وصلت إليه الأمّة، حتّى أنّ المرء يودّ لو ينسى ذكرياته ويبقى عارياً دون ذاكرة؛ والمصدر لن يؤدّي ما أدته جمل «أن» من دلالات داخلية مفعمة بالأسى فقصيدة «ذكريات رجل مجهول» تتضمّن ذكريات الخزي والظلم الذي يتعرّض له المواطن، ذكريات مفعمة بروح الموت والظلم، لذلك كان لا بدّ للشّاعر من استبدال المصدر بجملته «أن».

– المصدر الميمي:

ورد المصدر الميمي في الديوان ثلاث عشرة مرّة، أي ما نسبته ١,٣٪، وتجلّى هذا المصدر مع كلمة «المصير» التي تواترت ستّ مرّات في مواضع مختلفة، كـ «الأسير»:

«عُشْبَةٌ فِي الْهَجِيرِ لَعَنَتْهَا الدَّيْمُ
بِاللَّطَى تَسْتَجِيرُ وَالسَّرَابِ الْأَصَمِّ
فِي أَنْتِظَارِ الْمَصِيرِ أَطْرَقَتْ، ثُمَّ لَمْ...»

(الأسير - ١٥٧)

استعمل الشّاعر كلمة «المصير» هنا مصدرًا ميميًا، للدلالة على انتظار نهاية الحياة، فالمهجّر يشعر بملاحقة لعنة الحياة له، فلا هو يشعر بالاستقرار في مهجره، وليس باستطاعته العودة إلى وطنه هانئًا، فلا يسعه إلاّ انتظار نهاية مصيره.

فأنت تقول: «(مصير الخشب رماد) أي:

(١) فاضل السامرائي. معاني الأبنية العربية. ص ٣٢.

الخاتمة:

ختامًا، إنَّ المصدر لفظٌ يدلُّ على حدث غير مقترن بزمن، مشتمل على أحرف فعله، والصيغة المصدرية قائمة على أوزان صرفية محدّدة لها معانٍ مختلفة. وبعد أن تتبعت المصدر ودلالاته في ديوان «أباريق مهشّمة» للشاعر العراقي عبد الوهّاب البياتي تبين أنّ غاية الشاعر كانت إبراز الواقع الأليم الذي يعانيه الشعب العربي، ولذلك فإنّ سليقة الشاعر قادته عن قصد أو بغيره إلى استخدام مصادر معينة دون أخرى وفق ما يقتضيه السياق.

وقد ظهر بشكل واضح في الديوان، وذلك للدلالة على الحدث، فالجوع والظلم لا زمان لهما؛ وجاءت أغلب المصادر من أفعال متعدية تحمل معاني الظلم والأسى، لتساعد الشاعر على نقل واقع الأمة، هذا وحملت المصادر دلالات متعددة بنسب متفاوتة تنقل لنا أحداثًا مجردة غير حسّية والامتناع وأصوات العويل والألم...

ومن الملاحظ أنّ الشاعر قد استبدل في بعض الأحيان المصادر بجملة «أن» لينقل الأحاسيس الداخلية التي تعترضه، كما ولّت نسبة استخدام المصدر الميمي واسمي المرّة والهيئة للدلالة على نهاية الأمر، فالمواطن ينتظر نهاية الظلم أو انتهاء حياته. وأخيرًا، أستنتج أنّ الالتفات إلى الدلالات الخاصة التي تقوم بها الصيغ الصرفية أمر ضروري، فهي أعمّ من الدلالة المعجمية التي نصّت عليها كتب الأعاجم.

قائمة المصادر والمراجع

- * البياتي (عبد الوهّاب). الأعمال الشعرية الكاملة. بيروت: دار العودة، ٢٠٠٨م. المجلد الأوّل.
- * الأسترابادي (محمد بن الحسن). شرح شافية ابن الحاجب. بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، لا تاريخ. المجلد الأوّل.
- * الأنباري (عبد الرحمن بن أبي الوفاء). الإنصاف في مسائل الخلاف؛ قدّم له حسن حمد. الطبعة الثانية. بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م. الجزء الأوّل.
- * حسن (عبّاس). النحو الوافي. الطبعة الخامسة عشر. القاهرة: دار المعارف، ٢٠١٠م. الجزء الثالث.
- * السامرائي (فاضل):
 - معاني النحو. الطبعة الثانية. القاهرة: شركة العاتك لصناعة الكتاب، ٢٠٠٣م. الجزء الثالث.
 - معاني الأبنية العربية. الطبعة الثانية. عمّان - الأردن: دار عمّار، ٢٠٠٧م.
- * سيبويه (عمرو بن عثمان). الكتاب؛ تحقيق عبد السلام هارون. الطبعة الثالثة. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٨م. الجزء الرابع.
- * السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر). همع الهوامع في شرح جمع الجوامع؛ تحقيق أحمد شمس الدّين. الطبعة الأولى. بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م. الجزء الثالث.
- * شاهين (عبد الصّبور). المنهج الصّوتي للبنية العربية. بيروت - لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠م.
- * عبد الحميد (محمد محيي الدّين). شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام الأنصاري. بيروت - لبنان: المكتبة العصرية، ٢٠٠٥م.
- * ابن عصفور (علي بن مؤمن). الممتع في التصريف؛ تحقيق فخر الدّين قباوة. الطبعة الأولى. بيروت - لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٦م.
- * ابن عقيل (عبدالله بن عبد الرحمن). شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. الطبعة الأولى. طرابلس - لبنان: دار جرّوس، لا تاريخ.

التناوب الصوتي بين صوتي الواو والياء والتمايز الدلالي في القرآن الكريم

علي إسماعيل عبدالله (*)

المجرور والمنصوب»^(١)، وتمثيلاً على ذلك لا حصرًا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۗ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۗ﴾^(٢)، فالتقابل الصوتي حاصلٌ بين المنصوب في وقف الفاصلة الأولى والمجرور في وقف الفاصلة الثانية. ومن أمثلة التقابل بين المجرور والمرفوع في وقف الفاصلتين الأولى والثانية قوله تعالى: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۗ فَقَالَ إِنِّي سَفِيمٌ ۗ﴾^(٣). ومن أمثلة التقابل بين المرفوع والمنصوب قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۙ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۗ﴾^(٤).
أما ظاهرة التناسق الصوتي تكون في تشابه فواصل الكلام الأخيرة التي تنتهي بها الآيات القرآنية، وتتحقق في حالة

تتعدد الظواهر الصوتية في القرآن الكريم، ومنها ظاهرة التقابل الصوتي، وظاهرة التناسق الصوتي، وظاهرة التناوب الصوتي التي سيتم تناولها في هذا البحث، ولكل ظاهرة من هذه الظواهر خصائص معينة، تميزها عن الأخرى، فظاهرة التقابل الصوتي مثلاً، تكون في التقابل بين المرفوع والمجرور أو العكس، أو بين المجرور والمنصوب أو العكس، أو بين المرفوع والمنصوب أو العكس، في آخر الآيات القرآنية، وهذا ما أشار إليه الدكتور «محمد عبدالله» بعد تخصيص كلامه عن هذه الظاهرة في آياتٍ محدّدة في قوله: «هي في ذلك التقابل بين المرفوع والمجرور، وبين

(*) (طالب دكتوراه سنة خامسة في الجامعة اللبنانية/المعهد العالي للدكتوراه). القسم: اللغة العربية وآدابها/الاختصاص: علم الأصوات (الفونولوجيا). التاريخ: ٢٠٢٠/٢/١٠ م.

(١) عبدالله، محمد فريد، الصوت اللغوي ودلالاته في القرآن الكريم، دار ومكتبة الهلال، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨ م، ص ٨٤ - ٨٥.

(٢) سورة الصافات، الآيات: ٨٣، ٨٤.

(٣) سورة الرحمن، الآيات: ١، ٢.

(٤) سورة الصافات، الآيات: ٨٨، ٨٩.

الوقف، فـ «تُضفي ظلالاً صوتية رائعة، تُمثّل في أسمعنا صوراً تتناولها أذهاننا وكأئها واقعٌ ننظر إليه بأحدقنا»^(١). وقد تحققت هذه الظاهرة في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿بِأَيِّهَا الْمَدِينَةُ﴾ ﴿١﴾ ﴿فُرُ فَأَنْذِرْ﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ ﴿٣﴾ ﴿وَبِأَبْكَ فَطَهِّرْ﴾ ﴿٤﴾ ﴿وَالرُّجْرَ فَاهْجُرْ﴾ ﴿٥﴾ ﴿وَلَا تَمَنَّ سَسْكَرُ﴾ ﴿٦﴾ ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ ﴿٧﴾^(٢).

يتناول البحث ظاهرة التناوب الصوتي التي تظهر في أواخر الآيات القرآنية المتتابعة من خلال تناوب صوتي بين صوتين من أصوات الكلام يُحدثان تمايزاً صوتياً يظهر جلياً في أثناء القراءة والتلّوق. والتناوب وفق قول «جورج موانان» هو «تغيّر يتعرّض له فونيم^(٣) ما أو مجموعة من الفونيمات داخل نظام مورفولوجي»^(٤). وللتناوب الصوتي في الآيات القرآنية أثرٌ في الدلالة، ذلك لأنّ لكلّ صوتٍ لغويّ دلالة

مختلفة عن دلالة الأصوات الأخرى، ولأنّ الكلمة، وفق ما ذكر «الأرسوزي»، هي «وحدة تتفاعل فيها الأجزاء (حروفها، حركاتها، علاماتها) تعبيراً عن المعنى الذي اختارها بدناً له»^(٥). فللكلمة دلالتها، وتتشكّل هذه الدلالة من مجموع دلالات الأصوات المتألّفة في الكلمة وتفاعلها في ما بينها. يقول «عاصم المصري» إنّ المفردة هي «دالٌّ ومدلولٌ في عين الوقت. فالمفردة حركةٌ واحدةٌ تمثّل في جوهرها العلاقة الترابطية بين الأصوات المتألّفة منها»^(٦). ولمعرفة هذه العلاقات الدلالية بين الصّوت والمفردة من جهة، وبين الصّوت والسّياق من جهة أخرى، لا بدّ من التعريف بالصّوت اللّغويّ أولاً، وذكر معاني الحروف ودلالاتها ثانياً، ودراسة ظاهرة التناوب الصوتي وما ينتج عنها من تمايز دلاليّ ثالثاً.

(١) عبدالله، محمد فريد، الصّوت اللغويّ ودلالاته في القرآن الكريم، ص ٨٥.

(٢) سورة المدثر، الآيات: ١ - ٧.

(٣) الفونيم أو الوحدة الصوتية أو الصّوت اللّغويّ هو وحدة صوتية تستعمل في بناء الكلام، وثوثر فيه، بحيث لا يمكن اسبدالها بفونيم آخر من دون إحداث تغيّر في المعنى.

(٤) موانان، جورج، معجم اللسانيات، ترجمة د. جمال الحضري، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م، ص ١٤٣.

(٥) الأرسوزي، زكي، المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، مطبعة الإدارة السياسية والقوات المسلحة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م، ص ٩٠.

(٦) المصري، عاصم، الأبجدية ودلالاتها النظرية والتطبيق، الفرات للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٣، ص ١٣٢.

١ - التّعريف بالصّوت اللّغويّ

عرّف «ابن منظور»^(١) الصّوت بأنّه «الجرس»^(٢)، وعرفه «ابن جنّي»^(٣) بأنّه «عَرَضٌ يخرج من النّفس مستطيلاً متصلاً، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفقتين مقاطع تننيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عُرِضَ له حرفاً. وتختلف الحروف بحسب اختلاف مقاطعها»^(٤). فالصّوت اللّغويّ إذًا، هو الصّوت الذي ينطق به الإنسان عندما يريد الكلام، فيخرج حرفاً يتميّز بأنّ له معنى ودلالة، ويخضع لنظام لغوي له أسسه ومبادئه.

٢ - معاني الحروف العربيّة ودلالاتها

تحدّث علماء اللّغة عن دلالات الحروف العربيّة وارتباطها بدلالة اللفظ من جهة، ودلالة السّياق من جهة أخرى، فقال الثّعالبّي: «تبدو الحروف والصيغ مترابطة مع الدّلالة، وكأنّ هنالك نتيجة ضروريّة للإيحاء من تتابع الحروف، أو بناء الكلمات»^(٥). واستخلص «عبدالله العلايلي» معاني الحروف العربيّة ودلالاتها، فجاءت على الشكل التالي:^(٦)

- (١) أديب ومؤرّخ وعالم في الفقه الإسلامي واللغة العربية. من أشهر مؤلّفاته معجم لسان العرب. هو محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الأفرقي، ولد في شهر محرم عام ٦٣٠هـ - ١٢٢٢م، وقد اختلفت الأقاويل حول مكان ولادته، قيل بقفصة بتونس، وقيل بطرابلس بليبيا، وقيل بمصر. ويعدّ من نسل رويّف بن ثابت الأنصاري، تتلمذ على يد عبد الرحمن بن الطفيل، ومرتضى بن حاتم، ويوسف المخيّلي، وأبي الحسن علي بن المقير البغدادي، والعالم الصابوني. خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة، ثم ولي القضاء في طرابلس، أصيب بالعمى في أواخر سنوات حياته وتوفي في مصر في شهر شعبان عام ٧١١هـ - ١٣١١م.
- (٢) ابن منظور، لسان العرب، طبعة جديدة مصحّحة اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصّادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ج٧، مادة صوت، ص ٤٣٥.
- (٣) أبو الفتح عثمان بن جني لسان العرب المشهور بابن جني عالم نحوي كبير، ولد بالموصل عام ٣٢٢هـ، ونشأ وتعلم النحو فيها على يد أحمد بن محمد الموصلي الأخفش. على الرغم أن ابن جني كان يتبع المذهب البصري في اللغة إلا أنه كان كثير النقل عن أناس ليسوا بصريين في النحو واللغة وقد يرى في النحو ما هو بغداداي أو كوفي، فيثبته. ويعد ابن جني أول من قام بشرح أشعار ديوان المتنبي وقد شرّحه شرحين الكبير والشرح الصغير، ولم يصل إلينا في العصر الحديث سوى الشرح الصغير. له ما يفوق الخمسين كتابا، أشهرها كتاب الخصائص الذي يتحدث فيه عن بنية اللغة وفقهها. وكتاب سر صناعة الاعراب. عاش ابن جني في عصر ضعف الدولة العباسية ومع ذلك فقد وصل ابن جني إلى مرتبة علمية لم يصل إليها إلا القليل، وكانت وفاته سنة ٣٩٢هـ.
- (٤) ابن جني، أبو الفتح عثمان، سر صناعة الإعراب، دراسة وتحقيق: د حسن هنداي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٥، ج١، ص ٦.
- (٥) الثّعالبّي، الإمام أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المتوفي سنة ٤٢٩، فقه اللّغة، تحقيق: د. جمال طلبة، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، ج٢، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ص ٦٠.
- (٦) علي، أسعد، تهذيب المقدّمة اللّغوية، تأليف عبد الله العلايلي، دار السّؤال، دمشق، ص ٦٣-٦٤.

- الهمزة: يدلّ على الجوفية وعلى ما هو وعاءٌ للمعنى، ويدلّ على الصّفة تصير طبعاً.
- الباء: يدلّ على بلوغ المعنى في الشيء بلوغاً تامّاً، ويدلّ القوام الصلب بالتفعل.
- التاء: يدلّ على الإضراب في الطبيعة أو الملابس للطبيعة في غير ما يكون شديداً.
- الثاء: يدلّ على التعلّق بالشيء تعلقاً له علامته الظاهرة سواء في الحسّ أو المعنى.
- الجيم: يدلّ على العظم مطلقاً.
- الحاء: يدلّ على التمسك البالغ وبالأخص في الخفيات، ويدلّ على المائيّة.
- الخاء: يدلّ على المطاوعة والإنتشار، وعلى التلاشي مطلقاً.
- الدالّ: يدلّ على التصلب وعلى التغيّر المتوزّع.
- الذالّ: يدلّ على التفرّد.
- الراء: يدلّ على الملكة، ويدلّ على شيوع الوصف.
- الزاي: يدلّ على التقلّع القوي.
- السين: يدلّ على السعة والبسطة من غير تخصيص.
- الشين: يدلّ على التّفشّي بغير نظام.
- الصاد: يدلّ على المعالجة الشديدة.
- الضاد: يدلّ على الغلبة تحت الثقل.
- الطاء: يدلّ على الملكيّة في الصّفة، وعلى الإلتواء والإنكار.
- الظاء: يدلّ على التمكن.
- العين: يدلّ على الخلوّ الباطن، أو على الخلوّ مطلقاً.
- الغين: يدلّ على كمال المعنى في الغور أو الإخفاء.
- الفاء: يدلّ على لازم المعنى، أي يدلّ على المعنى الكنائى.
- القاف: يدلّ على المفاجأة التي تحدث صوتاً.
- الكاف: يدلّ على الشيء ينتج عن الشيء في احتكاك.
- اللام: يدلّ على الإنطباع بالشيء بعد تكلفه.
- الميم: يدلّ على الإنجماع.
- النون: يدلّ على البطون في الشيء، أو على تمكّن المعنى تمكناً تظهر أعراضه.
- الهاء: يدلّ على التلاشي.
- الواو: يدلّ على الإنفعال المؤثر في الظواهر.
- الياء: يدلّ على الإنفعال المؤثر في البواطن.
- إنّ للحروف العربيّة معاني ودلالات، تتألف وتتفاعل في ما بينها لإنتاج الدلالات اللفظيّة والسّياقيّة.

٣ - التناوب الصوتي وتمايز الدلالات

تبرز ظاهرة التناوب الصوتي في القرآن الكريم، وتظهر من خلال تمايز الأصوات أو الحروف المنطوقة في آخر الآيات القرآنية المتتالية التي تتميز بهذه الظاهرة، مما يولد تمايزاً دلاليًا يؤثر في المفهوم والسياق. ولتبيان ذلك سيتم العمل على نموذجين من الآيات القرآنية.

- النموذج الأول قوله سبحانه وتعالى:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾^(١)

يبرز التناوب الصوتي في هذه الآيات بين صوتي الياء والواو في الكلمات الأخيرة (وَحِيدًا، مَمْدُودًا، شُهُودًا، تَمْهِيدًا). والياء يدل على الإنفعال المؤثر في البواطن، والواو يدل على الإنفعال المؤثر في الظواهر، فالصوتان يدلان على انفعال مؤثر لكن أحدهما في الظواهر فيظهر من خلال

السُّلوك أو المشاهد الظاهرية، والآخر في البواطن أي داخلياً وباطنيًا. وهذا ما يدل على تناوب في التأثير بين الباطن والظاهر، بين ما يحويه الإنسان في باطنه، والسُّلوك الظاهري الذي يعكس هذا الباطن ويُجسده، ولهذا ارتباط بدلالة السياق. فالآيات الكريمة المذكورة «نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، وذلك أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة، فقال لهم الوليد: إنكم ذوو أحساب، وذوو أحلام، وإنَّ العرب يأتونكم فينطلقون من عندهم على أمر مختلف، فأجمعوا أمركم على شيء واحد، ما تقولون في هذا الرجل (أي محمد (ص))؟... قالوا: نقول إنه ساحر، قال: وما السَّاحِر؟ فقالوا: بشر يحبون بين المتباغضين، ويبغضون بين المتحابين، قال: فهو ساحر، فخرجوا فكان لا يلقي أحد منهم النبي (ص) إلا قال: يا ساحر يا ساحر، واشتدَّ عليه ذلك»^(٢). ويشرح «الطبرسي»^(٣) الآيات في «مجمع البيان» فيقول: «ثم قال سبحانه لنبيه (ص)

(١) سورة المدثر، الآيات: ١١ - ١٤.

(٢) الطبرسي، الإمام السَّعيد أبو علي الفضل بن الحسن، المتوفى سنة ٥٤٨ هجرية، مجمع البيان لعلوم القرآن، نقحه وصححه أبو عبدالله آل زهوي، المجلد الثاني عشر، المركز الثقافي اللبناني، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ص ٤٤.

(٣) أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي المعروف بأمين الإسلام، من أبرز علماء الشيعة الإمامية في القرن السادس الهجري. ولد في مدينة مشهد سنة ٤٦٨ هـ أو ٤٦٩ هـ ونشأ في بيت عرفه أهله بالفضل والعلم. أخذ العلم من مشايخ عصره الأجلاء حتى صار عالمًا شامخًا من أعلام الإمامية. وقد اشتغل في علم اللغة، والاشتقاق، والمعاني والبيان، والتاريخ، والحساب، والجبر والمقابلة، له مصنفات كثيرة منها تفسير مجمع البيان الذي يعد من التفاسير المهمة عند الشيعة.

على وجه التهديد للكافر الذي وصفه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾، أي دعني وإياه، فإنني كافٍ له في عقابه. دعني ومن خلقته في بطن أمه وحده، لا مال له ولا ولد، يعني الوليد بن المغيرة. ثم ذكر سبحانه رزقه المال والولد، فقال: ﴿وَجَعَلْتُ لَكُمْ مَالًا مَمْدُودًا﴾ (١٧) ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ (١٨) حضوراً معه بمكة، لا يغيبون عنه، لغناهم عن ركوب السفر للتجارة. ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ أي بسطت له في العيش بسطاً^(١). فالآيات تدل على الأمر الحاصل في الباطن والانفعال المؤثر فيه، والمتمثل بأسلوب الأمر، حيث كان الخلق في البداية باطنياً، وهذا متلائم مع دلالة الياء. ثم تحدثت الآيات عن الرزق والمال والحضور وبسط العيش، وكل ذلك يظهر جلياً في الظاهر ويؤثر في السلوك، وهذا متلائم مع دلالة الواو. وقد جاء صوتا الياء والواو مقترنين بحرف الدال المفتوح الممدود بألف المد عند الوقف، وصوت المد الطويل في القرآن يدل على «استغراق الزمان والمكان والديمومة»^(٢)، أي استمرارية الزمان ولامحدودية المكان والديمومة في الحدث أو الأمر أو الصفة، أما صوت المد القصير كالف المد الذي اقترن

بالدال في الآيات، فقد دل على ديمومة الرزق الكثير الذي أعطاه الله للوليد، إلا أن هذه الديمومة لن تستمر دائماً بل ستتوقف في زمنٍ محدد، بسبب عدم شكره لله على نعمه بل طمع في الزيادة، فجاء «الردع والرجز»: (كلاً) أي لا يكون كما ظن، ولا أزيد مع كفره»^(٣). وهذا ما بينته الآيتان: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ (١٥) ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينًا﴾ (١٦) ﴿وَيَدُلُّ حَرَفَ الدَّالِّ﴾، كما ذكر سابقاً، على التصلب وعلى التغيير المتوزع، فكان تصلب الوليد وعناده على الطمع والكفر وعدم الشكر سبباً للتغيير في الرزق والحال الذي كان عليه، فانعكس اقتران صوتي الياء والواو بصوت الدال اقتراناً بين دلالة الإنفعال المؤثر ودلالة صوت الدال، فكان ذلك مؤثراً في السياق ومتأثراً منه من حيث الدلالة.

أعطى الانفعال، الذي تمثل بالأمر، تأثيراً مستمراً عبر الزمن، أي أن الله سيعاقب من يفعل مثل الوليد، فإله يقول في محكم آياته: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(٥).

إن هذا التناوب بين صوتي الياء والواو في الآيات التي ذكرت قد جاء «في سياق

(١) الطبرسي، الإمام السعيد أبو علي الفضل بن الحسن، المتوفى سنة ٥٤٨ هجرية، مجمع البيان لعلوم القرآن، ص ٤٥.

(٢) عبدالله، محمد فريد، الصوت اللغوي ودلالاته في القرآن الكريم، ص ١٨١.

(٣) الطبرسي، الإمام السعيد أبو علي الفضل بن الحسن، المتوفى سنة ٥٤٨ هجرية، مجمع البيان لعلوم القرآن، ص ٤٥.

(٤) سورة المدثر، الآيتان: ١٥، ١٦. (٥) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

نصاعة الصّوت الدّال على حتميّة المآل، وديمومة الاستحقاق»^(١)، وهذا ما أظهرته الدّلالات السّياقيّة التي أنتجت.

- التّموج الثاني قوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١٦) وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٧﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٩﴾ (٢)

يبرز تناوب بين صوتي الياء والواو في أواخر الآيات الكريمة (كبير، الصّدر، الخبير، النّشور)، ولكل صوتٍ منهما دلالة معيّنة كما سبق ودُكر، فالواو يدلّ على الانفعال المؤثّر في الظواهر، والياء يدلّ على الانفعال المؤثّر في البواطن، وبما أنّهما يتناوبان صوتياً في الآيات، فهما يتناوبان دلاليّاً من خلال التأثير بين الظاهر والباطن، أيضاً. فالصّوتان يدلّان على انفعالٍ مؤثّر، لكن كلّ صوتٍ منهما يؤثّر في أمرٍ مختلفٍ عن الآخر، الأوّل في البواطن والثاني في الظواهر، والأمران ضدّان وفي الوقت نفسه مترابطان.

يشرح الطّبرسي هذه الآيات الكريمة،

فيقول في شرح الآية الثانية عشرة: لمّا تقدّم الوعيد عقبه سبحانه بالوعد، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي يخافون عذاب ربّهم باتقاء معاصيه، وفعل طاعاته، على وجه الاستسرار بذلك، لأنّ الخشية متى كانت بالغيب على ما ذكرنا، كانت بعيدة من الرياء، خالصة لوجه الله. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي عظيم في الآخرة لا فناء له»^(٣).

تكشف دلالة السّياق في الآية تلاؤماً مع

دلالة صوت الياء في كلمة (كبير)، لأنّ الخشية في الغيب هي خشيةً باطنيةً تؤثر في الإنسان باطنياً، ممّا ينعكس تأثيراً خارجياً في سلوكه وحياته، وذلك من خلال الجهر بالقول وإظهار ما في الباطن علانية، كما بيّنت الآية الثالثة عشرة، وهذا ما يتلاءم مع دلالة الواو التي جاءت في كلمة (الصّدر). ثمّ جاءت الآية الرّابعة عشرة منتهية بكلمة (خبير)، وهنا ظهور لصوت الياء بدلاً من الواو، لأنّ هناك تناوباً بين الصّوتين، وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ يعني «ألا يعلم سرّ العبد من خلقه؟ ألا يعلم الله مخلوقه؟ وهو العالم بما لطف ودق، والعالم

(١) عبدالله، محمد فريد، الصّوت اللغويّ ودلالاته في القرآن الكريم، ص ٨٦.

(٢) سورة المّلك، الآيات: ١٢-١٥.

(٣) الطبرسي، الإمام السّعيد أبو علي الفضل بن الحسن، المتوفى سنة ٥٤٨ هجرية، مجمع البيان لعلوم القرآن، ص ٢٩٨.

تارةً وصوت الواو تارةً أخرى أحدث إيقاعاً دلاليًا يتجلّى من خلال الانفعال المتمثّل بالخشية من الله حيث صار ملكةً فأتّرت في الباطن فانعكس ذلك على الظاهر فصار شائعاً والله يعلم إن كان صادقاً أو لم يكن كذلك، وكلّ شيءٍ راجعٌ إليه، وكلّ عملٍ وسلوكٍ سيحكم عليه يوم القيامة بإذنه وأمره.

الخاتمة

كشّف علماء اللّغة منذ القدم عن الأصوات اللغويّة العربيّة وتتبعوا معانيها ودلالاتها، وبحثوا في ظواهرها. وظاهرة التناوب الصّوتي واحدةٌ من هذه الظواهر الصّوتية التي تظهر جليّة في آيات القرآن الكريم، فتحدّث تمايزاً صوتياً ودلاليّاً.

أظهر البحث أنّ لكلّ حرفٍ معنى ودلالة، وتختلف معاني الحروف العربيّة ودلالاتها بعضها عن بعض باختلاف طبيعة كلّ حرف أو صوت وخصائصه، وتتألف هذه الدلالات وتتفاعل في ما بينها لتشكّل دلالات الألفاظ من جهة ودلالات السّياقات من جهة أخرى. إنّ تناوب صوتي الواو والياء في أواخر الآيات القرآنيّة المتتابعة، يؤدّي إلى تناوب

بالعباد وأعمالهم»^(١). فالسرّ باطن، والله عليم به وبكلّ شيء، فجاء صوت الياء منسجماً مع دلالة السّياق ودالاً على ذلك. ثمّ جاءت الآية الخامسة عشرة منتهية بكلمة (النشور) التي احتوت صوت الواو، وجاء في شرحها: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ أي سهلة ساكنة مسخّرة، تعملون فيها ما تشتهون ﴿فَأْمْسُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي في طرقها وفجاجها ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ أي كلوا ممّا أنبت الله في الأرض والجبال، من الزروع والأشجار حلالاً ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي وإلى حكمه المرجع في القيامة»^(٢)، فمن خلال الشرح دلالة على سلوك يقوم به الإنسان من عمل ومشى وأكل، ثمّ حكمٌ علنيٌّ من الله الواحد في نهاية المطاف أي في القيامة، وهذا متلائمٌ مع دلالة صوت الواو.

إنّ تقاطر صوت الرّاء في أواخر هذه الآيات أنتج توافقاً صوتياً له دلالته، فالرّاء يدلّ على الملكة، ويدلّ على شيوع الوصف، ويدلّ، أيضاً، على الحركة والديناميكيّة لكونه صوتاً متكرّراً في أثناء النّطق، حيث تتكرّر حركة اللسان في أثناء نطقه، فانتهاه الآيات بصوت الرّاء المقترن بصوت الياء

(١) الطبرسي، الإمام السّعيد أبو علي الفضل بن الحسن، المتوفى سنة ٥٤٨ هجرية، مجمع البيان لعلوم القرآن، ص ٢٩٨.

(٢) م. ن، ص ٢٩٨.

دلاليّ بين دلالة صوت الواو ودلالة صوت الياء، ممّا ينتج تمايزًا دلاليًّا يؤثّر في السّياق ويتأثّر فيه.

تبيّن هذه الظاهرة الصّوتية القرآنيّة نوعًا من أنواع الإعجاز القرآني، يكمن في مقاطعه الصوتية التي تنتهي بها الآيات وما تشكّله من إيقاعات صوتية ودلالية، فالقرآن الكريم كتابٌ مُعجَزٌ بكلِّ ما فيه.

قائمة المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، سر صناعة الإعراب، دراسة وتحقيق: د حسن هندراوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٥، ج ١.
- ٣ - ابن منظور، لسان العرب، طبعة جديدة مصحّحة اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م، ج ٧.
- ٤ - الأرسوزي، زكي، المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، مطبعة الإدارة السياسية والقوات المسلحة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م، ص ٩٠.
- ٥ - الثعالبي، الإمام أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المتوفى سنة ٤٢٩، فقه اللّغة، تحقيق: د. جمال طلبة، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، ج ٢، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- ٦ - الطبرسي، الإمام السّعيد أبو علي الفضل بن الحسن، المتوفى سنة ٥٤٨ هجرية، مجمع البيان لعلوم القرآن، نقّحه وصحّحه أبو عبد الله آل زهوي، المجلد الثاني عشر، المركز الثقافي اللبناني، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.
- ٧ - عبدالله، محمد فريد، الصّوت اللغويّ ودلالاته في القرآن الكريم، دار ومكتبة الهلال، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨ م.
- ٨ - علي، أسعد، تهذيب المقدّمة اللّغوية، تأليف عبد الله العلايلي، دار السّؤال، دمشق.
- ٩ - المصري، عاصم، الأبيديّة ودلالاتها النظرية والتطبيق، الفرات للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٣.
- ١٠ - موان، جورج، معجم اللسانيات، ترجمة د. جمال الحضري، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنّشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

تعريف التربية

نوال يوسف

والتربية الروحية تهدف إلى تنمية القوى
الروحية، وهكذا...

وتجد فيها معنى التدرج، فالتربية جهود
تراكمية، يرفد بعضها بعضاً والزمن عامل
مهم في بلوغ التربية غاياتها. وعلى هذا
فالإلنماء والتدرج يمثلان أهم قانونين
يحكمان طبيعة الأعمال التربوية. فإذا وجدنا
تربية لا تثمر نمواً علمنا أنها تربية عقيم،
وإذا رأينا جهوداً تستهدف تنمية شيء ما،
لكنها لا تتسم بالتدرج والتعاهد المتتابع،
علمنا أن تلك الجهود لا تستحق أن تسمى
(تربية)^(٢).

والتربية من منظور إسلامي هي «إيجاد
الإنسان الصالح الذي يلتزم بنهج القرآن،
ويتأدب بأدب الإسلام، الإنسان العالمي
الذي يعتقد أن الناس كلهم خلق الله، فهو

معنى التربية من الناحية اللغوية:

تعود كلمة (التربية) إلى أصول لغوية
ثلاثة هي:

(ربا) و(ربي) و(رب).

فالأصل الأول: ربا، يربو: بمعنى نما،
ينمو.

والأصل الثاني: ربي يربي - بوزن خفي
يخفي - ومعناه نشأ وترعرع....

والأصل الثالث: ربي... رب... بمعنى
أصلحه. وتولى أمره وساسه وقام عليه،
ورعاه^(١).

لذلك تجد في التربية معنى النمو
والزيادة وهو أوضح ما يطلب في التربية،
وهو تنمية الجانب الذي توجه إليه، فالتربية
العقلية تهدف إلى تنمية القدرات العقلية

(١) انظر: الباني عبدالرحمن، مدخل إلى التربية في الإسلام، المكتب الإسلامي، بيروت، دط. دت، ص ٧. وانظر:
الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبدالغفور، دار العلم
للملايين، ط ١، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م، مادة: (ربب)، ١/ ١٣٠، ١٣٢.

(٢) بكار، عبدالكريم، حول التربية والتعليم، دار القلم، دمشق، ط ١، ٢٠٠١م، ص ١٠.

١ - التربية العقلية:

يمتاز الإنسان عن الحيوان بعقله لا بجسمه، فكثير من الحيوانات أعظم منه جسمًا وأشد منه قوة، وهو يستطيع التغلب عليها وتجنب أذاها. وإخضاعها له بعقله ودهائه.

والتربية تسعى لجعل الإنسان يواجه الظروف المختلفة التي تمر عليه، وتجعله يكتسب مرونة وقدرة على التفكير والتكيف مع الظروف الجديدة، وإيجاد الحلول لكل المشاكل الطارئة، وتجعله يبدع طرقًا جديدة، في إنجاز أعماله ويخترع أدوات حديثة تسهل عليه مهامه، ويبتكر أجهزة معقدة تقدم بما لم يكن في الحسبان.

والتفكير والعلم هما الزاد الذي يغذي العقل وينمي الذكاء، والقرآن الكريم أمر بإعمال الفكر وتحصيل العلم، وأثنى الله فيه على العلماء المفكرين والعقلاء الباحثين الذين يفكرون في السماوات والأرض وينظرون إلى ما فيهما من أشياء محكمة الصنع، ويعلمون ما تجري عليه الحوادث من نظام دقيق^(٥).

أخوهم في الخلقة»^(١)، وكل من يتدبر القرآن يرى أنه «كتاب عقيدة وتشريع وكتاب تربية وتوجيه ودعوة من الله سبحانه وتعالى للإنسان لدراسة الكون والحياة، دراسة متأنية هادفة، ليعرف ويتعلم، ويفهم ويتدبر ومن ثم يتجه الاتجاه الصحيح»^(٢).

والتربية عملية اجتماعية تبدأ من «قبل ميلاد الإنسان وتستمر طوال حياته، وإن الذي يقوم بوظيفة التربية هو المجتمع الذي تحكمه علاقات وأحكام معينة لطبيعة الكون والإنسان والمجتمع، وهذه العلاقات والأحكام هي ما يسمى بفلسفة المجتمع التي تتم على أساسها التربية ونمو الأفراد»^(٣). ومنهج التربية الإسلامية حيث «أخرج للحياة أناسًا هم الأحياء الذي لم يكونوا زهاندًا قط، بل كان لهم نصيب من الدنيا، تمامًا لما كان لهم نصيب من الآخرة»^(٤).

أنواع التربية في القرآن الكريم

هناك أنواع مختلفة من التربية في القرآن الكريم يمكن إبرازها في ما يلي:

- (١) عميرة، عبدالرحمن، منهج القرآن في تربية الرجال، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨١م، ص ١١.
- (٢) المرجع نفسه، ص ١٤.
- (٣) أبو العينين، علي خليل مصطفى، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، مكتبة إبراهيم الحلبي، المدينة المنورة، ط٣، ١٩٨٨م، ص ٤٧.
- (٤) أبو العينين أن لغة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ١٣٤.
- (٥) عمر، عمر أحمد، منهج التربية في القرآن والسنة، دار المعرفة، دمشق، ط١، ١٩٩٦م، ص ٣٥. راجعه وقدم له وهبة الزحيلي.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٩٦) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَنَّكُرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩٧﴾ (٢).

وكان فضل هذا الدين على العقل أن قضى على الخرافات والأساطير وأنقذ الناس من الجهل والضلال.

وللمحافظة على العقل حرم الله المسكرات والمخدرات التي تشل الأعصاب وتعطل العقول، كما حرم الميسر الذي يجعل لاعبه يستسلم للمصادفات، ولا يقوم بأي جهد يعود بالنفع على الفرد والمجتمع (٣).

٢ - التربية الجسدية:

القرآن يوصي بالاهتمام «بالجسد والعناية به، من إطعام وإراحة وتنظيف وتقويم. وهو يدعو لذلك، ليأخذ الإنسان بنصيب من المتاع الحسي الطيب الحلال وهو لا يحظر على الإنسان الاستمتاع بزينة الله في الأرض» (٤).

قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْفِرُوا بَأَيْدِيكُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ (٥).

ويقول عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٦).

فالقرآن يهتم بالجسد وقواه اهتماماً بالغاً، «ولكن هذا الاهتمام لا يتأتى من منطلق ذاتي، وإنما يأتي، لكي يساعد الإنسان على أداء رسالته في الحياة، ومن أجل هذا فإن القرآن يوجب التوسط في إشباع حاجات الجسم، اهتماماً به، ثم إنه يأمر بالسعي والحركة والمشي وغيرهما، مما يفيد الجسم ﴿فَأَمْشُوا فِي مَتَابِعِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ (٧)، وهو في هذا يعد الجسم ليكون

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٩٠، ١٩١.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٣) عمر، منهج التربية في القرآن والسنة، مرجع سابق، ص ٤٠.

(٤) أبو العينين، علي خليل مصطفى، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، مكتبة إبراهيم الحلبي، المدينة المنورة، ط ٣، ١٩٨٨م، ص ١٤٨.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

(٧) سورة الملك، الآية: ١٥.

يقضي الإنسان حياته كلها في وسط اجتماعي، ولا يمكنه أن يستغني عن الخدمات المادية والمعنوية التي يقدمها له الآخرون، ولا بد من احترام الناس ومعاملتهم بالحسنى ليتم التعاون فيما بينهم.

وآيات القرآن زاخرة بأساليب التعامل مع الأسرة والأم والوالدين والجيران والصاحب وابن السبيل، وذو القربى.

فقد حرص الإسلام على تربية الفرد تربية اجتماعية تجعله ينسجم مع الآخرين ويحسن إليهم، ويمتنع عن إيذائهم والعدوان عليهم.

وقد حرص على تربيته بما يجعله يسهر على سلامة مجتمعه وأمنه، ويحسهم في رقيه وتقدمه ويعمل على توجيهه لما يرضى الله ومنعه من الانحراف ووقايته من الزيف والفساد^(١).

٤ - التربية الجمالية:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾^(٧).

قويًا غير عليل، وبذلك يتوفر للمجتمع المسلم أفراد أقوياء وأصحاء وهذا ما توحى به الآية الكريمة ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾^(١)، إذ إنها توحى بجميع القوة، سواء كانت مادية أو معنوية، من هنا كان الاهتمام بالقوة الجسدية المتحكم فيها عقل، يعرف معنى العبودية لله، من دعوة القرآن^(٢).

٣ - التربية الاجتماعية:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ آتَيْتَهُ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣).

﴿وَوَضَّيْنَا لِلْإِنْسَانِ بُولَدِيهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾^(٥).

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥٥.

(٢) أبو العينين، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ١٥٠.

(٣) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٨.

(٥) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٦) انظر: عمر، منهج التربية في القرآن والسنة، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٧) سورة الانفطار، الآيات: ٦ - ٨.

وقال ﷺ : ﴿ وَصَوِّرْكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقْكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١).

وقال ﷺ : ﴿ يَبْقَى عَادَمٌ حُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٢) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣).

وتهدف التربية الجمالية إلى «المحافظة على مواضع الجمال والزينة، وعدم تشويهها وإلى العناية بأجسامنا وبيوتنا وممتلكاتنا، والمحافظة على نظافة الطرقات والحدايق والمرافق العامة، وجعلها جميلة تسر الناظرين. كما تهدف إلى زيادة المتعة والشعور بالبهجة بكل ما هو جميل، وإلى ابتكار وصنع الأشياء الجميلة مما يريح النفس من عناء العمل، ويجعلها تقوم بواجباتها بدون شعور بالتعب، ويدفع عنها الهموم والأحزان، وذلك ضمن حدود الشرع، ودون تجاوز للحلال إلى الحرام» (٤).

٥ - التربية الروحية:

التربية الروحية أرفع أقسام التربية

وأكثرها أهمية. وبقدر حصول الإنسان على التربية في هذا المجال يرتفع شأنه وتسمو نفسه... والإنسان ما هو إلا قبضة من طين ونفخة من روح الله، ومن عناصر الطين يتركب جسده، والجسد لا يحيا بدون الطعام والشراب المستخرجين من الطين، فالماء يتفجر من ينابيع الأرض، ويجري فوقها أو ينزل من السماء ويختلط بترابها. والطعام الذي يتناوله الإنسان يحصل عليه من النباتات التي تستمد عناصرها من الطين، أو من الحيوانات التي تتغذى بالنباتات، وتتركب منها لحومها وألبانها وكذلك الروح لا تستغني عن الغذاء، وغذاء الروح هو المناسب لطبعها والملائم لجوهرها، ولا يعلم ما يناسبها ويلائمها إلا الله الذي أودع الروح في الإنسان، ومن رحمة الله بعباده أنه لم يتركهم يتخبطون في هذه الأرض، ويضلون في أرجائها، وإنما أنزل إليهم ما يهديهم سواء السبيل، ويقيهم من الغواية والضلال (٥)، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا نِينَكُم مِّنِي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (٦) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (٧).

(١) سورة غافر، الآية: ٦٤.

(٢) عمر، منهج التربية في القرآن والسنة، مرجع سابق، ص ٤٩.

(٣) عمر، عمر أحمد، منهج التربية في القرآن والسنة، مرجع سابق، ص ٥٤ - ٥٥.

(٤) سورة طه، الآيتان: ١٢٣، ١٢٤.

أساليب التربية

تتعدد أساليب التربية في القرآن الكريم ولكن يمكن إجمالها في الأساليب التالية:

- أسلوب التربية بالوعظ والإرشاد:

يعتبر الوعظ من الأساليب المباشرة والصريحة في التربية، فما على المربي إلا أن يتوجه بالمواعظ والنصائح إلى من يريد، ويطلب منه الامتثال لها، والانصياع لأوامره ونواهيها.

ومن ذلك ما جاء من دعوة هود عليه السلام لقومه إذ خاطبهم بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾ (١٣١) ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٣٢) ﴿أَمَدَّكُمْ بِتَعْلَمٍ وَبَيْنَ﴾ (١٣٣) ﴿وَحَنَّتِ وَعُيُونٍ﴾ (١٣٤) ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٣٥).

وهكذا ذكرهم بفضل الله عليهم وأمرهم بطاعته وتقوى الله، وخوفهم من العذاب ولكنهم أصروا على الكفر فكان مصيرهم الهلاك.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (١٣٦) ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣٧) ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (١٣٨) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) (١).

والقرآن الكريم كتاب موعظة وهداية

وكتاب حكمة وبيان قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢).

- أسلوب التربية بالقصة:

تعتبر القصة من أكثر أساليب التربية فعالية وأثرًا وهي وسيلة مشوقة للصغار والكبار، وهي إحدى وسائل التربية قديمًا وحديثًا، وكل رجال التربية لا ينكرون ما للقصة من أثر في نفوس السامعين وإن كانت تختلف من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى أخرى.

والقرآن الكريم فيه مجموعة من القصص جاءت لأمر جوهري أرادها الله سبحانه وتعالى ومن أولى هذه الأمور تربية الأمة الإسلامية وتنشئة هذا الجيل الذي نزل في عهده القرآن وما يأتي من أجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها على عظام الأمور واطراح سفاسفها (٣).

من القصص المشهورة قصة نبي الله يوسف عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلسَّالِئِينَ﴾ (٧) ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨) ﴿أَقْنُلُوا يُوسُفَ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخُلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيُّكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (٩) (٤).

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٣١ - ١٣٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

(٣) عميرة، عبدالرحمن، منهج القرآن في تربية الرجال، عكاظ، ط١، ١٩٨١م، ص ١٧٤.

(٤) سورة يوسف، الآيات: ٧ - ٩.

إن القصة القرآنية تحقق أهداف التربية، وتدعو الإنسان وتثير عواطفه وعقله إلى طلب العلم، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه: قصص توجيهي، علمي وعملي (سورة الكهف مثلاً). فالقصة القرآنية تعرض للعمل الصالح وترغب فيه ولضرورته وأهميته وتعرض للأخلاق الفاضلة وتدعو إليها بصورة متنوعة.

- أسلوب الأمثال والأشباه:

وتستخدم هذه الطريقة «لتقريب غير المحسوس، بمعنى أنها تستخدم لتقريب وتمثيل الأشياء غير المادية، وغير المنظورة، بحيث تصبح في متناول الإنسان ليفهمها ويتدبرها، وهي تقوم على القياس والتشبيه والمماثلة أو المحاكاة»^(١).

والأمثال كثيرة في القرآن، «وهي تلعب دوراً هاماً وبالغاً في التأثير في العواطف، وفي التأثير في السلوك الإنساني، فيها لو استعملت بحكمة وفي الظروف المناسبة»^(٢)، لذلك أبرزها القرآن، واهتم بضرب الأمثال: قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(٣).

قال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾^(٥).

- أسلوب الترغيب والترهيب:

يعتبر الترغيب والترهيب أسلوباً حافزاً يدفع الإنسان إلى التعلم الصحيح وتجنب الأخطاء وفعل الحسن وترك القبيح، ولا ينكر وجود عاطفتي الحب والكره، والميل إلى الشيء، أو النفور منه في نفس كل إنسان^(٦).

والقرآن حيث يستخدم أسلوب الترغيب والترهيب فإنه يرغب في اتباع الخير وعمله ويصور الشر بصورته المروعة وعاقبته الوخيمة.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلْمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٧).

فالذين يهملون واجباتهم، ويتعدون

(١) أبو العينين، علي خليل مصطفى، فلسفة التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٣٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٣٦.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

(٤) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٦.

(٦) عمر، منهج التربية في القرآن والسنة، مرجع سابق، ص ٢٤٤.

(٧) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

حدود الله، ولا يتأثرون بالأساليب التربوية اللينة، من الأفضل تحذيرهم حتى لا يكونوا بؤرة فساد في المجتمع أو حجر عثرة في سبيل تقدمه. لهذا شرع الإسلام الحدود والقصاص للمحافظة على الأنفس والأعراض والأموال ولمنع الظلم والعدوان^(١).

قال تعالى: ﴿وَكَبَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢).

والقصاص هو الذي يمنع القتل وسفك الدماء ويصون حق الحياة للناس ويؤدي إلى استتباب الأمن والعدل قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٣).

- أسلوب الجدل والحوار:

يعتمد أسلوب الجدل والحوار على مقابلة الرأي بالرأي ومقارعة الحجة بالحجة بقصد تغيير رأي المعارض، وجعله يقنع بما نراه من الحقائق «وهو أسلوب متميز نراه بارزاً في القرآن الكريم، فقلما تخلو

قصة فيه من ذكر الحوار بين أشخاصها حتى يخيل إلى القارئ أنه ينظر إلى أحداث القصة تقع أمام عينيه، ويستمتع إلى أشخاصها وهم يتحاورون ويتجادلون، مما يعطيها صفة الحيوية، ويجعلها أكثر متعة وأشد تأثيراً على النفس.

ولقد ندد الله سبحانه بمن يجادل بدون الاعتماد على الحقائق والأدلة الصحيحة فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾^(٤).

ونهى الله أن يؤدي الجدل إلى الشحناء والبغضاء، وأمر أن يكون بالحسنى ويقصد الهداية وقبول الحق.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَاتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٥).

الفصل الثاني: التربية في سورة لقمان

التعريف بلقمان:

ورد أن السلف اختلف في لقمان: هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة؟ على قولين، الأكثرون على الثاني. وقال سفيان الثوري عن الأشعث عن عكرمة عن ابن

(١) انظر: عمر، منهج التربية في القرآن والسنة، مرجع سابق، ص ٢٤٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٥. (٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٥. (٥) سورة الحج، الآية: ٨.

– التربية بالوعظ والإرشاد في سورة لقمان:

إن منهج الوعظ يبرز في موعظة لقمان الحكيم لابنه وهو ينهاه عن الشرك بالله، ويبين له علمه الشامل لكل شيء، ويأمره بالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويأمره بالصبر وينهاه عن الكبر. قال الله سبحانه وتعالى:

﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١٦)

﴿يَبْنِيْ أَقْوَمَ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧)

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨)
وَأَقْصِدْ فِي مَسِّكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٩) (٢)

والمتمأمل في هذه «الموعظة الغالية نجد أنها تتعلق بالعقيدة والعبادة والأخلاق وهي واضحة لا غموض فيها ومقبولة للنفس السوية ولا يجد أحد مسوغاً لردّها» (٤).

عباس قال: كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً، وقال قتادة عن عبد الله بن الزبير: قلت لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيراً أفتس من النبوة. وقال يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب قال: كان لقمان من سودان مصر، ذا مشافر، أعطاه الله الحكمة ومنحه النبوة. وقال الأوزاعي: حدثني عبدالرحمن بن حرمله قال: جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله، فقال له سعيد بن المسيب: لا تحزن من أجل ذاك أسود، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان: بلال، ومهجع مولى عمر بن الخطاب، ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً ذا مشافر» (١).

واتفق العلماء أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً إلا عكرمة، فإنه يقول أن لقمان كان نبياً، تفرد بهذا القول.

وقال بعضهم: خيّر لقمان بين النبوة والحكمة، فاختر الحكمة (٢).

أساليب التربية في سورة لقمان

يمكن تحديد أساليب التربية في سورة لقمان بالنواحي التالية:

(١) ابن كثير، عماد الدين أبي الفدا إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، مجلد ٣، مؤسسة الريان، بيروت، ط، ١٩٩٦، ص ٥٨٠.

(٢) انظر: النيسابوري، ابن إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم، قصص الأنبياء، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، ١٩٩٤م، ص ٣٤٩.

(٣) سورة لقمان، الآيات: ١٦ - ١٩.

(٤) عمر، منهج التربية في القرآن والسنة، مرجع سابق، ص ٢١٠.

وهي دستور للمسلم في يومه وليله بل في حياته كلها إذا دعاها، وتشربها قلبه وعاشت في وجدانه فحركت أعماله ونظمت أقواله^(١).

وإنها عظة «غير متهمة، فما يريد الوالد لولده إلا الخير، وما يكون الوالد لولده إلا ناصحًا. وهذا لقمان الحكيم ينهي ابنه عن الشرك، ويعلل هذا النهي بأن الشرك ظلم عظيم، ويؤكد هذه الحقيقة مرتين. مرة بتقديم النهي وفصل علتة ومرة بأن واللام...»^(٢). فالتوحيد هو: جوهر الإسلام، معنى من العدل، كما أن الشرك ضرب من الظلم. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٣)، مما يدل على عناية الإسلام بالعدل، منعه للظلم، وتأكيد نهيه عنه، وتشديد الحملة على الظالمين، وتوعدهم بأشد أنواع العذاب في الدنيا والآخرة. وأن الله عز وجل لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات في ما بينهم.

والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر،

بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أسأؤوا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم. ولهذا قال الفقهاء: إن حقوق الله تعالى مبناه المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناه على الضيق والشح.

ويقال في الأثر: الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم^(٤).

وعندما نسمع نصح لقمان لابنه «نراه يمزج بين حسن معاملة الله وحسن معاملة الناس ﴿يَبْنِيْ أَقْرِبَ الصَّالُوَّةَ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْرًا عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٥) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾^(٥).

إنها سفالة بعيدة القرار أن يكفر امرؤ بالله ويجاهر بعدائه ثم ينتظر من الناس التقدير لأنه ابتسم لهم بعدما تجهم لسيده! ومعنى الإيمان بالله أن أكون أهلاً لمعرفته وجدير بالانتماء إليه، ولا يصلح لذلك إلا من هذب نفسه، وصان مسلكه، إنك لا ترشح نفسك لصحبة كبير إلا إذا أصلحت هيئتك، وزكيت سيرتك، فكيف

(١) وانظر: عميرة، عبدالرحمن، منهج القرآن في تربية الرجال، شركة عكاظ، ط١، ١٩٨١م، ص٩.

(٢) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج٦، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٧، ١٩٧١م، ص٤٨٣.

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٤) انظر: القرضاوي، يوسف، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٣٧٦ - ٣٧٧.

(٥) سورة لقمان، الآيتان: ١٧، ١٨.

– بر الوالدين:

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِضْلُهُ فِي عَمَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾^(٤)، فبر الوالدين حق لهما وواجب على ولدهما ذكرًا كان هذا الولد أو أنثى، أجمع على ذلك أهل العلم ولا خلاف فيه^(٥).

وتوصية الولد بالوالدين تتكرر في القرآن الكريم، وفي وصايا الرسول ص «ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلاً، معظمهما في حالة الواد، وهي حالة خاصة في ظروف خاصة، ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشئ لضمان امتداد الحياة – كما يريد الله – وأن الوالدين ليبذلان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغال من غير تأفف ولا شكوى، بل في غير انتباه ولا شعور بما يبذلان! بل في نشاط وفرح وسرور كأنهما

ينتمي إلى الله مسرف في أحواله، مسيء في أعماله، مريب في خلاله؟! الواقع أن بعض المنتسبين إلى الدين يُنفرون منه بما يلاحظ عليهم من انحلال وهبوط... والتدين الفاسد عدوان مضاعف على الدين الحق. وهو جريمة ارتكبتها أمتنا في العصر الأخير. فلا بد من جهاد دائم للنفس حتى تبرأ من رذائل الأثرة والهوى والعدوان... وأي دين يبقى مع بقاء هذه الآفات؟»^(١).

ومن أساليب الوعظ وجوب الاقتداء بالسلف الصالح ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ﴾^(٢)، وسلوك طريق المؤمنين، «وتحريم السير في اتجاه يخالف اتجاههم كطريق المنافقين والكافرين، وقد صرح لهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٣)، فلا بد من الانطواء تحت راية أهل التوحيد والإيمان واتباع سبيلهم، فالخير كله في الاقتداء بهم والسير على منوالهم»^(٣).

(١) الغزالي، محمد، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، دار الشروق، بيروت، ط ٣، ١٩٩٢م، ص ٨٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

(٣) الصابوني، محمد علي، تفسير آيات الأحكام دار الكتب العلمية، بيروت دط. دت، ج ٢، ص ١٧٩.

(٤) سورة لقمان، الآية: ١٤.

(٥) زيدان، عبدالكريم، المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم، مؤسسة الرسالة، ناشرون، بيروت، ط ٣، ٢٠٠٠ ج ١٠، ص ٢٤٨.

هما اللذان يأخذان! فالفطرة وحدها كفيّة بتوصية الوالدين دون وصاة! أما الوليد فهو في حاجة إلى الوصية المكررة ليلتفت إلى الجيل المضحي المدبر المولي الذاهب في إدبار الحياة، بعدما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة! وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوض الوالدين بعض ما بذلاه، ولو وقف عمره عليهما»^(١).

وبعد التخصيص ببر الوالدين، يأتي التخصيص للأُم ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِضَالُهُ فِي عَمَيْنٍ﴾^(٢) «ترسم ظلال هذا البذل النبيل، والأُم تتحمل النصيب الأوفر، وتجوّد به في انعطاف أشد وأعمق وأحن وأرفق...»، فقد روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده - بإسناده - عن بريد عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها فسأله النبي^(ص): «هل أديت حقها؟ قال: لا ولا بزفرة واحدة»^(٣).

وقد ورد أن رجلاً جاء الرسول^(ص) فسأله: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن

صحبتني؟ فأجابه الرسول الكريم: «أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك»^(٤).

ولقد استثار القرآن مشاعر البر والعرفان في نفوس الأبناء، فوصى بالوالدين ونوه بفضل الأم في الحمل والرضاعة، وما تكابد من مشاق ومتاعب في هاتين المرحلتين من مراحل الحياة في صورة لطيفة حانية توصي بالبذل النبيل والحنو المطلق والانعطاف الرقيق^(٥).

والإسلام قدم الأم بالبر على الأب لسببين:

الأول: أن الأم تعاني بحمل الولد وولادته وإرضاعه والقيام على أمره وتربيته أكثر مما يعانيه الأب.

الثاني: أن الأم - بما جلبت عليه من عاطفة وحنان - أكثر رحمة وعناية واهتماماً من الأب. فالولد قد يتساهل في حق أمه عليه لما يرى من ظاهر عطفها وصمتها وحنانها... لهذا جاءت الشريعة

(١) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٤٨٤.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٤.

(٣) أخرجه البزار في المسند عن بريدة برقم: (٤٣٨٠) ١٠/٢٧٦، مكتبة العلوم والحكم، ط، بدأت عام ١٩٨٨م وانتهت عام ٢٠٠٩م.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة برقم (٥٩٧١) ٨/٢ كتاب الأدب، باب: من أحق الناس بحسن الصحبة، دار طوق النجاة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

(٥) الهاشمي، محمد علي، شخصية المرأة المسلمة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ٥، ١٩٩٨م، ص ١٤٤.

الغراء موصية الولد أن يكون أكثر برًا بها وطاعة لها، حتى لا يتساهل في حقها، ولا يتغاضى عن برها واحترامها وإكرامها.

وما يؤكد حنان الأم وشفقتها أن الولد مهما كان عاقًا لها، مستهزئًا بها، معرضًا عنها، فإنها تنسى كل شيء حين يصاب بمصيبة أو تحل عليه كارثة^(١).

- كن مصلحًا في نفسك مصلحًا

الغيرك: ففي وصيته أمر لقمان ولده أن يكون صالحًا في نفسه، وذلك بعبادة الله وعلى رأسها الصلاة ومصلحًا لغيره بما يأمر به من المعروف وينهى عن المنكر، وأن يكون صابرًا لما يناله من أذى من الآخرين، وهو يدعوهم إلى الله ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. قال تعالى: ﴿يَبْنِيْ أَقْرَبَ الصَّالِحِيْنَ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٢).

الصبر على الأذى:

قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٣)، فمن البديهي أن يتعرض الناقد للمجتمع، أو الداعية إلى الله، لأصناف الأذى وأنواع الألم لما يلقاه من

تعنت المستكبرين، وحماقة الجاهلين، واستهزاء السافرين وهذا لا شك سنة الله في الأنبياء والدعاة والمصلحين في كل زمان ومكان وحسب الداعية الناصح والمجاهد الناقد... أن يتأسى بسيد الدعاة صالذي أصابه من الأذى والمكروه والالتهام ما لم يصب داعية قبله وبعده، سلك معه المشركون طريق الإغراء والإغواء ليصدوه عن تبليغ الدعوة فما استكان وما خضع، وسلكوا معه طريق المقاطعة الشاملة له لمن آزره ليصدوه عن تبليغ الدعوة فما استكان وما خضع وظل عليه الصلاة والسلام مثابرًا في طريق الدعوة، محتملاً أصناف الأذى، صامدًا ثابتًا راسخًا إلى أن جاء نصر الله والفتح^(٤).

الترغيب والترهيب:

ويبرز الترغيب في الدعوة إلى شكر الله، فقولته تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاثَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾^(٥) «وهذا توجيه رباني ضمنى إلى شكر الله اقتداءً بذلك الرجل الحكيم المختار (لقمان) وإلى جوار هذا التوجيه الضمني توجيه آخر، فشكر الله إنما هو

(١) علوان، عبدالله ناصح، تربية الأولاد في الإسلام، ج ١، دار السلام، القاهرة، ط ٨ من ٢٠٠٢ ص ٢٩٣.

(٢) زيدان، المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم، ج ١، مرجع سابق، ص ١٢٨.

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٧.

(٤) انظر: علوان، تربية الأولاد في الإسلام، مرجع سابق ج ١، ص ٣٧٠ - ٣٧١.

(٥) سورة لقمان، الآية: ١٢.

رصيد مذخور للشاكر ينفعه هو، فالله محمود بذاته، ولو لم يحمده أحد من خلقه ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(١)، إذن فأحرق الحمقى هو من يصد عن الحكمة ولا يدخر لنفسه مثل ذلك الرصيد»^(٢).

وفي تقديم شكر الله إشارة «إلى أن حق الله أعظم من حق الوالدين وشكره أوجب وألزم لأنه تعالى المنعم الحقيقي، المتفضل على عباده بالنعمة، وشكر الوالدين جزء من شك المنعم والله جل وعلا هو السبب الحقيقي في الخلق والإيجاد، والوالدان سبب ظاهري فينبغي أن يقدم السبب الحقيقي على السبب الظاهري»^(٣).

أما الترهيب والتحذير فمن الكبير، فالمسلم الصادق الواعي لا يتكبر ولا يشمخ بأنفه استعلاءً على غيره، ممن دونه حالاً أو نسباً أو مقاماً، لأن المسلم المستنير يعلم أن التكبر والاستعلاء والتشامخ في الدنيا يحرم صاحبه من نعيم الآخرة التي حرم الله نصيبها على المتكبرين والمتكبرات، وجعله للذين لا يريدون الاستعلاء

والاستكبار في الأرض، والله لا يحب كل مختال فخور»^(٤).

ذلك أن الكبرياء من شأن الإله عز وجل: «وليس من شأن العباد المخلوقين الضعفاء. وأن كل بشر تسول له النفس التكبر يعتدي على مقام الألوهية وينازع الخالق العظيم في حنانه يبوء بالخزي والعذاب الشديد في الآخرة»^(٥).

وفي وصية لقمان لابنه دعوة إلى مكارم الأخلاق عن طريق التخلي عن أضرارها لأن التخلي عن المساوئ مقدم على التحلي بالمكارم. ولأن التخلي عن المساوئ نوع من أنواع التحلي بالمكارم، ومن أسوأ مساوئ الأخلاق جهل الإنسان قدر نفسه مما يسلمه إلى رذائل هائلة قد يكون شرها (التكبر) قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ وكان لقمان يخشى على ابنه من أمرين:

أحدهما: التكبر على الغير بسبب كونه مكماً مصلحاً لهم.

الثاني: العجب بالنفس بسبب كونه كاملاً صالحاً في نفسه. قال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ تكبراً ﴿وَلَا تَمْشِ فِي

(١) سورة لقمان، الآية: ١٢.

(٢) قطب، في ظلال القرآن، ج٦، مرجع سابق، ص٤٨٣.

(٣) الصابوني، محمد علي، تفسير آيات الأحكام، ج٢، مرجع سابق، ص١٧٥.

(٤) الهاشمي، محمد علي، شخصية المرأة المسلمة، مرجع سابق، ١٩٩٨م، ص٤٠١.

(٥) المرجع نفسه، ص٤٠٢.

الْأَرْضِ مَرَحًا ﴿١﴾ تَبَخْتَرًا ﴿٢﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٣﴾ يعني من يكون به خيلاء وهو الذي يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر (٢).

وذكر ابن كثير أن ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تتكبر فتحقر عباد الله وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك... ولا تتكلم وأنت معرض.

وقوله: ﴿وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾، أي: خيلاء متكبرًا جبارًا عنيدًا، لا تفعل ذلك يبغضك الله ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، أي: مختال معجب في نفسه فخور أي على غيره.

وقوله: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾، أي امش مقتصدًا مشيًا ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسرير المفرط، بل عدل وسط بين بين (٣).

– التحذير من الشرك:

فبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى ما أوصى به لقمان من «شكر المنعم وذكر ما في الشرك من الشناعة، أتبعها سبحانه بوصية مستقلة عن وصايا لقمان ألا وهي: «الوصية بالوالدين». ليشير إلى قبح الشرك،

ويؤكد حكمة الرجل الصالح لقمان لابنه في نهيه عن الشرك فكأنه تعالى يقول: مع أننا أوصينا الإنسان بوالديه، وأمرناه بالعطف عليهما والإحسان إليهما، والزمان طاعتها مما تحملا في سبيله من المتاعب والمصاعب. مع كل هذا حذرناه من طاعتها في حالة الشرك والعصيان، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» (٤).

أي إذا تغير الوضع وأصبح الأب والأم دعاة للشرك، ومصدرًا للعصيان، فلا سمع ولا طاعة ولا استجابة لصوت الضلال، مهما بذلا من جهد، ومع ذلك أوجب سبحانه صحبتها بالمعروف والإحسان إليهما في الدنيا حتى ولو كانا مشركين، لأن حقهما على ولدهما عظيم، وكفرهما بالله لا يستدعي ضياع المتاعب التي تحملها في تربية الولد، فالإحسان إليهما واجب، وطاعتها في معصية الله ممنوعة (٥).

ذلك أن وشيخة العقيدة هي الوشيخة الأولى، المقدمة على وشيخة النسب والدم، وعلى ما في هذه الوشيخة من انعطاف وقوة إلا أنها تالية للوشيخة الأولى: «وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به

(١) سورة لقمان، الآية: ١٨.

(٢) انظر: زيدان، المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم، ج ١٠، مرجع سابق، ص ١٢٨.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مجلد ٣، مرجع سابق، ص ٥٨٤ - ٥٨٥.

(٤) الصابوني، محمد علي، تفسير آيات الأحكام، مرجع سابق، ص ١٧٤.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص ١٧٤.

علم فلا تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً، واتبع سبيل من أناب إلي»^(١).

وان لا تعلق على رابطة العقيدة رابطة، ولا تسمو على وشيختها وشيخة، ومع ذلك يبقى الأولاد ملزمين ببر والديهم ورعايتهم والإحسان إليهم^(٢).

التحذير من الاغترار بالدنيا: وذلك بأن يصرفهم الشيطان عن حقيقة الألوهية فالرزق يأتيهم من عند الله لا يستطيع أحد أن يمنعه. والموت لا يعرف وقته ولا مكانه، والساعة تأتي فجأة لا يدرون متى تأتي وعندئذ لا ينفع عمل حيث يحشر الناس من موتهم كما يحيي المطر الأرض فيخرج النبات، كما يخلق الله النطفة، فيخرج منها الإنسان، إن وعد الله حق، فالعاقل من عرف ربه فاتقاه وخاف يوماً لا ينفع فيه إلا عمله، فأخذ من دنياه لآخرته، ومن شبابه لهرمه ومن حياته لموته^(٣).

- التخويف من المعاصي:

قال تعالى: ﴿يَبْنِيْ اِيَّاهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾^(٤)، أي: أن المظلمة أو

الخطيئة لو كانت مثقال حبة من خردل... وقوله ﴿يَأْتِيهَا اللهُ﴾، أي: أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿وَنُضِعُّ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾^(٥)... ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السماوات والأرض، فإن الله يأتي بها، لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يغرب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض. لهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾^(٦)، أي: لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت ﴿خَبِيرٌ﴾ بدبيب النمل في الليل الجهم^(٧).

ذم رفع الصوت:

قال تعالى: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾، أي: لا تبالغ في الكلام ولا ترفع صوتك في ما لا فائدة فيه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: إن أقرب الأصوات لصوت الحمير، أي: غاية من

(١) قطب، في ظلال القرآن، ج ٦، مرجع سابق، ص ٤٧٤.

(٢) الهاشمي، شخصية المرأة المسلمة، مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٣) محمد، يوسف كمال، منهج التربية النفسية للمسلم كما بينه الثلث الأخير من القرآن الكريم، دار القلم، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ١٣٥.

(٤) سورة لقمان، الآية: ١٦.

(٥) سورة لقمان، الآية: ٢٩.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٧) ابن كثير، عماد الدين أبي الفدا إسماعيل، مرجع سابق، ص ٥٨٣.

رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى، وهذا التشبيه في هذا الحمير، يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم^(١).

التنبيه إلى نعم الله:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبِاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾^(٢).

ينبه الله تعالى خلقه على نعمه في الدنيا والآخرة «بأنه سخر لهم ما في السماوات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق من سحب وأمطار وتلج وبرد، وجعله إياها لهم سقفاً محفوظاً، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبه والعلل، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل من يجادل في الله،

أي في توحيده وإرساله الرسل ومجادلته في ذلك بغير علم ولا مستند من حجة صحيحة ولا كتاب مأثور صحيح»^(٣).

- الخشية من يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٤﴾﴾. فينذر الله تعالى الناس يوم المعاد. «وأمراً لهم بتقواه والخوف منه والخشية من يوم القيامة حيث ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾، أي: لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه، كذلك الوالد لو أراد فداء والده بنفسه، لم يقبل منه، ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، أي: لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾، يعني: الشيطان»^(٤).

أساليب الأمثال والأشباه:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مجلد ٣، ص ٥٨٥.

(٢) سورة لقمان، الآيتان: ٢٠ - ٢١.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مجلد ٣، مرجع سابق، ص ٥٩٠.

(٤) سورة لقمان، الآية: ٣٣.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مجلد ٣، مرجع سابق، ص ٥٩٦.

خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَيْسٍ وَجِدَّةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١٨﴾ (١).

وفي هذه الآيات توجيه وتركيز على قدرة الله ﷻ وعظمته، فيقول الله مخبراً عن جلاله وكبريائه وأسمائه الحسنی وصفاته العلاء، وكلماته التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾، أي: لو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً وجعل البحر مداداً وأمده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفذ ماء البحر، ولو جاء أمثلها مدداً..

وهناك مثال آخر في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَمَامَ مِثْلِ هَذَا الْخَطَرِ، وَالْمَوْجُ يَغْشَاهُمْ كَالظُّلْلِ وَالْفَلَكَ كَالرِّيشَةِ الْحَائِرَةِ فِي الْخَضَمِ الْهَائِلِ... تَتَعَرَّى النُّفُوسُ مِنَ الْقُوَّةِ الْخَادِعَةِ، وَتَتَجَرَّدُ مِنَ الْقُدْرَةِ الْمَوْهُومَةِ، الَّتِي تَحْجُبُ عَنْهَا فِي سَاعَاتِ الرِّضَا حَقِيقَةُ

وتجري الفلك في البحر وفق نواميس

التي أودعها الله: البحر والفلك والرياح والأرض والسماء... فخلقة هذه الخلائق بخواصها هي التي جعلت الفلك تجري في البحر ولا تغطس أو تقف ولو اختلفت تلك الخواص أي اختلفت لما جرت الفلك في البحر... وبعد ذلك يبقى أن الله هو حارس الفلك وحاميتها فوق ثبج الأمواج وسط العواصف والأنواء، حيث لا عاصم لها إلا الله، فهي تجري بنعمة الله وفضله على كل حال، ثم هي تجري حاملة نعمة الله وفضله كذلك، والتعبير يشمل هذا المعنى وذلك ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ وهي معروضة للرؤية، يراها من يريد أن يرى، وليس بها من غموض ولا خفاء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صبار في الضراء شكور في السراء، وهما الحالتان اللتان تتعاوران الإنسان.

ولكن الناس لا يصبرون، ولا يشكرون، إنما يصيبهم الضر فيجأرون وينجيهم الله من الضر فلا يشكر منهم إلا القليل: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ فأمام مثل هذا الخطر، والموج يغشاهم كالظلل والفلك كالريشة الحائرة في الخضم الهائل... تتعري النفوس من القوة الخادعة، وتتجرد من القدرة الموهومة، التي تحجب عنها في ساعات الرضا حقيقة

(٢) سورة لقمان، الآيات: ٣١، ٣٢.

(١) سورة لقمان، الآيات: ٢٧، ٢٨.

على التربية من خلال الترغيب والترهيب والتربية من خلال الوعظ والإرشاد وكذلك من خلال الأمثال والأشباه.

واتضح من خلال البحث أن سورة لقمان فيها الكثير من المواعظ والإرشادات من الصبر على المصاعب والدعوة إلى بر الوالدين وتقديرهما وأخلاقيات من عدم التكبر وذم رفع الصوت والتنبيه إلى نعم الله والتحذير من الشرك والاعتزاز بالدنيا.

وبرز أن السورة يمكن أن نستخلص منها الكثير من العبر والأساليب التي يمكن أن ينتفع منها المعلمون والتربويون والمختصون بالعلوم الاجتماعية لاستخدام ما قدمته هذه السورة من توجيهات وإرشادات والعمل على تفعيلها.

واتضح كذلك أن سورة لقمان على قصرها (٣٤ آية) تحتاج إلى الكثير من البحث والدراسة لاستخراج الكثير مما نحتاجه في مجتمعاتنا وتهذيبها وإصلاحها.

فطرتها، وتقطع ما بين هذه الفطرة وخالقها. حتى إذ أسقطت هذه الحوائل، وتعرت الفطرة من كل شجار، استقامت إلى ربها واتجهت إلى بارئها وأخلصت له الدين، ونفت كل شريك ونبذت كل دخيل ودعوا الله مخلصين له الدين.

﴿فَلَمَّا بَجَّهْم إِلَى آلِ آلِهِمْ مَّقْصِدًا﴾

ومنهم من يجحد وينكر آيات الله بمجرد زوال الخطر وعودة الرخاء.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَفَّارٍ كَفُورٍ﴾ والختار الشديد الغدر والكفور الشديد الكفر. وهذه المبالغة الوصفية تليق هنا بمن يجحد آيات الله بعد هذه المشاهد الكونية، ومنطق الفطرة الخالص الواضح المبين^(١).

الخاتمة

أظهر البحث أن التربية تنوعت مجالاتها في القرآن الكريم وغطت مختلف الشؤون التي تهتم الإنسان من روحية وجسدية واجتماعية وجمالية وأن أساليبه تعددت من الوعظ والإرشاد إلى التربية بالقصة والأمثال والأشباه والترغيب والترهيب وكذلك أسلوب الجدل والحوار.

أما التربية في سورة لقمان فقد اشتملت

(١) انظر: قطب، سيد، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ص ٤٩٧ - ٤٩٨.

قائمة المراجع

- ١ - ابن كثير، عماد الدين أبي الفدا إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، مؤسسة الريان، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- ٢ - أبو العينين، علي خليل مصطفى، فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم، مكتبة إبراهيم الحلبي، المدينة المنورة، ط٣، ١٩٨٨م.
- ٣ - الباني، عبدالرحمن، مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام، المكتب الإسلامي، بيروت، دط. دت.
- ٤ - بكار، عبدالكريم، حول التربية والتعليم، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠١م.
- ٥ - زيدان، عبدالكريم، المفصل في أحكام المرأة المسلمة، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط٣، ٢٠٠٠م.
- ٦ - الصابوني، محمد علي، تفسير آيات الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط.
- ٧ - علوان، عبد الله ناصح، تربية الأولاد في الإسلام، دار السلام، القاهرة، ط٣٨، ٢٠٠٢م.
- ٨ - عمر، عمر أحمد، منهج التربية في القرآن والسنة، دار المعرفة، دمشق، ط١، ١٩٩٦م، راجعه وقدم له: وهبي الزحيلي.
- ٩ - عميرة، عبدالرحمن، منهج القرآن في تربية الرجال، شركة مكنتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨١م.
- ١٠ - الغزالي، محمد، تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، دار الشروق، بيروت، ط٣، ١٩٩٢.
- ١١ - القرضاوي، يوسف، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- ١٢ - قطب، سيد في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٧، ١٩٧١م.
- ١٣ - محمد، يوسف كمال، منهج التربية النفسية للمسلم كما بينه الثلث الأخير من القرآن الكريم، دار القلم، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.
- ١٤ - النيسابوري، ابن إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم، قصص الأنبياء، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، ١٩٩٤م.
- ١٥ - الهاشمي، محمد علي، شخصية المرأة المسلمة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٥، ١٩٩٨م.

المصطلح الحديث وترجمته

سناء عجاج خضر

Abstract:

The modern term and its translation

Summary: The modern literary criticism movement was an active movement that reached the peak of its progress and superiority and invaded the Arab world by imposing its new culture. Critics who focused on translating western literary publications in the Eastern and Western Arab countries faced many challenges.

This movement widely influenced Arab culture, and several problems arose regarding the Arab understanding of Western literary criticism. One of the main reasons is the use of terminology and its translation that are common in many fields of studies.

This influence and wide use of terminology indicate and stress the importance of studying “the new term and its translation” and adopting this topic to be the subject of this paper. The descriptive and analytical method was adopted to monitor this phenomenon in a group of critical books of different sciences. This reaps proposals for a solution.

The aim is to find organizational bases to control translation of the terms as a step that contributes to solving this problem.

Keyword: term - translation.

الملخص:

شكَّلت الحركة النقدية الأدبية الحديثة حركة ناشطة وصلت إلى أوج تقدمها وتفوقها. فغزت العالم العربي بفرض ثقافتها الجديدة، مُشكِّلة تحديًا امام النقاد الذين انكبوا على ترجمتها في المشرق والمغرب العربي.

تأثرت الثقافة العربية بهذه الدراسات، فظهرت إشكاليات عدة في فهم النَّتاج النقدي الغربي عند المتلقي العربي. وكانت إحداها إشكالية المصطلحات وترجمتها، ذلك لانتشارها في كل مجالات النقد المتشعبة في العلوم كافةً.

وهذا التأثير والانتشار دليل على أهمية دراستها لتكون موضوع هذا البحث. واعتمد المنهج الوصفي التحليلي لرصد هذه الظاهرة في مجموعة من الكتب النقدية باختلاف علومها. وهذا ما يحصد مقترحات للحلّ. والهدف من ذلك التوصل إلى أسس تنظيمية لضبط ترجمة المصطلح كخطوة تسهم في حل هذه الإشكالية. الكلمة المفتاح: المصطلح - الترجمة.

المصطلح الحديث وترجمته

مقدمة:

أنتجت الحركة النقدية الأدبية الحديثة دراسات عديدة وصلت بها إلى أوج تقدمها وتفوقها. فغزت العالم العربي بفرض ثقافتها الجديدة، مُشكّلة تحديًا للثقافة العربية ولنقادها الذين انكبوا على ترجمتها. الأمر الذي رأى فيه أحد النقاد أنه انبهار بإنجازات الغرب^(١). كما أفرز هذا الأمر عدّة آراء نقدية بحثت في الميراث العربي النقدي. ذلك بهدف البحث عن مكان من التقصير، أو للتأكيد أن ما يظهر اليوم من شلل في الحركة لا يرجع إلى عجز أو خلو من القدرة الفكرية والعلمية المؤهلة لإمكانية تقديم الأبحاث مجارة للعصر طالما أن القدرة موجودة في الجذور. ومن الممكن أن يكون بدافع التأسف على اضمحلال وضعف هذه الحركة تفاوتًا بين الأمس واليوم... مما يولد صحوّة تدفع بالتقدم نحو خطوة مستقبلية.

كانت آراء النقاد متعددة، ولم تتغافل عن إشكالية المصطلح وفوضى نقله إلى اللغة العربية، باعتباره أزمة يستعصى حلّها. هذا بعد نقل المصطلح الغربي بعوالقه أو قيمه

شهد النقد الأدبي الحديث، بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين، أبحاثًا جديدة، شكلت حركة ناشطة فاعلة. وقد أثارها الكثير من النقاد والباحثين الغربيين، في الوقت الذي كان النقد الأدبي العربي يشهد ما يشبه الركود، إن لم يكن ركودًا مقارنة بالآراء النقدية الناشطة قديمًا، هذا موافقة لآراء بعض النقاد. ولم يكن قصد النقاد المبالغة في أهمية تلك الأنشطة، فليس الهدف الفخر أو التحيّز، ولا القياس والتمييز مقارنة بالأبحاث الحديثة. إنما ملخص القول، إن النقد الأدبي العربي كان يشهد حركة لا بأس بها بمقياس زمانه وأوانه، وبمقياس حركة التصاعد التدريجي لتطوره من بداية العصور إلى نهايتها. فكان من المحتمل أن يُجاري الأبحاث الحديثة لو لم يُصَبَّ بالجمود. وذلك لأسباب كثيرة تأثر بها العالم العربي، فأشلت حركة تقدمه في عدّة مجالات إن لم يكن جميعها. وقد

(١) عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة في نظرية نقدية عربية، عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية شهرية، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مطابع الوطن، لا-ط، ع-٢٧٢، جماد الأول ١٤٢٢هـ - أغسطس ٢٠٠١م، ص: ٣١.

- منهم: محمد منذور من أكبر النقاد العرب الحديث الذين تحمسوا في هذا العصر للتراث النقدي العربي، وشكري عياد: «أخطأنا حينما جمعنا بين الانبهار بالعقل الغربي ومنجزاته وبين احتقار العقل العربي والتنكر لمنجزاته والتقليل الكامل من شأنها».

صعوبة النص غيّبت المعنى عن المترجم فوق في بعض الأخطاء غير المقصودة^(٤). وبهذا تبين بعض من الآراء التي تطرقت إلى إشكالية المصطلح والترجمة مؤكدة حلولها في النصوص. كما يُلمس منها أن للترجمة مشاكل تقع بها إضافة إلى صعوبة المصطلح وإشكالية ترجمته.

تنتشر هذه الإشكالية في كل المجالات، وما مدى انتشارها إلا دليل على أهمية أخذها بعين الاعتبار ومعالجتها لحاجة ماسة وضرورية؛ إذ مهما حاز العمل على التدقيق والاتقان يبقى المصطلح وترجمته عائقاً، ليس إلى حد القول، لبلوغ الكمال المستحيل تحقيقه في البحث، إنما لبلوغ أقصى ما يمكن من الدقة. وما جاء من آراء النقاد المطروحة إلا تأكيد على ذلك، كما أن رصد ما أمكن من حالات الشوائب التي لحقت بالمصطلح، والتي يفترض عرضها، هي بمثابة دليل يُوثق حضوره بفوضى استخدام الشوائب البارزة في الترجمة. ولا يقتصر هذا التوثيق على الصفحات أو المؤلفات، التي ستذكر، بل تتعداها. وإن

المعرفية... دون تنقية أو تصفية حقيقية له من تلك العوالق «المختلفة»^(١). والأزمة لا تنحصر بترجمة المصطلح في النصوص، بل تشوب بعضه البلبلة في القواميس المتخصصة المستعان بها للترجمة، هذا استناداً إلى رأي أحد المترجمين^(٢). كما ترجمة النص من لغة الأم إلى لغة أخرى لا يمكن أن يكون بصفاء النص الأصلي؛ إذ لكل لغة مقوماتها وخصائصها، فضلاً عن أن أنواع النصوص تُقيّد عملية الترجمة. ولهذا كان للمترجم عينه رأي يرجو فيه أن تكون نسبة الخسارة في جودة الترجمة بنسبة معقولة، ذلك «باعتبار صعوبة النص ودقة المصطلح وثراء المعطيات العلمية والأدبية»^(٣). وما تقويمه هذا إلا دلالة على تجذّر هذه الأزمة بما يكمن خلفها من إشكالات. ولا تتوقف قضية إشكالية ترجمة المصطلح عند هذا الحد، إنما يُضاف عثرة أخرى هي تحديداً في فهم المترجم لتلك المصطلحات. وقد اتضحت هذه العثرة من نقد مترجم لمترجم آخر، بعد أن عدّ أخطاء في الترجمة والمصطلحات، مرجحاً أن

(١) عبد العزيز حموده. م. س. ، ص: ٥٣.

(٢) دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، ت: طلال وهبه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ١٠ - ٢٠٠٨م، ص: ١٨.

(٣) أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، ت: أحمد الصمعي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ١١ - ٢٠٠٥، ص: ١٢ - ٣٠.

(٤) رولان بارت وجيرار جينيت، من البنوية إلى الشعرية من السلسلة النقدية، ت: د. غسان السيد، سوريا، دار نبوى للدراسات والنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠١، ص: ١٠.

الايديولوجية، الابستمولوجيا،
السوسيولوجية، السيكلوجية،
الرومنطيقية...

٢ - غَلَبَة استخدام المصطلح الاجنبي
تفضيلاً على المصطلح العربي^(٢)، مثال:
الرومنطيقية = الرومانسية = العاطفية،
الكلاسيكية = التقليدية، الكوميديّة = الملهة،
الأنثروبولوجيا = علم الإنسان،
الابستمولوجيا = نظرية المعرفة...

٣ - اعتماد أكثر من اسم للمصطلح
الواحد ذي الوظيفة الواحدة^(٣)، مثال: المربع
السيمائي = النموذج التكويني = النموذج
التأسيسي^(٤).

٤ - الكتابة المختلفة للمصطلح الواحد،
ويتوزع هذا الاستعمال المختلف من باحث
إلى آخر، ويتبين بعدة مجالات، هي:

أ - الاختلاف من ناحية استعمال
الحروف، ولم يقتصر ذلك على المصطلح،
بل تعداه إلى أسماء الباحثين^(٥)، مثال:

الكشف عن هذه الحالات هو خطوة أولى قد
تؤدي إلى معرفة مكامن العلة، فتُحدّد
الأسباب التي قد تساهم في إيجاد الحلول
للانطلاق بمعالجتها... لذلك سيُعرض ما
رُصد من حالات القصور البارزة والمحدّثة
للإشكال، بما لحق بالمصطلح من فوضى
وعوالق تثير اللغظ، وبعض من تأثيرات
الترجمة. وستكشف هذه الحالات الأسباب
المحدّثة لهذا الإشكال، وعلى أساسها تُحدّد
المقترحات، والتي يهدف البحث منها الفائدة
المرجوة. وقد لا تكون مقترحات نهائية،
لاحتمال العثور على غيرها أثناء المباشرة
في تنقيتها من قبل المختصين.

حالات الشوائب

عرض حالات المصطلح المتداول بها:

١ - استخدام المصطلحات الأجنبية^(١)
بتمثيلها في الحروف العربية، بدلاً من إيجاد
اللفظ المعرب لها، أو غياب التعريب العربي.
مثال: الانثروبولوجيا، الميتافيزيقيا،

(١) كارل مانهايم، الايديولوجيا واليوتوبيا - مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة، ت: د. محمد رجا الذيريني، الكويت،
شركة الكتابات الكويتية، ط١، اكتوبر ١٩٨٠، ص: ٩٣-١٢٧-٣٣٢.

(٢) ياسين الأيوبي، مذاهب الأدب معالم وانعكاسات، بيروت، دار العلم للملايين، ط-٢، ١٩٨٤، ص: ٢١٤.

(٣) سامي سويدان، في دلالية القصص وشعرية السرد، بيروت، دار الآداب، ط١، ١٩٩١، ص: ٢٤.

(٤) سعيد بنگراد، السيميائيات السردية مدخل نظري، الرباط-الدار البيضاء، منشورات جريدة الزمن، مطبعة النجاح
الجديدة، لا-ط، ٢٠٠١م، ص: ٤٨.

(٥) ملاحظة: ويلحظ ذلك، ليس فقط في المصطلح، بل في كتابة أسماء الباحثين، فالمترجم يكتب أسماء هؤلاء، بما
يُناسب لفظ ثقافة البلاد المنتمي إليها (أي طبيعة اللهجة، مثال: أمبرطو = أمبرتو، ولغ غانغ كايزير = ولغغانغ
كايسر، . . . وقد يرجع ذلك، إلى أنها حروف من نفس المخرج، أو إلى أنه ليس هنالك قيد في كتابة الاسم).

دراسته بوجهات مختلفة، مثال: المستوى التصويري والمستوى السرد في السيميائية السردية الغريماشية، هما: البنية السطحية باعتماد مدرسة باريس، كذلك مستوى الموضوعات التجريدي اعتمد بالبنية العميقة؛ وتناول دراسة مصطلح السيميائية باللفظ (الأيقونة، الرمز)، وبالسردي (سيميائية السردي)، وهما يختلفان بالسبل المتبعة، وكذلك يتشعب إلى حالات مختلفة كسيميائية الأهواء أو المرئي. وقد يؤدي ما يطرأ على الكلمة، من زيادات لتناسب السياق الكلامي، إلى اللغظ، مثال: الموضوعات / الموضوعاتي / الموضوعاتية، وهي تؤدي إلى لغظ، مثال: niveau thématique = المستوى الموضوعاتي (مستوى المواضيع).

٧ - إجراء تعديل بعض الباحثين على اسم المصطلح باعتماده له، بعد إضافة

الرومنطيقية = الرومنطيقية^(١) = الرومنطيقية^(٢)، كانط = كانت، تزفيتان = تزفيتان، غريماش^(٣) = كريماص^(٤) ...

ب - الاختلاف من ناحية حذف الحرف، مثال: السميائية = السيميائية / الأيديولوجية = الأيديولوجية^(٥).

ج - الاختلاف في وضع الهمزة في أول الكلمة، مثال: الأيديولوجية = الإيديولوجية.

٥ - اعتماد أسماء مختلفة للمصطلح الواحد، ذلك باختلاف ما يعتمده كل باحث أو مترجم عن الآخر، الذي يبرز الفوضى ويؤدي إلى اللغظ، مثال: معنم^(٦) = سيم^(٧)، المستوى الإدراكي والمستوى البراغماتي العملي^(٨) = البعد الذهني والبعد التداولي^(٩).

٦ - دخول مصطلح ضمن مصطلح آخر، والمصطلح وما تفرع منه أو تناول

- (١) ياسين الأيوبي، مذاهب الأدب معالم وانعكاسات، م. س.، ص: ٢١٤.
- (٢) محمد غنيمي هلال، الرومنطيقية، بيروت، دار العودة، لا-ط، ١٩٨١، ص: ١٧٥-١٧٦.
- (٣) نبيل أيوب، النقد النصي (٢) وتحليل الخطاب (نظرات ومقاربات)، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط ١، ٢٠١١، ص: ٤٨.
- (٤) جميل حمداوي، الاتجاهات السيميوطيقية (التيارات والمدارس السيميوطيقية في الثقافة الغربية)، لا-م، لادار، ط ١، ٢٠١٥م، ص: ٤.
- (٥) نبيل محمد توفيق السمالوطي، الأيديولوجيا وقضايا علم الاجتماع النظرية والمنهجية والتطبيقية، مصر، دار المطبوعات الجديدة للطباعة والنشر والتوزيع، لا ط، لا ت، ص: ٣٤.
- (٦) سعيد بنگراد، م. س.، ص: ٥٢.
- (٧) جوزيف كورتيس، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، ت. د. جمال حضري، بيروت - الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل منشورات الاختلاف، ط ١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ص: ٧٣.
- (٨) نبيل أيوب، م. س.، ص: ٤٢-٤٣-٤٤. (٩) سعيد بنگراد، م. س.، ص: ٩١.

و”pattern” و”mode” و”Type”، وقد استوجب ترجمتها مترجم كتاب «أسس السيميائية» «طلال وهبه» بالتالي: «نموذج»، «طراز»، «صيغة»، «نمط»، لأنهما مصطلحات وليست كلمات.

١٠ - أخطاء الترجمة التي يقع أثرها على المصطلح والنص، مثال: ترجمة مصطلح «الشعرية»^(٤) Poétics الذي يختص بدراسة الخطاب، ولا يتعلق بالشعر. وترجمة ”classes d’unités“ بطبقات المجتمع، بدلاً من طبقات الوحدات^(٥).

١١ - كل من مجالات الاختصاصات الدراسية لها مصطلحاتها الخاصة بها. وقد لا يتباين اللغظ، في معرفة انتساب المصطلح إلى أي اختصاص، في الأبحاث التي تتناول موضوعاً معيناً؛ إنما قد يلمس

جديد على دراسته، مثال: اعتماد الباحث فرديناند دي سوسير مصطلح «سيمولوجيا»^(١)، بينما اعتمد بيرس مصطلح السيميائية، وهذا قد يؤدي إلى اللغظ. ولكن اليوم اعتمد مصطلح السيميائية لهذا الحقل.

٨ - يضع كل مترجم ترجمته للمصطلح^(٢)، فيندرج في ثنايا الترجمة انبثاق أسماء لمصطلح واحد، مثال: الدال = significant = signal = signifier = ومصطلح المدلول = signified = signification.

٩ - الكم الهائل من المصطلحات ظهر أثره في القواميس^(٣)، إذ تحوي القواميس المختصة بعضاً من المصطلحات التي لا تميز بين بعض مجموعاتها، مثال: ”model“

(١) دانيال تشاندلر. م. س. ص: ٢٨-٢٩ ٣٠.

مخطوطة كتبها في العام ١٨٩٤. وجاء في مقرر في الألسنية العامة لسوسور، الذي نُشر في العام ١٩١٦ بعد موته . . . يُستعمل أحياناً مصطلح «السيمولوجيا» للإشارة إلى التقليد السوسوري، بينما تشير «السيميائية» إلى التقليد البيروني. ولكن من الشائع في أيامنا استعمال «السيميائية» كمصطلح عام يشمل كل الحقل المدروس.

(٢) دانيال تشاندلر، م. س. ص: ٢٥.

استخدمت ترجمة روي هاريس (Roy Harris) ولكني اتبعت طريقة جون ستوروك في استعمال تلك الترجمة، فاحتفظت بمصطلحي signifier (دال) و signified (مدلول) بدل استعمال ترجمة هاريس كلمة (significant الدال) بـ: «signal» والكلمة (signifie المدلول) بـ: «signification».

(٣) دانيال تشاندلر. م. ن. ص: ١٨.

(٤) عبد العزيز حمودة، م. س. ص: ٥٣.

أزمة المصطلح إذن قائمة وتكاد تستعصي على الحل، ويؤكد ذلك، على سبيل المثال فقط، ترجمتنا العربية لمصطلح Poétics، لكن ما أكدناه من قبل ونؤكد هنا هو أن الأزمة أزمة اختلاف الفكر الذي أفرز الحدائث الغربية ثم ما بعد الحدائث . . .

(٥) رولان بارت وجيرار جينيت، م. س. ص: ١١.

من خلال إجراء دراسة الأبحاث أو بين المتحادثين به من غير مجال الاختصاص. (النزعة الأوديبية مصطلح من علم النفس يظن بأنه مصطلح من النقد الأدبي).

١٢ - عدم التفسير أو التوضيح الكافي أثناء تناول ذكر المصطلح في الترجمات، ويُكتفى بإضافة صفحة المصطلحات المترجمة. كذلك في غالبية المؤلفات، كان هناك اكتفاء بتناوله في المجال التنظيري. ومن ذلك، قد ينتج الإبهام الذي يدفع ببعض من المتلقين إلى الابتعاد عن الاستطلاع، أو تناوله بشكل طفيف، أو عدم انتشار تداوله، مثال: السيميئات، الميتاسيميا، الكلاسيمية...

١٣ - يبرز اعتماد «الوظيفة» بمهام مختلفة في كل من نظرية السيميائية السردية لألجيرداس غريماس Algirdas Greimas، الذي توصل إلى أن الوظيفة السردية تقوم على علاقة بين عوامل. ونظرية رولان بارت Roland Barthes في مستوى السرد باعتبارها وحدة من المضمون، ذلك من وجهة نظر لسانية. وتعدد اعتماد هذه الكلمة في عدة اصطلاحات قد ينتج التشبيت واللغظ.

إن حالة هذه الشوائب الطارئة على كل من المصطلحات المذكورة، قد تنطبق على أسماء لمصطلحات أخرى. كما أنه قد لا تنحصر الحالات إلى هذا الحد، ذلك لكثرة عددها، فضلاً عما ينتج من جديد. رغم أن

نشاط هذه الحركة النقدية الحديثة قد وصل إلى أوجه، فقد لا يأتي بجديد، وإن حصل فالقليل منه. وإن معرفة مكامن هذه الشوائب التي عُلقت بالمصطلح قد تساعد على إيجاد الأسباب المؤدية لاندساسه في السطور.

الأسباب

استنتاج بعض من الأسباب التي أنتجت هذه الشوائب من خلال ما عرض منها:

١ - غياب المعاجم العربية، وعدم التوصل إلى كلمة عربية تفيد المصطلح الدقيق، أو إهمال البحث عنها أو حتى المحاولة.

٢ - تأثر المجتمع باللغات الأجنبية، خاصة الفرنسية والإنكليزية، ذلك من خلال المدارس. وما يُحوّل إلى هذا المجتمع من تكنولوجيا: التلفاز، الكمبيوتر... فضلاً عن ما يُبث في مواقع التواصل الاجتماعي.

٣ - كثرة دراسات الباحثين في الموضوع الواحد من جهات نظر مختلفة كحركة تطويرية (سوسير، وبيرس)، أو ادخال المصطلح بمجال مختلف عن الأول والتوسع به، فمن حالة اللفظ إلى السرد (السيميائية، وسيميائية السرد)... أو بحسب ما تعتمد المدارس النقدية (غريماس، ومدرسة باريس).

٤ - تتميز الحروف العربية ببعض الخصائص نذكر منها:

أ - انتماء بعض من الحروف العربية

إلى مخرج واحد من الفم، ويمثلها حرف واحد في اللغة الأجنبية، منها: ت - ط = T، د - ض = D، س - ز = s، هذا الحرف يُلفظ بـ «ز» بسقوطه بين حرفي علّة في اللغة الفرنسية. وغيرها... مما يسبب كتابة المصطلح بحروف مختلفة.

ب - تُماثل حروف العلّة العربية الحركة التي تميّز لفظ الكلمة عن أخرى مشابهة لها في الكتابة، وهذا ما يدخل بالألسنية، مثال: أ = الفتحة، و = الضمة، ي = الكسرة.

ج - غنى الحروف العربية الذي يُمكنها بالتكافؤ مع اللغات الأجنبية (الفرنسية والإنكليزية)، الذي تُحدثه لهجة اللفظ للغات الأجنبية المتعددة المتداولة في عالما الثقافي كالإنكليزية والفرنسية (الحرف i = أي بالإنكليزية وإي بالفرنسية)، وهذا يعود إلى اللغة الثانية للمترجم. كما أن اللغة الفرنسية لا تلفظ الحرف الثابت أي غير العلّة في آخر الكلمة، إن لم يلحق به حرف «e» (Roland = تلفظ رولان في الفرنسية، وتلفظ رولاند في الإنكليزية).

ه - اعتماد بعض المترجمين حرفية الكلام، المؤدي إلى غياب المعنى، والالتباس مع بعض من المعاني العربية (الشعر، والشعرية)، مما يُحدث الأخطاء التي تتحول مع مرور الزمن إلى مصطلح معتمد.

٦ - اعتماد ترجمة تعتمد على معنى

المصطلح بالاستناد إلى سياق النص، وإذا حدث التوسع قد يدخل ما ليس من عمل المصطلح؛ وهذا نادرًا ما يحدث، وإلا قد ينتج عدة معانٍ للمصطلح الواحد ضمن نص الترجمة الواحد. ولكن التوسع يحدث في الكلمات الأخرى، والمصطلح واحد، وقد يحدث مروره مع مترجم آخر يعتمد ترجمة مختلفة، لذا وردت أسماء عدة لمصطلح واحد (معنم، سيم).

٧ - استخدام المترجم قاموسه اللغوي، وطريقته الخاصة بالترجمة، وعدم إلمامه بمفهوم وظيفة المصطلح الذي يترجمه، ذلك بسبب كثرتها وتعدد الاختصاصات. إذ قد تنحصر ثقافته بالترجمة والتعريب، وإن أضاف إليها ثقافة أخرى، فلا يمكن أن يُحصي كل ما نتج من مصطلحات. حتى وإن اعتمد الدقة وكان حريصًا في ترجمته، فلا يُجزم خلو النص المترجم من الأخطاء؛ إذ تبقى لكل لغة ما يميّزها عن غيرها. لذا لا يمكن أن يُلام المترجم على ترجمته، ويكفي أنه قد سهّل اكتساب المعرفة بفتح آفاق ثقافية حضارية جديدة أمام المثقف.

٨ - لا تقتصر الترجمة من لغة الأم للباحث إلى لغة أخرى، بل يُنقل النص المُترجم إلى لغة أخرى^(١).

٩ - غياب أصحاب الاختصاص المتعلق

(١) دانيال تشاندلر. م.س.، ص: ١٨.

بالمصطلح. كما قد يكون للكلمة التي اشتق منها المصطلح مرادفات، وتترجم في القواميس باعتبارها كلمة عادية^(١)، من غير أن تعادل ترجمة المصطلح بملفوظ خاص به، يميزه عن مرادفه. كما أن اللغة العربية مرادفات للكلمة، مما يبرز اختلاف في ترجمة النصوص أو المصطلح.

١٠ - لا ترفق الكتب المترجمة صفحة خاصة بتفسير المصطلح، باعتبار ما يقتصر عليه العمل. ولا تُعير المؤلفات الاهتمام بالتطبيق العملي للمصطلح، ولا تضيف أمثلة كافية للتوضيح أو تطبيق النموذج عليه، رغم أنه يزيل الابهام، ويرسخ المصطلح وسبله في الأذهان.

١١ - كثرة المصطلحات في جميع الاختصاصات، وتداخلها ببعضها البعض، كتداخل الرياضيات في المواد العلمية الأخرى كالفيزياء أو الكيمياء أو حتى في الآداب كدخول الأشكال مثل: المربع السيميائي أو الرسم البياني في الاحصاء، كذلك تداخل اختصاصات العلوم الإنسانية والآداب كعلم النفس أو الفلسفة في دراسة النصوص^(٢).

إن معرفة الأسباب خطوة نحو المعالجة، وهي ضرورية، لما ينتج من إهدار لوقت

الباحث، والضياع والتشتيت أو الاضطراب الذي يقع فيه، على الأقل في المرحلة الأولى حتى يصل إلى غايته. كذلك لما قد تسببه الشوائب من لغط والتباس في بعض من المنتوجات البحثية من دون استثناء لأي اختصاص. وقد يحاول الباحث جاهداً أن يتجنبه. فضلاً عن تجنب البعض التداخل بها وإتقانها، نظراً للغموض الذي أفرزته بعض الترجمات، المؤدي إلى صعوبة استيعابها. ولهذا قد تكون المعالجة في بعض ما سيعرض من اقتراحات.

الاقتراحات

قد يرى البعض أنه ليس من الضرورة العودة إلى المؤلفات المترجمة والمصطلحات لتنقيتها من الشوائب، باعتبار إن ما حصل قد حصل. ولا يمكن إجراء ذلك نظراً لعددها الكبير، الذي قد يكون أثره على كمية من نتاج مؤلفاتنا تفوق أضعافها. فهذه العلوم دخلت بكم هائل من مؤلفاتنا التي لا بد لنا بالعودة إليها كمراجع. ولهذا، تنطلق الغاية من هذه المقترحات بالعودة إلى المصطلحات والنصوص المترجمة وإزالة الشوائب منها، لسلامة مراجعنا، ولحماية المؤلفات الجديدة التي قد تُنتج. فقد يرغب

(١) م.ن.، ص: ١٨.

يتعلق بحالات الشوائب رقم ٩: كان لا بد من ربط كل منها بمعادل واحد في العربية، لأنها استخدمت كمصطلحات وليست كلمات... (٢) يتعلق بحالات الشوائب رقم ١١.

كل مؤلف بإرفاق ملحق تصحيحي بنسخته. وإن لم تقام المبادرة على ما سبق، على الأقل من الواجب أن لا يحدث الخطأ عينه بمصطلحات دخيلة جديدة. لا تقتصر المقترحات التي استنتجت من الأسباب على ما سيتبين، فقد يلاحظ غيرها أثناء المباشرة بتصفية هذه العوالق وتنقيتها. أما ما تيسر من هذه الاقتراحات فمنها:

١ - استمرار عمل مجامع اللغة العربية لتوحيد المصطلح وتعريبه بقدر الإمكان، وقد كانت خطوة مميزة بتأسيس اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية عام ١٩٧١م^(١)، فاتحاد المجامع العربية بالعمل الواحد يساهم في حل الإشكالية خاصة باعتماد المصطلح وتوحيد كتابته.

٢ - إنشاء مجمع خاص بالترجمة مرتبط بوحدة تنظيم مدققه للترجمات. وتقوم بمشاركة العمل بينها وبين مجامع اللغة العربية المتحدة. وذلك بوضع مخطط العمل المشترك، وتجهيز آلية التنفيذ. وإن موضوع الترجمة قد تناولها مجمع اللغة العربية بالقاهرة في أحد ندواته التي كان آخرها عام ١٩٩٧م.

٣ - وضع مخطط أولي لجمع النصوص المترجمة لإعادة التدقيق فيها، بعد دراسة ومناقشة كافة الحالات العالقة بالمصطلح، منها ما جاء بالعرض وما يتبين من إضافة جديد، على الأقل لتجنب حدوثها مجدداً. وضع آلية أولية لتنظيم المصطلح وتصحيح الأخطاء، منها: الاعتماد على كتابة واحدة للمصطلح، فرض كتابة المصطلحات العربية بدلا من الاجنبية، إيجاد معان عربية تلائم المصطلحات المستخدمة بتعريبها الأجنبي والبعيدة عن التعقيد، توحيد أسماء المصطلحات ذات المهام الواحد، والتركيز على القواميس مصادر ترجمة للطالب والمثقف...

٤ - العمل على إيجاد تقنيات جديدة لإخضاع النصوص المراد معالجتها، أو لترجمة ما نتج من نصوص حديثة من النص الأصلي. والابتداء من إحدى هذه التقنيات باعتماد منهجية واحدة للترجمة أو لتنقيح النصوص المترجمة. وإن كانت هناك منهجيات معتمدة، فيمكن إضافة بعد التعديلات عليها، بحسب الحاجة. كما يمكن الاطلاع على «منهجية الترجمة والتقنين» التي ذكرها الدكتور مرعي سلامة^(٢)،

(١) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٥ فبراير ٢٠٢٠م، الموقع الإلكتروني: <https://ar.wikipedia.org/w/index.php?title=%D9>

(٢) مرعي سلامة (جامعة اليرين الثانية- فرنسا)، محاضرة بعنوان بناء الاختبارات في المجالات النفسية/ تقنين وترجمة الإختبار، سن الفيل- المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة اللبنانية كلية الآداب والعلوم الإنسانية- قسم علم النفس، ٤:٠٠ عصر الإثنين ٢٤-٥-٢٠١٧م.

السياقي من دون اهمال الترجمة الحرفية للكلمة، نظرًا لما كان متبعًا عند بعض المترجمين باعتمادهم إحدى الترجمات. فيؤخذ ما يستلزم لإتمام الدقة بالعمل، وأن لا يكون العمل فرديًا.

٦ - إن لم يوضع منهجية، يتوجب التدقيق اللغوي من قبل المختصين. ويشترط أن يكون المترجم مثقفًا ملمًا بمجال الموضوع المترجم، أو أن يكون قد أطلع على دراسة شاملة لهذه المصطلحات وتفسيراتها لمعرفة ماهية الاستفادة منها. كذلك حضوره محاضرات تشرح مفاهيم المصطلحات في المنتديات التي تطرح أفق ثقافية علمية مشتركة بينهم، وتنسيق العمل مع المجامع للغة العربية التي قد تكون جهزت لجان متخصصة لتشارك بالعمل.

٧ - وإن حلت الرغبة في تنقيح النسخ القديمة المترجمة وإعادة التعديل عليها، يُضاف إلى ما ذكر سابقًا العمل التالي:

أ - جمع ما أمكن من النصوص وإعادة

ويمكن أن يستوحى بمنهجية منها. على سبيل المثال (استبدال هنا المجموعة بدلاً من الفرد، وبعض التغييرات): أن يوزع النص الواحد على ثلاث مجموعات، تضم كل مجموعة مختص بلغة النص ومختص باللغة المراد ترجمتها، واختصاصيين بمادة الموضوع المنوي ترجمته. وقبل بدء هذه المجموعة بالترجمة عليها وضع خطة للعمل، وبعد ترجمتها، تبدل نُسخ النص بين المجموعات للاطلاع عليها وأخذ الآراء حول ترجمة كل منها. ثم يقارن بين الترجمات، ويحدد منها العبارات أو الألفاظ المشكك بها التي يحدث فيها الالتباس، لتداول النقاش حولها، حتى يُقرر نسخة أحادية متفق عليها. ثم إخضاعها للتجربة، لدراسة مدى صلاحيتها ووضوحها، فإن كانت سليمة ومفهومة يحصل تأكيدها؛ وإن بقي هناك ما هو عالق غير مفهوم، يعاد دراسة ما فيها من إشكال. وبهذا لا مستحيل في إيجاد منهجية، كما أنه قد تطرح اللجنة المختصة بالترجمة نظامًا لمنهج مغاير.

٥ - اعتماد الترجمة باعتبار المعنى

= منهجية الترجمة والتقنين: مميزاتها: توفير الوقت والجهد والمال والاستفادة من خبرات الآخرين ومن مقياس ثبت صدقه وثباته، ومقاربة النتائج. عيوبها، في ما يتعلق بالنسخة التجريبية للمجالات النفسية: اختلاف الثقافة مما يصعب تطبيقه كما هو، اختلاف المجتمع، اخطاء الترجمة اللغوية، فقدان بعض العبارات أثناء التقنين. الخطوات: تتم في ثلاث خطوات: الترجمة والترجمة العكسية، اعداد النسخة التجريبية (تشكيل لجنة من مختصين: بعلم النفس، وباللغة، وبالموضوع)، التجربة الاستطلاعية للنسخة التجريبية. التقنين: صدق التكويني الفرضي - استخدام التحليل العاملي الاستكشافي - التحليل العاملي التوكيدي، ثبات المقياس: أ - الانساق الداخلي، ب - التطبيق وإعادة التطبيق.

التدقيق فيها، وفق نظام العمل الذي تمّ وضع مخططه ومنهجيته الجديدة.

ب - توزيع نتائج العمل التصحيحية (التي نتجت من التصحيح) على جميع مراكز التعليم الأكاديمي، مرفقةً مع شخصيات مختصة، لإقامة محاضرات تثقيفية في مجالات اختصاصها المتعلق بالدراسات التي تمّ تنقيحها. كما يمكن نشر هذه النتائج على موقع إلكتروني، بإضافة التفسيرات المدونة، أو بفتح مجال للتواصل.

ج - إنشاء ورشات عمل خاصة تدريبية لتطبيق مفاهيم المصطلحات وتوضيح كيفية العمل عليها.

د - عدم الاكتفاء في ترجمة المجال التنظيري. ذلك بإضافة نصوص تطبيقية على كل دراسة نقدية مترجمة، يقوم بدراستها المختص في لجنة المجموعة.

هـ - جمع جميع المصطلحات وتنظيمها في كتاب واحد، ويؤخذ باعتبار تصنيف المصطلحات كل منها بمجال الاختصاص المنتمية إليه مع إضافة التفسيرات. كما يمكن فرد مصطلحات كل اختصاص في كتاب. وقد يكون هناك بعض المؤلفات المشابهة لهذا العمل، لكن بأسلوب خاص وضعته المؤسسة المنتمي إليها، لذا يستلزم الأمر البحث عنها وإضافة التفسير. وهذا

الأمر ليس بجديد فالمجامع اهتمت بوضع كثير من المؤلفات والمعاجم.

لا يمكن أن تنحصر هذه الإضافات التعديلية بتنقيح النسخ القديمة فقط، بل فيها ما يتوجب عمله على ما ينتج من جديد، فضلاً عن دور ما يختص بنشر الاكتساب المعرفي، على أن لا ينحصر على صعيد محلي. كما يتطلب الحث على الإنتاج الجديد، بالدعم وتقديم المساعدة المعرفية والمعنوية والمادية، عبر الاكتساب والتبادل الثقافي.

المصادر والمراجع

- ١ - إيكو، أمبرتو. السيميائية وفلسفة اللغة. ت: أحمد الصمعي. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١١ - ٢٠٠٥م.
- ٢ - أيوب، نبيل. النقد النصي (٢) وتحليل الخطاب (نظرات ومقاربات). بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط١، ٢٠١١م.
- ٣ - الأيوبي، ياسين. مذاهب الأدب معالم وانعكاسات. بيروت، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٨٤م.
- ٤ - بارت، رولان وجينيت، جيرار. من النبوية إلى الشعرية من السلسلة النقدية. ت: د. غسان السيد. سوريا، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠١م.
- ٥ - بنگراد، سعيد. السيميائيات السردية مدخل نظري. الرباط - الدار البيضاء، منشورات جريدة الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، لا - ط، ٢٠٠١م.
- ٦ - تشاندلر، دانيال. أسس السيميائية. ت: طلال وهبه. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٠ - ٢٠٠٨م.

- ٧ - حمداوي، جميل. الاتجاهات السيميوطيقية (التيارات والمدارس السيميوطيقية في الثقافة الغربية). لا - م، لا دار، ط١، ٢٠١٥م.
- ٨ - حموده، عبد العزيز. المرايا المقعرة في نظرية نقدية عربية. عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية شهرية، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مطابع الوطن، لا - ط، ع - ٢٧٢، جماد الأول ١٤٢٢هـ - اغسطس ٢٠٠١م.
- ٩ - سلامة، مرعي (جامعة الرين الثانية - فرنسا). محاضرة بعنوان بناء الاختبارات في المجالات النفسية/ تقنين وترجمة الاختبار. سن الفيل - المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة اللبنانية كلية الآداب والعلوم الإنسانية - قسم علم النفس، ٤:٠٠ عصر الإثنين ٢٤ - ٥ - ٢٠١٧م.
- ١٠ - السمالوطي، نبيل محمد توفيق. الايديولوجيا وقضايا علم الاجتماع النظرية والمنهجية والتطبيقية. مصر، دار المطبوعات الجديدة للطباعة والنشر والتوزيع، لا ط، لات.
- ١١ - سويدان، سامي. في دلالية القصص وشعرية السرد. بيروت، دار الآداب، ط١، ١٩٩١م.
- ١٢ - كورتيس، جوزيف. مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية. ت: د. جمال حضري. بيروت الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م. ل منشورات الاختلاف، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- ١٣ - مانهايم، كارل. الايديولوجيا والبيوتوبيا قدمة في سوسيولوجيا المعرفة. ت: د. محمد رجا الذيريني. الكويت، شركة الكتابات الكويتية، ط١، اكتوبر ١٩٨٠م.
- ١٤ - هلال، محمد غنيمي. الرومتيكية. بيروت، دار العودة، لا - ط، ١٩٨١م.

وسيلة الكترونية

- ١ - مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٥ فبراير ٢٠٢٠م، الموقع الإلكتروني:
<https://ar.wikipedia.org/w/index.php?title=%D9>

تزاوج الأنماط الزخرفية في الواجهات التقليدية للبناء البيروتي

جعفر حسن عبد الله^(١)

التأثيرات الوافدة والناتجة عن تأثيرات الحضارات التي مرّت عليها، منذ الفنيقيين مروراً بالدولة الرومانية ثم البيزنطية والفتح الإسلامي قبل أن تستقرّ على طابعها المحلي في المرحلة العثمانية المتأخرة. وقد تعددت أساليب هندسة المساكن وطرق المعالجات الفنية في واجهاتها تبعاً للحقبات التاريخية والحضارات التي مرّت عليها.

وبعد، احتلت بيروت مكانة مهمة في تاريخ المسيحية وخاصة خلال القرن الرابع الميلادي. وعندما يجري الحديث عن الأرض المقدسة بالمعنى الشامل للمفهوم، فإنّ بيروت تشكّل جزءاً لا يتجزأ منها، إذ لا تزال طقوس كثيرة تمارس فيها وتنسب للعهد الأول للمسيحية^(٢). فالطرز

المقدمة

ترتبط الزخرفة في العمارة، كمفهوم، بعملية التزيين التي تضاف إلى الشكل المعماري، أي إضافة مفردات معينة إلى التكوين الأصلي. إلا أنّ هذه المفردات لا يشترط فيها أن تكون مضافة وحسب، إنّما يمكن أن تكون بنوية أيضاً، فالحالة الأولى تأتي نتيجة إضافة مختلف المكونات الزخرفية الهندسية والنباتية والكتابية وغيرها إلى التكوين المعماري. أما الحالة الثانية فتأتي نتيجة ما يولده الشكل الأصلي من تأثيرات زخرفية ناجمة عن التراكم والعلاقات المختلفة التي تتولّد بين المكونات جميعها.

وتؤشّر دراسة واجهات البناء في بيروت وفنّ زخرفتها إلى العديد من

(١) جعفر حسن عبد الله: مهندس داخلي، أستاذ في الجامعة اللبنانية - كلية الفنون الجميلة والعمارة - قسم الهندسة الداخلية، أستاذ في الجامعة الأميركية للثقافة والتعليم.

(٢) قصير سمير: تاريخ بيروت، دار النهار، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٦٣.

تعرّزت بإلحاح في العهد العباسي في القرن التاسع عشر، ليسجّل، وبشكل واضح، تزاوج الزخرفة الإسلامية جنباً إلى جنب مع تأثيرات الزخارف الموروثة من العناصر السابقة للدخول الإسلامي. وقد استمرت عملية استلهام الزخارف من العناصر المعماريّة القديمة خلال فترة الحكم العثمانيّ. وقد طوّر الفنانون المحليون خلال فترة الحكم الشهابيّ لجبل لبنان بين أعوام ١٧٩٠ - ١٨٤٩ هذه الأنماط إلى منهجيات فنيّة وإبداعات في إنشاء تكوينات هندسيّة غاية في الدقّة مبنية على رويّة وقاعدة الزخارف المعماريّة الإسلاميّة^(٣). وقد انتقلت هذه الزخارف إلى مساكن بيروت بطرز مختلفة وأساليب متنوعة. من هنا نشأ رابط قوي بين الطراز الإسلاميّ والمساكن في مدينة بيروت على قاعدة التزاوج بين حاجات البيّة المحليّة والقيم التي تمثّلها الزخرفة الإسلاميّة. لم تكن العمارة الإسلاميّة والعربيّة عمومًا بمنأى عن التأثيرات الزخرفيّة البيزنطيّة والمسيحيّة بل كانت مصدر وحي واستلهام للمصممين المسلمين، شاهدنا في ذلك ظهورها في العديد من واجهات المباني في بيروت.

البيزنطيّ، الذي نشأ نتيجة امتزاج المؤثرات الشّرقيّة (السّوريّة والسّاسانيّة) بالمؤثرات الإغريقيّة والرّومانيّة، هو الطراز المؤثر في العمارة الإسلاميّة في مراحل تكوينها الأولى حيث يمكن تحديدها بالحقبة الممتدة من القرن السّابع إلى القرن العاشر الميلادي^(١)، وتجدر الإشارة إلى أنّ أكثر أنواع الزخرفة في منطقة المتوسط تقوم على وحدات أساسية كلاسيكية^(٢) وهي وحدات موروثة من الحضارة الرّومانيّة. وعليه، لم تندثر شواهد الدّولة البيزنطيّة من المشهد البيروتّي العام، وذلك بسبب وجود الطّابع المسيحيّ فيها والمتمثّل بالعمارة البيزنطيّة التي أضافت إلى المدينة فيما بعد ميزة معماريّة وفنيّة، كما استمدّت من عناصرها ومفاهيمها العنصر الأهم في واجهات البناء التّقليديّ في بيروت ونعني تحديداً الأقواس المثلثة التي انتصفت الواجهات في النّصف الثّاني من القرن التاسع عشر، مع العلم أنّ هذه الأقواس بدأت أوّل ما بدأت في إيطاليا.

وتعود بداية التّأثير العربيّ في المباني في بيروت إلى بداية الفتح الإسلاميّ حين خضعت مدينة بيروت للحكم العربيّ. ثم

(١) وزيري يحيى: العمارة الاسلاميّة والبيّة - الروافد التي شكلت التعمير المعماري، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ٢٠٠٤، ص ٥٥.

(٢) بدوي حسن: بنت جيل التراث المعماري، منشورات الجامعة اللبنانيّة، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠١١، ص ٢٥٦.

(٣) بدوي حسن: بنت جيل التراث المعماري، مرجع سابق، ص ٢٥٦.

هو التناسق والتكامل في مفهوم التصميم، الذي يعتمد نظاماً متدرجاً في الانطواء بدءاً من العائلة التي تسكن فراغات شديدة الانغلاق مروراً بالبيت الذي يخفي تعبيراته عن الخارج وانتهاءً بالمدينة التي يحدها سور تقفل أبوابه مساءً^(٢).

انطلاقاً مما تقدم من تأثيرات وافدة تمركزت في جلّها إلى جانب الموروثات التاريخية، واستناداً إلى التطورات الاجتماعية التي شهدتها القرن التاسع عشر، يُمكن تحديد الإشكالية على النحو الآتي: كيف تزاوجت هذه العناصر والأساليب الزخرفية في البناء التقليدي الواحد؟ وما هي مسببات هذا التزاوج؟

وفي السياق عينه، يفترض البحث حصول تحولات هامة وكبرى ابتداء من القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين، تحولات أدت إلى انتشار أسلوب جديد في هندسة وزخرفة الواجهات البيروتية، أعطت في محصلتها هوية جديدة تحولت إلى خاصية تراثية محلية مشبعة بأبعادها الهندسية الراقية. كما يفترض البحث عدم تعرضها للهوية المحلية السابقة بقدر ما تزاوجت معها بأسلوب هادئ ومدروس زادها ثراءً وغنى.

وبعد، كان للمتغيرات الاجتماعية التي شهدتها مدينة بيروت مع بداية القرن التاسع عشر أثر كبير في التحولات العمرانية، لا سيما بالنسبة إلى البناء التقليدي وواجهاته. وكما بات معلوماً أن فن العمارة بكافة أبعاده هو انعكاس طبيعي ومؤشر مباشر لطبيعة العلاقات في البنية الاجتماعية وتحولاتها، يشهد على ذلك التنوع الكبير للنماذج التي تطوّرت خلال هذه المرحلة المتأخرة من تاريخ بيروت العثمانية. كان المجتمع اللبناني يقوم على الطبقة: طبقة الأمراء والنبلاء تليها طبقة العائلات المعروفة باسم المشايخ، ومن ثم الطبقة المعروفة باسم الخواجات أو البرجوازيين، ثم الطبقة الأكثر انتشاراً وعدداً ونعني طبقة الفلاحين^(١). وفي هذا السياق، انعكست معطيات كل طبقة وحالتها بشكل مباشر وواضح على الشكل الخارجي للمساكن، حيث باتت تشير من حيث هندستها ودرجة زخرفتها إلى المستوى والمكانة الاجتماعية لسكانها. لكن، بشكل عام، كانت غالبية البيوت مبنية على نسق واحد لا شيء إلا لأنها كانت تنتمي إلى عدد الفقراء المطرد من طبقة الفلاحين. أبرز ما يمكن ملاحظته خلال هذه المرحلة

(١) الغريب شربل: بيروت عبر التاريخ، مؤسسة صليباً للطباعة، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١٣، ص ٣٢٥.

(٢) فاخوري عبد اللطيف: منزل بيروت، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، ص ٣١٩.

- تطور الواجهات إبان المرحلة العثمانية

تعكس العمارة التقلّيدية في لبنان خلال المرحلة العثمانية نمطين من أسلوب العيش، الأول مديني منفتح على التأثيرات الثقافية، الشرقيّة منها أو الغربيّة، وعمارته هي من نتاج البنائين المتخصصين الذين كانوا يعملون لحساب البرجوازية التجارية. أما الآخر فهو قروي محليّ تعكس بساطته التقنيات المعماريّة الموروثة، وهو من نتاج القرويين الذين يعيشون على إيقاع الأيام والفصول^(١). يجتمع هذان الأسلوبان في الإطار المعماريّ من خلال تقنية بنايية تقوم على استخدام موادّ من البيئة المحلية تقوم على اعتماد شرائح الحجر المقصوب، التي تتفاوت ألوانها من الحجر الرملي المصفر مع درجات اللون الأحمر والبني إلى جميع الظلال الممكنة من الحجر الجيري الرمادي والبازلت القريب من الأسود، كما يجتمعان أيضًا في تشابه بعض المفاهيم والعناصر الهندسيّة التي تقترب أحيانًا إلى حدّ التماثل.

وفي هذا السّياق، يمكن الإشارة إلى مجموعة نماذج رئيسة من واجهات

المساكن التقلّيدية الأكثر انتشارًا داخل الأسوار في بداية القرن التاسع عشر، هذه الواجهات التي شكّلت عبر تعدّدية نماذجها ومسار تطورها نقطة انطلاق في مسار تطوّر مفهوم الزخرفة في الواجهات التقلّيدية للمساكن. وفي هذا الصّد، سنتناول هذه النماذج وفق نظام متسلسل تحكّمه كمية الزخرفة في واجهاتها ودرجتها وفاقًا لمرحلتين اثنتين.

المرحلة الأولى

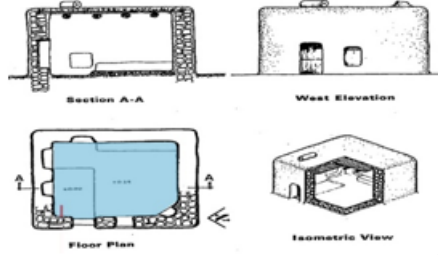
تطوّرت واجهات المساكن وزخرفتها عمومًا عن المسكن الأكثر بساطة وانتشارًا في بيروت داخل الأسوار وهو البيت المستطيل. يظهر هذا النوع من المساكن التي تتسم بصيغتها الشديدة الانغلاق بوصفه أبسط طريقة بناء في الأماكن التي تفتقر إلى الأخشاب بغية الحصول على فراغ سكني آمن، وهو بكتلته وتأكيداته على استخدام مواد من البيئة المحلية^(٢) إنّما يحقق اندماجًا وتكاملاً عضويًا نموذجيًا مع المحيط والخلفية الطبيعية^(٣). أما الواجهات فتأتي انعكاسًا لهذه الكتلة والبساطة في التصميم، إذ غالبًا ما تشتمل على عدد قليل

(١) Dagher Fadlalah: *L'Homme, la terre et la pierre-l'architecture du patrimoine au liban*, Joseph D. Raidy (١) press, Beyrouth, 2011, p14.

(٢) تتبع الألوان مجموعة محددة من الطبيعة، تتراوح من الحجر الرملي المصفر مع درجات اللون الأحمر والبني إلى جميع الظلال الممكنة من الحجر الجيري الرمادي والبازلت القريب من الأسود.

(٣) عقل ميشال: الأرض ليست ملكًا لنا، مختارات، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١١، ص ٣٢.

الأمان والحماية، وهو الأمر الذي جعلهم يصبون جلّ اهتمامهم على الدّاخل وليس الخارج.



الشكل - ١ - نموذج البيت المستطيل بصيغته البسيطة

(المصدر: BELAIR JACQUES LIGER: L'HABITATION AU LIBAN, societe Nouvelle - Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 2000, p58)

يظهر التطوّر الأوّل في واجهات هذا النّمودج من المساكن عند إضافة فراغ ليوان في وسط الكتلة، وكلمة /Iwan/ مصطلح يستخدم للدّلالة على الفضاء المفتوح، وهو يُمثّل في بيت الليوان المساحة المغطاة والمغلقة من ثلاثة جوانب في حين يبقى الجانب الرابع مفتوحاً بشكل كامل (الشكل ٢)، إذ يُشكّل بكتلته البسيطة امتداداً لكتلة المستطيل المغلق^(٤). أما

من الفتحات تقتصر على باب منخفض ونافذتين صغيرتين يتمّ تعزيزهما بعدد من فتحات التهوية على مستوى مرتفع تحت السّقف، الذي بدوره يتألف من جسر خشبيّة بأطوال متوسطة توزّع بالتساوي على كامل المساحة الطولية ويعلوها توزيع متعامد لجسور فرعية تشكّل بمجموعتها مهذاً لطبقة من القصب والطّين المرصوص^(١)، ذلك أنّ الحجر هو المادة المفضلة للجدران الخارجية (الشكل ١). تغلّف الكتلة بمجموعة من الشّرائح الحجرية المنتقاة بأشكال شبه منتظمة^(٢) والمتراكمة من دون ملاط على طبقتين تسميان بالورقتين الخارجية والداخلية تتخلّلهما طبقة اللب من الأنقاض، وتتباين تشطيبات هذه الكتلة بين الصّخر المدمج أو النّهاية المدبّبة وأحياناً المسنّنة^(٣)، وفي النّمادج التّابعة للفئة الفقيرة كانت الواجهات الدّاخلية والخارجية تغطى بالطّين. تأتي هذه البساطة في تصميم الواجهة تعبيراً صريحاً عن حاجة السكان وسعيهم خلف

(١) Ragette Fredrich: *Architecture in Lebanon - Lebanese House during the 18th and 19th centuries*, Caravan Books publisher, Delmar, 1st Edition, New York, 1974, p11. Ibid. p. 16.

(٢) حداد مارون: البيت اللبناني نتاج تمازج حضاري بين عدة شعوب، جريدة الشرق الأوسط، بيروت ٢٠٠٨، العدد ١٠٦٨٦

(٣) Ragette Fredrich: *Architecture in Lebanon - Lebanese House during the 18th and 19th centuries*, OP. Cit. p.183.

(٤) Ragette Fredrich: *Architecture in Lebanon - Lebanese House during the 18th and 19th centuries*, OP. Cit. p.88.

مرتفعتين وخارج نطاق الوصول من الخارج، يفصل بينهما عمود رفيع. حقيقة الأمر أنّ الجمع بين النوافذ وأحواض النباتات أمر غير معتاد في الشرق، ومع ذلك جرى اعتمادها في النماذج اللبنانية بوصفها سمة مميزة للعمارة المحلية، فهي تتكون عادة من فتحة تأخذ شكل قوس مزخرف بوريقات نباتية منحوتة على كتل حجريّة مجمّعة، أمّا إطارها فهو من الحجارة المكسوّة بالحديد^(٣)، يتقدم هذه الفتحة على مستوى منخفض حوض من الزهر (الشكل ٢) يتكون من تجميع لألواح من الحجر السميك. وبعد، يندرج حجم الفتحات في بيت الليوان في إطار الأبعاد العاديّة الصّغيرة نسبياً وذلك بهدف عدم تدمير الطّابع المحمي لليوان منجهة، وبغية خلق حالة من الاعتدال بين مفهومي الانفتاح والانطواء والمساحات المفتوحة والمغطّاة المغلقة من جهة أخرى^(٤). وعليه، تبرز السّمة الجماليّة من خلال التّناغم بين جدران الغرف الجانيّة ذات الفتحات النّادرة والضيقة وعناصر اللّيوان في الوسط. يُبرّر

الواجهات فيؤشر التصميم على اعتماد نظام الكتلة الواحدة في هذا النّمودج من المساكن، وقد يرتفع الليوان عن مستوى الأرض ويتّصل بشرفة ضيقة عبر عقد أو قنطرة^(١). تأثر هذا النوع من المساكن بالتقليد الفارسي المتحدر من البيت الحيري (نسبة إلى الحيرة في العراق) لجهة احتوائه على الإيوان. أدخله العباسيون إلى لبنان عبر التّنوخيين والشّهابيين^(٢). لکن، مع مرور الزّمن، ظهر تطوّر نوعي في أشكاله، إذ غدّته الطّبققة الميسورة من السكان ليصبح أكثر ملاءمة مع الشروط الاجتماعيّة وأكثر توافقاً مع البيئّة المحليّة في لبنان عبر اعتماد مستطيلين متعامدين يرتبطان بفناء مفتوح واستبدال الأعمدة والجسور الخشبية بالعقود المصلبة والقبوات المهدية. غالباً ما يخضع فراغ اللّيوان للتزيين إذ تنتشر على أطرافه المقاعد المفروشة على شكل ديوان بتوجيه مباشر نحو نافورة الفناء، ويتم تعزيز انفتاحه على الخارج من خلال تصميم مستوحى من المساكن اليونانيّة، يعتمد نافذتين توأمين للإيوان

(١) Ibid. p. 69.

(٢) فاخوري مصطفى عبد اللطيف: منزل بيروت، مرجع سابق، ص ٣٢٠. بتصرّف.

(٣) Ragette Fredrich: *Architecture in Lebanon - Lebanese House during the 18th and 19th centuries*, OP. Cit. p.140.

(٤) فاخوري مصطفى عبد اللطيف: منزل بيروت، مرجع سابق، ص ٣٢٣. بتصرّف.

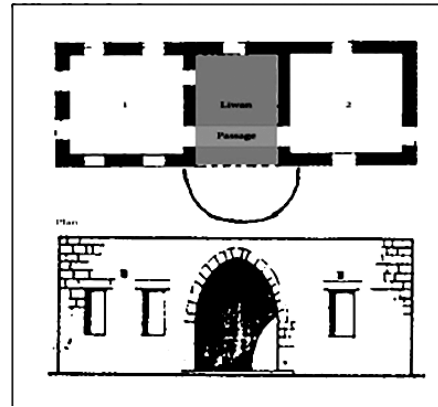
أقلّ من أربعة أمتار من حيث العرض، فبإمكاننا أن نرى أنّ العقد يتحوّل إلى عنصر تزيين غير حامل للسقف المؤلف من حزم خشبيّة، اللهم إلا إذا ارتفع العرض، إنّاك يُعمد إلى طرح سلسلة من الأقواس التي تأخذ شكل حدوة حصان ممدّة عبر الليوان في إطار يجعل الحزم متوازية مع عمق الفراغ وبأسلوب مجرد من أيّ عناصر إسقاط قد تربط الأقواس بالأرضيّة^(٢).



الشكل - ٣ - نموذج نافذة الزهور التي تفتح في عمق الليوان.

المصدر: BELAIR JAQUES LIGER: L'HABITATION AU LIBAN, societe Nouvelle - Librairie Orientaliste Paul (Geuthner, Paris, 2000, p 140)

هذا التّصميم المناخ والهواء المسيطر^(١) أضف إلى ذلك أنّ عمق فراغ الليوان يقوي تأثير الأفق في الدّاخل ويعمل على إثراء الفراغ، أمّا الجدران فهي غالباً ما تتكوّن من الحجر بسماكة حوالي ٣٠ سم تتخلّلها فتحات نوافذ قد تنخفض إلى مستوى قريب من الأرضية وتزوّد بتجويفات للجلوس وترتفع نحو السّقف لتعزيز الإنارة الطبيعيّة في الدّاخل^(٢).



الشكل - ٢ - نموذج البيت الذي يتوسطه ليوان مع واجهة رئيسية.

المصدر: Ragette Fredrich: Architecture in Lebanon - Lebanon Caravan Books publisher, Delmar, (New York, 1974, p69)

أما الأسقف، في حالة الليوان الضيّق أي

(١) ABOUSSOUAN CAMILLE: L'architecture libanaise du xve au xixe sciecle, le bonheur de vivre, les cahiers de l'Est Beyrouth, liban, 1985, p57.

(٢) Ragette Fredrich: Architecture in Lebanon - Lebanese House during the 18th and 19th centuries, OP. Cit. p.87.

(٣) Ragette Fredrich: Architecture in Lebanon - Lebanese House during the 18th and 19th centuries, OP. Cit. p.84.

إن الاستخدام الكثيف لهذه الأقواس يعود إلى الظروف المناخية والمادية في لبنان، وهي تثني بقوة على مظهر العمارة اللبنانية. لعل أكثر النماذج اعتماداً هو القوس المدبب الذي يمتد أسفل خط النبع بحوالي خمس ارتفاعه، ويتألف من حجارة مقطوعة بشكل خاص التي غالباً ما يتم تجميعها بأسلوب مختلف عن شكل القوس المعروف. كذلك توجد أقواس ذات أسطح متعرجة أو أشكال زائفة، مبنية من كتل حجرية مقطوعة بعناية. وباستثناء الأقواس المزخرفة، يتم استخدام حجارة مقطوعة بأسلوب شعاعي في الأبراج العلوية. عادة ما ترتكز الأقواس التي تدعمها الجدران، كما هو الحال في الليوان، على حواجز مستطيلة تحمل زخارف الهوابط^(١). ويعتقد أنّ أصل أنماط الهوابط ينتمي إلى بلاد ما بين النهرين، أما الأقواس المدببة فيعود مصدر هذا النوع إلى العرب المتمركزين في غرب المتوسط، ليستقدمه النورمان لاحقاً إلى صقلية حيث ساعد هناك على إثارة الفن القوطي.

تطوّرت واجهات المساكن بعد ذلك على خلفية استخدام البناء المقنطر، الذي أعطى

أبعاداً جديدة للواجهة، إذ سمح الاستخدام الكثيف لمجموعات من العقود المتوافقة الاتجاه بإضافة طابق علوي وتالياً تمدد الواجهة عمودياً^(٢)، كما شاع مع تطوّر هذا النموذج عودة استخدام ما يعرف بالصحن الداخلي الوافد من التأثير المملوكي للمساكن، وهو عبارة عن مجموعة من الوحدات السكنية والمحال تطل على ساحة داخلية يحكم حجمها بشكل أساسي عدد الأسر التي تسكن الوحدات^(٣)، وقد سمح هذا التحوّل نحو السكن في الطوابق المرتفعة بإنشاء علاقة محددة مع الخارج من خلال اعتماد ممر مسقوف (الشكل ٤) يمتد على طول الكتلة وتتقدّمه مجموعة من عناصر الدعم تتخللها سلسلة من الأقواس المدببة الشكل والتي تأخذ نسب دقيقة ٤/٣ تتألف من قطع حجرية منتظمة خالية من الزخرفة مع وصلات وتشطيب نهائي مثالي، ترتفع فوق أعمدة دائرية نحيلة أيضاً خالية من التزيين بقطر يتراوح بين ١٥ و ٢٠ سمّاً يعلوها تاج على شكل جرس مقلوب. الهدف من التاج هو تأمين انتقال سلس بين المقطع الدائري لجسم العمود والقاعدة المربعة للقوس^(٤).

(١) Ibid. p. 134.

(٢) BELAIR JACQUES LIGER: L'HABITATION AU LIBAN, societe Nouvelle - Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 2000, p59.

(٣) فاخوري مصطفى عبد اللطيف: منزل بيروت، مرجع سابق، ص ٣٢٠. بتصرّف.

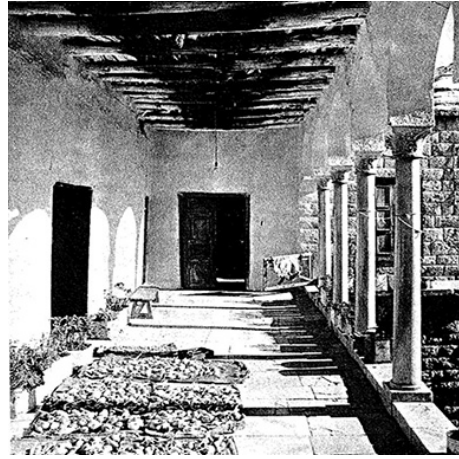
(٤) Ragette Fredrich: Architecture in Lebanon - Lebanese House during the 18th and 19th centuries, OP. Cit. p.138.

المرحلة الثانية/ الباروك المتأخر

لم تحظ بيروت بمخطط هندسي منظم حتى بداية القرن العشرين، إذ كانت ولفترات طويلة تنسّم بطابعها الريفي مع طرقات ضيقة ومنازل مبنية بالكامل من الحجر غير المنحوت^(١). لكن في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وعلى خط موازٍ مع ظهور بيت القرميد الذي سنتناوله بشكل دقيق في هذا البحث، ظهرت عناصر زخرفية متأثرة بالمرحلة العثمانية المتأخرة من جهة، وبالكلاسيكية المحدثّة من جهة أخرى مع المحافظة على التصميم الداخلي الذي يعتمد توزيع الوحدات حول ساحة فناء داخلي مكشوف^(٢). اعتبر هذا التكوين في نموذجه الأولي عثمانياً حيث وجدت التصاميم نفسها في البلاد التي طالها الامتداد والتأثير العثمانيان، إذ ظهرت في مصر عام ١٤٨٥ نماذج مشابهة تتضمن باحة داخلية، كذلك في الحدائق الفارسية وأذربيجان التي تنسّم بمناخها المعتدل المشابه للمناخ في لبنان^(٣).

تطورت هذه المنازل وواجهاتها في لبنان منذ العهد المعني، وتحديداً خلال فترة

يجب التأكيد على أهمية البروزات التي تربط بين عناصر الواجهة والروابط القوسية التي غالباً ما اعتمدت في المدينة تسهيلاً لأيّ إضافات لاحقة قد تحكّمها ضرورات أو حاجات ترتبط بنمط الأسرة الممتدة حيث تُلقي هذه الأسرة نفسها مضطرةً إلى إضافة وحدة فراغية على جانب المعرض تكون مخصصة لأحد الأبناء. كما تجدر الإشارة إلى ظهور تباين كمّي وحجمي بين واجهات هذا النوع من المساكن التي تحكّمها غالباً المرتبة الاجتماعية التي يُحدّد تفوقها ودرجة انفتاحها حضور الرواق المُقنطر، وكمية القناطر ودرجة الغنى بالزخرفة الداخلية.



الشكل - ٤ - نموذج عن المعرض بصيغته البسيطة.
(المصدر : www.lebanoninapicture.com)

(١) الغريب شربل: بيروت عبر التاريخ، مؤسسة صليباً للطباعة، مرجع سابق، ص ٣٥٧.

(٢) حداد مارون: البيت اللبناني نتاج تمازج حضاري بين عدة شعوب، مرجع سابق.

(٣) Ragette Fredrich: Architecture in Lebanon - Lebanese House during the 18th and 19th centuries, OP. Cit. p. 115.

مرتفعة تؤمن دخول النور والهواء، أما النوافذ فكانت داخلية حصراً تفتح فقط على ساحة الفناء الداخلي^(٥) استمر هذا النموذج حتى القرن التاسع عشر حيث خضع لمجموعة من التطورات الهامة في عهد الأمير بشير الثاني الشهابي، إذ أضيفت إلى البيت ثكنة قرميد استوردت بلاطاتها من مرسيليا الفرنسية. في تألف هذا البيت، في بادئ الأمر، من طبقة واحدة أو من طبقتين تزتره الحداث مع درج خارجي يوصل إلى الطابق الأعلى، أما تصميمه الداخلي فيعكس تطور مفهوم الفناء الداخلي الآتي من منطقة ما بين النهرين ومن الجزيرة العربية، في حين احتلت الأقواس الآتية من البندقية المشهد بأكمله في الواجهة.

أما التطور الأهم الذي طال هذا النموذج من المساكن فيأتي مرتبطاً بمجموعة من المتغيرات المختلفة التي طالت العديد من

حكم الأمير فخر الدين المعني الثاني (١٥٧٢ - ١٦٣٥) في مطلع القرن السابع عشر^(١)، ذلك عقب زيارة الأمير إلى إيطاليا عام ١٦١٣^(٢)، تكون على أثرها تواصل تجاري بين أوروبا وجبل لبنان ساهم بوصول نخب متخصصة في الهندسة من إيطاليا. وعلى ذلك بدأت مجموعة من العناصر المعمارية الإيطالية المصدر كالنوافذ المسماة (BIFORA) بالظهور في واجهات المباني الإدارية والقصور، وتحديداً تلك التي تعتمد ساحة فناء داخلي مكشوفة تنتهي بثلاث قناطر (الشكل ٥) عوضاً عن القنطرة المنفردة التي تتقدم الليوان، إذ تشير بعض الدراسات^(٣) إلى مصدرها الديني المستلهم من مفهوم الثالوث المقدس^(٤). وبعد، لم تكن للبيوت آنذاك شرفات أو نوافذ تطل على الخارج، إذ اقتصر مجمل الفتحات على ما يسمى بالقمريات وهي عبارة عن فتحات دائرية

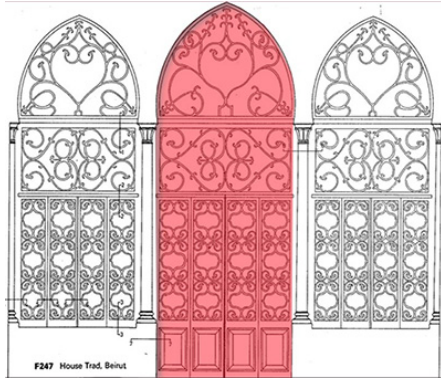
(١) بدوي حسن: بنت جيبيل التراث المعماري، منشورات الجامعة اللبنانية، مرجع سابق، ص ٧٤.

(٢) مصطفى صالح: العمارة الإسلامية في العصر المعني في لبنان، دار النهضة، بيروت ١٩٨٥، ص ٩.

(٣) تشير بعض الدراسات إلى دور البطريرك الدويهي (١٦٧٠-١٧٠٤) الذي قام على رأس الكنيسة مؤذناً باجراء صياغة تاريخية جديدة للكنيسة وأفسح المجال لقيام أبحاث عن الفنون والهندسة والأدب، تم على أثره تجميع أرشيف الأديرة وتنظيمه ودراسته على ضوء فكر هندسي ديني، يستمد عناصره من بعض المعتقدات المسيحية.

(٤) ISKANDAR Amin: LA DIMENSION SYRIQUE- DANS L'ART ET L'ARCHITECTURE AU LIBAN, (٤) P198.

(٥) عيتاني سامي: من ملامح التطور العمراني والمعماري في بيروت القرنين التاسع عشر والعشرين، جريدة النهار، بيروت ٢٥/٧/٢٠١٠.



الشكل - ٥ - نموذج عن القناطر الثلاثية التي تصدرت الأهمية في الواجهات.

(المصدر: Ragette Fredrich: Architecture in Lebanon - Caravan Books publisher, Delmar, (New York, 1974, p 153

البيت المركّب/ البيت ذو الأقواس المثلثة

ارتبط تشكّل هذا النوع من المساكن وأسلوب تصميم واجهاته وزخرفتها بالمهندسين الإيطاليين الذين قدموا إلى بيروت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وشرعوا بتصميم العديد من قصور التجار والأثرياء المحليين، وذلك بعد أن دخلت البلاد مرحلة المتصرفية أي بعد انتهاء حكم الأمراء. والجدير بالذكر أنّ إيطاليا كانت آنذاك من ضمن دول الوصاية على لبنان بحكم صداقتها مع الدولة

البنى الاجتماعية والسياسية والمدنية، ذلك على خلفية التطور الاقتصادي المرتبط بتحوّل المدينة إلى بوابة للعالم الغربي ونواة لعلامات التطور، تزامن هذا الأمر مع توسّع رقعة المدينة إلى خارج الأسوار بفعل العدد المتزايد للوافدين إليها، فتضاعف عدد سكانها مرتين خلال النصف الأوّل من القرن التاسع عشر^(١)، ممّا تسبّب بما يمكن تسميته بالانفجار السكاني، فالتحقت الضواحي القديمة بالمركز مُشكّلة تجمعات سكنية جديدة منظمّة تهافتت عليها فئة من الناس هرباً من الاكتظاظ السكاني الشديد في الداخل القديم^(٢). سجّلت هذه المساكن من خلال هندستها الظهور الأوّل للقصور الكبيرة والضخمة في المدينة حيث اتّسمت بفخامتها الناتجة عن البذخ والإنفاق الكبير بدءاً من عملية تصميمها عبر المهندسين الإيطاليين الذين أسهموا في الأسلوب الإيطالي إلى مدن الساحل الشرقي للبحر المتوسط، استجابةً لطلب الطبقة الأرستقراطية وبعض حكام الولايات.

(١) DAVIE May: *Beyrouth Et ses Faubourgs (1840 - 1940)*, centre d'études et de Recherches sur le moyen-orient contemporain (cermoc), Beyrouth, 1996, p20.

(٢) فياض رهيّف: مراحل في عمارة بيروت، جريدة الأخبار، العدد ١١٤، ٢٥ كانون الأوّل، ٢٠٠٦.

الأشرفية مكاناً لتشييد قصورها التي تحمل في معظمها تأثيرات إيطالية، حيث ارتبطت أسماء الشوارع باسم غالبية العائلات التي تسكنها (كشارع سرسق)^(٢). كما ظهرت في واجهاتها الأعمدة والنوافذ تحديداً النافذة المزدوجة التي يتوسطها عمود ويعلوها قوس والتي يطلق عليها نافذة الزهور (Balcon a Fleures)^(٣).

تطور هذا النموذج على خلفية التأثيرات السابقة التي ربطته بالطابع المدني، إذ بدأ، والحق يقال، كنتيجة حتمية للأعداد المطردة للوافدين نحو المدينة. وعليه تحول الفناء الداخلي المفتوح إلى قاعة مركزية مسقوفة تعرف بالدار، تتوزع الغرف على أطرافها وتفتح في واجهتها أقواس ثلاثية مزركشة آتية من البندقية، أما الأسقف فقد تعممت ببلاطات من القرميد الأحمر الآتي من الأناضول^(٤). أما الفتحات فتشهد واجهات هذا النموذج استخدام أعداد متزايدة من النوافذ المجهزة بمصاريع خشبية (أباجور) تسمح بتسلل النور والهواء تعلوها فتحات تهوية. ومع ذلك تبقى الهيمنة الحقيقية في الواجهة حصراً للأقواس المثلثة السالفة

العثمانية، الأمر الذي أتاح لها تسمية رستم باشا (١٨١٠ - ١٨٨٥) والي عثماني (من أصل إيطالي) متصرفاً على لبنان، الواقع الذي أسهم في خلق حالة انفتاح للعائلات اللبنانية على إيطاليا^(١)، خصوصاً على مدينتي جنوة والبندقية، تشكلت على أثرها حملات هجرة كبيرة لعدد من اللبنانيين على خلفية المشكلات التي أفرزتها الأوضاع السياسية المتوترة. لكن هذه العائلات سرعان ما عادت إلى بيروت وتحديداً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعد أن حققت ثروات مالية كبيرة حاملة معها رغبة عارمة في نقل ما شاهدته في تلك البلاد. وعلى ذلك دخلت التأثيرات الهندسية والزخرفية للأسلوب الإيطالي وانتشرت عبر مهندسين اقتصرتهم مهمتهم على تصميم وبناء عدد من قصور بعض التجار والأثرياء الذين زاروا إيطاليا وشهدوا روعة هندستها.

شيدت هذه القصور في الأحياء الجديدة التي اختارت العائلات الأنفة الذكر تشييد مساكنها الجديدة فيها، كذلك عمدت بعض العائلات الثرية إلى اختيار مرتفعات منطقة

(١) مراد نبيل جميل: مشيدات مهندسي الغرب في بلاد الشام، موقع الباحثون، العدد ٤٩، الأرشيف ٢-٦-٢٠١٠.

(٢) لم تنتشر التصميمات الإيطالية في بيروت إلا في منتصف القرن التاسع عشر، ذلك لأن حضور المهندسين الإيطاليين بقي ضعيفاً في لبنان نظراً لكثرة الطلب عليهم في مصر وبعض مدن السلطنة العثمانية.

(٣) ABOUSSOUAN CAMILLE: L'architecture libanaise du xve au xixe siècle, le bonheur de vivre. OP. Cit. p52.

(٤) فياض رهياف: مراحل في عمارة بيروت، مرجع سابق.

بين عناصر الواجهة والكتلة، وهذا ما يؤكد عليه أسلوب توزيع فتحات النوافذ بأشكالها المستطيلة والبسيطة على الأطراف ضمن إطار ثانوي يحافظ على التباين بين سطوح الممرات والجدران الحجرية ويمنح تعبيراً واضحاً ومتميزاً عن الحالة الداخلية المستقرة والاحتواء الآمن^(٤). هذا المزج بين السقف المائل بلونه الأحمر الزاهي مع الأقواس المثلثة وسط المشهد الأخضر، يولد انطباعاً ملفتاً يميّز عمارة الأثرياء في المدينة من سواها. كما تجدر الإشارة إلى انتشار هذا النمّوج في مراحل تاريخية متقدمة ليصبح في متناول فئات أوسع من المجتمع نتيجة انخفاض كلفة المواد وبروز العديد من الفنيين المهرة الذين استطاعوا تقليد هذه الرّخارف في إطارها التركيبي بحرفية عالية. كما تشير الدّراسات إلى تطوّر هذا النمّوج في العقد الثاني من القرن العشرين خلال مرحلة الانتداب الفرنسي تحت تأثير التطورات الكبرى التي طالت تنظيم وسط المدينة، إضافة إلى التطوّر الاجتماعي البنيوي الذي أصاب المجتمع نتيجة الانفتاح على النّظم الاجتماعية الاقتصادية الغربية.

الوصف إذ باتت تأخذ تشكيلات مختلفة خلال تلك المرحلة، تشكيلات تعتمد الجمع بين النوافذ والأبواب والأروقة، وهي تتألف من ثلاث فتحات تعلوها أقواس تتصل فوق أعمدة نحيلة (الشكل ٥)، وعلى الجانبين ترتبط إما بالجدار مباشرة أو تدعّم بأعمدة نصفية، كما تتجه بعض تصميماتها إلى التأكيد على العقد الوسطي من خلال زيادة عرضه أو ارتفاعه^(١)، وفي مراحل متقدمة في مسار تطوّر هذا النمّوج خضعت فتحات الأقواس للتقسيم الزخرفي القائم على توظيف تشكيلات زخرفية شديدة التعقيد وأحياناً زخارف من الخشب المخروط بأشكال نباتية تتخللها مسطحات من الزجاج الملون وإلى جانبها أعمدة رخامية^(٢) تتقدم هذه الأقواس شرفات حجرية أو رخامية صغيرة بعمق لا يتعدى المترين، وهي تتألف من بلاطة من الصخر بسمك ٥ إلى ١٠ سنتم تحمل على مساند حجرية (تسمى Zifr) يوطرها درابزين مشغول ومزخرف من الحديد المطاوع^(٣).

بشكل عام يعتمد تصميم الواجهة في هذا النمّوج على التناظر كقاعدة أساسية

(١) تجدر الإشارة إلى ظهور نماذج تستخدم أربعة أو خمسة أقواس متواصلة في الواجهة.

(٢) Ragette Fredrich: *Architecture in Lebanon - Lebanese House during the 18th and 19th centuries*, OP. Cit. p.154.

(٣) Ibid. p. 110.

(٤) حلاق حسان: *بيروت المحروسة في العهد العثماني*. مرجع سابق، ص ١٩٠.

الخلاصة

يُظهر تطوّر واجهات المساكن التقليديّة دخول العديد من التأثيرات الوافدة والناجمة عن تأثيرات الحضارات التي مرّت عليها والتي شكّلت من خلال تزاوجها في الواجهة الواحدة مع الموروثات التّاريخيّة نمطاً محلياً يتوافق مع البيئة المحليّة.

وفي هذا الصّدّد خلص البحث إلى أنّ التحوّل الأهم في هندسة وزخرفة الواجهات السكنيّة قد تمّ في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث ترجمت على نحو جليّ ولادة نموذج البيت الجديد أو بيت التهجين المسمى بالبيت اللبناني ذي القناطر المثلثة. كما خلصت الدراسة إلى تحديد أسباب هذا التحوّل التي تعود إلى المهندسين الإيطاليين الذين قدموا إلى لبنان بدعوة من بعض الرأسماليين وكبار التّجار المحليين الذين زاروا إيطاليا في مراحل سابقة وتعرفوا فيها الراقي والبازخ، فسعوا إلى نسخه في قصورهم الفخمة التي اختاروا تشييدها على أطراف المدينة، وقد انتقل هذا الأسلوب ليشمل فئات أوسع من المجتمع نتيجة توسّع الخبرات المحليّة عند البنّائين والفنيين في تقليد هذه الرّخارف ونسخها بتكاليف أقل.

بوجيز العبارة، يُمكننا القول بأنّ

استقدام الخبرات الوافدة إلى لبنان قد أضاف إلى العمارة اللّبنانيّة أسلوباً جديداً، تارةً بطرن إسلامية ومشرقية وتارةً أخرى بأنماط غربية ذات جذور مسيحية أو أوروبية حديثة، أو من خلال دمج عدة طرز مختلفة المصدر في تأليف واحد.

المراجع

- سمير قصير: تاريخ بيروت، دار النهار، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٦.
- يحيى وزيري: العمارة الإسلاميّة والبيئة - الروافد التي شكّلت التعمير المعماريّ، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ٢٠٠٤.
- حسن بدوي: بنت جبيل التراث المعماريّ، منشورات الجامعة اللّبنانيّة، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠١١.
- شربل الغريب: بيروت عبر التاريخ، مؤسسة صليبا للطباعة، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١٣.
- عبد اللطيف فاخوري: منزل بيروت، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٣.
- ميشال عقل: الأرض ليست ملكاً لنا، مختارات، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١١.
- مارون حداد: البيت اللبناني نتاج تمازج حضاري بين عدة شعوب، جريدة الشرق الأوسط، بيروت ٢٠٠٨، العدد ١٠٦٨٦.
- صالح مصطفى: العمارة الإسلاميّة في العصر المعني في لبنان، دار النهضة، بيروت ١٩٨٥.
- سامي عيتاني: من ملامح التطوّر العمراني والمعماريّ في بيروت القرنين التاسع عشر والعشرين، جريدة النهار، بيروت ٢٥/٧/٢٠١٠.
- فياض رهيف: مراحل في عمارة بيروت، جريدة الأخبار، العدد ١١٤، ٢٥ كانون الأوّل، ٢٠٠٦.

- BELAIR JAQUES LIGER: L'HABITATION AU LIBAN, societe Nouvelle - Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris, 2000.
- ISKANDAR Amin: **LA DIMENSION SYRIQUE- DANS L'ART ET L'ARCHITECTURE AU LIBAN**
- DAVIE May: **Beyrouth Et ses Faubourgs (1840-1940)**, centre d'etudes et de Recherches sur le moyen - orient contemporain (cermoc), Beyrouth, 1996.
- نبيل جميل مراد: مشيدات مهندسي الغرب في بلاد الشام، موقع الباحثون، العدد ٤٩، الأرشيف ٢ - ٦ - ٢٠١٠.
- حسّان حلاق: بيروت المحروسة في العهد العثماني، بيروت.
- ABOUSSOUAN CAMILLE: **L'architecture libanaise du xve au xixe sciecle, le bonheur de vivre**, les cahiers de l'Est Beyrouth, liban, 1985.
- Dagher Fadlalah: **L'Homme, la terre et la pierre-l'architecture du patrimoine au liban**, Joseph D. Raidy press, Beyrouth, 2011.
- Ragette Fredrich: **Architecture in Lebanon - Lebanese House during the 18th and 19th centuries**, Caravan Books publisher, Delmar, 1st Edition, New York, 1974.

قراءة في «كرسي علي الزبد»

للشاعر محمد علي شمس الدين

بقلم عمر شبلي

من الحمامة، وطلبَ منها/ لا تنزلي / وظلي
طويلاً هناك / بينما ظلّ هو: / جالساً على
مقعدٍ فوق هذا الجسد / وأصغيتُ، كانت
على البحر تطفو مراكبُ مهجورةً/...
وناديتُ طيري الغريب ليأتي/... ولكنّه
ظلّ يمضي على صفحة الماء ظلاً كئيباً /
غريباً / مُريباً / ومنسحباً / كاعتذارٍ
نقدّمه للحياة / «كرسي علي الزبد»
ص ١٠ / ١١. المناجاة هنا مملوءة بالشعر،
ومملوءة بحكمة السفر في هذا البحر الذي
لا تهدأ عواصفه، ولا تملُّ أمواجه من
محاولة الصراع مع هدوء السواحل.
وتساءلتُ أيضاً هل قصائد «كرسي علي
الزبد» منسحبة من تلك الشراسة التي كانت
تلتهم أوراق قصائد شاعرنا محمد علي
شمس الدين. وحين دخلت في حكمة
التجربة أدركت أن ارتباكي كان وهمّاً عابراً
أمام الروح العميقة التي تتحرك فيما ظننته
خريفاً، وفسر لي أنّ تساقط أوراق الخريف
هي مراثي هذا الكون، وعرفت من هذه

إنّ الإنسان السعيد قد فقد توتر روحه

سارتر

* * *

— ١ —

أصبت برجفة، وأنا أقرأ عنوان هذه
المجموعة الشعرية لشاعرنا الكبير محمد
علي شمس الدين، لقد خفت من دلالات
العنوان وسيميائيته، العنوان يوحي بلا
جدوى الوجود وعبثيته، واستسلامه لقدرية
لا يشبهها إلا الموت، ولعصفورة سمّاهما
الحياة، طارت ولم تعد. ومع ذلك ظللتُ
أتساءل: هل يمكن أن يكون المركبُ غريباً
في البحر، وهو ممتلئٌ بالحياة؟. كان هذا
التساؤل يردني إلى ماسبق من شعر محمد
علي شمس الدين، وأنا أقرأ ديوان «كرسي
علي الزبد». ورحت أتساءل: إذا كان كل
ما في الحياة كرسياً على زبد، فلماذا نبتتُ
جوانح لهذه العصفورة / الحياة؟. لقد يئس

هو وحده الذي لا يموت، ويغيرنا بهذه العصفورة/الحياة. والأعجب المُثري في «كرسي على الزبد» أن رحلة الموت تضمّر الحياة في دورتها التي لا تنتهي: **حاوِلي أن تطيري ولو لحظة في الكتاب/حاوِلي أن تكوني على الأرض سطرًا بلا آخر/ وخيِّطًا لأفصل فيه المدى عن أخيه الردي/ ماذا يقول هذا الرثاء!** إنه يبني الحياة نفسها، والشاعر هنا يرجو العصفورة/ الحياة أن تتحول إلى كلمة، والكلمة يجب أن تكون حميمة لتضمن بجمالها سيطرة الحياة على الفناء. وتكرر لفظة **حاوِلي** لتثبت الرجاء المولع والمعبر عن تعلقنا بالحياة. إن المدى في هذه القصيدة لا يلغي الردي، ولكنه يبعده عن العدم. وضمير المتكلم هو تفسيرُ رجاء الشاعر كي تظل العصفورة/الحياة مَصُونَة، وغير مستسلمة لوجع المراثي. والذي يقرأ الشعر العربي يجد أن الرثاء هو أرقى نماذجه، لأن أناسًا كثيرين في التاريخ عاشوا بموتهم، وعرفنا بهم موتهم. لقد رثى الشاعر أبو تمام محمدًا بنَ حميد الطوسي بقصيدة مشهورة: **«كذا فليجلّ الخطبُ وليفدح الأمرُ»**. فقال العرب ما مات من رُثي بهذا الشعر. وها يعني أن المراثي هي حياة بما تكتنزه من عواطف ملتهبة، ومن معانٍ تغوص إلى أعماق ما تعنيه الحياة وتجاربها.

المراثي أن شاعرنا محمد علي شمس الدين كان يدخل في مرثاة طويلة وهو يرى رماد ما أحرقت أعمارنا. الخريف في هذا الديوان ليس خريفًا يبابًا، وإنما هو روح العري التي نرى جمالها بوضوح في هذا الخريف الخصب، المتكلم بعريه، والكاشف حدسيًا معنى الحياة والموت من هذا الخريف الممرع روحًا ورؤيا ورؤيةً، وأروع الشعر هو الذي يجعلك ترى أعماق الجمال في هذا العري الكوني الأيل إلى زوال، والذي ترصده يراعة شاعر مقتدر، استطاع برثاء الحياة أن يدخلنا إلى حقيقتها، ويرينا أنّ الحزن الذي أنتجه عري الخريف هو مكتشف الجمال الذي في نهايته يتسامى على الموت بما يوحيه إلينا. الحزن والتوتر هما عنصرا تكوين ها الجمال الخالد.

هنا نستطيع أن نرى في العري كساء لسوء هذا الكون. أنه يعري الحياة من قشورها لتظهر على حقيقتها بلا براقع وبلا أقنعة. إن سَفَرَ الحياة في هذا الاعتذار الذي نقدمه لها هو اعتذار مملوء برثاء يحنو على الرماد الكوني، الذي هو الباقي من نار الحيوانات المشتعلة، خريف محمد علي شمس الدين خريف حميم وحكيم يفقه حكمة الوجود، وهو خريفٌ ولودٌ باكتشاف الجمال الذي هو فرح رغم الحزن. الخريف يؤمن بالنهايات المرتقبة، إنه يرثي الحياة لتسلم حكمتها من خلال هذا الجمال الذي

وهذه صناعة تقوم بها النفس البشرية قبل أي شيء آخر، وبهذا المعنى ترتبط الحياة بالحرية ارتباطاً وجودياً، والاختيار هو أحد تعبيرات الحرية. ولكن الاختيار متحوّل دائماً إلى فعل، وهذا التحول نعبر عنه بمسيرة الحياة. وأعلى غاية كانت عند المتنبي هي الحياة نفسها، لأنها نحن، ولأننا نحن فيها مصنوعون «من المادة التي تُصنع منها الأحلام»، كما يقول شكسبير. وحلم النفس هو محاولة نسجها بالفعل الذي تمارس النفس، ويصنع كينونتها، يقول المتنبي:

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه

حريصاً عليها مُستهاماً بها صنّاً

فحبُّ الجبانِ النفس أورثه التقى

وحبُّ الشجاعِ النفس أورثه الحربا

ورغم هذا فالمتنبي يُقرُّ بعدم قبول الحياة حين لا تحمل معنى الحياة: «ربّ عيش أخفُّ منه الجِمام». وفي رأي المتنبي أنّ الحياة لا تكون حياةً مع الضعف، فالحياة هي في حقيقتها احتكاك بموجوداتها، وهذا الاحتكاك هو الذي يجعل الحياة مستساغةً وجديرة بالإقبال عليها، لأنها تنمو وتصبح أجمل بالفعل القوي، ويعلّل المتنبي رأيه بقوله:

وإذا الشيخُ قالَ أفّ فما ملّ

حياةً وإنّما الضعفُ ملاً

وحده الجمال هو المنقذ من عدمية الكون وبهذا يقترب الجمال من معنى «عشبة حياة جلامش»، لأنه نابع من قلب اضطهده الحياة. سئل أعرابي: لِمَ مراثيكم أجملُ شعركم؟ فأجاب لأننا نقولها وقلوبنا محترقة. وهذا الجمال كان في شعر محمد علي شمس الدين يوم كانت أعاصير الشباب تعصف في هضاب روحه الجنوبية، يوم كان الجنوب المحرّض على التماسّ مع كل ما هو رائع. «وكل الجهات جنوب» كلام يضم معنى الحياة في الموت، وهذا من سلالة ذلك الإرث المقاوم الذي لا يعتبر الموت نهاية، إنه يذكرنا بقول الشاعر الجاهلي الحصين بن الحمام المرّي:

تأخرتُ أستبقي الحياة فلم أجد

لنفسي حياةً مثلَ أنْ أتقدّما

الشاعر هنا يرى أن الحياة لا تكون حياة إذا انسلخت عن القيم العليا التي تجعلها حياةً. لقد تقدم الحصين بن الحمام المرّي إلى الموت حفاظاً على الحياة. إن الشعر هنا هو الثورة التي تهدم الحياة حين تزيغ عن معناها الأعلى. وبهذا المعنى العميق يكون للحياة زمنٌ داخليّ في الإنسان، وهو أبعد ما يكون عن طول الحياة وقصرها.

أما المتنبي فقد اعتبر أن الحياة هي غاية كل حيّ، ولكن الحي هو الذي يحقق حياته بالسلوك الذي يريده خياراً ناتجاً عن حرية، ولكنها في النهاية حرية مرتبطة بسلوك،

آلة العيشِ صحّةً وشباباً فإذا ولياً عن المرءِ ولي

وتبقى الحياة غاية مِلْحَةٍ حتى عند المؤمن الذي يرى في الشهادة نعيماً دائماً، ويرعبُ عندما يحسُّ باقتراب فقدان الحياة، ولو مؤمناً. فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠-١١]. وهذا المعنى العميق لحب الحياة، وتأكيد خوف المؤمنين من الموت يؤكد: «أن الكمال إنكارٌ للوجود»، كما يرى «أوكتافيو باث»، لأن الخوف إكمالٌ لما نقص من إنسانية الإنسان. بل هو ضرورة وجودية.

عرجتُ على المتنبي ونظرته إلى الحياة لأنني أدركُ عمق القرابة الفكرية والروحية بين المتنبي ومحمد علي شمس الدين، ولأبيني أن الخريف الجالس على كرسي من الزبد ليس خريفاً يباباً، إنه مرثاة رائية رماد هذا الوجود. خريف شاعرنا محمد علي شمس الدين في هذا الاعتذار مملوء بالحكمة والحنين إلى رثاء متناثر هذا الوجود «الذي حارت البرية فيه». وشاعرنا يرى أن الطللية هي مآل الوجود، وكل أعمالنا هي مرآة ووقوفٌ على هذه الطللية. ولكن مرآتي محمد علي شمس ووقوفه على هذه الطللية لم يسلباه معايشة

الطلل إبداعياً، وظل في قضايا وطنه وأمتة وإنسانيته» يدخل من قناتٍ في قناتٍ، أقول هذا وأنا أغوص في خريف حكمته ومرثاة أطلال وجودنا الجميلة.

إن التشاؤم نقيض الحزن، فإذا كان التشاؤم هرباً من الحياة فالحزن هو أقبال عليها بطغيان عاطفي مؤثر. وهذا يعني أن التشاؤم ناء عن دلالة هذا الديوان الحميم الحزين. وحتماً لا يمكن أن تصدر روح متشائمة من صاحب «ممالك عالية»، ومن الذي قال: «وكلُّ الجهات جنوب، ومن القائل في ارتباطه بأرضه التي «نهته عن الموت إلا على صدرها»، وعن الذي هرب قصائده الشرسة اللاذعة إلى «حبيبتة آسيا»، ومن الذي نادى شاعر الصخب والتحدي بقوله: «أناديك يا ملكي»، ومن الذي علّق «على باب الدنيا قلباً مفتوحاً». ورحت أستعرض نتاج من كتب «فتى الرمان»، وأنساءل: هل تقدّم العمر يؤخر زخم الروح ويعيق انتفاضاتها المتواتبة باتجاه الأعلى دائماً، وهل ما أصاب الوطن العربي من انهدام وعبثية حكام ومحكومين، ومتقفين تحديداً أصاب شاعرنا محمد علي شمس الدين المتهم دائماً بالحياة والمقاومة، وشراسة الموقف، والتمركز المستمر «في اللحظة المشتبكة»؟، لقد زال هذا كله من رأسي وأنا أدخل في عمق مرآتي كرسى على الزبد، وأرى أن رثاء الكون هو حب الحياة،

وأن الخريف بعريه ودلالاته العميقة وما يثير من شجى وشجون هو مادة مُلهمة، ورأيت أن حب شاعرنا العميق للخريف هو صورة عن تعلقه بالحياة وحزن لتناثر رمادها في حيواتنا التي تريد وتصرد دائماً على أن ترى دائماً حياة في الموت، وما تعلقنا بغيبية انبعاثنا إلا تعبير عن حبنا الحياة التي نحن فيها. وأروع أن ما جاء به الأديان في اعتقادها بحتمية الانبعاث هو في النهاية انتصار للحياة من خلال الوت.

لفتني عنوان «أغاني الكورس» على مداخل القصائد الأولى، فتذكرت ساحرات مكبث، إنهن يرسلن غناءً شجياً، ولكنه موصول بأفواه تجيد امتصاص حياة البحارة العابرين إلى بلادهم مع «أوليس» بعد غربةٍ أوسع من البحر نفسه. ووقفت مع «الكورس» مستمعاً في مدار طيران «العصفورة اسمها الحياة». العصفورة/ الحياة/ في هذه القصيدة تبني «في الأرض عشاً ضئياً» ص ٧، والطيور ستنام مستسلمة لضيق العيش وضآلته، وهذا «ما يجعل أشجارها تنحني» ص ٨، وكأنها مقبلة على اليباب كما يبدو في ظاهر الأمر، أما الحقيقة فإن العصفورة الحياة في هذا الديوان هي ذاتُ أجنحةٍ، وهذا يعن الحياة نفسها متمردة على موتها.

هنا يتجلى قلق شاعرنا المبدع، وهو محاطٌ بحزنه في معشوقه الخريف، ولكنه

يحاول أن يعيد بناء هذا العرش ثانية في الكلمة. إن شاعرنا هنا مؤمن أنه «في البدء كانت الكلمة»، ومن كان يؤمن ببدئية الكلمة لن يصل إلى «الليسبوس»، إنه سيربط نفسه وبخارته بحبال النجاة، لأن «إيتاكا» تظل هي المرسى، مرسى الحياة الكلمة. والحب، و«بينلوبا» أخت «أندروماك» في المعاناة وانتظار طائر البحر الذي لا يزال منتظراً رسو القرصان، ووصول القرصان الذي كان يصرخ دائماً بريح البحر العاص: «شُبنا يا ريح فخلينا».

* * *

وسأمضي في قراءة «كرسي على الزبد» لأرصد الأقاليم الداخلية لشاعرنا المبدع، وأرى أنه لم يقدم للحياة اعتذاراً انسحابياً، وإنما رآها سلوكاً وغاية، وكأنه يستشرف بحزن رحيل غيومها كرحيل أحلام الملك المخلوع الذي تركه وحيداً للانتصار لغيم في الضواحي في زمن متكسر أصابت شظاياها المسمومة أبطال المقاومة العربية من المحيط إلى الخليج كلهم. أنت لا تستطيع أن تتماسك، وأنت ترى هذا التخازل العربي في الزمن الذي ترى فيه فتى فلسطينياً يهزم أسطورة الصهيوني وجبروته بسكين مطبخ أمه. أردتُ أن أقول: إنك بمقدار فرحك، وتفأؤك، واعتزازك، وشموخك بعمر أبي ليلي بطل عملية «سيلفيت»، وبطولته التي تعلق على

المذهل، فهل ينتمي هذا الزمن إلى عالم الرخويات؟. أذكر في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات يوم كانت المقاومة تدكُّ أمن الصهاينة في داخل فلسطين العربية وخارجها، يومها انعكس هذا الفعل المقاوم على الشعر العربي، وعلى الشعر الفلسطيني تحديداً، ورحنا نقرأ بكبرياء: «سَجَلُ أَنَا عربي»، ونقرأ: «أه يا جرحي المكابزُ / وطني ليسحقيةُ / وأنا لستُ مسافرُ». وبعد انكسار الزمن المقاوم رحنا نقرأ في الشعر الفلسطيني نفسه: «بين ريتا بالضعف والخمول حين تصاب القضية التي ينتمي إليها بالضعف والخمول؟. إن الجمال يقول: لا، في «كرسي على الزبد». والخريف نفسه يقول: لا.

— ٢ —

أقرأ ديوان «كرسي على الزبد»، وأقرأ مراثي عصفورة، اسمها الحياة. وأنا مأخوذ بالجمال الذي ينتصر على الحزن نفسه. أنقذني الانبهار الجمالي الذي جعل لهذه العصفورة قدرة على قيامة الحياة من موتها بالجمال، ومدركاً معنى عري الخريف، ومتذكراً قولاً لبورخيس: «بدون الانبهار كلُّ شيء عديم النفع»، والانبهار في حقيقته سطوع الجمال في الآخر. هذا صحيح، أعني الجمال الذي قال فيه دوستويفسكي: «إن

الأسطورة لا تستطيع إلا أن تتمزق، وأنت تسمع كلام الأنظمة العربية وإعلامها الجبانَ المغمور بالكذب، والذي لم يتجرأ أن يحكي حرفاً عن سِكِّينة أم عمر، تلك السِكِّينة التي احتجَّت متمرّدة على السلاح العربي الذي لا يستخدم إلا لقتلنا، واغتيال ما ظل فينا من كرامة. لم يرث الشهيد عمر أبي ليلي سوى أمه، التي كانت وحدها هي المعبر عن وجدان الأمة، وهي تعتنز بشهادة فتاها الذي يشبه البدر ليلةً تاممه. والأدهى أن تسمع بعد العملية مباشرةً كلاماً فلسطينياً مسؤولاً أن هناك تنسيقاً أمنياً مع الإسرائيليين، نعم يوجد تنسيقٌ أممي بين النعجة والذئب. هذا العذاب المقهور، وهذه الفتوة الفلسطينية الموروثة من الجذور، والتي تستجيب وحدها لنداء الأرض هي التي صنعت من عمر أبي ليلي فتى يستجيب لنداء طرفة بن العبد:

إذا القوم قالوا من فتى؟ خلتُ أنني
عُنيتُ فلم أكسلُ ولم أتبلدُ

في هذا القهر المُعذَّب والفتوة الفلسطينية الخارقة يجوز أن يتقدم الأسي والقهر والحضور والغياب في آن منّا جميعاً، كما يتقدم من صديقنا الشاعر محمد علي شمس الدين، ويجوز الاعتذار من الحياة إذا رحلت عنها «صحّةٌ وشبابٌ» أي قوة وموقف، ويحق للعربي أن يلعن هذا الزمن المصاب بالخلل الدائم والغياب

يا غزالاً غزلتُه من جنوني
تاه فيكَ النهى وضلَّ الدليلُ
وجمالاً بكى لروعةٍ ما فيهِ
هـ فمن حسِنه يئنُّ الجميلُ

إنَّ الإنسان في حالة التفتح القصوى يخلق الجمال، ولا يمكن خلق الجمال بلا حال تُكوِّنه. والذي يسمِّيه شاعرنا جنوناً ليس إلاّ حالة الانتشاء القصوى التي أدت إلى التفتح ورسم الجمال. والجنون هنا هو الحال الذي أنتج الجمال وسوّاه. فلا جمال بلا حال، وسر وجود الحال هو الحدس الذي لا يمكن الإحاطة ببواعثه المؤدية إلى حضوره. إن سبباً «بوادي بغيضٍ» جرَّ المحبة بين جميل وبثينة!، فكيف نستطيع في هذه الحالة تحديد بواعث هذا الحدس الذي تحوّل إلى حبّ مدهش. والحال الذي يحول الحدس والدهشة إلى حب يصاحبه انفعال متوتر يترك آثاره بمقدار عمر الإصابة الناتجة عن الحدس، والذي لا يرى فيه هذا الانفعال لن يدرك الحال. دخلت بثينة على الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، فقال لها: والله إنني لا أرى فيك شيئاً مما قاله جميل، فقالت له: يا أمير المؤمنين، إنه كان ينظر إليّ بعينين لم تكونا في وجهك. والعيون في حقيقتها هي آلات تحريك الانفعال ورصده.

وإذا كان الجمال يلقي رائيه في التيه، ويلبس عليه مسالكة فذلك يعني الدخول في

الجمال يُبكي،» الجمال الذي عصم الجسد عن الخطيئة بقوة تأثيره في رائيه، ومن أسباب بواعث الجمال غربته، وندرته. وهذا متوفر بقوة في شعر محمد علي شمس الدين. وسبب غرابة الجمال أنها تنحو باستمرار لمخاطبة الحس والحدس أكثر من مخاطبة العقل، وهذا جعل نقاداً كباراً لا يفرّقون بين الشعر والوحي، إذ كلاهما حالة إشراقية تعتمد الحدس. يقول «كوليردج»: «إنه ليس هناك فرق بين الخيال الشعري والوحي الديني، عدا أن الأخير تاريخي ومتبدّل، أما الشعراء بقدر ما هم شعراء، ومهما كانت معتقداتهم ليسو عبید أي رأي طائفي». هذا الجمال الحدسي يشدُّ إليه شداً في شعر محمد علي شمس الدين، وهو الذي يقنعك أنكستجد في الخريف العمر جمالاً منقذاً من عدمية هذا الوجود. شاعرنا في ديوانه هذا لم يبرح شاعريته الملتزمة بوجع الإنسان، ووجع الجمال اللذيذ، إنَّ للجمال وجعاً لا يعرفه إلاّ المبدعون الكبار. وروح الجمال هي المحرّضة على صموده، ولو كان صانع هذا الجمال يتعذّب و«يدخل من قتام» في قتام.

وكما أبكى الجمال دوستوفسكي أبكى محمد علي شمس الدين، لأن حضور الجمل يسقي الروح خمره لا تقاوم، يقول شاعرنا في قصيدة «أنا منك الجوى» «كرسي على الزبد ص ٤٤:

الحال، وهذا الذي يجعل للجمال سلطةً لا تُقاوم، وقتها قد يكون البكاء وسيلة من وسائل سيطرة الجمال الذي يأسر، ويستعبد أسراه ليجعلهم خارج منطق العقل الواضح.

يحضر في المتنبي في القصيدة المذكورة، وفي مطلعها تحديداً، حيث يقول المتنبي:

ما لنا كلنا جو يا رسول
أنا أهوى وقلبك المتبول

ويقول محمد علي شمس الدين:

أنا منك الجوى وأنت النحول
كل صب بحبه مقتول

ولكن هذا الإيحاء المتنبيّ البواعث لا يُضعف مطع قصيدة محمد علي، وذلك لقدرته على تحويل ما يقرأ لذاته، وهذا معروف بين كبار الشعراء، فإذا كانت المعاني مطروحة في الطريق كما يقول الجاحظ، فإن عبقرية الصياغة والعواصف الداخلية هي التي تجعل المعاني خاصة رغم عموميتها. وأريد هنا أن أناقض الجاحظ، وأرى أنّ الإبداع الحدسي الناتج عن الانبهار لا يكون مطروحاً في الطريق، والشعر الحقيقي في رأيي يظل خلف المعنى. هذه الرؤية الحدسية تجعل محمد علي شمس الدين نائياً عن المتنبي.

شعر محمد علي شمس الدين المسكون

بالإيقاع الحدسي يجعلنا ننجذب إليه بحنو ولذة وامتعة في حدائق جمال شعره. ونحن نحس أن الجمال الساكن والمقيم في شعره هو السبب. وأذكر أنني سمعت أحد الحضور في ندوة حول شعر محمد علي شمس الدين يقول له: أنا لا أفهم شعرك جيداً ولكنني أحبه. وفي رأيي أن كلام هذا الرجل نابع من جمالية شعر محمد علي شمس الدين، وهو الجمال الحدسي الذي عصم المجذلية من العقاب. إن جمالية الفنون تظل أحياناً كثيرة عصية على التبيان، ومتمردة على مدارس النقد ومناهجه، لأنها تتعامل مع الجمال الحدسي الذي لا يترك لك مجالاً للإحاطة ببروقه. ولكن السؤال يبقى قائماً: لماذا يجذبنا الحزن، ونحن ندري أنه جسرٍ نعبر عليه إلى المكان الذي لا نريده.

وشاعرنا محمد علي شمس الدين يحب الحياة، ويخاف من الموت كباقي البشر بمجرد دخول الإنسان في رحم الحياة: /ويطفو على الماء شيء هو الخوف/ تأتيين من غابة نائية/ وتبنين في الأرض عشا ضئيلاً/ كرسي على الزبد ص7. والخوف هنا هو انحياز للحياة، وتعلق بها. هنا لا بد من الإقرار أن الماء هو الحياة، «وجعلنا من الماء كل شيء حي». كانت الطيور التي تُعبر تعني الحياة، ومع ذلك يأخذها الشاعر قسراً عن روحه

المتمردة إلى الخريف الذي يحبه الشاعر ويرى فيه الحياة بلا أقنعة: فقد أخبرتني الطيور التي لا تطير سوى في ظنوني / أن أيلول باقٍ / وأن الخريف الجميل الطويل العليل / دائمٌ / لا يزول // كرسى على الزبد ص ١٤٣. وأدرك أنه فعل الخريف الذي ألفه شاعرنا «طويلٌ جميل»، نعم لقد كان شاعرنا فوق كرسية القائم على الزبد يراقب حكمة الفصول بأسى، وكانت حكمة الخريف عارية كعري أشجاره، وكان شاعرنا محمد علي شمس الدين أحياناً يحاول أن يرحل عنه، ويفارقه، ولكن «موجع القلب باكياً». إن الوفاء من طبيعة الشعر الخالد. ونحن في رحلتنا لانرى من الخريف إلا عري أشجاره، ولكن في عمقه ما لا يدركه النظر المحكوم بالبصر لا بالبصيرة، وهذا ما رآه محمد علي شمس الدين في الخريف. إن قيمة الكنز ليست بالحصول عليه، وإنما بما ينبعث فيك من أفكار، وأنت تملكه في داخلك أولاً، وقبل تحوله إلى مادة زائلة.

لا بد من الابتعاد عن جغرافية الخارج إذا لم تكن جغرافية للداخل أولاً، يقول مولانا جلال الدين الرومي: «وإن أنت تعلمت صفير البلبل فأنتى لك أن تكون واقفاً على مراده». وأنت حين ترى مشهداً مؤثراً لا يكون هذا المشهد باعثاً للسرور أو الحزن، وإنما أنت تخلق المشهد خلقاً

ولادياً، وكأنه شيء جديد وأفد إلى الكون. فلو رأيت لوحة حزينة، فإن هذا لا يعني أنها أخذت درساً في الحزن، ولكن حزنها يكون نابغاً من حلول راسمها فيها، إن رؤية عري الخريف ليست حقيقته، لأن حقيقته تنبع من رمزته العميقة قبل كل شيء.

على الشاعر الجيد أن يقرأ ما يخطر في ضمير الخريف. فالخريف مكسو بما يعنيه، ولن يكون الخريف عرياً كما نراه. في «صرخة» شاعرنا شكوى من «وحشة الطريق»، وقد أدخلته هذه الوحشة في حزن عميق، ويقسو الحزن حين يكون محاصراً بواقع مؤلم، وقسوة الحزن تتحول إلى شعر دائماً: / وذلك الذي يطلبه الغريق حين يحتمي / بقشة المياه خائفاً / كأنها الإله / فلا يراه / «كرسى على الزبد ص ٢٨».

إن ذلك النزيف العميق الجميل المنبعث من من كرسى على الزبد، يغفر لتلك الطللية التي يراها شاعرنا في الوجود كله. ونزيف شاعرنا أغراني بالحلول فيه، جميل، ورائع أن يستطيع القتل مراقبة جرحه ليكتب بنزيفه وصاياه، ويصرخ في حضرة الموت ليقول لنا: إن الزمن شيخ لا انتهاء له، والموت مرحلة من مراحل المزدحمة بالحياة. إن الخوف الحقيقي ليس من الموت، وإنما الخوف الحقيقي يكون من الموت في الحياة. وكم هو جميل قول

الجواهري: «شُرُّ من الشرِّ خوفٌ منه أن يقعا». وقتها يكون الموت فكرة مزدحمة بالخوف، ويكون الجفاف آيته، ولكن محمد علي يدخل في الخريف، وهو حامل خضرة الربيع في شعره البديع. وسنرى هذا في شعره، ويكون هذا محاولة داخلية لإلغاء الخريف وجفافه بمعناه الجغرافي الحال في الأشياء بقسوة ووجع.

إن صياغة الحزن شعراً أخذاً تسمح لهذا الحزن الجميل بالمرور. أولم نُعجب دائماً بالحزن الذي ينبع من شعراء مبدعين، وهو يتحول جمالاً، كما في قول الشاعر بدوي الجبل لملهته:

هبيني حزنًا لم يمرَّ بمهجةٍ
فما كنتُ أرضى منك حزنًا مجربًا
فما الحزنُ إلا كالجمالِ أحبُّه
وأترقُّه ما كان أنأى وأصعبا

نعم، في النفوس الكبيرة يتحول الحزن إلى ترفٍ داخليٍّ، وأنا أتساءل هل كان شاعرنا يجد لذةً في أحزانه؟ والحزن هو الصحو الانفعالي في النفس الإنسانية، وهو قريب من الألم، وإن اختلفا في الوضع الفيزيولوجي أحياناً كثيرة. وتتألم النفوس الصافية وتحزن أكثر حين لا تستطيع أن تقبل في مكنونها الجواني الحضورَ المزدوج لذئبك اللذين لا يفترقان، وهما الخير والشر. النفوس الصافية تعبر عن حزنها لأنها لا تستطيع إلغاء هذه

الازدواجية الدائمة الحضور، وليست الفنون في حقيقتها إلا التعبير المزمّن عن هذا الاحتجاج.

وقد يكون الحزن في شعر محمد علي شمس الدين وغيره مرتبطاً بالأشياء الجميلة، فإذا كان الجمال يبكيه ويُشجيه فهذا يعني أنه يجد فيه لذة تقارب الاقتراب من عشيقة محترمة وصعبة المنال. وقتها يكون الحرمان حاملاً كثيراً من العبادة. ويكون الفجور تأنياً للذات بحضور صورة العشيقة المحترمة. ويظل الحرمان مادة الحزن، وإن كانت آثاره جميلة بالأمها.

— ٣ —

في ممالك محمد علي شمس الدين العالية يحضر المتنبي على الرغم من اختلاف حجارة البناء في ممالك كل منهما، كما يشير محمد علي شمس الدين، ورغم ذلك فإن المتنبي لا يبرح شاعرنا أبداً، متفقيّن، ومختلفيّن. إن هذا التشابك يضمّر وحدانية عالية. ويشارك الشاعر بممالك مبنيةً على الورود وبمنأى عن الأسل إلا بمقدار ما تستوجب سيرورة الحياة وصيرورتها. ورغم حضور المتنبي في وجدان شاعرنا إلا أنّ حضوره ليس حضوراً إلغائياً لمحمد علي شمس الدين، لأنهما يلتقيان في الممالك العالية، ولكنهما مختلفان في حجارة ومحتويات هذه

الممالك. ومع ذلكلا يستطيع محمد علي شمس الدين أن يتخلص من حضور المتنبي، ولكن دون أن يكونه، فلكلّ منهما فلكه الذي يجري فيه، ولأن الشعر من سكان الأفلاك فقدره أن يسير باستمرار، وللمبدعين مجرّاتهم، وكما يقول المتنبي في الشعر: «سارَ فهو الشمسُ والدنيا فلكٌ». فإذا كان الخريف موتاً فهو يضمّر الربيع عند الذين فصولهم تقتل الأرض اليباب، يمطرون، وبرقهم ليس حُلباً، يموتون ويقومون من موتهم، أولم يقل المتنبي لسيف دولته:

كم قد قُتِلتُ وكم قد متُّ عندكم
ثم انتفضتُ فزال القبر والكفن

وحين غرقتُ عيناى فيما هو نقيّ من كل زبد، كما قلتُ فيه قبل سنواتعدت لأراه يهرّب قصائده إلى آسية. ثم تأكدت لاحقاً أنّ الخريف لن يجفف أعماق شاعرنا، بل يعني أحياناً البداية، ويورخ للحياة في فعل الموت الذي يقدم عليه أصحاب القضايا الكبرى، كان حضور المتنبي مدمكاً روحياً في بناء ممالك محمد علي، وكان النظر في هذه المداميك المتراصة روحياً وصياغياً موقفاً تأملياً لانتقال الروح من يأسها إلى أن تنتفض، فإذا كنا نرى محمد علي شمس الدين في مسوح حزنه، فالمتنبي قبله قُتِل كثيرًا ومات كثيرًا، ثم انتفض «فزال القبر والكفن» كما رأينا،

وهذا من علامات الحلول الوجودي تمارسه الطبيعة فينا، وآية هذا الحلول هي الطوفان الذي يجرف الموت، ويجعله أول المقتولين في «الأرواح المتمرّدة» على الموت، ولنسمع هذا الإيحاء المنبثق من فكرة وجود المخلص الإنسان، الذي يجب أن يأتي لاغيًا كل ما يعترض نظافة الحياة، ويلغي الموت بحضور القيم التي لا يستطيع الموت أن يدنو منها، فالموت بالمعنى العدمي لا يوجد إلا في الذين لم تمسّ روح الحياة وجودهم بحبّ وجمال يلغيان عدمية الموت. يقول محمد علي شمس الدين في «كرسي على الزبد» مؤكّداً ولادة الحياة من رحم الموت حين نعرفها ملتحمة بقيمها الخالدة وعلى رأسها الفنون الخالدة، إنّ سور «أوروك» العظيم يقول لنا إن الأفعى التي سرقت عشبة الحياة من جلجامش لم تستطع أرغمها جلجامش على العودة لتجعل عشبة الحياة حجرًا في سور «أوروك» الجميل. لم يبقَ من أفعى جلجامش إلا إهابها على حافة البئر. يقول محمد علي شمس الدين، وهو ينفخ من روحه الحياة في شعره:

وسبعةً من دموع الفجر أنفُسُهُمْ
كالسبعة الطير تحيا وهي تُحتَضِرُ

ماتوا هناك على الأسلاك فانبعثوا
خلف البحيرة أحياءً كما أمروا

إن استحضار رقم «سبعة» له بعد إسلامي يرمز إلى اكتمال الخلق في ستة

وهالاً وضع الحكماء السبعة أسسها /
إبحث عن اللوح المحفوظ في صندوق
الألواح النحاسي / وافتح مغلاقه
المصنوع من البرونز / واكشف عن
فتحته السرية / تناول حجر اللازورد
واجهر بتلاوته / وستجد كم عانى
جلجامش من العناء والنصب». واضح أن
إله الفنون يربط بين الإبداع وبين المعاناة
والتعب. هنا أستطيع أن أخالف أدونيس في
فرضية أخرى، على الرغم من صحة ما قاله
أدونيس، وأقول: في الحنين إلى اللحد حنين
مضمّر إلى المهد». في هذا الموت الذي
يحكي لنا عنه محمد علي شمس الدين يقول
لنا: إن الموت من صنّاع الحياة، وموت
الطيور السبعة في الجنوب هو دليل عودة
الخضرة والنماء إلى تلك الأرض المملوءة
بالشهداء والفقراء. إن الموت مصنع الحياة.
والموت، كما يرى محمد علي شمس الدين،
يُمَارَس بأمر داخلي يعبّر عنه شاعرنا
بالفعل المبني للمجهول: «كما أمروا». وكذلك
الحياة تتكون من هذا الموت المأمور، وهي
وقتئذٍ تلغي الموت وتُرديه.

قلتُ: لقد مرّ على أرواح مبدعين كبارٍ ما
مرّ على شاعرنا نتيجة تكسّر المجازيف. إنّ
«أوليس» بطل ملحمة «الأوذيسة» لم يستقر
على كرسيّ من الزبد، وهو يجتاز ظلمات
«مملكة بلوتو»، بل ظلّ يجذّف حتى بلغ
«إيتاكا». كان الفناء ينتحي عن أصحاب

أيام مضافاً إليها اليوم السابع لتأمل جمال
الخلق الذي اتسم بالتأني لاكتمال جماله. إن
الاستواء على العرش في اليوم السابع دليل
على رضا الخالق عمّا خلق، وتأتي الطيور
السبعة في شعر «كرسي على الزبد» لتؤكد
أن الحياة تأخذ معناها الحقيقي بالموت،
فالمهد واللحد غناء واحتضار في رحلة
كونية بديعة. لقد تكسرت مجازيف كثيرة
في يد جلجامش، وهو يبحر في مياه الموت
العميقة للحصول على الخلود، ولكنه في
النهاية اقتنع أن خلوده تحقق في شيئين
سواءهما، وهو يتذكر بحسرة عشبة الحياة
في حلق الأفعى التي غاصت في البئر، ولم
تترك له على حافة بئر الحياة غير إهابها
الفاني، نعم تغلب على الموت في شيئين
هما الفن وحراسة الوطن، وربط كل واحد
منهما بالآخر، لقد بنى سور «أوروك»،
وكان مثلاً عالياً للفن الخالد، وجعل جمال
هذا السور حارساً لمدينته الغالية «أوروك».
وهذا ما نراه بدقة في شعر محمد علي
شمس الدين، فالطيور السبعة التي كانت
«تغني وهي تحتضّر» كانت تحرس الجنوب
الذي هو «أوروك» محمد علي شمس الدين.
كانت حياة الطيور المحتضّرة تشبه في
حضورها سور «أوروك» الجميل، والذي
جاء وصفه في ملحمة «جلجامش» كما ورد
في ترجمة طه باقر: «أعلّ فوق أسوار
أوروك / أفليس بناؤها بالأجرّ المفخور /

ومثيرةً قلقاً معدّباً، وإن كان السؤال أحياناً اشتياقاً كما يرى المتنبي: «وكثيرٌ من السؤال اشتياقٌ». هذا الاشتياق الذي ضجّ في كيان «ابن كندة» تأثراً بالذي انتهى من أزمنة «حلب» وسيف دولتها يعود لينزف قلقاً في عَجَزِ البيت: «وكثيرٌ من رَدِّه تعليلٌ». والتعليل الناتج عن غربة الروح محاولة انفصال النفس عن واقعها بخلق واقع في الروح والذهن، وأقتل ما يواجه هذا التعليل يقظةً الواقع بقساوته، وانزياح الشوق أمام دهماء الواقع. والقلق صديق موحش، ولا مفرّ منه للمسافرين الكبار في رحلة عجيبة تدور حول ذاتها، وتعود إلى النقطة التي انطلقت منها، كما يقول «إليوت»، وهي كذلك مقلقة وموجعة عند محمد علي شمس الدين: /وما زلتُ كالمغزل المستدير على خيطه / أحاول أن أمسك اللحظة الهاربة / وأحبسها... أين؟ / لا تنزلي / كرسى على الزبد ص ٩.

والأسئلة الموجعة تجعل شاعراً بمستوى المتنبي أن يُعلّق أسئلته، لأن الجواب القطعي مستحيل، ولأن الدنيا لم تُتَحَّ لأحد أن يجد تبريراً لتصرفاتها، لقد وقف المتنبي أمامها مصوراً ما يراه من الدنيا، ومعتزفاً بانسحابه من التعليل، يقول:

ألا لا أرى الأحداث مدحاً ولا ذمّاً
فما بطشها جهلاً ولا كفّها حلماً
والأسئلة توجع أكثر حين تعود إلى

القضايا الكبرى، حتى وهم مُلاحقون، ظلّوا ينفون فكرة الفناء إيماناً بعظمة الحياة، يقول بابلو نيرودا: /ماذا كان الإنسان؟/ كان يحيا ما هو غير قابل للفناء، ما هو خالد: /الحياة/ النشيد الكامل ص ٥٤. نعم ظلت مؤمناً أن الفناء لن ينتصر على الحياة، وأنّ الخريف لن يمرّ على شجر تلك العصفورة / الحياة. والحياة هي «الحبّة التي لا تموت» كما يقول أندريه جيد. ومن البديهي أن نفرق بين الموت والفناء، لأنّ الفناء هو العدمية. بينما الموت يظلّ نائياً عن فكرة الفناء. فالموت الذي اختارته الطيور السبعة عند محمد علي شمس الدين هو اختيار بطولي لمعنى الحياة.

— ٤ —

ومع ذلك يظلّ القلق موجوداً بحدّة في ديوان «كرسيّ على الزبد»، وهو قلقٌ موجع أحياناً كثيرة، ولكن الكلمة تظل تعاند لترسو كما يريد الشاعر على شاطئ قلمه، وهذا يعني أنه لا يزال منتظراً القصيدة التي يجب أن تأتي، والقصيدة تظل نائية، ولكنها تكون هي في النهاية جرعة لتسكين القلق، تماماً كما صرّح قيس بن الملوّح من قبل: «ولم أنشد الأشعار إلاّ تداوياً». هل هذا القلق ذو أثر تدميري؟، أم هو مرتبط بقساوة الأسئلة المجهولة الأجوبة، والتي تثيرها رحلة من «سئم تكاليف الحياة»، والأسئلة موجعة

البدء ونقطة الانطلاق، وبخاصة حين تكون مصحوبة بغيوم داخلية قاتمة وبلا مطر، أين منها غيوم أحلام الملك المخلوع: الأسئلة تؤذي وتعذب، لأنك كلما اقتربت بعقلك ابتعدت، وروحك تظل ترسل أسئلتها القلقة، وهي تدري كم هي الإجابة صعبة. كما يقول شاعر الطلاسم إيليا أبو ماضي: /إنّ في صدري يا بحرٌ لأسرارًا عجابا/ نزل السترٌ عليها، وأنا كنتُ الحجابا/ ولذا أزدادُ بعدًا كلّما ازددتُ اقترابا/ وأراني كلما أوشكتُ أدري لست أدري/. إننا نرى الولادة، ولكن المشيمة لا تستجيب للعلم مهما تدخّل قي رصدها وكشف فيزيائها، وهذا ما عانى منه شاعرنا محمد علي شمس الدين الذي يجرد من ذاته إنسانًا آخر ويطرح عليه أسئلته القلقة، يقول محمد علي شمس الدين: /.... فقل لي ما رأيتُ / وقل هنالك من رآك..... ورأيتُ فلاحين فوق الساحة البيضاء/ يجتمعون من فجر الخليفة للمساء ليسألوا/ عن سرّ ما حملته أرحامُ السنين / ص ١٥. عتمة الأجوبة هي سر استمرار الأسئلة القلقة. ولكن هذا القلق هو مادة أساسية من المواد التي يصنع منها الشعر. إنك لا تستطيع إلغاء جمالية هذا الشعر الهارب من شقوق ذات بدأت تحسّ جفاف الفصول. وتظل هذه الجمالية العميقة هي بطاقة الغفران لشاعر كرسي على الزبد

الذي حاول وما زال يبني ولو كان جالسًا على كرسي من الزبد. إنك في اليوم السابع، ولا بد من تأمل جمال المبدع في ما أبدع.

وفي قصيدة الرثاء يصبح قلبه خليجا للعواصف، والعواصف هنا ليست الجغرافية الخارجية مثيرتها، إنها عواصف التكوين القلق الباحث باستمرار عن الذي يوجد ولا يوجد، وعن «الذي يأتي ولا يأتي» كما يقول البياتي. وهذا قدر شاعرنا محمد علي شمس الدين حين يقول:

عصف الموج عصفه في بحاري

وضلوعي كأن قلبي خليجٌ

عند الشعراء الكبار تظل الضلوع خليجًا. وكذلك قلب شاعر «كرسيّ على الزبد»، لقد تحوّل «تنهيدة الغريق على البحر»، والتنهيدة أعلى درجات الشكوى أمام عجز المجازيف. وحين «يسقط الصوت»، و«يستبدّ النشيح» نستطيع تبيان الملامح الداخلية للشاعر، فحين يتحول الصوت بكاءً تكون اللغة عاجزة عن نبش الأحاسيس الدفينة في قعر الذات التي تعاني. إذن لا بد من الحدس الذي يلتمع في الكلمة لينقذها من قاموسيتها.

ولكن اللافت في هذه القصيدة هو استمرار هيمنة القلق الوجودي والمصيري على شاعرنا، والقلق هو ضريبة الوعي منذ كان الوعي، وأعلى درجات الوعي في رأيي

هو الوعي الحدسي الذي يشترك في إيقاظه العقل والقلب معاً. والقلق هو المظهر المعبر عن الصحو، والصحو يعذب بمقدار ما يتسع، فهو دائماً لا يرتوي، يشرب أعمارنا، ويقول هل من مزيد؟: وتغذي الأسئلة التي لاجواب لها عن فكرة الموت نزعة القلق، فالفيلسوف ورجل الدين والملحد والمؤمن وقفوا حائرين أمام اليقين، «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي». وأسئلة محمد علي شمس الدين عن الموت لا يقل عجزها عن أسئلة أحمد شوقي، وهو يخاطب مفتي الأزهر الشيخ محمد غبده ميئاً:

مفسر آي الله بالأمس بيننا
قم الآن فسّر بيننا آية الموت
ولا يملك شاعرنا على قارعة الموت إلا
الأسئلة، واستمرار الأسئلة هو استمرار لغز
الموت مغلقاً: / هل يرجع الموتى إذا أرف
السفر؟ / كرسي على الزبد ص ١٨.

والحبّ هو الذي يجعل الموت صعباً، لأن الموت فراق طويل، وعمر الأموات لا يقاس بأزمنتنا الترايبية المصنوعة من حمأ مسنون، الموت فراق، والحب غايته الالتصاق، والحب اتحاد الطبيعة ضد الموت، والموت افتراق، ولأن الموت يقتل الحب ويحييه تكون أسئلته صعبة، ويظل الجواب باسماً ذراعيه على باب وصيد الحياة. ويبقى السؤال محيراً: لماذا يقتل

الموت الحبّ، ولماذا يغذيه، ويؤجج ناره؟: / وأنا أريد الآن أن أبكي / وأسأل ما يقول التيه للعشق الذي يفنيه / هل يفنيه كي يحييه؟ / أم يحييه كي يفنيه؟. / كرسي على الزبد ص ٢٠. وما هي العلاقة بين العشق والتيه؟ وهل يفضي كلاهما إلى الآخر؟، ويرى شاعرنا محمد علي شمس الدين أن الحب يلغي التيه، لأن الحب هو الطريق إلى الرويا: / ما كذب الفؤاد بما رأى / كرسي على الزبد ص ٢٠، وحين يكون القلب هو العين، وهو الذي يرى يصبح الحب ملتصقاً بالنبوة، ومؤدياً إلى الله، وهذا ما أكده الراؤون الكبار، يقول بدوي الجبل: «كلاهما للخلود الحبّ والله / . وحين يكون الحب على هذه الدرجة من الحضور المضيء يكون الموت مسؤولاً عن اغتياله.

ولأننا لا نستطيع فهم غاية الموت يتشابه علينا معنى عناصر كينونته، ومعنى حتمية مجيئه، وهل هو فرح في بدايته، وحنن في نهايته؟ هذا إذا اعتبرنا الميلاد جزءاً من الموت، أولم يقل رهين المحبسين: أبكتُ تلکم الحمامة أم غنّـ

ت على فرع غصنها المياد
البكاء والغناء هما طرفا الميلاد والموت، ومثل رهين المحبسين يقف شاعرنا محمد علي شمس الدين حائراً: ورأيت فوق السنديان الأخضر العصفور / يضحك /

والحمام ينوح / فالتبس الكلام على
المغني / كرسي على الزبد ص ٢١. إن
الالتباس وحده هو الذي يبقى ماثلاً في
حضرة الموت على آلة حدياء..... / من أين
يبتدئ الغناء / من البكاء / أم السماء؟.
حقاً:

وشبيهه صوتُ النعيِّ إذا قُبِ

سَ بصوتِ البشيرِ في كلِّ نادٍ

وفي أكثر من لقاء بيننا كان شاعرنا
يؤكد لي مدى غوصه في وحدانية أبي
العلاء وعماه المضيء. كآبة وجودية
تجمعهما أمام طلسم الموت. ولكن قسوة
التركيب النفسي تكون صعبة لتجمع بين
المعري والمتنبي اللذين يفترقان في الشكل
ويتكاملان في محاولة فهم غائبة الموت
التي لم يرجع أحد من سفارها ليخبرنا:
«ماذا وراء سرابها اللمّاع». وعدم رجوع
مسافرٍ من موته هو مغلاق قلق الأسئلة
التي لا تفضي رغم الصهيل والترحال إلا
للسراب: / وأظللُّ أصهلاً في براري
الموت / لم أبرح / ولم يبرح صبيّاً / وأظللُّ
أنزع في الدم العالي عيوني / لتصيب
وجهك وهو يرحل في السراب / ... فامكثُ
هناك ولا تعدّ في الصوت / إن الصوت
محمولٌ على جملِ المحامل / في
صحارى / لم يعد فيها نبياً أو كتاب /
كرسي على الزبد ص ٢٣ / ٢٤. قلق
الأسئلة هنا متولدٌ من الوصول إلى السراب.

والوصول إلى السراب لا يعني الوصول.
هذا رغم سيرنا إليه على «جمل المحامل».
وحتى السراب الذي نسعى إليه هو عطشنا،
وهو «حلم الرمال الهاجعات على الظما»،
كما يقول عمر أبو ريشة. والسراب يظل
بعيداً، ولذلك يبقى هو مشتاقاً أيضاً،
ويتمنى أن يصبح ماءً، وقد أبدع بدوي
الجبل حين رثى السراب، لأنه مثلنا ظمآن،
وهو يعاني كالساعي إليه، وهو يستحق
الرثاء لغربته الدائمة، يقول بدوي الجبل
واصفاً ظمأ السراب:

يُرْوَرُ الماءَ للسقيا، ولهفته

حرى إلى منهلٍ يحنو فيسقيه

صرعاه لو عرفوا الأسرارَ ما جزعوا

مما يعانون بل مما يعانیه

والسراب كالموت لا يموت، إنه يبقى
موجوداً، ونحن في هذه الحياة دائماً نسعى
إلى السراب، ونسعى إلى الموت في آن.
والقلق يبدأ من أنّ الموت يبقى صبيّاً، رغم
قدمه، وقدمه يقول لنا باستمرار أنا الغد.
وتظل لهفة إدراك ما وراء الموت أهمّ ما
يشغل الحياة: / والأرض أجمل ما تكون
إذا تلفعت الضباب / ص ٢٦. والضباب هو
جزء من مقدمات الموت في الحياة. وبهذا
يصبح الموت والحياة تفسيراً لحقيقة
واحدة، لا يستطيع كلاهما أن يوجد بنفي
الآخر. تماماً كارتباط الخير والشر،
وكالموت والسراب. يقول:

إن حضور الموت هو الذي يجعل الحياة غايةً ومعنى، لأنها نقيض الأبدية، والأبدية لو تحققت لنا في أعمارنا الترايبية، لكان الموت أعلى أشواقنا وغاياتنا. فما معنى أبدية تلغي حركة التغيير الكبرى برتبة دورانها. لا بدّ من الموت لتوجد الحياة.

— ٥ —

محاولة حضور القديم حدثاً في نماذجه. «امرؤ القيس» أنموذجاً:

الجيد في حضور امرئ القيس في «كرسي على الزبد» أنّ هذا الحضور من صنّاع الجمال، وصنع الجمال من أسمى ما تمارسه الحياة فينا وبناء، فإذا كا صراع القبائل احترف قتل الجمال، فإن امرؤ القيس فعل النقيض: /بيديك رتبت الجمال المستريح على التلال/ ص ٣٥. وصنع الجمال عند امرئ القيس يبدأ من عبقرية جمال المرأة: /يسترّيح على عيون بناتها الحوراء/ ص ٣٥. وهنا يعترف محمد علي شمس الدين أنّ امرؤ القيس قد أخطأ حين راح يبحث عن ثأر أبيه مستنجداً بالروم: /فمضى يفتش في بلاد الروم عن وجه تناثر في الضباب/ ص ٣٦. نعم، هذا خطأ كبير وقع فيه امرؤ القيس، ولكن هل الجمال عند صاحب القضية تكون بالعودة إلى نحور اليعربيات: لا نأزجمل من نحور اليعربيات اللواتي كنت تسترق

الخطيلتري على طرف البحيرة / يغتسلن / ثيابهنّ فحينما اجتمعت هنالك تحت أعذاق النخيل نهوذهنّ المشربّة كالرماح، جلست تنظر من على شهواتك الحمراء ما لا ناله ملكٌ ولا حلمت به الغزوات أو صبّته أعصابُ القبائل في عروق شيوخها / ص ٣٧. هنا لا بد من الالتفات إلى قضية عالية يثيرها شاعرنا ضد امرئ القيس، رغم إعجابه بشعر «الملك الضليل»، وتبدو هذه القضية جريئة في مخاطبته امرؤ القيس: /ولأنت تعرف أنّ من ماتوا من الفقراء ما قرأوك، فانقف حنظلاً / ص ٣٨، إن أيّ شاعرٍ لا يقرؤه الفقراء هو متهمٌ في رأي محمد علي شمس الدين، وهذا موقف له دلالتة العميقة، فالشعر ليس ترفاً، وإنما يجب أن يقرأه الفقراء، والفقراء ليس لديهم وقت لقراءة الشعر إلا إذا كان هذا الشعر يقف معهم في خندق الدفاع عن خبزهم، والانتصار لما يعانونه من ضياع عرق جباههموسرقتة، إن قراءة الفقراء الشعر تعني أن الشعر قضية، وهذا الشعر يجب أن يوقظ الوعي الجمالي المتمرد في الفقراء، وقتها يصبح الشعر قنديلاً أحمر وجميلاً، وليس على الشعر أن يظلّ قنديلاً أخضر كما يراه نزار قباني. على الشعر أن يكون خارج الأقفاص باستمرار. إن الشعر السهل يعود القلب على الكسل.

ولإيقاظ قراء الشعر الفقراء يلجأ محمد علي شمس الدين إلى تناصٍّ موحٍ، وغامز من قناة امرئ القيس في قوله: / فانقف حنظلاً/، وقبله قال امرؤ القيس:

كأني غداة الحيّ يوم تحمّلوا
لدى سمرات الحي ناقف حنظل

إن امرأ القيس يبكي بغزارة، ويسيل دمه كمناقف الحنظل، ولكن، على ماذا، إنه يبكي على رحيل طعائن الذين كان يحبهم، أما ملك أبيه الضائع فمسألة أخرى، إذ لم يرجع ملكه الاستعانة بالغريب، ولذا فقد الحالين الخمر والأمر: / فأنت الآن لا في الخمر أو في الأمر / ص ٣٨. والتناص هنا أكثر من موجه رداً على امرئ القيس في أبيه: «ضيعني صغيراً، وحملني دمه كبيراً، لا صحو اليوم ولا سكر غداً، اليوم خمرٌ وغداً أمر».

إن عبثية امرئ القيس التي لاحقته إلى بلاد الروم لم تكن مجدبة شعرياً كليلاً المرخي سدوله كموج البحر. لعل المجدي في هذه الرحلة هي العودة إلى عالمه الجوّاني، لقد غلب الشاعر السياسي في امرئ القيس:

بكي صاحبي لمّا رأى الدربَ دونه
وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا
فقلتُ له لا تبك عينك إنما
نحاول ملكاً أو نموت فنعدرا

ويؤكد حقيقة إنسانية عميقة معاصرة لنا، وستبقى معاصرة جميع العصور، وهي أن لا حقيقة للإنسان إلا إذا لبس وطنه أينما حلّ وارتحل: /.. إن فاطم لم تزل تغويك / لا يؤويك إلا الدار «دارة جلجل» ص ٣٩. وقد أدرك امرؤ القيس ذلك، فدارة جلجل هنا هي الوطن المصنوع من الانتماء والذكريات والحب:

أجارتنا إن الخطوب تنوب
وإني مقيم ما أقام عسيب

وإذا كان لا بدّ من غاية للقصيد، فغاية ما يبغيه محمد علي شمس الدين هي أن الأوهام لا تصنع وجوداً للإنسان، ولا وجود خارج ما تبنيه الحياة بحقائقها الكبرى، وهذا ما يستشهد به للدلالة: «وهل عند رسم دارسٍ من معولٍ». نعم نقف على الأطلال لنقرأ ما يقوله الرحيل على مطايا الموت المتنقل من ظل إلى ظل.

— ٦ —

من جمالية الشعر في «كرسي على الزبد» أن المباشرة توجد في بعض قصائده، والعجيب أنها مباشرة لا تبرح أبداً بما تتركه فيك من هوى وأسى وجمال، والمباشرة في الشعر ليست مرضاً إذا عرف الشعر كيف ينقذها من مباشرتها بملئها بالقضايا الحميمة التي تحمل همّاً ذاتياً وهماً إنسانياً. المباشرة تكون حاضرة

واختفاء المناطق العميقة في النفس التي تنقل ما تضره ببساطة كحاجتها إلى الخبز والحرية والحلم، والحنين إلى طفولة القلب التي تكون بمباشرتها أعمق من أي فلسفة ومنطق. أوليس بكاء الطفل تعبيراً عن مخزونه الداخلي! إننا نرى البكاء، وهو اللغة المباشرة عن أعمق إحساس في أعماق هذا الطفل الباكي.

مثالنا على ما نذهب إليه قصيدة «حادث ١٥ أكتوبر ٢٠١٧ المهداة إلى حفيدة الشاعر «جيد». في هذه القصيدة يتكلم شاعرنا عن طفولته في طفولة حفيدته «جيد» بمباشرة مسكونة بعمقٍ أخاذ. إن تناول الأشياء البسيطة من جغرافية الطفولة وزمانها لم يبلغ عمق الدلالة رغم مباشرة التعبير، وهذه من أهم صفات الشعر الخالد، يقول شاعرنا في هذه القصيدة: /دعيني قليلاً لكي أجمع الذكريات/ وأرسم بيتاً على ضفة الهر/ بيتاً صغيراً بقفلٍ/ وقبعة من دخان/ وكانت تمرّ السنونو عليه/ وتتركه كلما جاء تشرين... /تتركه/ أم تراه الذي كان يتركنا بين وقتٍ/ وآخر كي نستعيد تشردنا في البلاد/ ونبحث عن قفله في الزمان/ غداً ستعود الطيور لأوكارها/ ولكنها الريحُ/ إذ تذرع الأرض/ أو ترتمي في البحار/..... هذه الريحُ يا طفلتي هل تعودُ بنا مرةً للديار/ كرسي على الزبد ص ١٣٨/١٣٩/١٤٠

بقوة بسبب حضور الآخر فيها حتى لكأن الآخر هو الذي يكتب. والشاعر يجب أن يكون أحياناً مؤرخاً لعصره بلجوئه إلى المباشرة. «والتأريخ يجب ألا يكون جوهراً، ولا نقاءً، ولا تثقيفاً، وتهذيباً، وإنما يجب أن يكون وعراً، معقراً، ماطرًا... يجب أن يتضمن البصمات البائسة للأيام التي تكرر، وأن يحمل ضيق الإنسان وزفراته...» بابلو نيرودا/ النشيد الكامل ص ٦/. وهذا يعني أن يرى الشاعر الواقع الذي يعيش فيه الناس، وهنا ترتفع قيمة الشعر بمقدار ما ينقذ المباشرة من التسطح. إن وجع الإنسان وأنيته والتقاط هذا الوجع والأنين شعرياً هو بيت الشعر الذي لا يمكن الخروج منه. وهذا يلغي شعراً، بناؤه متماسك وجميل، ولكنه لا ينزل إلى مأساة لإنسان ومعاناته. إن شعراً يصور لبنان جبلاً «هو بين الله والأرض كلام» هو شعر رائع الصياغة، ولكننا لا نسمع فيه أنين الذين يعانون في هذا الجبل المتصل بالسماء. أنا لا أتصور شعراً خالداً يخلو من الألم والمعاناة.

هناك فرق شاسع بين المباشرة والتسطح، فحوالد المقدس جاءت بأداء مباشر يحكي عن وضوح الإنسان في ميوله، وحنينه لإيضاح مكنونه، وهل مزامير دواود إلا التعبير العميق المباشر والناقل المكنون إلى المكشوف دون انعدام

ما علاقة مباشرة الرؤيا بالرؤية في هذه القصيدة، وما أثارها على اشتعال الوجدان أمام بساطة الطفولة ومباشرتها؟

١ - الشاعر هنا يعبث مع طفلة تنتمي إليه، وفي هذا العبث عودة إلى الطفولة التي تعبر بتلقائية ومباشرة عن حنين لإعادة ما أصبح طلاً، والطفولة في حقيقتها مباشرة بتعاملها مع ما كل يحيط بها، ومع كل ما يعيش فيها، والمباشرة هنا هي بساطة التعبير، ولكن عن أعمق ما يعتلج في الوجدان، إنها تدعك تستجلي العمق، كالنظر في ماء رائق يغريك بقرب قاعه، ولكن بحقيقة عمقه. المباشرة هنا على السطح، ولكن السطح متصل بأعماق البناء الداخلي.

٢ - خلق الطفولة ثانية تعني الخلاص من كل الأغطية التي تحجب النفس، وتجعلها خالية من الأصباغ والتمويه، وهذا يعني العري الكامل وهتك أستار الذات المحجبة، حتى لكأنك ترى الأحاسيس والمشاعر بعينك، ويكون هذا الوضوح تعبيراً عن المباشرة في التعامل مع أعمق الحقائق الإنسانية.

٣ - جغرافية الخارج ومساكن الداخل. وفي الجغرافية استعانة بالبصر للتعبير عن الحالة، فالشاعر هنا استطاع العودة إلى طفولته، وجغرافية هذه الطفولة تبني «بيتاً صغيراً بقفل»، البيت مكان، والقفل تعبير عن الملكية والحرص عليها، ولا قفل إلا على

مقتنيات ثمينة. والبصر هنا يتحول إلى فكرة، وتتحول الجغرافية إلى مشاعر. وهذا الانتقال من جغرافية الداخل إلى الجغرافية الخارجية هو المباشرة الحقيقية في نقل العمق إلى الرؤية، ولكن ببساطة. وللبيت مدخنة تشبه قبة، ولكن دخان القرى هو الذي يخرج منها، وتذكرنا هذه القبة الدخانية بقول الشاعر نفسه: «هو القلب أم حفنة من رماد القرى». ومخالطة القلب دخان القرى تحمل بئاً، وتحمل سفراً إلى ما وراء طفولة الشاعر المستعادة، ولكنه سفر فيه كآبة الغربة التي يرمز لها شاعرنا بالدخان، كل هذه الحياة المستعادة تعبر عنها جغرافية بيت طفولة كانت يوماً موجودة، ولكنها الآن طلل يعيد الشاعر له الحياة، وينقذه من غموض ماضيه بالجغرافية الشعرية الحميمة المسكوبة في هذه القصيدة الجميلة، والتي هي «صدى السنين الحاكي».

٤ - والطفولة هي أعمق تجليات المباشرة، إنها تتحول إلى حدث يحكي، وفيه يحكي المكان والزمان معاً. ويستحيل على أي نص إبداعي أن يكون حاضراً بمنأى عن حضور المكان والزمان، وفي هذا الحضور تزول الفواصل بين دلالات الحواس، فالعين تفكر، والسمع يستحضر ريح ذلك الزمن الموهل في رحيله، وهذا ما يسمعه محمد على شمس الدين على دروب

عمره النائبة: /ولكنها الريحُ إذ تذرع الأرض/ أو ترتمي في البحار/. ثم تساهم في عملية خلق الزمن المتحول طلالاً: /هذه الريح يا طفلي هل تعود بنا مرة للديار/ هنا الريح مطية، وقد امتطاهها قبلنا المتنبي «على قلقٍ»، وأدرك محمد علي شمس الدين ضرورة حضور صوت الريح بعد مضي زمن طويل طويل يثبت أن حاسة السمع تشترك مع الزمان والمكان لاستحضار الحال. والاستحضار هنا مؤلم ومحاط باستفهام محزن، وبنداءٍ يتضرع للطفولة أن تعود «يا طفلي»، والشاعر حين تفيض أحاسيسه، ويضيق بها مجرى الكلمات تستعين بحواسها لنقل الحدث الداخلي المتدفق، ومنذ القديم أدرك المتصوفون أن الحال لا يحاط ولا يُنقلُ بالكلمات، ومن هذا الإدراك كان قول النفري: «كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة». ولضيق العبارة كان لا بد من تهديم الجدر بين الحواس لنقل الحال، وهذه الاستعانة بالحواس للتعويض عن عجز الكلمة اشتهر بها الشاعر الفرنسي شارل بودلير في «أزهار الشر» للتعبير عن أزهار علته، وقد لجأ إليه في شعره لازدحام عوامل علته، ومنها قوله: «أيها التحولُ الروحاني، يا تحولُ حواسي كلها المنصهرة في حاسة واحدة»، إنه يستعمل كلمة «تحولُ» لتبيان اختلاط الحواس

المنصهرة في إناء واحد هو بودلير نفسه، ويوغل في جوانيته حين يسمع أحياناً خضراء كالمزمار، ولأن العالم الجواني لا يحدُّ يذهب بودلير بعيداً في نقل ما تراه عينه، ويحوله حياة، ولو كان جماداً، فيقول: «أحياناً نعثر على قارورة قديمة تتذكر، تنبثق منها عائدةً روحٌ حيّةً كلياً». وبسبب هذا التعاون بين الحواس تأتي الصورة المركبة مذهلة بقدرتها على الإثارة والانبعاث، وهذا لا ينتج إلا عن نفوس متألمة وموجوعة، وتكاد تكون غير طبيعية، وهذا الألم يكون مرتبطاً بحدة بفكرة الموت، والموت عجيب في حقيقته، لأنه غير مفهوم، ولأن الرعب منه ينشأ من عدم معرفة حقيقته، ولأنه يأتي على كل شيء، ولا نعلم عنه شيئاً، والألم في حقيقته هو جزء من هذا الموت.

إنَّ حركة التاريخ الفردي والجمعي بهذا المعنى تغدو رؤية مباشرة وعميقة، لأن وظيفتها كما أكد لنا بابلو نيرودا هي التعامل مع التاريخ البشري المرئي الذي «يجب أن يتضمن البصمات البائسة للأيام التي تكرر، وأن يحمل ضيق الإنسان وزفراته...» ويخطئ من يرى أن الرؤية القريبة لحركة الأشياء غير عميقة. وكيف تكون في حقيقتها غير عميقة، وهي تتعامل مع مشهد البؤس الإنساني، وما نراه في قصيدة محمد علي شمس الدين،

والذي ترى فيه مشهداً مبسّطاً، كوخاً قروياً
بناه أطفال قدامى وقفلاً عليه، ومدخنة تنفث
كل ما يحرقه الناس في مواقدهم وفي
دواخلهم. هذه القصيدة يصنعها المكان
والزمان. ودلالات الزمان لا تقل حضوراً
عن دلالات الجغرافية، يقول شاعرنا: /
وكانت تمرُّ السنونو عليه / وتتركه كلما
جاء تشرينٌ... تتركه / هجرة السنونو
نعرفها في القرى، حتى لكأنها صورة عن
رحيل كل شيء وعودته في آن.

الحوار مع الأشياء السحيقة في المكان
تحميه من الضياع، وتوقظ أسطوره
الموغلة في القدم والحضور. المكان هو
الذي سبق الحضارة وفعلها، وبه وحده
يمكن استرجاع الذات الضائعة. إن للمكان
قدرة على إنشاء الإنسان إنشاء متماسكاً،
ضياع المكان قتل، وحضوره انبعاث: «لأنَّ
من قتلَ الأيامَ يحييها» كرسى على الزبد
ص ١١٠. هنا تصبح الصوفية جلاء المكان
المفضي إلى الله، وقتها يصبح كلُّ خاصٍّ
عاماً. ويكون الشعر وقتها أبعد من كونه
متعةً عابرة، إنه حين يمتلك الجمال يكون
نافعاً، إته يتدخل في تصحيح ما اختلَّ من
مسيرة الزمن الداخلي في الإنسان. وليس
بعيداً عن هذا ربطُ القدماء بين الشعر
والوحي، فإذا كان الوحي يصحَّح ما ساء
فيينا بردع ما نسَّميه شرّاً، فإنَّ جمالية
الشعر تتدخل في فتح الداخل لاستقبال
الأعلى دائماً، فالموت بكلِّ ما فيه من سواد
يحاول الشعرُ أن يخلقَ منه حياة، وهذا
الخلقُ ولادة قبل كلِّ شيء، وتتدخل جماليّة
الشعر لتجعل الموت محرراً وسنبلاً،

العودة إلى التفصيل الجيولوجي للمكان
توضح تكوُّن الشاعر نفسه، والإنسان هو
جزء من التكوين الجغرافي للمكان، ولذا
يحمل كثيراً من أشياء مكانه الأول حيث
نأى. وبكارة الأرض الأولى هي الصانع
الأمهر للشاعر، يوم كانت الأشياء كلها بلا
أسماء. وأصوات جغرافية المكان تتداخل
في أصوات الشاعر، عصف الرياح، زقزقة
العصافير، صليل حصي الجداول، تشكلات
الغيوم، والأصوات الساكنة في الشاعر منذ
طفولته، ومن أبرزها أصوات الزمن الحزين:
«تاركاً خلفي مواويلَ سَكِينَة»، المكان
يمشي فيه ومعه، وهذا الذي كانت توصيه
به أمه، حتى، وهو في حضرة الإياب إلى
الغاية التي قصف منها. لأن المكان يرفض
الهجرة حتى وهو يهاجر. وقتها تصبح
فطرةً مقاومةً الاحتلال، لأن الاحتلال
محاولة لتشويه المكان.. وقد يتغير المكان

من الانهيار رغم خطورته. إنه يظل متصلاً بشيء يأتي. ورغم القلق المشوب بالحزن لم يكن قلبه عارياً من دثار ماضيه الذي نسجته هضبات الجنوب وغيومه التي جعلته يوماً يرى فجراً فوق تلك الهضاب حاملاً أصوات شهداء عجز الموت من إسكات أصواتهم. وحين تمتطي النفوس الكبيرة القلقة عواصفه يكون صداها أبعد. كما يقول المتنبي:

على قلقٍ كأنَّ الريحَ تحتي
أصرفها جنوباً أو شمالاً

القلق هنا يحمل سوطاً فيه شرر يزجي الرغاب بقوة، ويبقى منه صدى يليق بأصوات تلك المطايا المصنوعة من الريح. ويظلُّ القلق عاصفاً في النفوس الكبيرة التي تطلب من زمنها أن يحقق لها «ما ليس يبلغه من نفسه الزمن». أما قلق محمد علي شمس الدين فيثير فيك ما يحزنك، ولكن بجمالية عالية أخاذاً. والحزن هنا معلم نبيل، يشجيك لدرجة تتمنى معه أن لا يخرج منك هذا الشجن. إنه يعترف بأن قلقه أفقده استقراره، وأصعب ما يبحث عنه الإنسان هو أن يكون ما يبحث عنه موجوداً في الطلول. وقتها يغدو الشاعر الباحث نفسه طلاً، ورغم هذا الحزن القليل تهب روح المتنبي في أطلال محمد علي شمس الدين فيستعيد عصفاً جامحاً في صورة شعرية مذهلة بإيحاءاتها المغرية، وهبوب

وقنديلاً لا ينضب زيتته في ليالي قرى المكان، والذي هو جنوب باستمرار في شعر محمد علي شمس الدين: /وربما رأيتُ غيمةً شديدة السواد / تدخل الطيور تحت ظلّها وتختفي / يا سادتي / نعيش كي يزدهر التراب / كرسي على الزبد ص ١٥٨. الموت هنا ليس اختفاءً، وإنما هو ظهور، إنه يضمم الخصب الذي يهب لنا الحياة. نعم الشعر الجميل كالمؤسسة التي يُقدّم فيها الشعر النفع للناس. والمنفعة التي تُجنى من الشعر تأخذ ثمن نفعيتها من الشاعر أولاً، إنه يقدم النفع ويدفع ثمن تقديمه. والذي يقرأ شعرنا القديم يدرك كم تدخّل الشعر في صنع الأشياء الجميلة.

— ٧ —

محمد علي شمس الدين في ديوانه «كرسي على الزبد» لم يكن محمياً من القلق الذي أجلسه على كرسي من الزبد، فالقلق ينبع من الأسئلة التي لا يجد العمر جواباً عليها، وينبع من الخوف على ما ظل في النفس من رغابٍ وأمنيات، وينبع من طول الطريق التي لا تفضي إلى المكان المنشود، وبمقدار ما يتسع القلق يكون حاملاً همماً وحزناً. وفي النفوس الكبيرة يخلق رغبة جامحة في امتطاء العواصف، مهما كلف امتطاؤها «وأنتى شئت يا طريقي فكوني» كما اختار المتنبي لنفسه. وهذا الخيار ينقذ

روح المتنبي لا يعني أنه يستنسخه، وإنما يحرضه فينقذ بعيداً في شهوة المغامرة، حتى ولو قلقة قاسية. يقول في قصيدة «أنا منك الجوى» ص ٤٥ /

وقطعنا مفاوز البید حنی
ترکتنا مثل الطلول الطلول
تثب الريح كالحصان على الرمـ
ل اشتياقاً ويصدح المجهول

إنه هنا ليس أمام غيوم ملكه المخلوع، وإنما هو في حضرة لوحة ترسم عاصفة، والريح فيها تحرث الرمل وتجتاحه كالحصان الجامح، وفي سهيله شوق متحفزٌ لاجتياز الطلول، ولا يزال شيء من بعيد يناديه، ولو مجهولاً، ولكن سماع الصداح لا يبقي المجهول مجهولاً. لا بد من الاستمرار، ولو كان القلق حصان هذه الرحلة الصعبة.

الحركة من أوسع مكونات هذا الديوان: «كرسي على الزيد»، والحركة مرتبطة بسرعة العمر واقتراب الخريف، وفي الحركة هذه ما شئت من لآلى البحر وفتنة الطريق، يقول شاعرنا في قصيدة «يا بحرٌ أقبل فقد صغر البر» ص ٥٢: / وأمضيتُ هذا الزمان أرتب فوق التراب قليلاً / من الصدف المرّ والأرجوان / لأبحر في مركبي / حاملاً بعض ما أورثتني الحديقة من ذهب الأرض / أو من حرير الدوالي / ألا أيها البحر مهلاً / ولا

شيء يطفو على الغمر إلا الدخان / .
الحركة لا تهدأ أبداً في شعر محمد علي شمس الدين من بواكيره حتى شجر خريفه، وهو متشخّ فيها جميعاً بالشعر، ومتمرد في معظمه. إلا أنه هنا يقول في دخيلة نفسه: لم يبق إلا الاعتراف، فرحلة عمر مثقل بهدايا الشعر كان شاعرنا يورّعها على كل من يلاقيه على الشاطئ. أما الآن فلا شيء يطفو على الغمر غير الدخان. ولكنه يبقى دخان القرى المرتبط بطفولة الشاعر. ويبقى رثاء جميلاً وأخاداً لطللية ما نسميه حياة.

* * *

مرثاة الحياة في شعر محمد علي شمس الدين هي غوصٌ في أقاليمها بحثاً عن حكمتها، وصعبٌ أن لا يرى جلجامش على حافة البئر إلا إهاب الأفعى. لا بد من شيء آخر يقهر الموت والأفعى التي سرقت منه عشبة الحياة. راح محمد علي شمس الدين يغوص أكثر ليدرك ماذا في قاع هذا البئر، وماذ يعني الموت؟ هذا لا يعنيه رغم أنه يكتب مرثاة الحياة، إنه مصر على الغوص لاكتشاف ما لا يرى على حافة البئر، وما دامت الغاية هي الغوص للاستجلاء فلتكن الطرق ما تشاء، وليكن السُّلم مرمراً أو حصى لا فرق. المهم ألا تقنع بما بزبد يذهب جُفاءً: نزلتُ إلى القاع / كي نلتقي / فيا سُلماً كان من مرمراً أو حصى / شدني

إلى حيث تسبُحُ رُوحِي / كرسِي علي
الزبد ص ٤٠ / ٤١.

محمد علي شمس الدين مدرِّكٌ صعوبَة
الغوص، ولكن الأمر ليس بيديه، كما اعترف
في يومٍ أحده، وهو صامت. في الغوص
مكابدة، ولكن الذي يزجيه باتجاه الغوص
هو قلق الطريق، ووحشة الأسئلة المدلّهمة
التي لا يهدأ توثبها ودورانها. ولكن شاعرنا
يعترف بما سيحدث في غوصه، وأجمل ما
فيه أن حزنه يضمّر سرًّا، وأن سيره لن
يهدأ، والسرُّ لن يُكشَف. أصعب ما في
رحلتك هو معرفتك بمخاطرها. يقول معترفًا
بوجع النهايات: وعن قليل تنتهي حروفُ
هذه القصيدة / ومن زوايا القاعة الخرساء
يصعد العويل / سألتُ كلَّ نائحٍ عن حزنِهِ /
فلم يُجِبْ / وكانت الصفوفُ تنحني /
وتحتمي من الهبوب كالسنابل الهزيلة /
كأنما القطارُ حين مرَّ / شقَّ صقنا نصفين /
وأسدل الستارة / كرسِي علي الزبد
ص ٣٢ / ٣٣.

* * *

القسم الثاني

بين «الأرض الخرب» ت س إليوت
وبين كرسِي علي الزبد: محمد علي
شمس الدين.

كنت دائماً مأخوذاً بقصيدة «الأرض
الخرب» للشاعر الأمريكي ت س إليوت،

وقد شغفتني حباً منذ مرحلة الستينيات،
وذلك بعد قراءة قصيدة «أنشودة المطر»
للشاعر العراقي الخالد «بدر شاكر السياب».
قرأت قصيدة إليوت مترجمة، وكان يحدثنا
عنها أستاذ مادة الفلسفة في «التجهيز
الأولى» في دمشق الأستاذ الأديب «صدقي
إسماعيل» المعروف بعمقه ودرايته الوافية
بالآداب الغربية، وحين سألته عن سبب
خلود هذه القصيدة أدرك أن طالباً بعمرِي لا
يستطيع الدخول إلى عالم ومغاليق قصيدة
بهذا المستوى، ولكنه قال لي كلاماً وعيته
في مراحل عمري التي تلت المرحلة
الدراسية. قال لي يومها الأستاذ صدقي
إسماعيل: قبل كل شيء عليك أن تعي
المرحلة التاريخية التي كتبت بها هذه
القصيدة، وظلت هذه الجملة في ذهني،
وفهمت دلالتها عندما عرفت فيما بعد أن
الشاعر ت س إليوت كتب قصيدته سنة
١٩٢٢، وعرفت أنها كتبت بعد مآسي
الحرب العالمية الأولى، وما تركت في
الإنسان من دمار داخلي وخارجي. لقد
كانت قصيدة إليوت تعبيراً عن قلق جيل
مضطرب، وكان هذا الاضطراب بحاجة إلى
شاعر بهذا المستوى، يصف هذه الانهيارات
الكبرى التي حدثت في إنسان القرن التاسع
عشر، وكان لا بد من تصوير هذا القلق
لمعرفة كيفية تجاوزه بالسلم والسلام،
وطمر معالم ماتركته الحرب العالمية الأولى

من دمارٍ إنساني وحضاري، واسترداد العافية الداخلية للإنسان قبل كل شيء.

والذي يقرأ قصيدة «الأرض الخراب» باستيعاب فكري وروحي، رغم كل المغاليق التي فيها، يرى أن هذه القصيدة هي مرثاة لحضارةٍ فقدت وجدانها بمادية سلاحها المجرّد من كل حسّ إنسانيّ، ولذا تبدو شخصياتُ القصيدة معطوبةً ومأزومة، لأنها مولودة من رحم حرب طحنت البشر برحائها كما تطحن حبوبُ الحنطة، حتى غنائية القصيدة كانت مرثاة لزمانٍ أو لآلهٍ غربيّ مات، وبعدها أعلن الغرب بمجمله موت الله، ويبدو في نتاج الفكر الغربي أن ضراوة الحرب العالمية الأولى كانت من الأسباب التي أدّت إلى موت الله.

وحين قرأت ديوان «كرسيّ على الزبد» لمحمد علي شمس الدين تذكرت مقولة أستاذي صدقي إسماعيل في «الأرض الخراب»، وتذكرت السياب وأنشودة مطره، وتذكرت الزمن الذي كتب فيه السياب «أنشودة المطر» يوم كانت غلال العراق تُسرق: / وفي العراق جوع / وينثر الغلال فيه موسم الحصاد / لتشبع الغربان والجراد /، وذكرت المرحلة التي كان فيها محمد علي شمس الدين يكتب فيها «فتى الرمان»، وقصائد مقاومة الاحتلال الصهيوني. إذن، فالقصائد الثلاث كتبت بعد حرب عالمية مدمرة، وجوع عراقي قارس،

وحرب في لبنان ضد العدو الصهيوني، وكان ديوان «كرسي على الزبد» آخر تجلياتها في شعر محمد علي شمس الدين، ولو نظرنا إلى النتاجين اللذين كتبا بعد حروب قاسية لعرفنا نقاط الاختلاف والالتقاء بين «الأرض الخراب» و«كرسيّ على الزبد»، فهما يلتقيان بسوداوية العنوان، ثم يختلفان فيما بعد في مناحٍ كثيرة. إن إليوت ظلّ مستمرّاً في سوداويته العميقة والمعبرة عن حضارة مادية قتلت الإنسان في الإنسان، وأعلنت موت الله لشدة تأخره في المجيء لمشاهدة الدمار القاسي الذي أنتجته الحرب العالمية الأولى، أما الحروب التي كُتِبَ بعدها «كرسي على الزبد» فقد دلت أيضاً على سوداوية في العنوان، سرعان ما تلاشت هذه السوداوية بعد معرفة غايات الحرب التي كان «كرسي على الزبد» من مواليدها. إن حرب المقاومة في لبنان ضد الاحتلال الصهيوني كانت تبني الروح وتعيدها إلى الحياة بسبب قداسة هذه الحرب، وهذا واضح في أكثر من مكان، ومن الأمثلة القصيدة الجميلة «غاب الذي غاب» الشديدة النبض والإيقاع، وشدة سموّ موتاتها إلى أعلى مافي الحياة. إنك لتستيقظ من كآبة كانت تتركها الحروب في النفوس، لتدخل في موت تشتهيه الحياة نفسها، لشدة حضور هذا الموت في معنى الحياة:

ماتوا هناك على الأسلاك فانبعثوا
خلف البحيرة أحياءً كما أمروا

إن بواعث الحرب والقتل والموت مختلفة
بين حربَيِّ الشعارين، وكلاهما صادق فيما
رأى وكتب، وليس من الضرورة أن يلتقيا،
وربما ختلاف النتائج مرتبط بقسوة حرب
وبشاعة حرب أخرى. هناك حرب يكون
الانتصار فيها هزيمة، ورب هزيمة تغري
بالانحياز إليها أكثر من النصر، وجميل قول
بدوي الجبل:

وإذا النصرُ كان عارًا فأرضي
للمروءات أنك المخذولُ
لقطاف الوغى شمائلُ كالناسِ
فنصرٌ وغدٌ ونصرٌ نبيلُ

وحاولت إيقاظ كوامن تجربتي الحياتية
المغلقة بخراب العالم الخارجي ومببته في
ذاتي الموجوعة والمجوعة، وحاولت أن
أرصد ما طفا على سواحل عقلي وروحي
من تأثير نتاج «الأرض الخراب» و«كرسي
على الزبد»، وهذا أنتج هذه المحاولة
الكتابية. وأنا هنا سأرصد ما طفا على
روحي وقلمي من المتشابه بين هؤلاء
الشعراء والمختلف في أن. وأريد أن أؤكد
سلفاً أنني لن أدخل في مغاليق قصيدة
«الأرض الخراب» إلا بالآثار السيئة التي
خلفتها الحرب في وجدان قائلها.

وهنا أريد أن أشير إلى مقولة مهمة، هي

لشاعر «الأرض الخراب» إليوت، وهي أن
مهمة الشعر هي «التوصيل قبل الفهم». إنَّ
الذي شدني إليه في هذه المقولة هو حصيلة
اشتراكها بين الشعارين «إليوت» ومحمد
علي شمس الدين، وبخاصة في النتاجين
المذكورين. وأنا أرى أن التوصيل في
الشعر يجب أن يكون مقدماً على الفهم، لكي
يظل الشعر شعراً، لأنَّ وظيفة الشعر هي
خلق الاستجابة في وجدان المتلقي قبل
إيضاح المقصود، وهذا ما جعل الشعر
يتجاوز الدلالات القاموسية للكلمات، ويلجأ
إلى الرمز والأسطورة والصورة والمجاز،
ولعل الشعر الصوفي كان في نماذجه
الجيدة من أعلى نماذج التوصيل قبل الفهم.
حيث اعتمد الحدس والإشارة والرؤيا
لإيصال ما يريد. وأريد أن أؤكد أيضاً كما
أرى أن شدة هول الحروب هي التي تُلجئ
النفس الشاعرة إلى حالة التوصيل قبل
الفهم، إنَّ للأحداث القاسية وقعا في النفوس
يسبق منطق العقل والفهم، الفهم مرحلة
لاحقة، والتوصيل يعتمد على الحاسة
والحدس والدهشة، وهذه هي أقانيم الشعر
الأولى. وهذا يعني أيضاً استعمال اللغة
الحدسية التي تكون وميضاً في الذات
الشاعرة قبل مرحلة الوصول إلى اللغة التي
يُكتَبُ بها الشعر. فالوميض الداخلي هو لغة
تسبق اللغة. إن الشعر الحقيقي يقوم على
مخاطبة الإحساس بلغة الحدس والإيماء

والحال قبل شرح الفكرة المتوخاة من القصيدة. إن محاولة شرح المقصود شعرياً هي حالة نثرية في النهاية، وهي من مقاتل الشعر. ولكن هذا لا يعني أبداً أن يكون الشعر طلاسمة مغلقة، وساكنة في مناطق الوهم التي لا علاقة لها بالحدس والحال والدهشة. لا بد للشعر من غاية تقوم على الإيصال والفهم، ولكن على الشعر أن يظل شعراً، وهذا هو المقصود بالتوصيل، لأن التوصيل هو خلق الحال الذي يهب للمعنى حضوراً أكثر دفئاً وأكثر تأثيراً ومدىً أبعد.

إلى الآن لا يزال النقاد الغربيون وغيرهم يقرأون قصيدة «الأرض الخراب» لإليوت قراءات جديدة ومتنوعة تعتمد على التأويل والارتباط بالحدثة والحدث، وهي تستحق ذلك، لأن الشعر الذي يعالج قضايا إنسانية كبرى كالحروب وما تنتجها من دمار إنساني وحضاري يبقى ممتلئاً بما يثير كوامن الإنسان ويدعوه إلى الالتصاق بالحدث الكبير مهما تخطاه الزمن. إن إعلان موت الله في الوجدان الغربي هو تعبير مأساوي عميق على إساءة الأحداث لإنسانية الإنسان وتدميرها، وكأنهم يقولون: أين الله؟ وأين عدالته أمام هذا الظلم الكوني العجيب، ماذا يعني أن يقتل ملايين البشر بالأسلحة الذرية، وماذا يعني استمرار استغلال الإنسان لأخيه الإنسان. إن زمن كتابة قصيدة «الأرض الخراب» كان

زمن قتل أكثر من عشرين مليون إنسان. هذا الواقع المفجع أنتج إنساناً مأزوماً وغير سوي، فكيف تدعوه لقبول القدر وغيبياته، وهو غائص في الدمار والمرض والرعب. يقول إليوت في «الأرض الخراب»:

/هناك رأيت واحداً أعرفه، استوقفته، صارخاً: «ستانسن»!/ «يامنكنت معي بخاراً في ميلاي!» تلك الجثة التي غرستها السنة الماضية في حديقتك، «هل بدأت تنبت؟ هل ستورق هذه السنة؟ أم أن الصقيع المفاجئ أقض مضجعها؟» أوه! دع الكلب بعيداً من هنا، إنه صديق للناس، وإلا نبشها بأظفاره مرة أخرى./

العقم هنا حالٌ في الطبيعة ومهيمن بعقمه عليه. والسؤال هنا يحمل قلق الرؤيا التي تحملها «الأرض الخراب». إن استعمال كلمة «الجثة» في هذا المقطع يدل على العقم، فالجثة تعني خلو الجسد من الروح. والطقس المحيط بالجثة صقيع، وهي وإن غُرست لن تنبت، إنها رمز للملك العاقر الذي يحكم الأرض الخراب. إن محاولات الإخصاب يقابلها إليوت بالتأوه، والكلب هنا غادر لأنه صديق للناس، ومُتَّخَلٌّ عن وفائه الفطري بسبب صحبة الناس. إنه مستعد لنبش الجثة وإعادة تمزيقها، كما فعلت الحرب العالمية الأولى بإنسانها. وبرمزية صعبة الترابط ولكنها دالة على مخلوقات

الحرب المشوّهة، فالشتاء الذي هو اختزان الطبيعة الماء والحياة لا ينبت من مائه سوى التشوه يغذي الطبيعة بدرنات يابسة، يقول إليوت في «الأرض الخراب»:

الشتاء دفأنا، يُغطيا الأرض بثلج نساء، يغذحياة ضئيلة بدرنات يابسة

واضح هنا أن الطبيعة تعطي، ولكن مخلوقاتنا مشوّهة بسبب عقم الحضارة وإفلاس حاملي ألويتها، والحروب المدمرة هي من أبرز أدلة دليل عقم الحضارة وخوائها. والموت هو حصاد الحروب، ويجب معرفة ما تقوله الحروب البشعة، إنها تقول إن الذين تبقّهم أحياء بخطأ منها، هم في حقيقتهم أموات. هناك جسر من الشر تبنيه الحروب ليعبر الموتى عليه، لقد كان إليوت يدرك حضور الموت فيمن أبقّتهم الحروب أحياء، يقول إليوت معبراً عن حركة الموت في الأحياء الذين أخذت الحروب أعز ما لديهم: /تحت الضباب الاسمر من فجر شتائي، انساب جمهور على (جسر لندن)، غفير، ماكنت أحسب أن الموت قد طوى مثل هذا الجمع. /

ولكن الشاعر لا يستطيع العبور على جسر الموتى دون رثاء الأحياء، وأصعب الرثاء هو أن ترثي الأحياء. والأحياء الذين يرثيهم إليوت مشوّهون، وتشوّههم يعكس حالهم التي وصلوا إليها بعد الخراب

الداخلي والخارجي في الإنسان والطبيعة، ولنتأمل الصورة المقفّرة من كل ما هو جميل في مجتمعات ما بعد الحرب العالمية الأولى، وفي المقطع الذي سنذكره تبدو عبقرية إليوت بأروع تجلياتها، وهو يصور قبح ما نتج عن الحرب، إذ لم يبق في الوجود سوى المناقض لجمال الحياة والمرتبب ببقايا الموت والجرذان القبيحة الملوّثة، فالأصوات التي ظلت بعد الحرب هي أصوات قرقة العظام، والقهقهات التي تسخر من الحياة، وهي تراقب انسلال الجرذان الملوّثة بالوحول والقبح وسوء المنظر. يقول إليوت:

ولكن ورائي في عصفه باردة أسمع / قرقة العظام، وقهقهة تنداح من أذن لأذن. / انسل جرذ رويداً خلال العشب / يجر جر بطنه الموحد على الضفة / بينما كنت أصطاد في القناة الكئيبة /

إن جريان التاييمز في قصيدة «الأرض الخراب» رمز لاستمرار الحياة في جريانها، ومحاولة رومانسية لسكب عاطفة على الأرض الخراب. ثم إن استعمال صيغة المخاطب مع النهر فيها حنين للانبعاث، ولكن الحزن واليأس هما الحاضران دائماً في هذه القصيدة الخالدة والتي تكثف قرناً كاملاً في قصيدة، ورغم التشاؤم الطاغوي على القصيدة يسيل منها حزن نبيل يليق بهذا الشاعر الكبير، حيث يقول:

انصرفوا، ولم يتركوا عناوينهم...
عند مياه (ليمان) جلستُ وبكيتُ

أيها (التايمز الحبيب، إجر الهويني
حتى أتم أعينتي،

أيها (التايمز) الحبيب، إجر الهويني،
لأني لا أرفع صوتي عاليًا ولا

..... طويلًا

قبل أن أنهي وقفتي الخاصة مع قصيدة
إليوت العظيمة، والتيلم أتعرض فيها إلا لما
تنتجته الحروب من دمار وفراغ روحي، أريد
أن أؤكد على عظمة قصيدة إليوت، وعلى
مكانتها الحدائية في الشعر العالمي، وعلى
جرأتها في اقتحام مناطق قصية ومجهولة
في غابات الشعور الداخلية، ومن هذا
المنحى فإنَّ الحداثة بمعناها الإبداعي قد لا
تتوافق مع الأصالة التي نَسِم بها الأعمال
الجيدة، لأنَّ الأصالة فيها شيء من التقليد
والإتباعية، أمَّا الحداثة فعليها دائماً أن تتسم
بالتنمرّد وعدم اللجوء إلى أصالة سابقة مهما
علتُ.

وأؤكد أيضاً على أن مأزومية أبطال
الأرض الخراب، وسوداوية مزاجها لا تقلل
من قيمتها وحضورها الإبداعي، وأنا أعتقد
أن «الأرض الخراب» و«كرسيّ على الزبد»
يُشبهان فلقنّي التفاحة، في إكمال وظيفة
الشعر التي نريد من الشعر خلقها وإبرازها،
وإن تناقضنا في النظرة إلى آثار الحرب في

مجتمعين كانت لحربيهما بواعث مختلفة.
فإذا كانت «الأرض الخراب» تعبر بعمق عن
مخلوقات الحروب المشوّهة، وفي هذا
التصوير المؤلم غاية نبيلة وعالية الدلالة،
ومرتبطة بالانتصار للسلام في هذا
التصوير، فإن ديوان «كرسيّ على الزبد»
يحمل فرح الانبعاث عبر الموت، عندما
يكون الموت مرتبطاً بالحياة، ومطلوباً من
أجل سموها. وهذا يفسّر لنا علاقة البطل
الإيجابي المطلوب خلقه في أي عمل إبداعي
بالبطل السلبي الذي يتكامل بوجودهما
تكامل الخلق الإبداعي القائم على ثنائية
كينونة هذا الوجود. ليس هناك موقف
موحّد تجاه الموت، فهناك موت إيجابي
وموت سلبي، وأعتقد أن رأيي صار واضحاً
في اعتبار الموت الذي مارسه الحرب
العالمية الأولى موتاً سلبياً، لأنها كانت
حرب السياسة والتجارة والاستعمار، ولم
يمارسها الجندي في الحرب يومها عن
قناعة، لقد كان يقاتل مكرهاً ومجبوراً من
أجل غيره. ولكن تصوير هذا الموت السلبي
في قصيدة «الأرض الخراب» لم يكن سلبياً،
لأن هذا الموت السلبي ترك أثراً مغذياً في
تبيان مآسي الحروب للشعوب لتثور على
هذا النوع من الموت السلبي، أما الموت
الإيجابي فقد كان من أجل حماية أرض
ومعتقد ووجود، فهناك موتٌ يبعث
قشعريرة مقدسة، كموت الثائر «تشي

إبراهيم طفلها اليتيم والوحيد/ وأطبقت
أجفانها عليه ثم غابت/ كما يغوص بجع
في الماء/ ونحن إخوة/ كإخوة الكساء
خمساً/ لكن إبراهيم وحده/ كأنما أعاره
الشقاء للشتاء/ فشمسه تغيب تحت
غيمتين من دخان/ وغالبًا ما كان يدفع
السماء كي تضيء/ ليلته الطويل حيث
للدخان أن يقول ما/ يقول حيث كل نقطة
مضاعة خبز/ وصار إبراهيم دائماً على
سفر/ يلف حول معصم النهار كفه
الشتاء/ فالسنونوات هاجرت/ وكان في
السماء خمسة من الطيور/ حينما أعدّها/
أعدّها ثلاثة/ وربما رأيت غيمة شديدة
السواد/ تدخل الطيور تحت ظلّها
وتختفي/ يا سادتي/ نعيش كي يزدهر
التراب/. كرسي على الزبد ص ١٥٢.

كان لا بد من إيراد هذه القصيدة
لتوضيح الفرق واللقاء بين «الأرض الخرب»
لإليوت» و«كرسي على الزبد لمحمد علي
شمس الدين. لقد تكلمت بإسهاب عن دور
قصيدة «الأرض اليباب» في تبيان مآسي
الحروب السلبيّة، والتي أنتجت أجيالاً
معطوبة، وسَمّت الحضارة الغربيّة بسواد
قاتم لا تضيئه إلا المعادن، أما القلوب
فمقفرة. وسأحاول رصد الموت الإيجابي
في قصيدة «سيرة إبراهيم» لمحمد علي
شمس الدين. ومسبقاً أقول إنّ الشاعرين
خدما الإنسان بعمق الدلالة والنتيجة

غيافرا». وأنا سأخذ نماذج عن الموت
الإيجابي في أبطال قصائد محمد علي
شمس الدين، يقول في قصيدة «سيرة
إبراهيم»، والتي أراها من أفضل نماذج
الموت الإيجابي الذي مارسه المقاوم
اللبناني دفاعاً عن أرضه وعرضه ومعتقده،
وأراني مأخوذاً لأخذ القصيدة كلها لتبيان
أثر الموت الإيجابي في حياة أهل هذا
الموت: / في أول الشتاء/ صار إبراهيم
نقطة من المطر/ كأنه على التراب زهرة/
يشم عطرها الرخام/ كأنه يعود نحو
أهله لكي ينام/ ويا مكانه الذي هناك/ لو
سمحت فانسع/ ولو سمحت كن لجسمه
الجميل جنّة ومنزلاً/ فإن إبراهيم كان
كادحا/ يجوب هذه الحقول حاملاً
سلاحه/ ينام في مغاور الجنوب/ أو
يصول في شوارع المدينة/ لأنّ أمه
الغريبة الحزينة/ أو صته أن يكون
حارساً لبيته/ وأن يصبّ قهوة الصباح
للمقاتلين/ تدور هذه الحروب/ والرحى
تدور/ والهوى كأنه العصفور حطّ فوق
رأسه/ فأصبح الرصاص هادئاً/ لكنّه لا
يخطئ التصويب/ وكان إبراهيم/ وهو إن
أردتم صاحبي/ وطفلي الصغير/ أو
أخي/ كطائر يذوب تحت ظله/ وناحلاً
يكاد من نحوله يغيب/ وأزرق العينين
يافعاً/ وأزرق العينين في ظلام بيته
العجيب/ تشير أمه إليه دائماً/ كأنّ

والغاية. ومن مآثر الحرب الإيجابية الناتجة عن المأساة التي حوّلها المقاومون إلى تراث إنساني نبيل:

١ - علاقة المقاومة بالأرض، وهذا مرتبط بعنصر البقاء، فالأرض مادة الحياة، وفقدانها يعني فقد الحياة نفسها. وهذا واضح من فاتحة القصيدة: /في أول الشتاء/ صار إبراهيم نقطة من المطر/، ومهمة المطر إخصاب الأرض وإبقائها لتصنع الحياة. والمقاومة مادتها الشهادة، وبالشهادة يصبح الموت فعلاً إيجابياً. ويصبح من بُناة الحياة.

والأرض في الفعل المقاوم تغدو منزل المقاوم: «ينام في مغاور الجنوب/أو يصل في شوارع المدينة/لأنّ أمه الحزينة/أوصته أن يكون حارساً لبيته/». حين تصبح أرض الوطن كلها بيتاً تصير حميمة وعشيقية، وتصير مغاور الجنوب وشوارع المدينة مكاناً واحداً، ووصية الأم في هذه القصيدة تعني أن الأم أرضعت طفلها حب المكان يوم أرضعته حليبها.

٢ - المقاومة شعبيها وأداتها الفقراء، والذي يربط الفقراء جذرياً بالمقاومة هو أن الفقراء لا خبز لهم إلا من الأرض التي يعيشون عليها. وبهذا يصبح ارتباط الفقير بالدفاع عن الأرض ارتباطاً باقتران بقاءه. وهذا من دلائل إيجابية الموت في سبيل البقاء. وقد أدرك محمد علي شمس الدين

هذا الترابط حين قال: /إنّ إبراهيم كان كادحاً/. فالفقر والمقاومة رفيقا رَحَلٍ واحد على الرغم من صعوبة ترافقهما، يقول الفرزدق:

وكلُّ رَفِيقِي كُلِّ رَحَلٍ وَإِنْ هِما
تَعاطَى القَنَا قوماهما أَحْوانِ

٣ - ارتباط المقاوم بالأهل ارتباطاً لا يبلغه الموت، فقد يحمي الموت الحياة، وهذا يفسّره قول أحمد شوقي: «ففي القتلى لأجيال حياة»، ويؤكد هذا الترابط محمد علي شمس الدين بقوله: /تشير أمنا إليه دائماً/ كأن إبراهيم طفلها اليتيم والوحيد/ وأطبقت أجفانها عليه ثم غابت/ كما يغوص بجع في الماء/ هنا علاقة الشهيد بالأم تربو على علاقتها بأبنائها الآخرين. وهذه الأفضلية تأتي من فعل الشهادة في هذه القصيدة. والأم لم تتخلّ عن ابنها، فصدرها قبره، وليس التراب، وعيناها غطاؤه الجميل: /وأطبقت أجفانها عليه ثم غابت/. نعم هو معها، لم يبرح، ولم يغب.

٤ - سموّ سمعة المقاوم الشهيد وعلوّ حضوره بين أهله ومحبيه بعد شهادته، فالصورة التي تنتج عن الموت المؤمن تهيئ أمكنة للشهداء يراها المؤمن غاية كل رحيل جميل، يقول شاعرنا متمنياً للشهيد إبراهيم موتاً مؤمناً يصل الحياة بالخلود الأبدي: /ويا مكانه الذي هناك/ لو سمحت

فاتسغ/ولو سمحت كن لجسمه الصغير
جنةً ومنزلاً/المكان هنا ملائم لمعنى
الميتة التي اختارها المقاوم الشهيد. إنها
«هناك» التي نتجت عن «هنا»، وهذا ما عناه
أبو تمام بقوله:

تَرَدَى ثِيَابَ الموت حمراً فما دجا
لها الليلُ إلا وهي من سندسٍ خضُرُ.

٥ - سهولة العبور وانتفاء الألم في
الموت الذي يحمل قضية، لأنه اختيار
طوعي يجعل ما بعده أعلى مما قبله،
فالشهادة النبيلة تقلب معنى الموت وتجعله
نصراً، يقول أبو تمام في رثاء محمد بن
حميد الطوسي:

فتى مات بين الطعن والضرب ميتةً
تقوم مقام النصر إن فاته النصرُ

٦ - الموت الجميل لا يختلف عن النوم
في شعر محمد علي شمس الدين:/كأنه
يعود نحو أهله لكي ينام./ وكما أن
للإنسان يقظةً بعد النوم، فللشهادة
يقظتها أيضاً بعد الموت. وتلك صورة رائعة
في هذه القصيدة المركزية في الديوان،
ومبعث روعة الصورة أن الشاعر محمد
علي شمس الدين أقام علاقة قوية الدلالة
بين الموت والعودة إلى الأهل. وكلمة
«الأهل» هنا ذات دلالة وحضور، إنه عاد
ليوقظ الأهل وليستمر فيهم في دورة حياةٍ
لا تنتهي، سمّيتها المقاومة.

٧ - في القصيدة علاقة قوية بين
شراسة الحرب وقدرة المقاوم على
«التصويب» الواعي في هذا المعترك الذي
تبلغ فيه القلوب الحناجر. ولنتأمل معاً دلالة
كلمة التصويب الدالة على حضور العقل
والروح في الفعل المقاوم:/تدور هذه
الحروب/والرحى تدور/والهوى كأنه
العصفور حطّ فوق رأسه/فأصبح
الرصاصُ هادئاً/لكنه لا يخطئُ
التصويب/. إن قوة حضور اليد
للتصويب في هذا الهول تدل على معشوقه،
اسمها الأرض لا تختلف عن حضور عبلة
في شعر عنتره حين قال:

ولقد نكرتك والرماح نواهلُ
مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددتُ تقبيل السيوف لأنها
لمعتُ كبارق ثغرك المتبسّم

نعم، إنه الحب وحده هو صانع
المعجزات، كان إبراهيم يحلم أن يعود إلى
أهله بعزة وكرامة، لأنه لو عاد منهزماً ما
عاد أبداً.

٨ -/يا سادتي/نعيش كي يزدهر
التراب/صورة مذهلة في مراسيم جنازتها.
لم ينقص الموت عدد الإخوة:/وكان في
السماء خمسةً من الطيور/حينما أعدّها/
أعدّها ثلاثة/. إخوة خمسة كانوا، وأُعيدَ
إبراهيم فظلوا أربعة، وهياً الشاعر نفسه،
لأنه لم يستطع أن يرى نفسه إلا مغمداً في

التراب، تراب أهله الذي يلغيه حين يلغى
التراب بالاحتلال. إن الظلام يغيب كثيراً من
الموجودات لكنه لم يستطع إلغاء خصب
الأرض، لأن حياتنا فوقها منذورة
لإخصابها بالشهادة والعودة إليها.
والشهادة في هذا المقطع هي عيشٌ لكي
يزدهر التراب.

وقد أجاد الشاعر محمد مهدي
الجواهري حين قال:

لا بدَّ للخير من شرٍّ يُلَقِّحُهُ
ظهرُ الملائك من رجسِ الشياطين
إن «الضدُّ يُظهرُ حسنه الضدُّ»،
و«بضدها تتبيَّنُ الأشياء». إن البطل
الإيجابي تبدو ملامحه بغزارة دافقة في
«كرسي على الزبد، ومثالنا قصيدة: «غاب
الذي غاب» التي ذكرنا معنى بطلها الإيجابي
الذي أُمرَ بالموت من أجل الحياة، ومع ذلك
فإن هذا تكامل في عملية الخلق الفني،
فالشاعر الحقيقي يجب أن يكون في المحنة،
وأن يكون في العرس أيضاً. ومعنى هذا
الحضور هو إلغاء للواقعية التي يجب على
الشعر تجنبها أحياناً كثيرة. لأن مهمة الشعر
هي العصيان والتمرد، فإذا دُجِّنَ قتلته
واقعيته أحياناً كثيرة. والطبيعة لو تمردت لا
تستطيع الاستمرار. إن فصل الربيع هو في
حقيقته تمرد على الخريف، إن عملية الإنبات
فيه هي إحياء الجذور الكامنة في أعماق
الأرض. إذن الربيع يأتي دائماً بجديد.

وهذا التمرد هو ما رافق كثيراً كتابات
الشاعر محمد علي شمس الدين، وتحديداً
كتابه «كرسي على الزبد»، ولو مختلفاً مع
سوداوية «الأرض الخراب» المعبرة بعمق
عن شرح عميق في هيكلية الحضارة
الأوروبية إذا لا تزال الحضارة المادية تلغي
إنسانية الإنسان، فالعدوان الصهيوني لا
يزال مستمراً بكل جرائمه ووحشيته على
لبنان وفلسطين، ولا يزال أطفال العراق
يموتون بالسرطان من الفوسفور الأبيض
الذي ألقته الحضارة الأمريكية عليهم،
والعالم يعيش مرحلة جنون أخلاقي باسم
الدين وباسم الحضارة، إذ كيف لا يتسرب
الوجع المبرح إلى نتاج هذا الشاعر الذي
عاش آلام شعبه وأمته، وعاش في الوقت
ذاته مقاومةً شباب أمته العدو الصهيوني
على ثرى جنوبه، لقد كان شعر محمد علي
شمس الدين في هذا الموقف يجمع الأمل
والأمل في حنجرة واحدة. ولعل غائية
الحرب المقاومة في لبنان وفلسطين هي
التي تجعل مناخِي الشعارين مختلفين.
الحرب دفاعاً عن الأرض والقيم تنقذ من
ضياع الكأس المقدسة ومن عقم ملك هذه
الأرض الخراب، ومنتظرة هطول المطر الذي
يقتل عقم الأرض، كم يقول السياب:
«سيعشب العراق بالمطر». لقد كان محمد
علي شمس الدين يرى ويرصد ويتأمل
وينفعل لبطولة الشباب المقاوم، عليك أن

ترى الحياة في موت مقاوم هذا ما يلخص موقف شاعرنا محمد علي معتمداً على عنصرَيْ المقاومة والجمال. يقول محمد علي شمس الدين: أنت مدعوٌ لكي تبني سماءك/... أنت لا تقدر أن تخسر في هذا الرهان/ خطأ في الوقت لا يكفي/ وميزان الظهيرة/ كان لا بد له أن يستقيم/ ١٤٤ كرسى على الزبد/ ١٤٥/ لا بد من الإيمان بالموت الجميل هنا ليبنى الإنسان سماءه، أن تبني سماءك يعني أنك تتمرد على واقعية ساكنة، لا فرق بينها وبين أعمار الأموات. والعناد واضح هنا في ضرورة التمرد، إن خطأ واحد لا يقتل غايتك، عليك أن تعيد المحاولة وتكون سيزيفَ جديداً، ومتجدداً باستمرار. ولكن التمرد في شعر محمد علي شمس الدين مرتبط بعقلانية الشعور، والتي يمكن أن نسميها حدساً، والحدس في حقيقته هو عقل الشعور، وهذا الحدس في شعر محمد علي شمس الدين لا يثنيه عن تمرده، ولكن الاقتحام دائماً هو مغالبة التقهقر، وكلاهما يرمزان للبطل الإيجابي والسلبي في النفس الإنسانية، وصراع البطلين يُظهر بوضوح عذاب الشاعر ومعاناته في عملية المَخاض الشعري. وهذا يحضر في شعره، وهو جالس على كرسي قائم على الزبد» وكما أسلفنا يجمع شاعرنا في كرسية القائم على الزبد البطل الإيجابي والسلبي في أن، على

الرغم من غلبة البطل الإيجابي بفعل الغاية والهدف في موقف محمد علي شمس الدين من الموت والحياة، إنه لم يعلن موتَ الله كما فعل إليوت رغم تطاول البطل السلبي، لأنَّ كربلائية متقدمة بحزنها وعنادها تسطع في شعره، يقول: لعل الجمال الذي لا يزال مقيماً على الأرض/ يلزمه كي يقيم الضحايا/ وكم مرةً سال نحر السبايا/ على النهر/ فازدهرت في العراق السيول/. شعور العقل الحدسي هنا يرى أبعد من السبايا، وأبعد من الضحايا، لأنه مؤمن بانتصار سيول العراق على جفاف الأرض وإنقاذها من مواته: «فازدهرت في العراق السيول/. المنظر هنا وارف الخصب والأمل وصانع أرضاً أخرى لا ملك عاقرٌ فيها، ولا ينسلُ جرذٌ فوق العشب، كما حدث في «الأرض الخراب». من عادة السيل الأذى، ولكنه هنا ممرع بالدماء المؤمنة بقضيتها، في زمن البطل الإيجابي تُمرع الأرض بعد السيل، كما قال الشاعر الحسين بن مطير في رثاء معن بن زائدة:

فتى عيش في معرفه بعد موته

كما كان بعد السيل مجراً مرتعا

السيل ماء، والزبد يطفو عليه مخادعاً ومرائياً، ويحمل رجرجات ولكنها لا تصرع الإيجابي، ورغم انكشاف الزبد، لكنه يوقظ شعور العقل. يقول: لا أريدُ الآن أن أُعلن/ ما أخفي وأن أبدي ارتياحي/ ربما ينقلني

الماء من الطين/ومن أصل عذابي/ لأرى
في الضفة الأخرى من النهر سلاما/ وأرى
أنّ إلهي كان خوفي/. إن استعمال كلمة
«ربما» توحى بإمكانية حصول الرؤية على
الضفة الثانية، ولكن لا مناص من الخوف
الذي يهجم أحياناً فيجبر الشاعر على أن
قول: /ولم يبقَ شيءٌ سوى الخوف/ ص
١٦١. ولكن، لِمَ هذه الجملة التقريرية. هنا
لم يتسرب شيء من الخراب فحسب، وإنما
تسربت مواهب كسولة عقيمة، يعلّل شاعرنا
هذا الحضور الخرابي بتذمر رافض،
فيقول: /أرى على بعد مترين/ قبرين
مندثرين/ وعوسجة شعثت شعرها في
الرياح/ وعشرين ألفاً من الشعراء
الكسالى/ يدرون صرعى/ ويهوون في
سراويلهم/ كرسي على الزبد ص ١٦١.
التعليل هنا يضعف موقف البطل السلبي،
فالأسباب معروفة، وهي إزالة العوسجة
المنفردة، والتخلص من عقم الشعراء
الكسالى.

كما رأينا فالصراع قائم بين البطل
الإيجابي والبطل السلبي، للوصول إلى
الضفة الأخرى من نهر هذا الوجود. وهنا
أيضاً لا بد من التكامل مع البطل السلبي،
وفهم هواجسه ليكون البطل الإيجابي
مطمئناً، ولكي لا تصبح الحياة وهمّاً ولكي
لا يلغى الزبد حدس الماء، فالزبد مهما طفا
يظل قائماً على الماء، ويظل جُفَاءً، ولا

يستطيع أن يحول دون الوصول إلى الماء،
وإلى ما يمكث في الأرض ويسقي الجذور
وينفع الناس، وهذه غاية صراع الأضداد.
وهذه غاية الشعر نفسه. فالشعر هو
عصيان كل ما هو راكده وهادمٌ كل ما هو
متخلف، ولذا يتسم بالجدة، فإذا فقد
عصيانه فقد جدته. وانتصار البطل الإيجابي
في الشاعر يفرض على الناس احترام
الشعر، لأن قدرة الشعر التحريضية عالية
ومؤثرة ومتعاملة مع الوجدان، فالشعر بهذا
المعنى التمردى العاصي هو بانٍ وهادمٌ،
وهو خبزٌ لا تشبع الروح إلا إذا أكلت منه،
وبمقدار ما خبزه سلاحٌ أيضاً «والقول
ينفذ ما لا تنفذ الإبر». وفي الحقيقة إن
أكداس الشعراء المزورون هم المسؤولون
عن انصراف الناس عن قراءة الشعر. لقد
حوّلوا الشعر إلى وهم، ولا تستطيع أن
تفهم كثيراً من هذه الأوهام الشعرية، حتى
ولو كنت شاعراً مجيداً. مع العلم أن مهمة
الشعر هي الكتابة الرائدة، والانحياز إلى كل
ما هو ضروري للقضايا الإنسانية. وكلما
كان الشاعر مُترعاً بالمزايا الفكرية فإن
شعره يعكسها، ويستعين الشاعر بهذه
المزايا الجميلة ليكون له فسحة في أرواح
الناس ومجالسهم. وليحظى الشاعر بهذا
الحضور عليه أن يكون كونياً، وأن يكون
منخرطاً بالهم الجماعي الذي يعاني الناس
منه. وهذا يعني أن يكون الشاعر مثقفاً،

فالثقافة عصمة في الشعر، وجُبَّةٌ له، وثقافة الشاعر تتحول بقدرة الشعر على الاختراق

ويزداد صراع البطلين في ذات الشاعر حين يؤمن بانتصار البطل الإيجابي، وهو كلما لاح لي قمرٌ أصفر الوجه والساعدين على جبل الشيخ يدنو/أرى ظله ينطوي/خلف سرِّ قديم/على جبل الشيخ» ملقى/و«هابيل» تبكي عليه/دموع السماء/كرسيُّ علي الزبد ص ١٦٥.

كان البحر قريباً/ويحاول أن يصنع قلبي من زبدٍ/.... فأنا مفتون ببريق الأمواج ص ١٤٧/

ولم يبق شيء سوى الخوف ١٦١/

نعيش كي يزدهر التراب/١٥٨/

حين أبصرتُ كأسِي/وقد طفحت بالدماء/قلت يا صاحبي وأخي/أيها الطين/يا قاتلي/كيف تبكي علي/وقد خنتني مرتين/ص ١٦٣

وقتها يكون «كرسيُّ علي الزبد» إدراكًا عميقًا لهذا الخوف والارتياب، ويبقى أوضح ما في الحياة إدراكك عدم استقرار شيءٍ عليها، وقتها تكون الحياة أشبه بالزبد، ولكن محمد علي شمس الدين يدرك أنَّ الزبد قائمٌ على الماء، ويبقى الماء هو الحقيقة الحية الوحيدة، ولكنك لن تصل إلى الماء إلا بجلوسك على كرسي من زبد يفسر سؤالاً: متى نخترق الزبد إلى الماء،

إن حزننا نابع من الترقب وطول مدة انتظار «الذي يأتي ولا يأتي».

إن الآلام التي تصنع مأسينا، وتطمر فينا الرغابَ المشعة في الأعماق، والمطفأة في الواقع، ممتدة، هي فينا منذ أن جعل إبليس «من المُنْظَرين». ومنذ الدم الأول المسفوح ظلمًا وعدوانًا لاتزال الدماء تسيل، ولا يزال الظلم هو الأقوى، والعدالة هي الأضعف. لقد صنع الإنسان من طين لازب، وهو ملتصق بهذا الطين اللازب من المشيمة للكفن، وشاعرنا محمد علي شمس الدين يدرك أن الطين يقتل، وأن الشر كامن فيه، والطين هنا هو رمزية ابني آدم «إذ قرَّبنا قربانا فتُقْبِلَ من أحدهما ولم يُتَقَبَلْ من الآخر، قال لأقتلنك» سورة المائدة آية ٢٧. من يومها والدماء تسيل، وهذا يعني أن العدالة لم تنتص حتى هذه الساعة، والنا لا تزال تنتظر «كتبَ الله لأغلبنَّ أنا ورسلي». في هذا الانتظار القاتم يلتقي شاعرنا محمد علي مع إليوت ليختلف معه فيما بعد: يقول محمد علي شمس الدين:

كلما لاح لي قمرٌ أصفر الوجه والساعدين على جبل الشيخ يدنو/أرى ظله ينطوي/خلف سرِّ قديم/على جبل الشيخ» ملقى/و«هابيل» تبكي عليه/دموع السماء/كرسيُّ علي الزبد ص ١٦٥.

لم يبتعد هنا شاعرنا عن قابيل وهابيل المصنوعين من طين لازب. إن استعمال

القتامة واستمرارها عند كليهما. إليوت يعلن موت الخالق في الزمن الحديثوكل الفضائل بمدافع الحرب العالمية الأولى. في قصيدة «الأرض الخراب» هناك محاولة لفك لغز هذه الأرض الخراب بالبحث عن الكأس المقدسة، وكان الملك في هذه الأرض عاقراً، ولم يكن يملك القدرة على الإنجاب، وانعكس عقمه على أرضه التي يحكمها، ولن ينقذه البحث عن «الكأس المقدسة». لأن القداسة انتفت بممارسة الشر الإنساني. والدلالة هنا عالية النفاذ، لأن سوء الحاكم يؤدي إلى سوء الأرض التي يسيطر عليها، وبهذا يكون الإنسان سبب خراب الأرض، والدمار الذي أحدثه إنسان الحرب العالمية الأولى انعكس هذا على الأرض، وصارت موأناً غير قادرة على الإخصاب. ومن شواهد عقم هذه الأرض الخراب عند إليوت أن شخصيات القصيدة معطوبة أو مأزومة، ومصابة بعقم عاطفي رهيب، وهذه شواهد على مخلفات الحروب القاسية التي تعرك البشر «عرك الرحي بثفالها» والتي يكون نتاجها المآسي والدمار والخراب، وقد سبق الشاعر الجاهلي «زهير بن أبي سلمى» الجميع حين وصف ويلات الحرب. يقول زهير:

وما الحربُ إلا ما علمتمْ ودقتمْ
وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها نميمةً
وتضُر إذا ضُرِّيتموها فتضرم

كلمة «أخي» تمتد من قابيل وهابيل إلى أولئك الذين لاحقوا نبيهم ليقتلوه: «إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا» سورة التوبة/آية ٤٠. إن استعمال محمد علي شمس الدين: «يا صاحبي وأخي» هو كلام ذو رمزية عالية. إن كلمة «أخي» تشير إلى القتل الممتد من قابيل قاتل أخيه هابيل إلى قول القرآن الكريم «إذ يقول لصاحبه» والصاحب هنا هو أبو بكر صاحب الرسول في هجرته، والمقصود بهذه الإشارة عند شاعرنا أن الظلم موجود من فترة أول نبي إذ قتل ابنه أخاه، إلى آخر نبي يلاحقه أهله ليقتلوه في الغار.

إن البكاء هنا «كيف تبكي علي» هو استيقاظ لشيء في الإنسان، ولكن كيف تسيل الدموع والدماء في آن، في المقطع الأول تساؤل كيف ينسجم الدم والدمع في مقلة واحدة، وفي المقطع الثاني نرى «دموع السماء»، وبكاء السماء، هل يقول لنا دمعها: انتظروا، إن العدالة آتية لا ريب فيها. من هذا الانتظار يهطل حزن قاتم في شعر محمد علي شمس الدين. وبهذا يقترب من إليوت في رؤية الكون المطمور بالقتل والبكاء والدموع.

لكن شاعرنا محمد علي يختلف مع إليوت بأن زبده قائم على الماء، والماء هو صانع كل شيء حي، إن الشاعرين ينطلقان من العمق في الرؤية، ويختلفان في مدى

فتعرككم عرك الرحي بئفالفها
وتلقح كشافا ثم تنتج فنتنم
فتنتج لكم غلمان أشام، كلهم
كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

إن الحرب أشبه بحجر المطحنة، وتجعل
الناس كالدقيق المتساقط على الجلد الذي
يوضع تحتها، والرائع في هذه القصيدة هو
إدراك زهير بن أبي سلمى منذ الجاهلية أن
الأجيال التي تلدها الحروب تكون معطوبة
ومأزومة «غلمان أشام كلهم كأحمر عاد».
هذا هو جوهر قصيدة «الأرض الخراب»
إليوت، وهذا هو الهدف الذي ترمي إليه،
إنها تحكي قصة أجيال مأزومة أنتجتها
الحرب العالمية الأولى. لأنها أنجبت لأوروبا
كما يقول زهير: «غلمان أشام»، والمطر في
الأرض الخراب عند إليوت هو صورة عن
الملك العاقر، وظل البحث عن الكأس
المقدسة تعبيراً عن أزمة ما أنتجته الحرب،
التي لم تقتل البشر فحسب، وإنما قتلت الله
أيضاً في هذه الأرض الخراب. والحرب كرهة
«ولا يبقى لجاحمها التخيل والمراخ». إن
قصيدة «الأرض الخراب»، رغم كل
تعقيداتها ورموزها وثقافتها المحشورة
فيها، ورغم عمقها وطليلية تأثيرها في
الشعر العالمي الذي تلاها، هي صورة
أجيال دمرت الحرب روحها ومعتقداتها،
وجعلتها لا ترى من الحياة إلا المخلوقات
المشوهة، والتشويه في حقيقته هو موت

في الحياة، وفي هذا المنحى يقول إليوت:
بعد وهج المشاعل على الوجوه العرقة /
بعد صمت الصقيع في البساتين / بعد
الآلام في الأماكن الحجرية / والصياح
والعويل / والسجن والقصر وتجاوب /
رعد الربيع على الجبال القصية / الذي
كان حياً هو الآن ميت / الذين كنا أحياء
نحن الآن نموت / بقليل من الصبر / .
الموت هنا هو تشويه وإلغاء الإنسان
والطبيعة، وتقبيح لحركة الأشياء، وموت
قيم حضارة ظنت قوى مادية لا روح فيها
أنها بالحروب تستطيع أن ترقى، وأن تُنجز
إضافة للنقص في تجربة الإنسان والتاريخ.
وهذا يخالف منطق الحياة منذ وُجدت
الحياة. الحرب جعلت الإنسان يخاف من
طينته التي صُنعت منها، وهذا ما التقى فيه
الشاعران، إليوت، ومحمد علي شمس الدين.
يقول إليوت: «سأريك الخوف في حفنة من
طين»، ويقول محمد علي شمس الدين: أيها
الطين / يا قاتلي / كيف تبكي علي / وقد
خنتني مرتين / كرسني على الزبد /
ص ١٦٣. كلا الشاعرين يرى خوفاً كامناً
في الطين، ولكن موت الطين وراثاه مختلف
في توجه كليهما، خوف إليوت من الموت
الكامن في الطين كان قاسياً وعالياً رغم
عمق فكرته، ورغم ارتباطه بقدرية الوجود
المعتمة. أما طين محمد علي شمس الدين،
وعلى الرغم من حضور الطين بقسوة

الإليوتية المعبرة عن موت الله في الغرب، يقول صاحب كرسي علي الزبد: /لعل الجمال الذي لا يزال مقيماً على الأرض/ يلزمه كي يقيم الضحايا/ وكم مرة سأل نحر السبايا/ على النهر/ فازدهرت في العراق السيول/. الجمال هنا يُجرح، ولكنه لا يموت، ويظلُّ محتفظاً بسيمائه، وسيماءه تجعل جرحه يهب السهول في العراق ازدهاراً، لأنه هذه السهول شربت من نهر جميل، وهذا يوحى بدفقة كربلائية غير سوداء في وجدان شاعرنا.

وهنا لا بد من الانتباه لوظيفة الشعر الكونية، فما هي وظيفة الشعر منذ أن وجد، لقد كانت مهمة الشعر أن يغالب القدر ويحاول إلغاءه بتنمية حب الحياة في الإنسان، ولكن بالشعر وليس بالوعظ المباشر.

كلما لاح لي قمرٌ أصفر الوجه
والساعدين على جبل الشيخ يدنو/ أرى
ظله ينطوي/ خلف سرِّ قديم/ على جبل
الشيخ» ملقى/ و«هابيل» تبكي عليه/
دموع السماء/ كرسيُّ علي الزبد ص ١٦٥.

١ - الشعراء الثلاثة يرثون واقعاً
مأزوماً يعيش حشرجةً ولكنه لما يموت بعد.
إليوت يبدأ قصيدته بمقطع سمّاه دفن
الموتى، يقول في المقطع الأول «دفن
الموتى»:

في كرسيه علي الزبد يظلُّ خارجَ الزبد،

إليوتية في بعض مناحيه إلا أنه مختلف بطبيعة كل منهما، ومختلف بنظرة كل منهما إلى ما حدث على أرض زمنه. إنَّ الله لم يمت في شعر محمد علي شمس الدين، ولكنه تأخر، وظلَّ يرسل وميضاً مغزياً لشعرية محمد علي. ثم إن الشعرية المؤسسة في نتاج محمد علي مرتبطة بفكر مقاوم، لا يزال يرفض الموت، ويصر على ما يجب أن يأتي رغم تأخره، إنه ينتظر شيئاً لا بد أن يأتي، وهو جميل، وهذا ما يخفف من تشاؤمية كرسي مبني على الزبد، أقول يخفف كثيراً من تشاؤمية كرسيه لأن هذا الكرسي كان على الماء، فهل في هذا أثر قرآني «وكان عرشه على الماء»، ولعل الاتكاء على الماء يدفع بالقرصانوالأشرعة نحو موانئ لم يرُس عليها شرٌّ، كم نتمنى الوصول إلى هذه الموانئ، تكمن قيمة ما يقصده شاعرنا محمد علي شمس الدين بعدم فقدان الأمل في هذا العالم الذي لا تزال تسيلُ حتى دماء أنهاره. ماذا يعني هذا في ديوان «كرسي علي الزبد». شاعرنا نفسه يقول: /نعيش كي يزدهر التراب/
كرسي علي الزبد/ ص ١٥٨. هنا العيش يعني ازدهار التراب، وازدهار التراب يعني إعمارها، في دورة لا تنتهي.

ويظلُّ محمد علي شمس الدين مؤمناً
بقدره الجمال على تنقية الأرض من الفساد
فتنبت مخلوقات الجميلة، وهنا تلغى الكآبة

كتبت جودي ديرمت، إحدى المشاركات في فريق البحث، إن تشظي اللغة والصورة والرؤية الذي كان غريباً وغير مألوف في البداية حين كتب إليوت قصيدته، أصبح أسلوباً مألوفاً وسائداً في عالم الفن والأدب، ولم يعد أحد يتصور هذه المبتكرات شيئاً آخر سوى أنها طبيعية، مهما تطرقت.

مراقباً ومنتعلاً ظلّ ذاته وانتعال الظلّ قدرّ لا مناصّ منه، ولكن هل يمكن مفارقة الظلّ، وحين نسأل أفلاطون يخبرنا أننا نحن الظلّ، والحقيقة أبعد من أن نكونها ما دمننا نزجي خطانا في رحلة الغياب، ولكن هل يستمر الغياب، هنا تصبح الأسئلة محاولة للتخلص من الخوف الساكن في صلصال من حمماً مسنون، كما يرى الشاعر «ت س إليوت» «لسوف أريك الخوف في حفنة من تراب» فالطين سجن الروح، والسجن دائماً مسكون بالخوف، ويبقى فينا هذا الخوف ما بقينا من سكان هذا الطين، والطين هذا ليس الحقيقة، وربما كان درباً إليها،

* * *

فَلَسْفَةُ الْجِهَادِ النَّبَوِيِّ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ

بحث حول القواعد العامة للجهاد النبوي

د. فادي أسعد نصيف

مقدمة:

الجهاد، كلمة لها أبعادها وآثارها الكثيرة، وقد ظهرت ملاصقة للإسلام، منذ بداياته، وقد عُمل كثيرا على شيطنتها أو تحويلها عن معناها الحقيقي، من خلال تلبيسها كل الأعمال الإرهابية المنحرفة عن الأسس الإسلامية والقواعد التي بُني عليها دين الإسلام، لذلك وجدنا أنه من الضروري العمل على إظهار الحقيقة الملتبسة للجهاد في الإسلام، ووجدنا أيضًا أن ذلك لا يكون إلا بالعودة إلى المصدر الرئيس الذي بدأ منه هذا الدين، وهو العصر النبوي والذي دام ثلاثة وعشرين عاما، وإن هذا العصر وبتقسيم أغلبية المؤرخين ينقسم إلى مرحلتين أساسيتين:

المرحلة المكية: والتي دامت ثلاثة عشر عاما، كان الهدف فيها العمل على إدخال قريش إلى الإسلام، والإنطلاق منها إلى العالم.

المرحلة المدنية: والتي دامت عشرة أعوام، وكان الهدف منها بناء الأساس للدولة الإسلامية، والإنطلاق منها إلى نشر الإسلام في العالم. وانطلاقًا من هذا التقسيم، عملنا على النظر ومن خلال منهجية الاستقراء والتحليل على توضيح شكل الجهاد وأبعاده وقواعده التي بني عليها، وبالتالي نعرف كينونة هذا المصطلح وابعاده عن أي مصطلح آخر.

مفهوم الجهاد

تعريف الجهاد:

الجهاد في اللغة: مصدر جاهد يُجاهد، وأصله من الجهد أو الجهد بفتح الجيم وضمّها: بمعنى بذل كل ما في وسع الإنسان للوصول إلى الغاية المنشودة، سواء أكان هذا البذل قولاً أو فعلاً، أو بعبارة أخرى: سواء أكان الجهد جسمياً أو عقلياً^(١).

الجهاد بالمعنى العام: إن الجهاد بمعناه العام يشمل حياة الفرد والمجتمع كلها، بجوانبها المختلفة الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والصراع فيه يشمل أعداء كثيرين يشمل النفس وشهواتها، والهوى ووساوس الشياطين؛ شياطين الجن والإنس، ووساوس هؤلاء الشياطين على نوعين: نوع هدفه زرع الشبهات، وآخر هدفه اتباع الشهوات؛ ومكافحة الأول بنشر العلم والفكر الصحيح، ومقاومة الثاني بنشر الفضائل والأخلاق الحميدة.

فلا يمكن أن نحصر الجهاد بالقتال، بل إن مرافق الحياة بكل أشكالها، تحتاج إلى الجهاد فيها للوصول إلى الغايات المنشودة، ومن الممكن أن يكون الجهاد محموداً أو مذموماً وذلك باعتبار الغاية المنشودة، وأيضاً الوسيلة المتبعة لا بد أن تكون محمودة، فلا تبرر الغاية المحمودة الوسيلة المذمومة.

ومن هنا ننطلق إلى التعرف على أشكال الجهاد في عهد النبوة، وكيف كانت خلال الزمنين المكي والمدني، لنخلص إلى القواعد العامة التي ينطوي تحتها الجهاد في كل العصور، وعندها نستطيع أن نميز بين ما هو موافق للتشريع النبوي الرباني، وما هو مخالف له.

مدخل:

المتتبع لنصوص السيرة النبوية وبداية الدعوة الإسلامية، يظهر له جلياً أن الجهاد بمفهومه القتالي، لم يشرع في الفترة المكية، فقد كان المستضعفون من الذين دخلوا الإسلام يعانون التعذيب الجسدي والمعنوي وحتى المادي ممن لم يقبل هذه الدعوة، وإلحاح بعض النماذج من الجهاد في الفترة المكية.

الجهاد في المرحلة المكية

بعد القراءة المتأنية والتدقيق في التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية الشريفة، تبين أن الجهاد القتالي لم يكن مشروعاً في الفترة المكية، والتي دامت عشر سنوات، إلا أن هذا لا يعني أن الجهاد بمعناه الواسع لم يكن قائماً، فالجهاد له أنواع وأشكال مختلفة، وقد كان ممارساً في الفترة المكية بصور وأشكال خاصة بعيدة عن الجهاد القتالي، ومن هذه الأشكال:

الجهاد بالصبر على الإيذاء

اتخذ الجهاد في الفترة المكية أشكالاً مختلفة، حيث أنه كان يقوم وبشكل أساسي على الصبر على الإيذاء، وهذا الإيذاء كان يأتي بصور مختلفة منها:

الإيذاء الجسدي

من النماذج البارزة المشهورة على هذا الإيذاء «بلال بن رباح»^(٢) العبد الحبشي

الذي دخل الإسلام، ولم يقبل سيده «أمية بن خلف»^(٣) بذلك، فعذبه أشد أنواع التعذيب، إلى أن اشتراه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأعتقه، فلم يكن ذلك دافعا إلى اغتيال أمية بن خلف الذي عذبه ونكل به أشد التنكيل.

وأيضًا من النماذج البارزة على الإيذاء الجسدي «عمار بن ياسر»^(٤) وعائلته والتي عذبتها قريش عذابًا وصل حدّ قتل الأم والأب أمام الابن (عمار) وأيضًا لم يكن الرد على ذلك من خلال الاغتيالات السياسية أو الأعمال العنفية، وفي هذا المقام لا بد من ذكر حادثة «الطائف»^(٥) وما تعرض له النبي محمد صلى الله عليه وسلم من إيذاء بالضرب ورميه بالحجارة حتى سالت دماؤه الشريفة.

الإيذاء المعنوي

عانى النبي محمد صلى الله عليه وسلم كثيرا من الإيذاء المعنوي، فقد كانت قريش تناديه بالمذمم بدلا من اسمه محمدا، إضافة إلى الأوصاف الكثيرة التي كانوا يطلقونها عليه كالساحر والكذاب والكاهن، زيادة على الإهانات التي كان يتعرض لها أصحابه ممن دخل دين الإسلام.

الإيذاء المادي

فرضت قريش على كل من تبع دين الإسلام وحتى من ناصره مقاطعة، كتبت

على صحيفة وعلقت على جدار داخل الكعبة، نصت على أن يمنع التعامل مع المسلمين لا بيعا ولا شراء ولا زواجا..، وقد اضطر المسلمون حينها إلى الانتقال إلى «شعب بني طالب»^(٦) فوصل المسلمون ومن ناصرهم إلى حد المجاعة فأكلوا أوراق الشجر.

فيظهر من كل ما تقدم أن القتال بمعناه الجسدي قبل الهجرة كان محظورا على المسلمين.

الأمر من الله بالعفو والصفح

لم يقتصر الأمر عند المسلمين بمنعهم من الرد على الإيذاء بالقتال، وإنما زاد الأمر إلى أنهم أمروا بالعفو والصفح عمن يؤذيهم، ومن الآيات التي نزلت قبل الهجرة تدعو إلى الصفح والعفو، قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

الأمر بالمعاملة الحسنة ورد الإساءة بالإحسان

إن النص الديني المتمثل بالقرآن الكريم، دعا إلى تجاوز كل ذلك فارتقى من العفو والصفح إلى أمر النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين بالمعاملة الحسنة ورد الإساءة بالإحسان فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] ومن الآيات أيضا ما يدعو إلى تجاهل الإساءة من غير

المسلمين قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

الجهاد بالحجة والبرهان والتحدي:

وهذا النوع من الجهاد كان الأبرز في المرحلة المكية، فكان ذلك من خلال التحدي البرهاني بتلاوة القرآن الكريم وأن يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿قُلْ لِيَن آجَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] وقد أمر الله تعالى نبيه الكريم بالجهاد بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] قال الطبري في تفسيره: أي جاهدهم بالقرآن جهادا كبيرا، حتى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله، ويدينوا به، ويذعنوا للعمل بجميعة^(٧) إضافة للتحدي بالبرهان العقلي كان التحدي بأن يأتوا بمثله، لا بل فقط بعشر سور مثله، مفتريات أي أنها من عند محمد ﷺ مكذوبات، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنَ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

الجهاد بالعمل الصالح:

لهذا النوع من الجهاد أثر يعود على بعدين، الأول: على النفس، حيث أنه يبعث في النفس الطمأنينة والراحة النفسية، وأما

الثاني: فيعود على المجتمع، فيبعث فيه الاستقرار والألفة والأمن الاجتماعي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [المنكوت: ٦] وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا﴾ [المنكوت: ٦٩]، بالنظر إلى الآيات نرى الحز على الجهاد بالعمل الصالح، وهو ما يعود بالنفع على النفس أولا والمجتمع ثانيا، ومن الأعمال الصالحة البارزة في عمل النبي ﷺ حفظ الأمانات لديه، وحتى ممن ناصبوه العدا من قريش، فقد كانوا يضعون الأمانات لديه، لما عرفوه عنه من حفظ الأمانة، حتى أنه لم يهاجر إلى يثرب إلا بعد أن وضع من يؤدي الأمانات عنه إلى أصحابها، فقال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «نم على فراشي، واتشح ببردي الأخضر، فم فيه، فإنه لا يخلص إليك شيء تكرهه، وأمره أن يؤدي ما عنده من وديعة وأمانة»^(٨).

الجهاد بالهجرة:

للحجرة في الدعوة الإسلامية أهمية كبرى، فقد كانت أحد أبرز أنواع الجهاد، فبها حفظت هذه الدعوة من الإنقراض، مع ما كان يقوم به القرشيون تجاه من يتبع هذا الدين من الإيذاء، قد يصل إلى القتل في كثير من الأحيان، بالإمكان أن نقسم الهجرة إلى قسمين: الهجرة الصغرى، والهجرة الكبرى.

الهجرة الصغرى:

القبائل العربية للوصول مع أحدها إلى تبئ لهذه الدعوة، فكان الاتفاق مع قبيلتي الأوس والخزرج من يثرب وكانت بيعة العقبة الأولى والثانية، ومن بعدها هجرة المسلمين إلى يثرب.

أحست قريش بالخطر الداهم عليها وعلى زعامتها للعرب، وأن انتقال النبي محمد ﷺ إلى دار الهجرة، سيفتح له الآفاق ويقوى بهم، وبطبيعة الحال ستتغير المواجهة بينهم، وقد اتخذ شكلا جديدا قد يكون قتاليا، وبذلك يفقدون السيطرة على هذا الدين الجديد وعلى زعامة العرب.

فأخذت قريش القرار بالاجتماع في «دار الندوة»^(٩) للتداول في أمر محمد ﷺ، وكان هناك العديد من الآراء في كيفية منعه من الهجرة إلى يثرب، منها أن الحبس أو النفي أو القتل، ولم يكن لأيي منها استحسان، فقالوا عن الحبس يأتي قومه فيخلصوه، والنفي إن له لسانا عذبا يجتمع عليه الناس، وأما القتل فلا مفر من أن يُقتل قاتله به، وكان الرأي الذي اجتمع عليه الجميع، وهو أن يؤخذ من كل قبيلة شابا جلدا فيقتلوه بضربة واحدة، فلا يكون لقومه الطاقة بالأخذ بالثأر، وقد صور القرآن هذا الاجتماع وما دار فيه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُنَبِّئُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ﴾ [الأنفال: ٣٠].

عنيت بالهجرة الصغرى هي ما كان خلال الفترة المكية، والتي كانت بعد أن طال الصبر فيها على الإيذاء بكل أشكاله كما أسلفنا، ولم يكن هناك إذن بالمواجهة القتالية، وقد أصبح الأمر فوق طاقة التحمل لدى من دخل دين الإسلام، فكان الحل بالهجرة، وكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة، ومقولة النبي المشهورة للمهاجرين إلى الحبشة، «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؟ فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي - أرض صدق - حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه»^(٩)، ومن بعدها كانت الهجرة الثانية إلى الحبشة أيضا، وكانت هاتان الهجرتان لبعض من آمن بدين الإسلام، ولم يكن من ضمن من هاجر النبي ﷺ لذلك اعتبرت الهجرة الصغرى، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتُكْرَمُونَ يَرْتَجُونَ لِرَحْمَةِ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

الهجرة الكبرى:

بعد ثلاثة عشر سنة من المعاناة والجهاد بالدعوة في قريش، والتي لم يستطع خلالها النبي ﷺ، ومن معه من إقناع القرشيين بالإسلام وهذه الدعوة، ومعها أيضًا الاستمرار بالإيذاء، بدأ النبي ﷺ بالبحث عن سبيل ومكان جديد لهذه الدعوة، فعمل على لقاء العديد من

فأمر الله نبيه بالهجرة إلى «يثرب»، والتي أسميت بعدها بـ «المدينة المنورة»، وكانت الهجرة الكبرى، وانتقال الدعوة الإسلامية من مكة إلى المدينة المنورة، ومعها بدأ عهد جديد في الدعوة، وأسلوب جديد وجهاد جديد، وهو ما سنتكلم عنه، لنتلمس معا أشكال الجهاد الجديد، ونستخلص القواعد التي بُني عليها هذا الجهاد.

الجهاد في الفترة المدنية

اختلفت الأحوال والظروف ما بين البيئة المكية والبيئة المدنية، فبمجرد وصول النبي محمد ﷺ إلى المدينة، بدأ عهد جديد من العمل، وقد بدأ بإرساء الدعائم لدولة جديدة مستقلة بنظامها وقوانينها وشكلها.

الشكل الديموغرافي للمدينة المنورة

اختلف الوضع الديموغرافي من البيئة المكية إلى البيئة المدنية.

ففي مكة كان المجتمع مؤلف من فئتين: الأولى: هي المتمسكة بعبادة الآباء والأجداد (عبدة الأوثان).

الثانية: المتبعون للدين الجديد (الإسلام)، وبينهما خلاف جذري لا يمكن الجمع أو التوفيق بينهما، وقد تحدثنا سالفًا عن المعاناة التي عاناها المسلمون من قريش.

أما البيئة الديموغرافية في المدينة المنورة.

فقد كانت تتألف من أربعة فئات، هي:

الفئة الأولى، الأنصار: وهم أهل المدينة من الأوس والخزرج الذين دخلوا في الإسلام وسموا بالأنصار لأنهم ناصروا من جاءهم فارا بدينه من الاضطهاد الحاصل عليه من قريش، بلا مال ولا زاد.

الفئة الثانية، المهاجرون: وهم المسلمون الفارون من مكة (قريش)، بلا مال ولا زاد.

الفئة الثالثة، المنافقون: وهم من أهل المدينة، الذين تظاهروا بالإسلام، وبقوا على دينهم السابق قلبيا، هؤلاء لم يقتنعوا بالإسلام إلا أنهم وجدوا أنفسهم قلة، لذلك لم يعارضوا الواقع الجديد القوي، إلى أن تأتيهم فرصة للتغيير.

الفئة الرابعة، اليهود: وهم بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع، وكانوا يسكنون المدينة المنورة، وهم يتبعون الديانة اليهودية.

وقد عمل النبي محمد ﷺ على إقامة عقد اجتماعي جديد، يرسخ من خلاله الحقوق والواجبات على جميع الفئات، وقد عرف هذا العقد «بالوثيقة»^(١) أرست الاستقرار والطمأنينة لدى جميع المقيمين

في المدينة المنورة، خاصة في الفترة الأولى.

مشروعية الجهاد القتالي

إن الوضع الذي عاشه المسلمون في العهد المكي كان شديداً، فقد ضيق عليهم من قبل صنائيد قريش وكبرائها، فما كان للمسلمين بدّ من أن يتخلّوا عن أوطانهم وديارهم، فراراً بدينهم، وطلباً لمكان يعبدون فيه ربّهم، دون أن يتعرّض لهم أحد، وقد وصف الله تعالى حالهم في كتابه، فقال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

وقد خرج المسلمون المهاجرون بدينهم تاركين خلفهم كل أموالهم وبيوتهم وأملاكهم، فما كان من قريش إلا أن استولت على كل أملاكهم وأموالهم وبيوتهم، ومن الأمثلة على ذلك «صهيب الرومي»^(١٢) الذي لم تدعه قريش يهاجر إلا بعد أن أخذوا كل ما يملك، فلما وصل المدينة قال له النبي ﷺ: «ربح البيع أبا يحيى»^(١٣) وتلا قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَلْتَمَسْ مِنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

بدأت المواجهة بين المسلمين وقريش بالتعرض للقوافل التي كانت تمر بالقرب من المدينة المنورة متجهة إلى الشام أو عائدة منها، ولم يكن ذلك إلا بعد الإذن من

الله، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] وقد كان ذلك نوعاً من الحرب الاقتصادية عليهم، ورغبةً في رد حقوق المسلمين المسلوقة وأموالهم المنهوبة، وهو ما أدى إلى أول مواجهة جهادية قتالية بين المسلمين وقريش، وكانت تلك الموقعة قي منطقة معروفة بـ «بدر».

القواعد العامة للجهاد القتالي من خلال الغزوات النبوية

من خلال القراءة العامة للغزوات النبوية من بعد الهجرة إلى المدينة، وأول مواجهة قتالية مع قريش في بدر وحتى فتح مكة، نلاحظ أن هناك قواعد عامة للقتال، التزم من خلالها المسلمون وعلى رأسهم المصدر التشريعي للإسلام محمد ﷺ، من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فالقتال في الإسلام لا يقوم إلا على أسس تشريعية.

أولاً: الحرب ضرورة وليست غاية

يظهر من خلال المرحلتين المكية والمدنية، أن اعتماد الجهاد القتالي، لم يشرع إلا بعد الهجرة، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، وكان ذلك في العام الثاني للهجرة، ولم تكن المواجهة مباشرة، وإنما كان المقصود الاستيلاء على

خاضها النبي ﷺ، ففي غزوة أحد اتخذ النبي ﷺ قرارا مخالفا لما كان يرى شخصيا وهو التحصن بالمدينة، بل سار مع رأي الأغلبية وخاصة الشباب منهم، الذين لم يشهدوا بدرا، فقد أرادوا المواجهة المباشرة خارج المدينة، نازلا على رأيهم، ومن بعدها تحمل الجميع عواقب القرار، فتحملوا جميعا عواقب الهزيمة.

ثالثاً: إحترام العهود والمواثيق

«أشيروا علي أيها الناس» هذه المقولة التي أطلقها النبي محمد ﷺ، لم تكن فقط احتراماً لمبدأ «الشورى»، وإنما أيضاً إحتراماً منه لمبدأ «إحترام العهود والمواثيق»، فقد كان النبي ﷺ قد بايع الأنصار على أن ينصروه ويدفعوا عنه، إلا أن هذا الأمر يكون داخل المدينة لا خارجها، لذلك أراد من ترداد مبدأ «أشيروا علي أيها الناس» أن يسمع من الأنصار، فهو لا يريد أن يلزمهم بأمر لم يعطوه إياه ضمن البيعة التي حصلت بينهم، فلم يزل يردد عبارته، إلى أن تكلم زعيم الأنصار «سعد بن معاذ»^(١٥)، فقال: «لكأنك تريدنا يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «أجل» فقال سعد: قد آمننا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض لما أردت، فنحن معك... فسر بنا على بركة الله» عندها قال لهم النبي ﷺ: «سيروا

قافلة قريش القادمة من الشام، وكان على رأسها أبو سفيان زعيم قريش، إلا أن الأحداث المفاجئة جعلت المواجهة المباشرة حتمية، وجعلت النبي محمد ﷺ أمام قرار مصيري، وقد كانت المواجهة أمراً لامفرّ منه.

ثانياً: قرار السلم والحرب قرار أمة (الشورى)

بعد الأحداث المفاجئة للمسلمين في بدر، وذلك بتحريك قريش نحوهم للمواجهة المباشرة، وأيضاً العناد القليل المتوفر لديهم، وفي المقابل الجهوزية الكاملة نسبياً لدى قريش.

لم يتخذ النبي محمد ﷺ القرار منفرداً، بل توجه إلى من معه من الأنصار والمهاجرين، وأطلق القاعدة الذهبية والتي أصبحت تُبنى عليها القرارات المصيرية، وخاصة المتعلقة منها بـ «السلم والحرب»: «أشيروا علي أيها الناس»^(١٤) ولو أراد أن يتخذ القرار منفرداً لما عارضه أحد، ولكنه أراد أن يرسخ هذه القاعدة المبدئية هي: «أن قرار السلم والحرب لا يتخذ من القائد منفرداً وإنما بالتشاور»، وذلك لأن العواقب سواء اكانت إيجابية أم سلبية فهي ستكون على الجميع، وبذلك يتحمل الجميع عواقب القرار فلا تلام القيادة على قرارها، مع الإشارة إلى أن هذه القاعدة لم تكن فقط في غزوة بدر، بل في كل الغزوات التي

وأبشروا...»، من هنا نرى مبدأ: «احترام
العهود والمواثيق»

إضافة إلى هذه الغزوة، رسّخ هذا المبدأ
طوال العهد النبوي، فقد كان جلياً في
«صلح الحديبية» الذي كان مع قريش،
والتي كانت العداوة بينهما مستحكمة، ومع
اعتراض بعض أصحاب النبي ﷺ، على
بعض بنوده، إلا أنه لم يخلف في عهده
معهم، وبخاصة في البند الخامس منه
والذي كان ينصه على أنه: «يرد المسلمون
من يأتيهم من قريش مسلماً بدون إذن
وليّه، وألا ترد قريش من يعود إليها من
المسلمين»^(١٦) فقد رأى فيه أصحاب
النبي ﷺ غُبنًا واضحًا، إلا أن
النبي ﷺ كان يريد الصلح، وإيقاف
الحرب ولو مؤقتاً وهذا ما يؤكد على أن من
مبادئ الإسلام في الجهاد العمل على
«إرساخ السلم لا الحرب».

رابعاً: العمل على إرساخ السلم لا
الحرب

كان الإسلام ومنذ بدايته في عهد النبوة،
يسعى دائماً إلى «السلم لا الحرب»، يظهر
هذا جلياً، في الكثير من المواقع، ومنها
«فتح مكة»^(١٧) والتي عمل فيها
النبي ﷺ على السريّة التامة، بهدف
مفاجأة قريش فلا يكون لهم القدرة على
المواجهة، وبذلك يتجنب سفك الدماء،
وبالتالي ترسيخ مبدأ السلم لا الحرب عند

الإمكان، فبعد أن نقضت قريش الصلح بينها
وبين المسلمين، والذي حصل في الحديبية،
حيث أنه كان من ضمن البنود: «من أراد
من قبائل العرب الدخول في حلف
المسلمين فليدخل، ومن أراد منهم
الدخول في حلف قريش فليدخل»^(١٨).

بنتيجة هذا العهد دخلت قبيلة بني بكرٍ
في حلف قُريش، وقبيلة خُزاعة في حلف
النبي ﷺ، وكان بين هاتين القبيلتين ثارٍ
قديم، فانتهز بنو بكرٍ الصُّلح وأغاروا على
خُزاعة ليلاً في شهر شعبان من السنّة
الثامنة للهجرة.

في ذلك الهجوم قتل بني بكرٍ من خُزاعة
ما يزيد عن عشرين رجلاً، ثم بدأوا في
مطاردتهم حتى وصلوا مكة وقاتلوهم فيها،
وعند وصول مطاردة القبيلتين إلى مكة،
وقفت قريش مع حلفائها بنو بكر، وأعانتهم
بالسلاح والمال على خُزاعة، فلم تلتزم
قريش بالمعاهدة وخرقت نص المادة
المذكورة سابقاً.

عندما وصل الخبر للرّسول ﷺ، وما
لحق بخُزاعة من القتل والاعتداء، وهم ممن
دخلوا في حلف المسلمين، وقد أسلم عدداً
كبيراً منهم، قال الرّسول ﷺ مقولته
المشهور: «والله لأمنعنكم ممّا أمنع نفسي
منه»^(١٩).

وعندها أخذ النبي ﷺ القرار بالتوجه
إلى مكة لفتحها، ولكن دون قتال، واعتمد

لذلك مبدأ «السرية والمفاجئة»، فلم يخبر أحداً حتى أقرب المقربين إليه زوجته عائشة رضي الله عنها، وكذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ومن ذلك دعاؤه: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها»^(٢٠). والهدف من ذلك مباغته قريش في عقر دارها، فلا يكون لها القدرة على المواجهة ولا التحضير، وبالتالي تجنب القتال وسفك الدماء، وهكذا كان.

خامساً: استنفاد كل الوسائل السلمية قبل اتخاذ القرار بالجهاد القتالي

المتابع لسير الغزوات النبوية الشريفة، يلحظ أن النبي ﷺ، لم يقبل على أي منها، إلا بعد أن يبذل كل الوسع في تجنبها، أو على الأقل تجنب المواجهة المباشرة، ونرى ذلك واضحاً في «غزوة الأحزاب»^(٢١)، أو ما يعرف بغزوة الخندق، حيث أن النبي وبعد المشاورة المعتادة لأصحابه اقترح عليه «سلمان الفارسي»^(٢٢) أن يحفروا خندقاً حول المدينة، وهذا ما يمنع وصول جيش الأحزاب إليهم ويتجنبهم القتال، وبالفعل هذا ما حصل، فقد بقيت قريش وكل من صاحبها في هذه الغزوة من القبائل العربية واليهود يحاصرون المدينة فترة شهر كامل، ومع ذلك لم يخرج النبي ﷺ للمواجهة المباشرة تجنباً للقتال وسفك الدماء.

سادساً: القيادة هي جزء لا يتجزأ من الناس

نرى ومن خلال الاستقراء لسيرة النبي محمد ﷺ، أن القيادة بكل أركانها، من الرأس وحتى القاعدة لا تنفصل عن الناس، لا بل ما تتحملة القيادة قد لا يتحملة الناس من العموم، فعندما حُفر الخندق في غزوة الأحزاب، كان النبي ﷺ بنفسه يعمل مع الجميع، فلا يميز نفسه عنهم، وقد وقع الجوع نتيجة للحصار الحاصل عليهم في نفس الغزوة، وقد جاع النبي ﷺ كما جاع الجميع، لا بل وأكثر منهم، فعن أنس رضي الله عنه قال: «جئت رسول الله (ص) يوماً، فوجدته جالساً مع أصحابه يحدثهم، وقد عصب بطنه بعصابه، قال أسامة (أحد رواة الحديث): وأنا أشك على حجر، فقلت: لبعض أصحابه: لم عصب رسول الله (ص) بطنه؟ فقالوا: من الجوع...»^(٢٣)، فلم يكن النبي ﷺ وجميع أصحابه من القيادات تميز نفسها عن الباقين، بل تجتهد في أن تكون أكثر إقبالا على العمل والجهاد.

خاتمة

بعد هذا العرض ومن خلال الاستقراء لأحوال وأشكال الجهاد في الفترة النبوية الشريفة، والتي هي أساس لبناء القواعد والأسس الشرعية، والتي أيضاً تُبنى عليها

مفتوحة، فيتعرف عليها كل الناس، وفي النهاية الإنسان هو صاحب القرار في ممارسة إيمانه الذي قرر اختياره، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

المصادر والمراجع

- (١) الشيرازي، الفيروز آباد، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٦ - ٢٠٠٥، ط، مادة جهد.
- (٢) بلال بن رباح: من الحبشة، ولد بعد عام الفيل بثلاث سنين، كان من أوائل من دخلوا في الإسلام وعذب واتهض، عرف بمؤذن الرسول، توفي عام ٢٠ للهجرة في سوريا، بسبب الطاعون، ودفن فيها في مقبرة باب الصغير. سير أعلام النبلاء، ج ١، ص ٣٥١، برقم ٧٦.
- (٣) أمية بن خلف: هو أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح أحد سادات قريش، حارب دعوة النبي ﷺ وعذب المستضعفين من المسلمين، ومن أبرز من عذب منهم بلال بن رباح، قتل في غزوة بدر العام الثاني للهجرة.
- (٤) عمار بن ياسر: هو ابن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس بن الوديم، أمه سمية مولاة بني مخزوم، من أوائل الداخلين في الإسلام، شهد مع بدر والمشاهد كلها، وشهد مع علي بن أبي طالب موقعة الجمل ومعركة صفين وله إحدى وتسعون وقيل أربعة وتسعون عاما وقتل في صفين عام ٣٧ للهجرة، سير أعلام النبلاء، ج ١، ص ٤٠٦.
- (٥) الطائف: مدينة سعودية تقع في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية، تحيط بها الجبال من جميع الجهات، ترتفع عن سطح البحر بمسافة تدرج ما بين ١٧٠٠م إلى ٢٥٠٠م، مما أكسبها جوا لطيفا. أنظر: الطائف عروس المصايف السعودية، وزارة الإعلام، الشؤون الإعلامية، ١٤١٥ - ١٩٩٤م، ص ٤.
- (٦) شعب أبي طالب: أو شعب بني هاشم، هو المكان الذي قوطعت وحوصرت فيه بنو هاشم لمدة ثلاث

الأحكام، تبين أن الجهاد القتالي ليس غاية يُعتمد إليها، وإنما هو آخر الحلول، والتي تُرغم عليها القيادة في حال نفاذ جميع الوسائل الممكنة، كما أنه لا يقصد إلا بالأوجه الضيقة للوصول إلى الغاية الأولى والأخيرة ألا وهي نشر الدعوة، فلو أن قريشا لم تمنع نشر الدعوة ولم تحاربها في مكة، لما اضطرَّ النبي ﷺ إلى الخروج منها.

وطالما أنه ليس هناك ما يمنع انتشار الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فلا مبرر للقتال، ومن هنا يبقى الجهاد القتالي ضمن إطاره الذي وضعه النبي ﷺ فيه، فليس المقصود القتال للقتال بل قتال وقف في وجه الدعوة وعمل على صد المسلمين، فإذا انتفى السبب (منع الدعوة) ينتفي معه المُسبَّب له (وهو القتال).

ولا بد من التأكيد على أن «الإسلام هو دين السلام»، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، عن النبي صل الله عليه وسلم، قال: «المُسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمُهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^(٢٤).

وفي الختام فلتكن دعوتنا في كل الأديان هي دعوة السلام، وأما الدخول إلى الإسلام أو أي دين من الأديان السماوية، هو حُررية يتحمل مَسؤوليتها صاحبها، ولتكن أبواب التعرف على جميع الأديان

- سنوات، ابتداء من السنة السابعة من البعثة. انظر: الطبقات الكبرى: ج ٧ - ص ٢٠٣.
- (٧) تفسير الطبري، ج ١٩، ص ٢٨١.
- (٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، دار المعرفة - بيروت، ط ٣، ج ٢، ص ٤٣٦.
- (٩) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ج ١، ص ٣٠٠.
- (١٠) دار الندوة: هي أول دار بنيت في مكة، بناها قصي بن كلاب زعيم قريش، وكان الهدف من إنشائها أن تكون دار للتشاور بين القرشيين في أمورهم العامة. انظر: ابن الأثير، علي بن محمد، الكامل في التاريخ، بيروت، دار الصياد، ١٣٨٥ - ١٩٦٥، ج ٢، ص ٥٠٨.
- (١١) الوثيقة: هي أول دستور مدني، تمت كتابته فور هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وهو يهدف إلى تأسيس العلاقة بين الطوائف والجماعات في المدينة من أنصار ومهاجرين ويهود وغيرهم، انظر: انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٤٥٢.
- (١٢) صهيب الرومي: هو صهيب بن سنان المعروف بالرومي لأن الروم سبته صغيراً فتربى في ديارهم، وأخذ عنهم لسانهم، ثم اشتراه تاجر من العرب ثم اعتق، مولى لبني تيم بن مرة، أحد السابقين في الإسلام، توفي عام ٣٨ للهجرة. انظر سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ١٧.
- (١٣) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج ٣، ص ٢٢٧.
- (١٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٥٤٥.
- (١٥) سعد بن معاذ: هو سعد بن معاذ بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل أبو عمرو الأنصاري الأوسي، أسلم على يد مصعب بن عمير، شهد بدرًا، أصيب يوم الخندق فعاش شهراً ثم انقض جرحه فمات وكان ذلك العام الخامس للهجرة، انظر سير أعلام النبلاء، ج ٢٦، ص ٥١٧.
- (١٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ٢٧١.
- (١٧) فتح مكة: كان فتح مكة في العام الثامن للهجرة في شهر رمضان، انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ج ٤، ص ٣٣٠.
- (١٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ٢٧١.
- (١٩) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ج ٤، ص ٣٣٥.
- (٢٠) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ج ٤، ص ٣٣٧.
- (٢١) غزوة الأحزاب: كانت في شوال العام الخامس للهجرة، انظر: انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ج ٣، ص ١٨٤.
- (٢٢) سلمان الفارسي: قال عنه الحافظ بن عساكر: هو سلمان ابن الاسلام، أبو عبد الله الفارسي سابق الفرس إلى الإسلام، صحب النبي ﷺ، هو صاحب فكرة الخندق في غزوة الأحزاب، انظر: سير أعلام النبلاء، ج ١، ص ٥٠٥.
- (٢٣) أخرجه مسلم في صحيحه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، رقم الحديث ٢٠٤٠.
- (٢٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج ٢، ص ٢٢٤، رقم ٧٠٨٦.

الرّسوميّات وتأثيرها في الجيل الرّقميّ

أسعد محسن حسن قاسم^(١)

وتعدّدت استخداماتها. فالرّؤية تأتي قبل الكلمة^(٢). بحيث يمكن إيصال رسالة معينة من خلال الإشارة أو الإيماء من مسافة بعيدة، حيث لا مدى للصوت، وعليه لا مدى للإشارة الصّوتيّة (Phonogram). أضف إلى ذلك تصرّف الطّفل مع الأشياء بحيث يتعرّفها من خلال النّظر إليها، ومن ثمّ يميّزها بصريّاً قبل أن يتكلّم.

منذ ثمانينيات القرن العشرين، أصبح الخطاب البصريّ أكثر انتشاراً بحيث أصبحت الثّقافة الشّائعة في الوسائل الإعلاميّة هي الثّقافة البصريّة، والحصول على المعلومات غدت في أغلبها من خلال الصّور^(٣) وبناءً عليه يمكننا أن نقول إنّه أصبح في الإمكان التّطع إلى تحقيق محو الأميّة المعرفيّة من خلال الصّور بالدرجة الأولى بالإضافة إلى النّصوص والأرقام.

مقدمة

ارتبط الإنسان منذ فجر التّاريخ ارتباطاً علائقيّاً قوياً مع الأشكال والرّسومات، وقد برز ذلك من خلال الاكتشافات التي عُثر عليها في مساكنه ومخابئه. والجدير بالذّكر، أنّ هذه الأشكال والرّسومات لم تكن لهدف جماليّ أو تزيينيّ، وإنّما بهدف رساليّ، تواصليّ، وروحانيّ، حيث علّل العلماء السّببيّة التي من أجلها أقدم الهوموسيبيان Homosapien على استخدام هذه الرّسومات بوصفها طقوساً؛ وكأنّها تصوّر أو تنبؤ بطالع غدهم.

وعليه، كانت الصّورة أو التّصوير الوسيلة التّواصلية الأولى عند البشريّة من أجل نقل فكرة أو حدث أو تصوّر ما، وتطورت هذه التّقنية مع تقدّم الإنسان

(١) أسعد محسن حسن قاسم، أستاذ ورئيس قسم كلية الفنون، وممثل الهيئة الأكاديمية في الجامعة الأميركية للثقافة والتعليم.

(٢) Berger, J. (1972). *Ways of Seeing [essay collection]*. London: BBC and Penguin Books. P:07.

(٣) Elkins, J. (2209) *Visual Literacy*. New York: Taylor & Francis. P:04.

طريق إضافة «هكذا قال فيلسوف ياباني شهير، وكان على صواب». أما في عام ١٩٢٧ قامت مجلة برينترز إنك^(٢) Printer's Ink وهي المجلة نفسها التي نشر فيها برنارد Barnard مقاله في عام ١٩٢١، طباعة شكل آخر من القول نفسه ونسبته هذه المرة إلى أصل صيني: «الصورة الواحدة تساوي عشرة آلاف كلمة». (الصورة ٢)



وفي السياق نفسه، يعبر عن فكرة مفادها أن الصورة يمكن أن تنقل ما قد يستهلك استخدام الكثير من الكلمات للتعبير عنها من قبل شخصية في رواية إيفان س. تورغنيف Ivan S. Turgenev المعنونة «الآباء والبنون» في عام ١٨٦٢ بقوله: «الرسم يوضح لي بنظرة واحدة ما يمكن نشره على عشر صفحات في كتاب»^(٣). كما

وأصبحت وسائط الإنتاج، من حصيلة الثورة الصناعية، ظاهرة جماهيرية مع كون الصور والمطبوعات والأخبار التليفزيونية هي أكثر أشكال التواصل اليومي فعالية؛ وعلى اعتبار أن اختلاق الصور هو أمر طبيعي أي شأن يومي في نظام توليد الثقافة، قد يحدث حتى من دون انعكاس، لأنه لا يتطلب أكثر من الضغط على زر^(١).

الواقع الألفي للصورة

الصورة أبلغ من ألف كلمة، مثل معروف يتم تداوله في كثير من الأحيان للتعبير عن قدرتها على تحقيق الغاية المنشودة ونعني إيصال قصة بالقدر نفسه، إن لم نقل أكثر من الكلمات المكتوبة. ويعود ظهور هذا القول إلى الولايات المتحدة الأمريكية في أوائل القرن العشرين. وينسب إيتاؤه إلى فريدريك ر. برنارد Frederick R. Barnard، الذي نشر مقالاً في أواخر العام ١٩٢١ أشاد فيه بفعالية التصاوير في الإعلان، بعنوان «نظرة واحدة تساوي ألف كلمة» (الصورة ١). وأضاف برنارد Barnard أن مصدر العبارة هو شرقي عن

(١) As described by Vilém Flusser, *Ins Universum der technischen Bilder* [Into the Universe of Technical Images] (Göttingen, Germany: European Photography, 1985).

(٢) Printers 'Ink هي مجلة تجارية أمريكية أطلقتها جورج بي. رويل في عام ١٨٨٨. كانت أول مجلة تجارية وطنية للإعلان. تم تغيير اسمها للتسويق/الاتصالات Marketing/Communications في عام ١٩٦٧ وتوقفت عن النشر في عام ١٩٧٢.

(٣) Turgenev, I, (1917) *Fathers and Sons*. (C. C. Garnett, Trans.) New York: PF Collier & Son. P:77.

استخدمت في إعلانات حبوب لآلام الكلى
الظَهريَّة التي تضمَّنت صورة رجل يحمل
ظهره والنَّص «كل صورة تحكي قصة».
(الصورة ٣)



الصورة 3

له. ويجد الاستخدام الأوسع لهذا التقدم
ركيزته الرئيسية في الصُّورة التي يتمُّ من
خلالها جذب الفئة المستهدفة بطريقة مؤثرة
جدًّا، ناهيك عن تأثيرها الخاص في نقل
المعلومة كما أسلفنا. فمن خلال وجهة نظر
سيمولوجية يمكننا أن نقارب بين النظريات
ومدى تأثيرها في الفئة المستهدفة،
والجدير ذكره أن تركيز هذا البحث هو على
الجيل الرِّقْمِيّ بشكلٍ أساس.

المقاربة السيمولوجية للصورة

تعني السيمياءية - وتسمى أيضًا
السيمولوجيا - دراسة العلامات وسلوك
استخدام الإشارات. لقد جرى تعريفها من
قبل أحد مؤسسيها، وهو اللغوي
السويسري فرديناند دي سوسير
Ferdinand de Saussure، مع العلم أنَّ
استخدام الكلمة ظهر في القرن السَّابع عشر
على يد الفيلسوف الإنجليزي جون لوك
John Locke، ومع ذلك لم تظهر فكرة
الظواهر السيمياءية كنمط متعدّد
التخصّصات لفحص الظواهر في مختلف
المجالات إلا في أواخر القرن التَّاسع عشر
وأوائل القرن العشرين مع العمل المستقل
لسوسير Saussure والفيلسوف الأمريكي
تشارلز ساندرز بيرس^(١) Charles
Sanders Peirce.

كان لأواخر القرن العشرين وقع كبير
على آليات التَّغيير وسبلها، حيث أدّى ظهور
الاتّصال من خلال الإنترنت وشبكة الويب
العالمية إلى إعادة تعريف طريقة الحياة
البشريَّة فضلًا عن طرق تواصل البشر في
ما بينهم وقلبتا بشكل جذريّ. نحن إذًا
أمام جيلٍ مدفوع بالابتكار والاختراع، جيل
أصبح متاحًا له إجراء مكالمات مرئيَّة،
بالإضافة إلى الصَّوت عبر العالم بمجرد
تشغيل أجهزة الكمبيوتر أو الهواتف الذكيَّة.
وعليه، أحدثت التَّكنولوجيا المتقدمة هذه
ثورة في ممارسات الاستهلاك والعمل، ما
أتاح القيام بالإعلان والبيع والشراء من أي
مكان إلى أي مكان وفي أي وقت. ونتيجة
لذلك، لم تعد وسائط الاتصال المرئيّ تركز
فقط على الجماهير المحلية بل تقدمت إلى
تلك الموجودة حول طيف عالمي لا حصر

(١) فيصل الأحمر، (٢٠١٠). معجم السيمياءيات. الجزائر: الدار العربية والعلوم، منشورات الاختلاف. ص: ١٠.

لمجالاتها حتى جاء الرائدان الفعليان لها وهما: الأمريكي (شارلز بيرس) Charles Peirce والسويسري (دو سوسير) De Saussure على الرغم من أنهما لم يلتقيا ولم يتعرّف أحدهما إلى الآخر.

نظراً لمحدودية البحث في مجال الرّسومية سنتطرق إلى أحد أشهر أعلام السّيمولوجيا، ونعني الفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرز بيرس Charles Peirce، الذي يُعدُّ من أهم مؤسسي طرح السيمولوجيا^(٢)، حيث قدّم نظرية سيميولوجية غاية في التعقيد. مع ذلك، لم تختلف نظرتة للعلامة وفاعلية وظائفها الدلالية عن الطرح البنيوي الألسني الذي طرحه سوسير، إذ يُقسّم بيرس العلامات الحسية وغير الحسية إلى دال Signifier ومدلول Signified وعلاقات تربطها معاً. وطبقاً لنظرية بيرس فإن الدلالية العلاماتية هي «شيء ما من شأنه أن يقوم مقام شيء آخر، ويقوم مقامه بطريقة محددة بالنسبة إلى شخص معين»^(٤).

وعليه، تعدّ السّيميائية حقلاً من حقول المعرفة التي وسمت الدّراسات الحديثة، فمنذ ظهورها وهي تهتم بتفسير معاني الدلالات، والرّموز والإشارات. تعدّدت التّسميات العربيّة لهذا العلم فكان أبرزها السّيموطيقا، بالإضافة إلى علم الرّموز، أو العلامة، أو الدّلالة، مع العلم أنّ كلمة «سيمياء» هي الأقرب إلى العربيّة نظراً لارتباطها بالحقول الدلالي اللغوي - الثقافي^(١)، الذي بدوره ينتج عنه أصل الكلمة من السّمة، والسّمية، والوسم، والسّيماء، والسّيمياء^(٢). وتتناول العلامة عند العرب القدامى اللفظة والأثر النّفسي أي ما يسمى بالصّورة الذهنية والأمر الخارجي. كما تلازمت السّيمياء عند العرب أحياناً مع علوم السحر والطلاسم التي تعتمد أسرار الحروف والرموز والتخطيطات الدّالة، وتلاصقت في أحيان أخرى مع المنطق وعلم التفسير والتأويل، وهذا كله ليس بعيداً عن حقولها المعاصرة. وظلّت السّيمياء القديمة عند الإغريق والعرب والأوروبيين مختلطة المفاهيم، غير محددة

(١) ميجان الرويلي، وسعد البازعي. (٢٠٠٢). دليل الناقد الأدبي (الإصدار الثالث). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي. ص: ١٧٨.

(٢) فيصل الأحمر. (٢٠١١). الدليل السيميولوجي. الجزائر: دار الألفية للنشر والتوزيع. ص: ٠٧.

(٣) السيميولوجية Semiology (السيميوطيقا) لدى دارسيها تعني علم أو دراسة العلامات الإشارات دراسة منظمة منتظمة. ويفضل الأوروبيون مفردة السيميولوجيا التزاماً منهم بالتسمية السويسرية. أما الأمريكيون فيفضلون السيميوطيقا Semiotics، التي جاء بها المفكر والفيلسوف الأمريكي: تشارلز ساندرز بيرس.

(٤) ميجان الرويلي، وسعد البازعي. (٢٠٠٢). دليل الناقد الأدبي (الإصدار الثالث). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي. ص: ١٧٨.

ارتباط الدليل أو الشاهد Index والأيقون Icon والرمز Symbol مع بعضها البعض بحيث يمكن أن نحصل على أيقون رمزي أو رمز أيقوني، أو حتى يمكن أن نحصل على مؤشر أيقوني، أو أيقون إشاري، وهذا واضح في أغلب الرسوميّات التي تحتويها التطبيقات في الهواتف الذكية التي يُمكن أن تكون عبارة عن دليل Index يقتضي استجابة سببية مباشرة، لكن هذا لا يعني أنها لا تؤدي وظيفة الرمز Symbol ذلك أن اللون أو حتى الشّكل المعين ليس له علاقة واقعية حقيقية بالمدلول الذي يفرض عليه.

الصّورة في مقابل الرسومية

لقد وردت العديد من التعريفات للصّورة، فمن خلال تجزئتها يمكن الوصول إلى المفهوم المُراد إيضاحه إذ أنه عند القول صوّر الشخص أي رسمه على الورق، أو الحائط ونحوهما، وتختلف أصناف الصّورة من مفهوم لآخر ومن حقيقة لأخرى ويمكن تعريف الصّورة بأنها

ومن خلال الأساس^(١) الذي يرتكز على علاقة ثلاثية، وهي برأي بيرس Peirce التمييز بين مفاهيم الأيقون Icones، والدليل أو المؤشر أو الشاهد Index، والرمز Symbol^(٢). وفي هذا السّياق، يفسّر بيرس Peirce مفاهيم الأيقون بأنها تقوم على مبدأ المشابهة بين العلامة ومدلولها، فالصّورة الفوتوغرافية مثلاً هي من العلامات الأيقونية. أمّا الدليل أو الشاهد فهو الإشارة التي تتصل بشكل متلازم مع المدلول بعلاقة سببية أو تقاربية مثلما يشير البرق والرعد إلى العاصفة أو المطر. وبالنسبة للرمز فعلاقته بالمدلول علاقة اعتباطية، وهو بمثابة العلامة اللغوية عند دو سوسير^(٣) De Saussure.

مما تقدّم يمكن الإشارة إلى الرابطة العلائقية في علم الدلالات أو الإشارات في تأثيرها في الأجيال كافة وبخاصة في الجيل الرقمي الذي يتلقى معظم إشارات من خلال الرسومية التي سنأتي في السطور القليلة القادمة على توضيح وافٍ عنها ومدى

- (١) الأرضية أو الأساس التي يسميها بيرس هي الطريقة المحددة التي تكتمل بها العملية النياية الإشارية، أي من خلال العلامة التي تنوب محل شيء آخر، والمحلل أي الشخص الذي يدرك الإشارة.
- (٢) التفريع الشائع لهذه المفاهيم هو يحد ذاته متفرع من الموضوع أي الأمر الخارجي الذي هو واحد من تركيب ثلاثي المكمل للماثول أي الدال والتعبير أي الصورة الذهنية التي تصدر عن المعبر.
- (٣) يرى سوسير أن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية، وليس لها مبررات منطقية أو دوافع طبيعية أو حوافز أو أوجه شبه لتدل على كوكب الشمس كمفهوم أو مدلول هو واحد في كل العالم ولكن الدال الملازم له ليس واحداً ولو كانت العلاقة بين الدال والمدلول طبيعية أو منطقية لكان هناك دال واحد ملازم لمدلول الشمس في كل الكون، وفي كل لغات العالم، فالعلاقة بين الدال والمدلول تخضع لأحكام اللغة ذاتها وليس لأحكام الطبيعة أو المنطق.

حياتنا، ويسهل تعريفها نظرًا إلى تجلياتها المختلفة، وهذا الاختلاف والتنوع هو سمة من سمات الصورة رغم وحدة كينونتها كنوع فني محدد. فالصورة بشكل عام هي بنية بصرية دالة وتشكيل متنوع في داخله الأساليب والعلاقات والأمكنة والأزمنة فهي بنية حية تزخر بتشكيل ملتحم التحامًا عضويًا بمادتها ووظيفتها المؤثرة الفاعلة^(٣).

وبعد، تكمن أهمية الصورة في أنها تجذب انتباه المتلقي حيث إنّ حاسة البصر تملك أهمية كبرى بالنسبة إلى شعور الإنسان ودرجة فهمه. وغالبًا ما تعجز الكلمات عن إيصال المضمون إلى القارئ عندما تفتقد وجود صورة^(٤). أما التركيبية الأساسية للصورة فهي عبارة عن رموز، وأشكال بصرية بالإضافة إلى الألوان التي لديها التأثير الأكبر في المتلقي من خلال الدلالات والمعاني التي تحملها الألوان والرموز الأخرى. وقد حدد دي شامب^(٥) Des Champ ثلاثة أنواع من الرموز التي تتشكل منها الصورة وهي التشكيلية^(٦)،

تشخيص لشخص أو شيء ما عبر الرسم أو النحت أو التصوير اليدوي أو الفوتوغرافي أو السينمائي بالقلم أو بالآلة التصوير، إذًا هي نقل باليد أو عن طريق آلة التصوير لوقائع تمثل نماذج من الحياة والمجتمع. بالإضافة إلى أنّها كلّ ما نشاهده على شاشة التلفاز، والسينما، وجهاز الحاسوب والهاتف الذكي. من هنا نرى أنّ الصورة كلمة جامعة شاملة لكننا اعتدنا ربطها بالصورة المطبوعة أو الشريحة لعموميتها^(١). من ناحية أخرى تعدّ الصورة وسيلة تعبيرية، واتصالية تربطنا بتقاليدنا القديمة والغنية بثقافتنا^(٢).

إذًا يمكن وصف الصورة كأداة تعبيرية اعتمدها الإنسان لتجسيد المعاني والأفكار والأحاسيس، وهذا ما فعله الإنسان القديم في رسمه الصور التعبيرية ذات المعاني والأهداف الروحانية كما ذكرنا آنفًا، وهذا يؤكد العلاقة الوظيفية سواء أكانت إخبارية، رمزية، أم ترفيهية بكل أشكال الاتصال والتواصل. والصورة هي واقع متحقق في

(١) خالد فرجون. (٢٠٠٢). التصوير الضوئي في التعليم والإعلام. القاهرة: دار الحديث. ص:٦٠

(٢) Joly,M. (2017) *L'image et les signes*. Paris: Armand Colin. P:26.

(٣) Graugnard,G. & Hugo, J. (1982). *Audio-Visual for All*. Lyon: Social Chronicle. P:09

(٤) عبدة صبطي؛ ساعد ساعد. (٢٠١٦). الصورة الصحفية دراسة سيميولوجية. جدة: دار خوارزم العلمية للنشر. ص: ٣٨

(٥) FannyDeschamps, Lire l image au collège et au lycée, Paris, Hatier Pédagogie, 2004, p52.

(٦) الرموز التشكيلية: تتمثل في الأشكال، والخطوط، والإضاءة، والتي تحمل دلالات متعددة ونجد تطبيقاتها جلية في الفنون التشكيلية.

واللغوية^(١)، والبصريّة (الأيقون). ولأنّ البحث يتمحور حول الرمز البصري سنقوم بوضع تفصيل عن الرموز البصريّة التي تمثل الصّور الضوئية، والتصاميم.

إذاً كما بات معروفاً فإن الأيقون *Icones* تشير إلى وجود علاقة تشابه أو تماثل بين الشيء الذي طُرح والشيء الذي تمثله. ففي فهمنا للصورة وتحليلها وقع هام في إثراء الصّورة بالإضافة إلى التكوين وهو يتمتع بأهمية كبيرة أيضاً في نمط إدراكنا بعض دلالات الصّورة^(٢).

وتعبّر الأيقون عن الصّورة القائمة على التماثل بين الدال والمدلول أيضاً بحسب بيرس Peirce. وتشتمل الأيقون *Icones* على الرّسومات التشكيلية والمخططات والصّور الفوتوغرافية والعلامات البصريّة، وإن كنا سنحصر مجال استخدامها في بحثنا هذا على العلامات البصريّة في العالم الرّقميّ.

وبعد، تقع العلامات البصريّة ضمن نطاق الأيقون فضلاً عن كونها تُعبّر بوضوح عن الصّورة أو ما يصطلح على

تسميته بالرسوميّة *Graphic*. من هنا نجد أنّ تعريف الرّسوميّات يتطابق تمام المطابقة مع تعريف الصّورة وذلك بحسب قاموس ميريام ويبستر^(٣) *Miriam Webster*، إذ يُعرّف الرسومية بأنها صور أو تصميمات بصرية على بعض الأسطح، مثل الجدار أو القماش أو الشاشة أو الورق أو الحجر بهدف الإعلام، أو التوضيح، أو الترفيه. وفي الاستخدام المعاصر لها تشتمل على تمثيل بصري للبيانات، كما هي الحال في الصّورة المعروضة على الشاشة (الكمبيوتر، الهاتف،...).

تُعبّر الرسومية في ظاهرها عن صورة (رقميّة)، مع العلم أنّ فحواها قد ارتبط أكثر فأكثر بالعالم الرّقميّ إلى حد التّماهي معه. فما هو تأثير هذه الرّسوميّات في الجيل الرّقميّ؟ ينبغي، للإجابة عن هذا السؤال تحديد المقصود بالجيل الرّقميّ ومعرفة مدى إسهام البُعد الزمني والتطور التكنولوجي في اكتسابه هذه الصفة. ذلكم ما سنعرض له في القسم الثّاني من البحث مع التّركيز على مدى تأثير الرّسوميّات في سلوكياته وتصرفاته.

(١) الرموز اللغوية: وهي أصغر جزء في اللغة وتمثل في الكلمات التي تتمتع باستقلالية المعنى، وكذلك الضمائر ونهايات تصريفات الأفعال والتي لا تتمتع باستقلالية المعنى.

(٢) دور عبد الله ثاني. (٢٠٠٥). سيميائية الصورة: مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم. عمان: دار الغرب للنشر والتوزيع. ص:

(٣) Merriam-Webster. (December 28,2019). *Graphic*. Retrieved from Merriam-Webster: <https://www.merriam-webster.com/dictionary/graphics>.

ماهية الجيل؟

الجيل (Generation) هو مفهوم ذو أصل إغريقي وجذورٌ ضاربة الفلسفة اليونانية، وفي القرن التاسع عشر حيث كتب «روبرت ووهل» Wohl Robert: «خلال أوائل القرن التاسع عشر، استُخدم مصطلح «الجيل» بشكل أساسي للدلالة على العلاقة بين الآباء وأبنائهم أو معاصرتهم»^(١). وفي عام ١٨٦٣، عرّف إميل ليتري Emile Littré، في معجم المصطلحات الفرنسي الجيل بأنه «كل الرجال الذين يعيشون في نفس الوقت تقريباً»^(٢). في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تم استخدام المصطلح بشكل واسع لربط المعاصرين، وخاصة لاستجلاب الانقسام بين الجيل الأكبر سناً و«الشباب»^(٣). إذاً الجيل هو مجموعة من الأشخاص الذين ولدوا في نفس الوقت تقريباً ونشأوا على نفس التجارب والمواقف^(٤). ويُظهر الأشخاص في نفس

«مجموعة المواليد» Birth Cohort خصائص وتفضيلات وقيماً متشابهة على مدار حياتهم. ويعتقد مركز حركية الأجيال Center for Generational Kinetics^(٥) أن رموز قوية تدري من أين تبدأ التواصل والتأثير في الأشخاص من مختلف الأعمار^(٦).

إنّ دراسة مفهوم «الجيل» هي دراسة مهمة في المجتمع الذي يحوي فئة الشباب بين طبقاته، هذه الفئة التي تنضوي تحت لوائها أجيال متنوعة، وهناك اختلافات كبيرة بين الأجيال، ومن المهم معرفة السنوات التي يبدأ فيها كل جيل وينتهي^(٧). تُقسم السنوات إلى عدة أجيال وذلك بحسب اختلافات متعددة، فالإغريق القدامى كانوا مدركين بأن العلاقة بين الأعمار ليست متجانسة بالضرورة، وبالتالي كانوا مدركين للنتائج الاجتماعية والسياسية للتعارض بين الأجيال، «فأفلاطون» كان

(١) Laskow, S. (2014, September 11). *Technology*. Retrieved November 18, 2019, from The Atlantic: <https://www.theatlantic.com/technology/archive/2014/09/the-generation-of-generations/379989/>

(٢) Littré (2019, November 22). «*génération*», *définition dans le dictionnaire Littré*. Retrieved from Dictionnaire Littré: <https://www.littre.org/definition/g%C3%A9n%C3%A9ration>

(٣) Laskow, S. op. cit.

(٤) Collins. (December, 29, 2019). *generation*. Retrieved from Collins Dictionary: <https://www.collinsdictionary.com/dictionary/english/generation>

(٥) genhq. (December 28, 2019). *An Intro To Generations*. Retrieved from The Center for Generational Kinetics: <https://genhq.com/FAQ-info-about-generations/>

(٦) Ibid.

(٧) Ibid.

بحيث يمكن رصد كل شريحة من هذه الشرائح من خلال تأثيراتها في السوق والمجتمع. إذن تتضمن القوى العاملة أربعة إلى خمسة أجيال. في ما يلي سنوات الميلاد لكل جيل:

الجيل الصامت: يشير «الجيل الصامت» إلى الأشخاص الذين وُلدوا بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٤٥. هناك العديد من النظريات حول مكان نشأة «الجيل الصامت». والجدير بالذكر أنَّ الأطفال الذين نشأوا خلال هذا الوقت عملوا بجد وظلّوا هادئين. كان المفهوم السائد أن الأطفال يجب أن يُنظر إليهم وألا يتم سماعهم.

في عام ١٩٥١، كُتب مقال في مجلة «التايم»^(٢) Time وُصف فيه أطفال هذا الجيل بأنهم أطفال غير خياليين، ومتحفظون، وغير مغامرين، وحذرون. استخدمت مجلة «تايم» Time اسم «الجيل الصامت» للإشارة إلى هؤلاء الأفراد. واعتمد هذا الاسم منذ ذلك الحين^(٣).

جيل طفرة المواليد: تُشير تسمية هذا الجيل إلى الارتفاع الحاد في معدلات

يرى في الصراع الجيلي قوة محرّكة للتغيير الاجتماعي، و«أرسطو» كان يفسر الثورات بالصراع بين الأبناء والآباء، وليس فقط بالصراع بين الطبقات^(١) إذًا من العوامل الأساسية التي تساعد في تشكيل جيلٍ معين هي التربية، والتكنولوجيا، والاقتصاد.

شرائح الأجيال

استنادًا إلى ما تقدّم، وانطلاقًا من التعريف المعاصر للأجيال، يتضح لنا أنّهما يتّسمان بالخصائص نفسها كعملية التّواصل، والتّسوق، والميول أو النّزعة والاتجاه Trend، وأيضا المحفزات والدوافع، وذلك نظرًا لمعاصرتها - أي الأجيال - نفس الأحداث والتّطورات الأساسية والمؤثرة بشكلٍ واسع، ناهيك عن صيرورة العالم كقرية واحدة بفعل التقدم، والتواصل التكنولوجي (التلفاز، الإنترنت، الهاتف الذكي، ...).

ما هي الشرائح الأساسية للأجيال؟

من خلال تتبع السّنوات السالفة نستطيع تقسيم الأجيال إلى خمس شرائح،

(١) وليد المطري. (٢٣ October, 2016). *سوسيولوجيا الأجيال*. تاريخ الاسترداد ١٥ December, 2019، من

إضاءات: <https://www.ida2at.com/sociology-of-generations>

(٢) Time هي مجلة إخبارية أسبوعية أمريكية وموقع إخباري منشور في مدينة نيويورك. تأسست في عام ١٩٢٣، يتم نشر طبعة أوروبية في لندن وتغطي أيضًا الشرق الأوسط وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

(٣) TIME Magazine. (1951, November 5). *People: THE YOUNGER GENERATION*. Retrieved December 18, 2019, from TIME: <http://content.time.com/time/subscriber/article/0,33009,856950,00.html>

الأعوام ١٩٦٧ و١٩٨٢ غالبًا ما يشار إليهم باسم «جيل الكسالى» أو «الطفل الأوسط المنسي»^(١)، بحيث يعتبر جيل طفرة المواليد بالجيل الذي قام بامتصاص كل الأكسجين في الغرفة، وسيطر على الساحات السياسية والتعليمية والتجارية والاجتماعية. بحيث يمكن القول إن المجتمع كان دائمًا تحت ظل الطفرة.

ليس هناك شك في أن الجيل X، يتمتع بالذكاء التكنولوجي^(٢)، مع الحفاظ على الأساليب التقليدية بالتسويق عبر الانترنت، وهو أكثر عرضة للتفاعل مع الإعلانات عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

جيل الألفية: المصطلح الأكثر تقنية لجيل الألفية هو الجيل Y، لأنه يأتي بعد الجيل X وقبل الجيل Z^(٣). وكما هو واضح من تسميته «Millennials»، فإن المصطلح يشير إلى الأشخاص الذين ولدوا ما بين أوائل الثمانينيات وأوائل الألفية الثانية، أما بحسب مركز بيو للأبحاث Pew Research Center فقد جرى تحديد العام ١٩٩٦ تاريخًا لنهاية جيل الألفية وبداية

المواليد التي لوحظت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، بين ١٩٤٦ و١٩٦٤. ففي نهاية عام ١٩٤٦، وهي السنة الأولى من طفرة المواليد، كان هناك ما يقرب من ٢,٤ مليون مولود، والعام الأخير من طفرة المواليد، أي في عام ١٩٦٤، كان هناك ما يقرب من ٧٢,٥ مليون مولود. بلغ عدد السكان ذروته في عام ١٩٩٩، مع ٧٨,٨ مليون من مواليد الأطفال، بما في ذلك الذين ولدوا بين عامي ١٩٤٦ و١٩٦٤.

وعلى المقلب الآخر، يرى كل من هاو Howe وشتراوس Strauss، في كتابهما، «الأجيال: تاريخ مستقبل أمريكا» Generations: The History of America's Future، بأن طفرة المواليد بدأت كظاهرة اجتماعية وثقافية مع أشخاص ولدوا في العام ١٩٤٣.

الجيل X: هناك جدل حول بداية «الجيل X»، ونهاية جيل «طفرة المواليد» بحيث يُعتقد أن الفترة التي تمتد من نهاية الستينيات إلى أوائل الثمانيات هي تابعة للجيل X، وقد تم تحديد هذا الجيل بين

(١) Woo, A. (November 14, 2018). *The Forgotten Generation: Let's Talk About Generation X*. Retrieved November 19, 2019, from Forbes: <https://www.forbes.com/sites/forbesagencycouncil/2018/11/14/the-forgotten-generation-lets-talk-about-generation-x/#67057f5276d5>

(٢) Ibid.

(٣) سابرينا بار. (٣٠ أبريل، ٢٠١٩). *إلى أي جيل تنتمي؟ الألفية أم الجيل X أو Z؟ تم الاسترداد من Independent Arabia*: <https://www.independentarabia.com/node/21541> /منوعات-وترفيه/إلى - أي - جيل - تنتمي؟ -

الألفية - أم - الجيل - x - أو - z؟

الإنترنت أو الهواتف الذكية أو Netflix أو Uber أو Amazon.

وعلى الرغم من الهالة الكبيرة التي أحاطت بالجيل الألفية، لكن يتوقع مركز بيو للأبحاث (Pew Research Centre) أن الجيل الرقمي سيتفوق على الألفية في المستقبل القريب. ووفقًا لدراسة أجرتها ZeroCater، فإن ٩٨٪ من مواليد هذا الجيل لديهم جهاز محمول، ويقضي ٥٠٪ منهم ١٠ ساعات على الأقل يوميًا عبر الإنترنت^(٣). بالنظر إلى أن معظم الأشخاص في هذه المجموعة ما زالوا في المدرسة، فإنهم يمضون وقتًا واهتمامًا كبيرين في المجال الرقمي.

ويتميز هذا الجيل عن سابقه من الأجيال وخاصة جيل الألفية الذي شهد ولادة الانترنت وعيش بروز الظواهر الرقمية، بأنه وُلد في خضم الثورة التكنولوجية، فهو يفضل التعامل مع منصات مثل السناب شات Snapchat، وإنستغرام Instagram، على خلاف الألفية الذي يُفضل الفيسبوك Facebook أكثر،

جيل جديد^(١). كما يتم تعريف جيل الألفية على أنه بارع بشكل خاص في استخدام منصات التكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي.

الجيل Z: طبقًا لمركز بيو للأبحاث (Pew Research Centre) فإن هذا الجيل بحسب وصفهم هو «ما بعد جيل الألفية»، وذكر أن أولئك الذين يندرجون في هذه الفئة ولدوا في العام ١٩٩٧ وما بعده. بحيث يمكن وصف هذا الجيل أيضًا بالبراعة والإبداع في استخدام جميع الأمور المتعلقة بالتكنولوجيا، وذلك بحكم ولادته خلال فترة نمو رقمي سريع الخطى^(٢).

الجيل الرقمي في مقابل الرسومية

من هنا يمكن تسمية الجيل Z بالجيل الرقمي وذلك لأنه وُلد في خضم الثورة التكنولوجية، فوجد نفسه محاطًا بالأجهزة والبيئات التفاعلية منذ ولادته، وانغمس في عالم رقمي قبل أن يتمكن من المشي أو الكلام - كل ما عرفه على الإطلاق هو العالم الرقمي، فهو لا يعرف عالمًا بدون

(١) Dimock, M. (2019, January 17). *Defining generations: Where Millennials end and Generation Z begins*. Retrieved December 10, 2019, from Pew Research Center: <https://www.pewresearch.org/fact-tank/2019/01/17/where-millennials-end-and-generation-z-begins/>

(٢) سابرينا بار. (April, 2019, 30). مرجع سابق.

(٣) Quillen, A. (2018, June 4). *The Workforce's Newest Members: Generation Z*. Retrieved December 20, 2019, from Zero Cater: <https://zerocater.com/blog/2018/06/04/workforce-newest-members-generation-z/>

توسطه إلى متوسط إلا أنه يبدو أن تأثيره سيكون فعالاً جداً، ذلك أن الجيل الرقمي يُمثّل الفئات العمرية ما بين خمسة إلى تسعة عشر عاماً، كما يمثل سبعة وعشرين في المائة من سكان العالم (٣).

بوجيز العبارة، يأتي الصراع حول كيفية التأثير في هذين الجيلين الالفي (بما أنه شهد قيامة التكنولوجيا الرقمية)، والرقمي الذي وُلد في خضم هذه الثورة. من الواضح والجلي أن الشركات ومنصات التداول والتطبيقات ووسائل التواصل الاجتماعي تتجه بشكل ممنهج نحو إتباع الرسوميّات كمؤثر ومفتاح عبور إلى ذهن هذا الجيل الذي يستميله كل ما يوحي السرعة البدهية وإيصال المعلومة بأقل جهد ممكن. فالطريقة التي كان يُخاطب بها الجيل الصامت وما قبله وما بعده وصولاً إلى لجيل X والألفية تختلف بشكل جذري عما هو متبع اليوم مع الجيل الرقمي، فالأوائل هم أجيال مدفوعة نصياً أكثر، والأخير هو جيل مدفوع رسوميّاً أكثر.

ومن المعروف أن منصات السناپ شات وإنستغرام تتداول الرسوميّات كواجهة أساسية في التواصل، أكثر منها على منصة الفاييسبوك، والذي بدوره ما يجده تهديداً ومنافساً قوياً له (١).

الخاتمة

يبقى الرهان قائماً حول تأثيرات الرسومية في الجيل الرقمي ومدى وقعها عليه بسبب عدم التركيز في خياراته المتأرجحة بين الرقمية والتقليدية، وذلك بحسب تقرير ميلوارد Kantar Millward Brown الذي يشتمل في أحد بنوده على توصية بعدم تجاهل الوسائط التقليدية، فعلى الرغم من الاستهلاك الواسع للوسائط الرقمية، إلا أن الجيل الرقمي ما زال معجباً بالوسائط التقليدية (٢). وهو بالفعل أبدى تقبلاً إيجابياً حول أشكال الإعلانات، كالإعلانات الخارجية والإعلانات المطبوعة والسينما والتلفزيون والإذاعة عن البدائل الرقمية القياسية.

فهذا الجيل على الرغم من صغر سنّه أو

(١) Sloane, G. (2018, February 12). *FACEBOOK SEES ITS GEN Z AUDIENCE SLIPPING AWAY TO SNAPCHAT*. Retrieved December 20, 2019, from AdAge: <https://adage.com/article/digital/facebook-sees-gen-z-audience-slipping-snapchat/312330>

(٢) Brown, K. M. (2019, December 28). *AD Reactions*. Retrieved from millward brown: <http://www.millwardbrown.com/adreaction/genxyz/global/overall-conclusions>

(٣) Ibid. Retrieved from millward brown: <http://www.millwardbrown.com/adreaction/genxyz/global/gen-x-y-and-z/generations>

خلالها بث إعلانات مختلفة لخدمات أو منتجات تتناسب والفئة المستهدفة، مع العلم أن الجيل الرقمي ليس من السهل خداعه من خلال رسومية معينة في إعلان موجه، فهو يمتلك القدرة على الاستفادة من محركات البحث لإيجاد ما يُقنعه بعكس ما هو معروض عليه، أو العودة إليه.

وينبغي ألا نغفل الإشارة في هذا السياق إلى نجاح تلك الوسائل في استدراج جيل طفرة المواليد إلى الاحتكام إلى لغته والاستغراق بوسائله التواصلية.

خلاصة القول، تمتاز الرسومية في العصر الرقمي بقدرتها على الوصول إلى كل منزل وشارع وحي، يبقى المستهدف، هو هذا الجيل الذي يتغذى يومياً على أعداد لا محدودة من تلك الرسوميّات، إذ يتلقى الإشارات والرموز الكامنة فيها، ويطلب المزيد، ويقارن، ويمحي، ويقوم بتنصيب الجديد منها إلى حين نفاذ الشاحن، مع رسومية أخرى (الصورة ٦).



الصورة ٦

الصورة ٦



صورة ٤: الهاتف الذكي في مقابل الهاتف المحمول.

الصورة ٤: الهاتف الذكي في مقابل الهاتف المحمول، الايقون في مقابل النص.

كما هو مبين في (الصورة ٤) يبدو الاختلاف شاسعاً في طريقة التواصل، أضف إلى ذلك، أن المستهدف من أحدهما لا يعني الآخر إطلاقاً. ناهيك عن التعبير عن الحالات النفسية وعن جملة احتياجات طارئة ومشاعر مستجدة من خلال ما يسمى بالرموز التعبيرية emojis التي تختصر مقالاً من الكتابات برسومية واحدة (الصورة ٥).



الصورة ٥

وتعتمد المنصات كافة طرقاً جديدة وجذابة للمستخدمين الذين يمضون ساعات طويلة أمام اللوحة المتوهجة وآخرها كانت الملصقات Stickers، كل هذا من أجل جذبهم لتمضية وقت ممتع أكثر يتم من

References

- Berger, J. (1972). *Ways of Seeing [essay collection]*. London: BBC and Penguin Books.
- Brown, K. M. (2019, December 28). *AD Reactions*. Retrieved from millward brown: <http://www.millwardbrown.com/adreaction/genxyz/global/overall-conclusions>
- Collins. (2019, December 29). *generation*. Retrieved from Collins Dictionary: <https://www.collinsdictionary.com/dictionary/english/generation>
- Dimock, M. (2019, January 17). *Defining generations: Where Millennials end and Generation Z begins*. Retrieved December 10, 2019, from Pew Research Center: <https://www.pewresearch.org/fact-tank/2019/01/17/where-millennials-end-and-generation-z-begins/>
- Elkins, J. (2009). *Visual Literacy*. New York: Taylor & Francis.
- genhq. (2019, December 28). *AN INTRO TO GENERATIONS*. Retrieved from The Center for Generational Kinetics: <https://genhq.com/FAQ-info-about-generations/>
- Graugnard, G. , & Hugo, J. (1982). *Audio-Visual for All*. Lyon: Social Chronicle.
- Joly, M. (2017). *L'image et les signes*. Paris: Armand Colin.
- Laskow, S. (2014, September 11). *Technology*. Retrieved November 18, 2019, from The Atlantic: <https://www.theatlantic.com/technology/archive/2014/09/the-generation-of-generations/379989/>
- Littré. (2019, November 22). «*génération*», *définition dans le dictionnaire Littré*. Retrieved from Dictionnaire Littré: <https://www.littre.org/definition/g%C3%A9n%C3%A9ration>
- Merriam-Webster. (2019, December 28). *Graphic*. Retrieved from Merriam-Webster: <https://www.merriam-webster.com/dictionary/graphics>
- Quillen, A. (2018, June 4). *The Workforce's Newest Members: Generation Z*. Retrieved December 20, 2019, from Zero Cater: <https://zerocater.com/blog/2018/06/04/workforce-newest-members-generation-z/>
- Sloane, G. (2018, February 12). *FACEBOOK SEES ITS GEN Z AUDIENCE SLIPPING AWAY TO SNAPCHAT*. Retrieved December 20, 2019, from AdAge: <https://adage.com/article/digital/facebook-sees-gen-z-audience-slipping-snapchat/312330>
- TIME Magazine. (1951, November 5). *People: THE YOUNGER GENERATION*. Retrieved December 18, 2019, from TIME: <http://content.time.com/time/subscriber/article/0,33009,8-56950,00.html>
- Turgenev, I. (1917). *Fathers and Sons*. (C. C. Garnett, Trans.) New York: PF Collier & Son.
- Woo, A. (2018, November 14). *The Forgotten Generation: Let's Talk About Generation X*. Retrieved November 19, 2019, from Forbes: <https://www.forbes.com/sites/forbesagencycouncil/2018/11/14/the-forgotten-generation-lets-talk-about-generation-x/#67057f5276d5>

- جاك أومون. (٢٠١٣). الصّورة. (ريتا الخوري، المترجمون) بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- خالد فرجون. (٢٠٠٢). التّصوير الضوئي في التعليم والإعلام. القاهرة: دار الحديث.
- سابرينا بار. (April, 2019, 30) إلى أي جيل تنتمي؟ الألفية أم الجيل X أو Z ؟ تم الاسترداد من *Independent Arabia*: <https://www.independentarabia.com/node/21541> - وترفيه/إلى - أي - جيل - تنتمي؟ - الألفية - أم - الجيل - x - أو - z ؟
- عبيدة صبطي؛ ساعد ساعدع. (٢٠١٦). الصّورة الصحفية دراسة سيميولوجية. جدة: دار حوارزم العلمية للنشر.
- فيصل الأحمر. (٢٠١١). الدليل السيميولوجي. الجزائر: دار الألفية للنشر والتوزيع.
- فيصل الأحمر. (٢٠١٠). معجم السيميائيات. الجزائر: الدار العربية والعلوم، منشورات الاختلاف.
- قدور عبد الله ثاني. (٢٠٠٥). سيميائية الصّورة: مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم. عمان: دار الغرب للنشر والتوزيع.
- ميغان الرويلي، وسعد البازعي. (٢٠٠٢). دليل الناقد الأدبي (الإصدار الثالث). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- وليد المطري. (October, 2016, 23). سوسيولوجيا الأجيال. تاريخ الاسترداد 15 December, 2019، من إضاءات: <https://www.ida2at.com/sociology-of-generations/>

الحج الشامي في العصر العثماني

د. هنادي أمين

والبصرة محطات للقادمين من مشارق العالم الإسلامي، فيما كانت مدن القاهرة والقدس ودمشق المقصد الأخير للحجاج للتجمع قبل الانطلاق في القوافل المنطلقة على دروب الحج. فكان هناك طرق الكوفة - مكة، وهو من أهم طرق الحج والتجارة، وعُرف باسم درب زبيدة، نسبة إلى زوجة الخليفة هارون الرشيد التي أسهمت في عمارته وإغنائه بالعمارات والمحطات والمرافق اللازمة من آبار وغيرها^(١). ثم طريق البصرة، ويلتقي طريق البصرة بالطريق الرئيسي الممتد من الكوفة عند منطقة معدن النقرة، كما يلتقي به عند محطة أم خرمان في الأوطاس^(٢). ومن طرق الحج أيضاً، تلك التي ربطت بين اليمن والحجاز وقد اختلفت مساراتها، وتعددت كذلك المدن التي تسير منها، ولعل أهم

ارتبط تاريخ المسلمين وترابطهم في ما بينهم بالحج، إذ اعتبرت قوافل الحج التي عبرت الدروب من قارات العالم القديم، بمثابة جسور تواصل تلتقي مرة كل عام في مكة مهد الرسالة وعاصمة الإسلام الدينية على مر العصور. وكانت وتيرة الركبان عامرة على تلك الدروب، وارتبطت بها حركة التجارة والثقافة والعمران. وليس هذا فحسب، بل غدت هذه الدروب مسارات ثابتة في غير مواسم الحج، يسلكها المسافرون بين الأمصار كونها أسلم الطرق بما تحويه من محطات وخانات تساعد المسافر على التقاط أنفاسه من وسائل النقل البسيطة التي كانت معتمدة آنذاك.

وبالنسبة للحج، على مر العهود الإسلامية، تعددت الدروب المؤدية إليه من الأمصار. فكانت مدن بغداد والكوفة

(١) سعد عبد العزيز الراشد، درب زبيدة، طريق الحج من الكوفة الى مكة المكرمة، ط١، دار الوطن للنشر والاعلام، الرياض، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٢) عوض بن صالح السرور، طريق الحج البصري بين النجاج والرقعي، شبكة الوسام، ٢٠١٢.

المدن التي انطلقت منها جموع الحجاج اليمنيين إلى مكة هي: عدن، وتعز وصنعاء وزبيد وصعدة في شمال اليمن.

ومن ناحية المغرب، ارتسم درب الحج المصري، يسلكه حجاج مصر ومن رافقهم من حجاج المغرب والأندلس وأفريقيا في طريقهم إلى مكة المكرمة متجهين إلى شبه جزيرة سيناء للوصول إلى أيلة «العقبة» وهي أول محطة في الطريق، ويلتقي هذا الدرب في منطقة السقيا «الخشبية» بطريق الحج الشامي ليسير معه إلى المدينة المنورة. ومن سواحل الشام، كان الطريق الشامي هو الأهم، ويبدأ مساره من دمشق، ويمر ببصرى الشام «درعا»، وعرف أيضاً باسم التبوكية نسبة إلى بلدة تبوك التي يمر بها.

في العهد العثماني، وبعد تمدد السلطنة العثمانية على بلاد الشام والعراق والحجاز ومصر، أبدى العثمانيون اهتمامهم بتجهيز قوافل الحجاج وبذلوا في ذلك الجهود المتعددة، على المستويات كافة. لا سيما وأن السلاطين، ومنذ إبداء شريف مكة فروض الطاعة للسلطان سليم الأول، أوقفوا على مكة، قبلة المسلمين، الأوقاف، فكان لها ثلث ما يجبي من مصر، ثم أوقفوا عليها مردود اليونان بعد فتحها؛ إضافة إلى إعفائها من الضرائب.

كانت قافلة الحج الشامي إحدى القوافل

التي كانت تجهز من قبل السلطات العثمانية في الأمصار؛ فكان هناك قافلة الحج العراقي وضمت حجاج العراق وفارس، وقافلة الحج اليمني، وتضم حجاج اليمن والهند وماليزيا وأندونيسيا، وينضم إليهم حجاج الحبشة والصومال والأفارقة الذين يصلون إلى مصوع وسواكن وموانئ اليمن. وتجدر الإشارة إلى أن قافلة الحج المصري كانت من أهم القوافل: إذ كانت تضم حجاج مصر وشمال أفريقيا، وتركز عليها الاهتمام كونها ضمت المحمل المصري وكسوة الكعبة المشرفة الجديدة.

بالنسبة لقافلة الحج الشامي، كانت تضم حجاج بلاد الشام والجزيرة وأذربيجان والقوقاز والقرم والأناضول والبلقان، وحجاج إستانبول نفسها، وكان عددها يتراوح ما بين ثلاثين وخمسين ألفاً. من هنا، يمكن اعتبارها أيضاً من أهم القوافل، إذ كان السلطان العثماني يشرف بنفسه على ترتيب وإعداد هذه القافلة وخروجها من مدينة إستانبول. وقد لعبت قافلة الحج الشامي دوراً مهماً في تاريخ دمشق وبلاد الشام بعامه، وكانت لها أهمية خاصة في الدولة العثمانية لأن السلطان العثماني، منذ فتحه حلب في عام ١٥١٦م، اتخذ لقب حامي (أو خادم) الحرمين الشريفين، واقتضى ذلك تأمين سلامة الحجاج لزيارة الحرمين الشريفين.

تبوك، ثم الأخيضر ثم المعظم ثم الأقرع، ثم الحجر، ثم العلا فيمر بعد العلا على قلعة الفقير (مغيرة)، ثم على سهل المطران، ثم بقلعة زمرد، ثم بالبئر الجديدة، ثم هدية، ثم إسطلب عنتر، ثم الفحلتين، ثم أبار نصيف، ثم الحفيرة واصلا الى طابة الطيبة.^(٣)

أولاً: التوافد وتهيئة القافلة:

قبل موسم الحج، كان يدخل دمشق، عدد كبير من الحجاج، من المناطق الشمالية والشرقية، من داخل الدولة العثمانية وخارجها، ويصلون إليها جماعات عرفت بحسب مناطقها؛ وكان أبرزها الحج الرومي، والحج الحلبي، والحج العجمي، والحج الشامي، ولم تكن هذه التقسيمات الجغرافية ضيقة المعنى، إذ التحق بهذه الجماعات حجاج من خارج مناطقهم. وكان أكثر هذه الجماعات عددًا الحج الرومي لأن كلمة روم أطلقت على المناطق ما وراء طوروس والفرات.^(٤)

وكان موعد التوافد على مدينة دمشق بدءًا من شهر رمضان، حيث ينزل الوافدون في الخانات، كخان الحرميين القريب من باب

أما بالنسبة للطريق الذي سلكته قافلة الحج الشامي، قديمًا فكان على ثلاثين مرحلة وفق ابن شجاع، في رسالته منازل الحجاز: الكسوه - الضمير - زرع - وادي الشجرة - وادي الظليل - وادي الزرقاء - زيزا في البلقاء - ألف نادور - قبل الجول - عسيكر - أرض الحفير - مدينة معان - مسيل مسيحر - عقبة - سرغ - حالة - مدينة تبوك - وادي الديسة ويسمى وادي الطلح - بئر الأخيضر - اسفل الحاكة - الأقرع - الحجر - العلا - الحفائر - دياوان - هدية - وادي المفرح - غدیر يلب - غراب - وصولاً الى المدينة الشريفة^(١).

ويقول الجزيري إن المسافة بين تبوك والعلا تعتبر الأكثر مشقة، حيث لا يتوسط مسافتها سوى بئر واحدة، هو الأخيضر، وتسمى المفازة الكبرى، وقد اعتنى بعض التجار الشاميين بعمله وإصلاحه^(٢).

وفي العهد العثماني، يبدأ مسار هذا الطريق من دمشق ويمر ببصرى الشام (درعا)، وبمنازل أخرى أهمها أذرعان، ومعان والمدورة (سرغ) ثم يدخل الحجاز، ويمر على حالة عمار، ثم ذات الحاج ثم

(١) جاسر الحمد، منازل الحج الشامي لابن شجاع الدمشقي، مجلة العرب، ١٩٧٦، مجلد ١٠، ص ٨٦٩-٩٠٨.
(٢) عبد القادر بن محمد الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ج ٢، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢، الباب الخامس، ص ٦٣.
(٣) راجع الخريطة رقم ١.
(٤) صلاح الدين المنجد، ولاية دمشق في العهد العثماني، دمشق، ١٩٤٧، ص ٢، ٥٣.

البريد، وخان أسعد باشا في سوق
البزورية، وفي أحياء الخراب شمال حي
الشاغور والقنوت وسوق ساروجة.

ولم يشر المؤرخون إلى عدد حجاج
قافلة الحج الشامي ككل إلا في الحالات
التي هوجمت فيها القافلة في طريقها إلى
الحجاز. ولم تكن الأعداد التي أعطوها
صحيحة لأنها غير مبنية على أية وقائع.
وكثيراً ما كانت تضخم للإيحاء بشدة
الهجوم وكثرة الخسائر، كما حدث مثلاً
بالنسبة للقافلة التي هوجمت في طريق
العودة في أيلول ١٧٥٧م، في المنطقة بين
القطرانة ومعان. وقد قدر عدد هذه القافلة
الرحالة الفرنسي فولني، الذي زار بلاد
الشام في حوالي عام ١٧٨٤م، بأنه كان
٦٠٠٠٠^(١). وقدرها مصدر معاصر في
استانبول بأنها كانت بين ٧٠٠٠
و١٠٠٠٠؛ وذكر فولني أن عدد حجاج
القافلة في الظروف العادية تراوح بين
٣٠٠٠٠ و٥٠٠٠ وقد قدر عددها مراقب آخر
في عام ١٧٣٩م بأنه يتراوح بين ١٥٠٠٠
و٢٠٠٠٠. ولعل متوسط عدد حجاج قافلة
الحج الشامي كان بحدود ٢٠٠٠٠، وارتفع
أحياناً إلى ٤٠٠٠٠، أو أكثر^(٢).

وقد تناقص عدد الحجاج الأروام،

الملتحقين بقافلة الحج الشامي، في القرن
التاسع عشر الميلادي/الثالث عشر
الهجري، في أعقاب تسيير البواخر المنتظمة
في البحر الأبيض المتوسط، فانقل عدد
متزايد من الحجاج بواسطتها إلى جدة،
وبخاصة بعد افتتاح قناة السويس في عام
١٨٦٩م. وقدر عدد حجاج القافلة التي
عادت إلى دمشق في ٢١ نيسان ١٨٤٥ بـ
٦٠٠٠ منهم ٢٠٠٠ تركي و٢٠٠٠ عجمي
والبقية من العرب^(٣).

وممن وصف الحج الشامي التونسي
سنة ١٣٠٠ هـ، وقال إن القافلة يرافقها
٤٠٠ عسكري على الخيل و١٠٠ جندي
رامي و٥٠ طوبجية معهم مدفعين وباش
بوسطجي بيده أمرة المكاتب الصادرة
والواردة كما يرافقهم نائب القضاء محمود
أفندي. ورافق الحملة الطبيب نائف أفندي.
وكان عدد النفوس ٥٠٠٠ شخص بين
رجال وركبان مقسمين على المقومين. وفي
رحلة أحدث دونها سليمان شفيق كمالي
عام ١٣٠٦ هجري، وكان والده حاملاً
للصرة وقد دون يوميات مفيدة جداً يقول:
وقد خرج الركب من دمشق ٢٠ مايو
ويقول إنه كان في القافلة ٣٠٠ أو ٤٠٠

(١) أحمد البديري الحلاق، حوادث دمشق اليومية، تحقيق أحمد عبد الكريم، القاهرة ١٩٥٩، ص ١٧٦.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) عبد الكريم رافق، قافلة الحج الشامي، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد ٦، ت ١، ١٩٨١، ص ٥-٦.

عكام و ٧٠٠ أو ٨٠٠ حمال وما يقرب من ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ ناقه. وكان قائد الحملة سعيد باشا^(١).

ثانياً: قيادة القافلة:

عمد العثمانيون، في بلاد الشام، إلى تعيين أحد الأمراء المحليين، من حكام صناعج غزة أو عجلون أو اللجون أو نابلس أو صفد أو القدس، التي كانت تتبع ولاية الشام، أميراً على الحج، وممن عين من هؤلاء الأمراء المحليين أمراء لقافلة الحج الشامي قانصوه بن مساعدة الغزاوي أمير عجلون والكرك، الذي شغل منصب أمير الحج الشامي مدة خمس عشرة سنة، من حوالي عام ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ - ١٥٧٢ م، وعين أيضاً لهذا المنصب الأمير منصور بن فريخ، أمير البقاع، الذي مد سلطته على صناعج صفد وعجلون ونابلس، والأمير أحمد بن الأمير قانصوه بن مساعد الغزاوي، حاكم عجلون، والأمير طراباي، حاكم اللجون، والأمير فروخ بن عبد الله، حاكم نابلس والقدس^(٢).

وكانت الدولة العثمانية قد اعترفت بهؤلاء الأمراء المحليين، الذين قامت قوتهم

على أسس قبلية وإقطاعية، حكماً على الصناعج التابعة لولاية الشام لأنهم أثبتوا وجودهم وسلطتهم محلياً، ثم عمدت إلى تعيين بعضهم أمراء للحج لأنهم أصحاب سلطة بين البدو وبإمكانهم تسيير قافلة الحج بسلام إلى الحجاز^(٣).

وحين قام فخر الدين المعني الثاني، أمير جبل لبنان، بتوسيع سلطته في الفترة بين ١٥٩٠ و ١٦٣٥ م، لتشمل الساحل اللبناني والبقاع وصناعج فلسطين، اصطدم بالأمراء المحليين، الذين عينوا أمراء على الحج، فأزال بعضهم من السلطة، وأضعف البعض الآخر. وحين قضت الدولة العثمانية على الأمير فخر الدين في عام ١٦٣٥ م ظهر فراغ محلي في المنطقة. سرعان ما ملأه ولاية دمشق وولاية صيدا، وعمدت الدولة إلى تعيين إنكشارية دمشق الذين ازدادت سلطتهم في هذه الفترة، أمراء على الحج الشامي^(٤).

ثم أقامت طائفة إنكشارية جديدة عرفت بالقابي (عبيد السلطان) إلى جانبهم. وكانت هذه الطائفة أكثر ولاء للسلطان. ولجأت الدولة إلى تعيين موظفين عثمانيين، ضموا بعض ولاية دمشق، أمراء للحج الشامي،

(١) عبد الله بن عبدالعزيز السعيد، درب الحج الشامي (١) مقدمة تاريخية، بحث منشور في موقع الصحراء:

<http://alsahra.org/?p=1024>

(٣) المرجع نفسه، ص ١٠.

(٢) أحمد البديري، المرجع السابق، ص ١٧١.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٦١.

هجوم عام ١١١٢هـ/ ١٧٠٠ - ١٧٠١م إلى إبادة القافلة بكاملها تقريباً. وتسببت كثافة الهجمات في الأضرار بهيبة الدولة لدى المسلمين^(٣).

ولهذا عمد السلطان في عام ١٧٠٨ إلى تعيين والي دمشق باستمرار أميراً للحج الشامي.

ومن التطورات الهامة التي ترتبت على تعيين والي دمشق أميراً للحج واستمراره في منصبه طالما أنه يؤمن سلامة القافلة مما أَرْضَى السلطان والرأي العام الديني. ولهذا شهدت دمشق، منذ عام ١٧٠٨، استمرار ولايتها في الحكم سنوات عديدة، خلافاً لما كان عليه الأمر في القرن السابق. وقد أدى ذلك إلى إطالة حكم الولاة من آل العظم الذين آمنوا سلامة القافلة، وحكموا دمشق حوالي ستين سنة بشكل متقطع في القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي.

واستمر ولاة دمشق يعينون أمراء للحج حتى عام ١٨٦٦ حين فصل المنصبان، وعهد بالإمارة إلى قائد قوات (الباشا بوزوق)، الذي أصبح يعرف بمحافظ الحج^(٤). وتشير مراجع أخرى أن والي سورية عام ١٨٧١، فقد «منصباً شرفياً هاماً، وذلك لفصل إدارة الحج الشامي عن

وعين بعضهم، في الوقت نفسه، حكماً على الصناجق السابقة. وطبيعي أنه لم تكن هناك من سنة محددة تم فيها استبدال طائفة من أمراء الحج بأخرى، إذ تداخلت الفترات مع بعضها، ومع ذلك تميزت كل فترة باشتهار فئة معينة في إمارة الحج^(١).

ولم يكن للموظفين العثمانيين، الذين عينوا أمراء للحج، مصالح محلية، على غرار حكام الصناجق المحليين، ليحرصوا عليها بل كان همهم الإثراء من منصبهم بعد أن اشتروه بالمال، لذا عمدوا إلى الامتناع عن دفع ما اعتادت الدولة دفعه من إعطيات للقبائل المتحكمة بطريق الحج لشراء طاعتها وحمايتها للقافلة. وقد عرفت هذه الإعطيات بالصر أو الصرة. وكانت تدفع للقبائل على قسطين، في الذهاب وفي الإياب وأدى امتناع أمير الحج عن دفع الصر إلى البدو، وبخاصة في طريق العودة، إلى مهاجمة القبائل للقافلة. ومما أغرى البدو للقيام بذلك أن القافلة في طريق العودة كانت محملة بالبضائع^(٢).

وقد هوجمت قافلة الحج سبع مرات في القرن التاسع عشر الميلادي، جرت خمس منها في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن، حين عين أمراء الحج من الموظفين. وأدى

(٢) المرجع نفسه، ص ٩.

(٤) المرجع نفسه.

(١) عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص ٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٠.

وظيفته وإفرادها بأمر خاص، وكان ذلك في عهد الوالي عبد اللطيف صبحي باشا^(١).

ثالثاً: تمويل القافلة:

تنوعت المصادر المالية التي مولت قافلة الحج الشامي، وجاء قسم كبير منها من الضرائب التي أشير إليها بمال الميري، أو من الرسوم التي فرضتها الدولة على التجارة والصناعات في ولاية الشام بصورة رئيسية وفي ولايات صيدا وطرابلس وحلب إلى حد ما. وقد سبقت الإشارة إلى أن تعيين أمير الحج من بين حكام صناعج نابلس، عجلون، اللجون، غزه، صغد، القدس، أو تعيين أمير الحج حاكماً، في الوقت نفسه، على واحد أو أكثر من هذه الصناعج، في الفترة التي سبقت تعيين والي الشام أميراً للحج، في ١٧٠٨، كان الهدف منه جمع أموال الميري من هذه المناطق لتمويل قافلة الحج. وعرف المال المخصص لذلك بأنه «مال الحج»، والمال المخصص للجردة بأنه «مال ملاقة الجردة»^(٢). .. وعندما عين والي دمشق أميراً للحج أصبح يخرج بنفسه كل سنة، قبيل خروج القافلة ليدور على الصناعج التابعة

لولايته ويجمع منها مال الميري المخصص للقافلة، وعرف خروجه هذا بالدورة. ورغم أن والي دمشق هو في الأساس المحصل الرئيسي لأموال الميري في ولايته فلم يكن مضطراً قبل تعيينه لإمارة الحج للخروج كل سنة لجمع الضرائب لأن حكام الصناعج المحليين الذين عينوا أمراء للحج قاموا عنه بهذه المهمة^(٣).

واستخدم أمير الحج هذه الموارد للإنفاق على احتياجات القافلة مثل استئجار قوى عسكرية غير نظامية للمشاركة في حماية القافلة، وتوفير المؤن اللازمة للقائمين بشؤون الحج، وكذلك وسائل نقلهم.

واحتاج أمير الحج إلى استئجار المئات من الجمال لنقل الجنود والمؤن المتعلقة بالقافلة. فقد استأجر عثمان باشا والي الشام وأمير الحج، في جمادى الأولى ١١٧٤هـ/كانون الأول ١٧٦٠م، خمسمائة جمل من مشايخ قرى حوران لنقل أثقاله إلى المدينة المنورة. واستأجر أكثر من ذلك العدد في العام التالي.

وانفق أمير الحج، من المال المخصص للحج، المبالغ المرصدة للصر أو الصرة

(١) عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤-١٩١٤)، دار المعارف، مصر، لا ت، ص ٨٧.
(٢) محمد بن طولون، أعلام الوري، تحقيق أحمد دهمن، دمشق ١٩٦٤، ص ٢٢٠-٢٢٥.
(٣) عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر، دمشق ١٩٦٨، ص ٢٢٠-٢٢٥.

سكانها بتأجير الجمال إلى المسؤولين في دمشق^(٢).

وقد حضر مشايخ القرى، الذين أجروا الجمال إلى والي دمشق أمير الحج، إلى المحكمة الشرعية بدمشق لتسجيل واقعة التأجير وكيفية دفع الأجرة، وتبرئة ذمة الوالي مما يستحق لهم عليه.

ويشير عبد العزيز العظمة فيذكر في كتاب مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها عن وسائل الركوب للحجاج ويدعوها (المطايا) ما يلي: «مطايا الحجاج ثلاثة أنواع تخوت ومحائر ورهاوين، فالتخت كوخ خشبي ذو باب ونافذتين يُحمل على جملين أو بغلين متقابلين ويجلس فيه رجل واحد مرتاحًا، والمحارة محفة تُحمل على جمل وتُغطى بأقمشة مزخرفة على طراز أقمشة الخيام من نسيج مدينة دمشق، ولها مقعدان يجلس ويرقد فيها حاجان معًا. والرهاوين يختارها بعض الحجاج، ويفضلونها على المحارة، لأنها تساعد على النزول في الطريق، حيث توجد مقاهٍ سيارة ترافق الركب على آخره، لأن طول الركب عند المسير يتجاوز الساعة أو أكثر. وجُل مساحات المراحل طويلة لا يقوى الركب على قطعها دفعة واحدة، فيجعلون في

التي كانت تدفع إلى بعض القبائل البدوية على طريق الحج لشراء حمايتها. وقد حاول العثمانيون، في مطلع حكمهم لبلاد الشام، السيطرة على القبائل البدوية. في جنوبي بلاد الشام. ولكنهم فشلوا، ولذلك لجأوا إلى العادة القديمة بشراء رضى القبائل بالمال.

وكان السلطان العثماني يرسل، بمناسبة سفر قافلة الحج الشامي إلى الحجاز أعطيات نقدية وعينية، عرفت بالصرة، إلى أشرف وعلماء وفقراء الأماكن المقدسة، التي ضمت مكة والمدينة وأحيانًا القدس^(١).

رابعًا: نقل الحجاج:

مما يثير الاهتمام معرفة الطريقة التي تم بها نقل ما بين خمسة عشر ألفًا وعشرين ألف حاج، بالإضافة إلى القوات المرافقة لهم، ومن دمشق إلى الحجاز، كل سنة، وكذلك نقل القوات المرافقة للجردة. إن الحيوان الرئيسي الذي استخدم في عملية النقل كان الجمل. وقد اشتهرت قرى حوران، التي كان سكانها بدوًا أو من أصول بدوية، بتوريد آلاف الجمال إلى القائمين على شؤون القافلة مما سهل نقلها وأتى بالفوائد المالية لأصحاب الجمال. وقام مشايخ قرى حوران بالنيابة عن

(١) المرجع نفسه، ص ٢١٣-٢١٤، ٢٢٥-٢٣١.

(٢) عبد الكريم رافق، قافلة الحج الشامي، المرجع السابق، ص ١٠.

زبائنه، أو هربه في الطريق، تعهد المقومون، أمام القاضي الشرعي، قبل السفر إلى الحج، بأنهم يضمنون بعضهم بعضًا، فإذا أخل أحدهم بشروط العقد مع المسافر ضمنه زملاؤه، وضمن الجميع شخص واحد، وذلك لحصر المسؤولية^(٣).

وأسهمت طائفة العكامة^(٤) في عملية نقل الحجاج، ولكن دورها كان ثانويًا إذا ما قورن بالمقومين الذين تعهدوا عملية النقل بكاملها. والعكام هو الذي يقود الجمل ويخدم راكبيه. وفي حين أن طائفة المقومين اختصت بنقل الحجاج فقط، فإن طائفة العكامة استخدمت في مرافقة حيوانات النقل، من جمال وغيرها، وفي خدمات متعددة، مثل نقل الذخائر بين حلب وبلاد الروم، أو مرافقة المسافرين في أنحاء الامبراطورية. وأسهمت كذلك طائفة الجمالة في تقديم الجمال لأغراض الحج ولكنها لم تتدخل مباشرة بنقل الحجاج.

منتصف المساحة ساعة استراحة ينزل فيها الحجاج، ويقضون حاجاتهم، ويصلون، ويأكلون، ويشربون، ويطعمون دوابهم، ثم يرحلون على أصوات المدافع أيضًا^(١).

كما وقد وجدت طوائف حرفية خاصة في دمشق وحلب وغيرها لنقل الحجاج إلى الحجاز. وأبرز هذه الطوائف طائفة المقومين^(٢) الدوجية. وكلمة الدوجية، أو الدعجية، المستخدمة بالتركية، مشتقة من الكلمة العربية (يدعو)، وتشير إلى الذين يدعون إلى الله. والمقوم هو الذي يتعهد بنقل الراغب بالحج من دمشق أو غيرها إلى مكة المكرمة، ويعيده، بحسب الاتفاق، إلى مكان بدء الرحلة.

وانتظام المقومين في طائفة لها شيخها يدل على أهمية هذه الحرفة، وضرورة مراقبة أفرادها ذاتيًا وحرفيًا، من قبل شيخ الطائفة، وبمعرفة القاضي الشرعي. وخوفًا من تقصير المقوم (الدوجي) في خدمة

- (١) عبد العزيز العظمة، مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٨٧، ص ١١٦.
- (٢) المقوم: هو من يتعهد بمشال الركب الحجازي حين قصده السفر لجهة الحرمين الشريفين. وصاحب هذه الحرفة يكون مستعدًا لوجود عدد وافر من الجمال تكون عنده من جميع ما يلزمها من عِدَد، وهي الخيم ومعداتها، النخوت، والمحابر، والشباري وغيرها، للركوب بها. مع وجود أنواع الخدمة، من عكامة وغللمان، وطباخين، ومهاترة، وسقاية، وغير ذلك من أصحاب هذه الحرفة، المذكور بحرفته مما لا يستغنى عن كل منهم: خالد عمر كيكي، الحج الشامي والخط الحديدي الحجازي، مجلة العربي نوفمبر ٢٠٠٩.
- (٣) حيدر شهاب، تاريخ الأمير حيدر الشهابي، القاهرة ١٩٠٠-١٩٠١، ص ٦٧٧-٦٨٣-٦٨٤.
- (٤) العكام: من أهل الجلد والقوة على المشي يتسلم جملاً وعليه المحارة يركبها شخصان يسحب الجمل بهما في الطريق ويتولى خدمتهما وكل ما يلزم الراكبين المذكورين من طبخ وغير: خالد عمر كيكي، الحج الشامي والخط الحديدي الحجازي، مجلة العربي نوفمبر ٢٠٠٩.

عرفات، ثم إلى مكة عوداً، صحبة الراكب الشريف (أي قافلة الحج الشامي)، المتوجه في ذلك العام إلى الحجاز، وتزويدهما «بجميع أكلهما ومائهما وزادهما وساير لوازمهما الضرورية التي لا بد منها في الطريق» أجرة قدرها مائة قرش مقبوضة من المتعاقدين «قبضاً تاماً سلفاً ومعجلاً»^(٣).

ويبدو أن هناك تخفيضاً لأفراد الأسرة، وربما روعي سن الأولاد، بدليل أن الأم وابنها في المثال السابق دفعا مائة قرش في حين أن امرأة من حلب تعاقدت بعد شهر من العقد السابق على أن تدفع للمسافة نفسها وللخدمات ذاتها سبعين قرشاً.

ويبدو أن دفع أجرة الذهاب والإياب معاً كانت أكثر توفيراً لأن المقوم يضمن العودة بدون شواغر. وكانت العادة أن يتخلف بعض الحجاج في الحجاز للمجاورة، وسواء كانت الرحلة للذهاب فقط، أم للذهاب والإياب، فقد دفعت الأجرة للمقوم على أقساط. وبقي أحياناً جزء من الأجرة إلى ما بعد العودة. وعمد بعض الراغبين بالسفر إلى الحجاز إلى استئجار الجمال فقط بدون

وتقديم الجمال لأغراض الحج جزء من عمل هذه الطائفة الذي شمل أيضاً تقديم الجمال للقيام بخدمات التحميل بصورة عامة. كما أن المشعلجية، وهم حملة المشاعل، رافقوا جماعات المسافرين^(١). كما كان هناك المهتار: ووظيفته القيام على خيم الحجاج الموجودين عند المقوم من أمر نصبها عند نزول الحجاج للراحة، وفكها عند سير الراكب وهلم جرا... وتكون حركته في كل مرحلة يسبق الراكب، وعند نهاية المرحلة ينصب الخيام ويهيئها للحجاج. وهذه وظيفته في الذهاب والإياب، وله أجرة معلومة من المقوم^(٢).

واختلفت أسعار نقل الحجاج، تبعاً للخدمات المقدمة لهم. مثال على ذلك عينتين: الأولى من حلب، من حوالي منتصف القرن الحادي عشر الهجري، والثانية من دمشق، من حوالي منتصف القرن الثاني عشر الهجري. ففي العينة الأولى تعاقد مسافر وأمه، في ١٦ شعبان ١٠٤٥ هـ/ ٢٥ كانون الثاني ١٦٢٦م، مع مقوم على أن يدفع له لقاء حملهما في محارتين من الخشب (شقدوفتين)، ونقلهما من مدينة حلب إلى مكة المكرمة ثم إلى

(١) البديري، المرجع السابق، ص ٤٢-٤٦.

(٢) خالد عمر كيكي، الحج الشامي والخط الحديدي الحجازي، مجلة العربي نوفمبر ٢٠٠٩.

(٣) عبد الكريم رافق، قافلة الحج الشامي، مرجع سابق، ص ١٠-١١.

الخدمات الأخرى. وبلغت أجره الجمل من حلب إلى مكة، ثم إلى عرفات، وعوداً إلى مكة، في تلك الفترة أربعاً وأربعين قرشاً، مما يعني أن قيمة الخدمات، بالمقارنة مع مثال الأم وابنها، بلغت ست وخمسين قرشاً. ويفترض أن صاحب الجمال المؤجرة رافقها إلى الحجاز للعودة بها. وإذا كان قد رتب مسبقاً لإيجارها من هناك فهذا يدل على تنظيم دقيق في النقل والمواصلات.

خامساً: سفر القافلة:

قبل انطلاق القافلة، كانت تقام التحضيرات والإجراءات لقافلة الحج الشامي:

«الدورة: هي جولة تفتيشية يقوم بها الباشا مع بعض جنوده في أواخر رجب أو في أوائل شعبان لجمع المال من سكان المناطق الجنوبية من الولاية ليستعين بهذه الأموال في إعداد قافلة الحج والمحمل، ثم يعود إلى دمشق في أوائل شوال.

الصرة: في منتصف شهر رمضان أو الأسبوع الثالث منه يصل ركب (الصرة أميني) أو أمين الصرة من استانبول، وهي المال الذي ترسله الدولة العثمانية لأشراف الحجاز ولرؤساء القبائل المرابطة في طريق الحج. وتتضمن الصرة أيضاً التي تدعى (الصرة السلطانية) والتي تُجهز بدمشق

زيوتا وشموعا وماء الورد والزهر التي ترسل لغسل الكعبة والحجرة النبوية

المحمل الشريف: كان تجهيز المحمل وانطلاقه من دمشق يبدأ من عيد الفطر ويستغرق الاحتفال بتجهيزه ثلاثة أيام. في اليوم الأول يبدأ العمل بإخراج السنجق وهو عبارة عن قطعة من القماش المتين زهري اللون، وقد كتب عليه بالخيط الذهبية الآيات القرآنية ويمر بحي الميدان باتجاه ضاحية القدم، حيث يوضع في مكان يسمى «العسالي» وفي اليوم الثاني تحتفل الهيئات الدينية والشعبية بأجمعها مع البشوات ومشايخ الطرق، ويجمعون كميات كبيرة من الشموع والزيوت ويحملونها إلى موقع «العسالي» وتوضع في الصناديق تمهيداً لإرسالها مع موكب الحج. وفي اليوم الثالث تشترك الحكومة المحلية بصورة رسمية، فيحضر المشير والوالي وكبار الضباط والعلماء والموظفين ومشايخ الطرق وقطاعات مختلفة من الجيش والمدارس بأجمعها وذلك لوداع المحمل الشريف، الذي يحمله جمل عظيم في ضخامته ونظافته.

ويكون الاحتفال أمام قصر المشيرية الذي كان قائماً في شارع النصر بدمشق ومكانه الآن القصر العدلي. وينطلق هذا الموكب مع السنجق الذي أُعيد في اليوم السابق من العسالي، وكان المحمل يودع

في جامع السنجدار، مارًا بطريق الميدان. أما الكسوة الشريفة فقد كانت تصنع من قِبل صنّاع مهرة يقيمون بدمشق ويتقاضون رواتبهم من الدولة.

الجردة: تختار الدولة العثمانية أحد وزرائها أو أحد ولاتها ويدعى (سردار الجردة) لإعداد قافلة الجردة، وهي قافلة مؤن تُعد لإسعاف الحجاج في طريق عودتهم إلى بلاد الشام خشية أن يكون ما عندهم منها قد نفذ، ويصحب الجردة عدد من الجند لحراستها^(١).

ثم كانت قافلة الحج الشامي تغادر دمشق في موكب حافل، ويسير فيه الوالي - أمير الحج، ويحمل فيه المحمل والصنّجق، وترافقه قوات كثيرة. وتتم المغادرة، في الغالب، بين الثاني عشر والعشرين من شهر شوال. ويتوقف أمير الحج عند قبة الحج، خارج باب أو بوابة الله (سميت بذلك لأنها تؤدي إلى بلاد الله في الحجاز والقدس)، بانتظار تجمع الحجاج.

وقد أشير إلى الطريق الرئيسي، الذي سلكته القافلة من دمشق إلى الحجاز، بالطريق السلطاني، وتألّف من عدة منازل (مفردها منزل أو منزلة)، حيث يتوقف الحجاج للراحة، والتزود بالماء، وأحيانًا بالمؤن.

«ومن المناطق التي تمر بها القافلة عبر هذا الطريق منتزه مزريب في حوران، وبجوار عين مزريب أمر السلطان سليم الأول ببناء قلعة - مازالت أطلالها باقية حتى الآن - لحماية قافلة الحج، ثم الزرقاء فالبلقاء، ثم القطرنة حيث القلعة التي شيدها سليمان القانوني بجوار البركة التي أمر بإعادة تطهيرها بعد أن كانت قد تساوت مع الأرض. ومن القطرنة تتابع القافلة سيرها حتى الكرك، ثم عنيزة، فقلعة معان... ومن معان إلى ظهر العقبة نحو «ذات الحج»، وفي ذات الحج أو حجر هذه أمر القانوني بإقامة قلعة لحماية القوافل من غارات البدو والأعراب، وتشتهر بتمورها وثمارها الجيدة. ومنها إلى «قاع البسيط» فتبوك ثم أخضر التي تقع في منتصف المسافة بين مكة والشام... وقد كلف السلطان سليمان القانوني عند جلوسه على العرش سنة ٩٢٦هـ - ١٥٢٠م واليه على الشام مصطفى باشا ببناء قلعة أخضر، وبعدها تصل القوافل إلى بركة المعظم، ثم جبل الطاق الذي عقرت فيه ناقة النبي صالح عليه وعلى نبينا - الصلاة والسلام - . ثم مبارك الناقة، ثم قرى صالح، ثم ديار ثمود، وهي تلك المنازل التي نحتت في الجبال، وفيها مسجد النبي صالح ﷺ، ومنها إلى

(١) خالد عمر كيكي، الحج الشامي والخط الحديدي الحجازي، مجلة العربي نوفمبر ٢٠٠٩.

الحاميات فيها. وقد عهدت الدولة العثمانية، في بادئ الأمر، إلى الجنود السباهيين. من أصحاب الاقطاعات بتأمين الحماية، ثم خلفهم الانكشارية، حين حل مكانهم، في حماية القلعة وسور وأبواب دمشق، الانكشارية القايي قول^(٢).

«ولتأمين سلامة القافلة من هجمات البدو وجدت الدولة العثمانية حلاً يتمثل في شراء ولاء القبائل العربية الكبرى التي تسيطر على الطريق عن طريق دفع مبلغ سنوي من المال لها، وعرف هذا المبلغ بـ «الصرة» والموظف الذي يكلف بحمله وتسليمه إلى باشا دمشق بـ «الصرة أميني»، وكان أمراء الحج يدفعون نصف المبلغ في مرحلة الذهاب، والنصف الآخر أثناء الإياب، مقابل عمل بعض أبناء القبائل كأدلاء للقافلة في الصحراء، وتجنيد القبيلة للدفاع عن الحجاج إن لزم ذلك، وفي بعض الحالات الاستثنائية كان الأمراء يرفضون تسليم الصرة إلى القبائل البدوية طمعا بالاحتفاظ بها لأنفسهم، وهذا ما عرض القافلة لهجمات كثيرة.

ومنذ الفتح العثماني وإلى غاية ١٧٥٧ تعرض الركب الشامي حسب ما أحصاه

العلا التي تبعد عن المدينة المنورة بست مراحل، وهي من ملحقات المدينة المنورة؛ وأمر السلطان القانوني بتجديد قلعتها وحصنها لحمايتها من غارات الأعراب. ومنها إلى شعب النعام ومنزل فحلتين، ثم وادي القرى الذي تكثر فيه المياه والغابات، وأبيار علي - رضى الله عنه -، وفيها يحرم الحجيج جميعاً، ومنها تمر القوافل بقبور الشهداء، ثم الجديدة وقاع البرو وبلاد طارق وعقبة السويق؛ ومنها إلى عسфан حيث الآبار النبوية المأثورة، وبعدها تدخل القوافل إلى مكة المكرمة في أوائل ذي الحجة من كل عام، بعد أن تكون قد قطعت المسافة من المدينة في مائة وست ساعات^(١).

وكان أمن القافلة من أولويات السلطان العثماني، فكان يصدر أوامره إلى الولاية لتسهيل مهمة مرور القافلة، وأن يتولوا مهام حراستها حتى تصل إلى حدود الولاية المجاورة. كما اهتمت الدولة العثمانية، منذ بدء حكمها في بلاد الشام، ببناء القلاع في منازل الحج، أو ترميمها، أو تعزيزها بالحاميات لحماية القافلة. وقام ولاية دمشق، على فترات، ببناء أو ترميم، القلاع، ووضع

(١) الصنصافي أحمد القطوري، قوافل الحج في العصر العثماني، شبكة الألوكة، ، ٢٠١٢: الرابط: <https://www.alukah.net/culture/0/44788/>

(٢) المرجع نفسه، ص ١٠.

الدارسون إلى ٢٤ عملية اعتداء والغريب في هذه الإحصائية أن ١٩ هجمة منها تمت في القرن الثامن عشر فقط، أما القرنان السادس عشر والسابع عشر فلم يشهدا سوى خمس هجمات مما يدل على القوة والهيبة التي تمتعت بها الدولة في القرنين الأولين وعلى تراجعها منذ مطلع القرن الثامن عشر... ولكن أكبر اعتداء عرفه تاريخ المحامل الشامية هو دون شك ذلك الذي حدث في سنة ١٧٥٧ أثناء ولاية حسين باشا بن مكي على دمشق»^(١).

واضطرت القافلة، أحياناً، في طريق العودة إلى دمشق، إلى التخلي عن الطريق السلطاني، لتحاشي هجمات البدو عليها، أو لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في أعقاب الهجوم عليها. وحولت طريقها، إلى غزة، حيث يمر الطريق التجاري المتجه من دمشق إلى مصر، وكان أكثر أمناً. وعرف هذا بالطريق أو الدرب بالغزاوي. واقتضت العودة عن هذا الطريق تأخر وصول القافلة إلى دمشق إلى ما بعد النصف الأول من صفر، وهو الموعد العادي لعودتها في الطريق السلطاني. وإذا هدد الجردة، التي كانت تخرج لإستقبال القافلة، خطر مماثل عادت هي الأخرى على الطريق الغزاوي.

ويسبق عودة القافلة إلى دمشق وصول جوقدار الحج إليها، مرسلًا من قبل أمير الحج، لإبلاغ الدمشقيين بسلامة القافلة. وغالبًا ما أرسل الجوقدار من معان، حيث دخلت القافلة منطقة الأمان. ويصل الجوقدار إلى دمشق، في العادة، في أواخر شهر محرم. وخلال أسبوع من وصول الجوقدار يصل دمشق كتاب الحج حاملاً رسائل الحجاج إلى ذويهم، وتوزع الرسائل في الدوشية. ويرسل الكتاب في الغالب، من منزلة القطرانة، ويحمل كتاب آخرون الرسائل إلى حماه وحلب. أما الحجاج الأروام فإنهم يرسلون المكاتيب إلى استانبول لدى وصول القافلة إلى منزل ظهر العقبة.

وفي إثر الكُتَّاب، بعد يومين أو ثلاثة يبدأ وصول الحجاج إلى دمشق فيصلونها بين ٢ و ٥ صفر ويستمر دخولهم إلى المدينة نحو خمسة أيام، وفي إثرهم يدخل أمير الحج وسردار الجردة^(٢). ويستبقون بذلك وصول المحمل وأمير الحج بحوالي أسبوع، وهي المدة نفسها تقريباً بين خروج المحمل من دمشق إلى قبة الحج، في الطريق إلى الحجاز، ولحاق آخر الحجاج به.

(١) بلال الداوية، الدولة العثمانية وطريق الحج الشامي من حادثة ١٧٥٧ إلى واقعة الخرماء؛ الرابط: موقع الأرشيف العثماني: الدولة - العثمانية - وطريق - الحج - الشامي - من /2015/03/21/http://www.ottomanarchives.info/

(٢) خالد عمر كيكي، الحج الشامي والخط الحديدي الحجازي، مجلة العربي.

ويتوقف أمير الحج العائد في قبة الحج، حيث يستقبله أعيان دمشق.

وقبل وصول الركب الشامي، «يقوم أهل الحجاج وذويهم بإعداد أسباب القرى والإكرام لهم، والاحتفاء بهم وبحاشيتهم. فيستحضرون لكل حاج كسوة جديدة، وقد تتعدد فتكون أكثر من واحدة، ويذهب البعض لاستقبال الحجاج من منازل مختلفة تبتدئ من الكسوة، وتمتد أحياناً إلى الزرقاء، ويعودون معهم فرحين بلقائهم، وتقام لهم عقب وصولهم الأفراح سبعة أيام لبلياليها»^(١).

أما المدة التي استغرقتها قافلة الحج الشامي في الوصول إلى مكة من دمشق، فكانت حوالي خمسة وثلاثين يوماً. واستغرقت المدة ذاتها تقريباً في طريق العودة. وقد قدر أحد الحجاج ساعات السفر التي اقتضاها الوصول إلى مكة من دمشق بـ ٤٩٠ ساعة، وقدّر آخر ساعات العودة بـ ٤٥٠ ساعة وهذا يعني أن القافلة كانت تسير بين ١٣ - ١٤ ساعة في اليوم^(٢).

ويتبين مدى مساهمة قافلة الحج الشامي في التجارة الدولية مما رافق القافلة، التي عادت إلى دمشق من الحجاز بتاريخ ٢٨

أذار ١٨٤٢م، من بضائع. فقد ضمت ٢٢٥ حملاً من الحناء زنتها ٢٢٥٠ رطلاً (حوالي ١٤٥٠٠ كغ)، سعرها ١٢٠٠٠٠ قرش، وأربعين حملاً من البن الحجازي كانت في الأساس تسعين حملاً، ولكن سرق منها خمسون حملاً في الطريق تزن ٤٠٠٠ رطل قيمتها (١٤٠٠٠٠ قرش)، وعشرين حملاً من نسيج هندي يصلح للعمائم، ويتألف كل حمل من بالتين، تضم الواحدة منها مائة قطعة، ثمن القطعة ٢٠٠ قرش، ومجموع ثمنها ٨٠٠٠٠٠ قرش. وقدرت قيمة المجوهرات التي حملتها تلك القافلة بـ ١٠٠٠٠٠٠ قرش. واشتملت البضائع أيضاً على ريش النعام، وقيمتها ١٧٠٠٠ قرش، وعطورات ثمنها ١٦٠٠٠٠ قرش، ومتفرقات قيمتها ٦٠٠٠٠ قرش، وبلغ مجموع قيمة البضائع التي حملتها تلك القافلة ٣٨٧٠٠٠٠ فرنك أو ما يعادل ١,٨٥٠,٢٠٠ قرش^(٣).

وقد رغب عدد من المسلمين الأغراب الإقامة في دمشق سواء منهم الذين قدموا إليها بمناسبة الحج، أو الذين قصدوها خصيصاً بهدف المجاورة لبعض الوقت أو للإقامة فيها كمنزلاً. واجتذبت دمشق، بصورة خاصة، العلماء والمتصوفة بسبب

(١) خالد عمر كيكي، الحج الشامي والخط الحديدي الحجازي، مجلة العربي.

(٢) عبد الكريم رافق، غزه دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية، بحيث قدم للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، نيسان ١٩٨٠، ص ٨٠-٨١.

(٣) عبد الكريم رافق، قافلة الحج الشامي، المرجع السابق، ص ١٧-١٨.

في دار، وإذا لم يكن النزول عربي اللسان أمكنه تعلم العربية بدمشق، واستغل العلماء المحليون وجود العلماء الأعراب في دمشق. بمناسبة الحج، فحصلوا منهم على الإجازات فيما اختصوا به من علم. وأفاد العوام، كذلك، من علماء النزلاء الذين كانوا بمستوى معرفتهم^(٢).

خاتمة

لم تكن رحلة قافلة الحج الشامي في العهد العثماني نزهة، بل كانت من أشق الرحلات كما صورها المؤرخون. ولعل أبرع من نقل صورة تفصيلية عن هذه الرحلة ويوميات القافلة الدقيقة، كان المستشرق «تشارلز داوتي»^(٣) الذي اندمج ضمن الفرقة الفارسية الذاهبة إلى الحج،

شهرة ما ضمته من أماكن دينية. ونظرًا لكثرة الأعراب الذين دفنوا فيها، وبخاصة من الحجاج، فقد خصص مكان لدفنهم، عرف بمقابر الغرباء، في تربة مرج الدحداح وقد جاء، مثلاً، في أحد السجلات، حول المتوفين في دمشق، في الأعوام ١١٦٣ - ١١٦٦ هجرية، ذكر خمسة وسبعين غريباً، معظمهم من الحجاج الأروام، دفنوا في دمشق، أما العلماء الأعراب فقد دفنوا في الغالب حيث دفن علماء دمشق^(١).

وقد شغل عدد من نزلاء دمشق مراتب عليا فيها، سواء في الإمامة أو في التدريس، على اختلاف مستوياته، بما في ذلك تدريس الحديث تحت قبة النسرة في الجامع الأموي، وأقام النزول، أو المجاور، عادة، في حجرة في مدرسة أو في جامع وإذا ما تزوج سكن

(١) عبد الكريم رافق، بحث حول التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لتركيا، المؤتمر الدولي الثاني، جامعة ستراسبورغ (١-٥ تموز ١٩٨٠).

(٢) عبد الكريم رافق، قافلة الحج الشامي، المرجع السابق، ص ١٠-١١.

(٣) (Charles Doughty): شاعر ورحالة إنجليزي، من صنف الرحالة العلماء، درس الجيولوجيا في جامعة كامبردج، وقام برحلة استكشافية إلى المناطق المتجمدة وهو في العشرين من عمره. بدأ داوتي رحلاته بإسبانيا وإيطاليا ثم ذهب إلى اليونان فمصر حيث وصل القاهرة عام ١٨٧٥م، ثم عبر صحراء سيناء حتى وصل مدينة البتراء حيث سمع عن مدائن صالح المدينة الأثرية في شمالي الحجاز التي لم تنجح كل من بوركهارت وبيرتون في الوصول إليها، وعزم داوتي على مشاهدتها وانضم إلى قافلة للحج تحت اسم مستعار (خليل)؛ وصل إلى مدائن صالح في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٧٦م، واستطاع أن يتجول في المنطقة مستنسخاً الكتابات والرسوم المنقوشة في واجهات المقابر، وبدلاً من العودة مع الحجاج إلى دمشق آثر داوتي حياة البداوة وعاش مع جماعة بدوية وتجول معهم . . . في الخامس من يوليو / تموز ١٨٧٨م توجه مع قافلة للحجاج إلى الحجاز، ووصل الطائف ثم توجه إلى جدة في أغسطس / آب ١٨٧٨م، وكتب كتابه الجزيرة العربية الصحراوية، ورسم فيه صورة فريدة من نوعها عن الجزيرة كما كتب عن حياة البدو وما يقاسونه من معاناة وشدة، وأبرز كثيراً من المفارقات في حياتهم الاجتماعية، وكجولوجي أدرك الرتبة الفائقة لصحراء التيه الفاحلة، كما أنه يعد من أكثر الرحالة الذين عانوا من الذل والهوان ومشاق الحياة. أهم أعماله كتاب الترحال في صحاري العرب (Travels in Arabia Deserta) الذي كتبه عام ١٨٨٨ وهو عبارة عن قصته عندما جاء عام ١٨٧٦م ومكث عدة سنوات جال من خلالها أجزاء من الجزيرة العربية تحت اسم مستعار «خليل».

والأمراض، كما يورد الصبر والأناة لدى الحجيج ومن يرافقهم من القوامين والمكاريين. وتعجب داوتي من قوة تحمل العكامين الدمشقيين (الجمالين) للمشي على أقدامهم كل هذه المسافة وهم لا يأكلون إلا وجبة واحدة في المساء وقال عنهم: قليل منهم من يمرض، طبيعتهم السامية كالمعدن الضعيف ولكن المرن وأيضاً مزاجهم الجيد وصبرهم في سبيل الله. كما وصف كيفية نصب مخيمات الراحة وتنظيمها بشكل ممنهج وموحد، حيث تصل كل مجموعة حجيج إلى موقعها دون أن يتغير حتى نهاية الرحلة، وكأن المخيم مدينة متنقلة بشوارعها، لا يضيع فيها الحاج عن مبيته. وهكذا كانت رحلة الحاج الشامي، بكل مشاقها، رهناً بالتنظيم العثماني لها كي تصل إلى هدفها السامي، من مواكبة لها، وحماية، إلى التمويل، إلى «الصرة» التي يلعب جزءٌ منها دوراً في الحماية من غزوات البدو، إلى تدبير أمور المياه في تلك البيئة القاحلة؛ وهكذا تبدو رحلة الحج الشامي من دمشق إلى مكة، رحلة يختلط فيها الديني بالدنيوي، وتتكشف فيها قدرات البشر على تحمل الصعاب لأداء ركنٍ من أركان الدين.

على هيئة طبيب عربي، بعد أن رفض طلبه مرات عدة لمرافقة قافلة الحج الشامي رسمياً. فطريقة السير منهكة جدا ولا يتحملها الضعيف، فعند المغرب هناك استراحة ساعتين للعشاء - ثم تدوي طلقة مدفع معلنة مواصلة المسير بالليل - ثم يسرون كل الليل حوالي ١١ ساعة مع الإضاءة والمشاعل، وعند منتصف الليل يتم إطلاق طلقتين فيتطرح الحجاج من إبلهم وينامون في أماكنهم على الأرض نصف ساعة فقط؛ ثم تدوي طلقة جديدة مرعبة ثم يسرون ثانية قبل الفجر. وعند الفجر هناك استراحة ثانية حوالي نصف ساعة للصلاة، ثم يواصلون السير بلا توقف حتى استراحة الظهر وهي نصف ساعة. وهكذا والويل لمن ينام ويتأخر فقد يموت من العطش أو السباع أو الضياع ولكن عند وصولهم لمحطة رئيسية كتبوك والعللا يرتاحون يوماً أو يومين. وقدّر عدد الحجاج في قافلته بعدد ٦٠٠٠ حاج وقال إن العدد انخفض في السنوات الأخيرة بسبب استخدام طريق البحر خاصة للنساء اللاتي لا يتحملن قافلة البر^(١).

ويورد وصفاً دقيقاً للمساحات والمحطات التي تقطعها قافلة الحج الشامي، والمعاناة من التعب، والجوع، وقلة المياه،

(١) تشارلز داوتي، ترحال في صحراء الجزيرة العربية، ترجمة صبري محمد حسن، ٤ مجلدات، المركز القومي للترجمة.

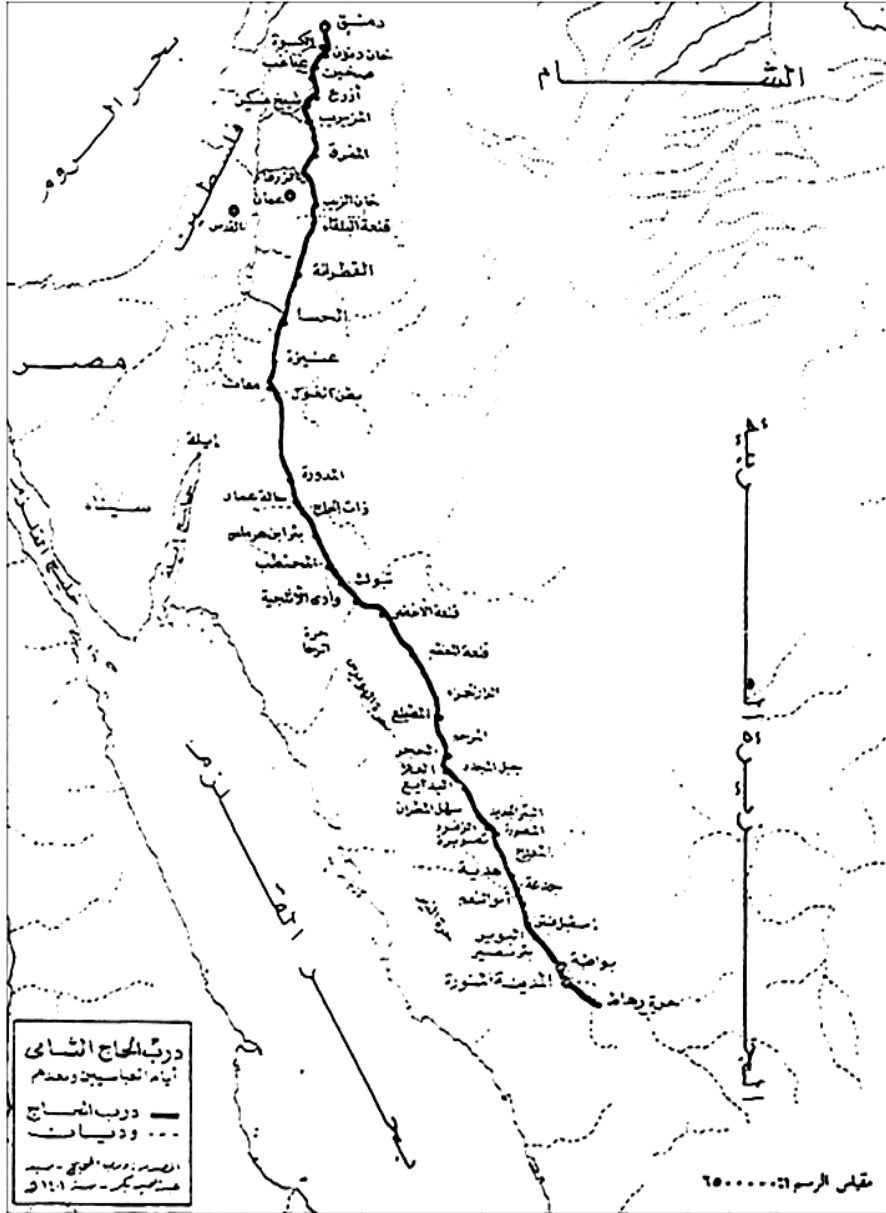


Figure 1: طريق الحج الشامي، من مقال منشور على موقع الأرشيف العثماني بعنوان: النولة العثمانية وطريق الحج الشامي من حادثة 1757 إلى واقعة الخرماء - د. بلال الداھية، الرابط:

<http://www.ottomanarchives.info/2015/03/21/النولة-العثمانية-وطريق-الحج-الشامي-من/>

Figure 1: طريق الحج الشامي، من مقال منشور على موقع الأرشيف العثماني بعنوان: الدولة العثمانية وطريق الحج الشامي من حادثة 1757 إلى واقعة الخرماء - د. بلال الداھية، الرابط:

<http://www.ottomanarchives.info/2015/03/21/الدولة-العثمانية-وطريق-الحج-الشامي-من/>

التجريدية الغنائية وتحولاتها في الشرق أعمال الفنان عادل قديح أنموذجاً

سامي يحيا

بصفته المؤثر الأهم في بناء المقومات الحديثة للمجتمع الشرقي الحديث، مقلّة من أثر جميع المقومات الثقافية الشرقية ودورها الأساسي في إعادة صياغة المفاهيم الثقافية والاجتماعية في الشرق والعالم الحديث، منصرفاً بشكل تبعي نحو الغرب في محاولة للتأكيد على هزالة الركائز والموروثات التي بنيت عليها حضارتنا وفكرنا وفننا.

من هنا، يتوجب علينا إعادة النظر في التاريخ التشكيلي، وإعادة دراسة الوقائع ومقاربة تجارب المثقفين والفنانين الشرقيين، وخصوصاً الرواد منهم، بصفتهم شهوداً أساسيين على الأحداث، ومخزوناً عجن في أتون التجارب المختلفة، إذ تبدو الضرورة ملحة لنستقي من أعمالهم أبرز القيم والركائز الثقافية الاجتماعية، فضلاً عن التعمق في مقاربة أعمالهم وما يقابلها من تأثيرات متبادلة بين مفاهيمهم

المقدمة:

عرف الشرق بشكل عام، ولبنان بشكل خاص، تبدلات أساسية خلال المئة عام الماضية. أدت هذه التبدلات إلى تغيير مهم في المفاهيم السائدة على الأصدعة الثقافية والاجتماعية والفنية كافة. وكان للمدرسة الأوربية (مدرسة باريس خاصة) الدور الأساسي والتأثير الأكبر في هذه التبدلات وهذه المفاهيم. سبقت هذه التبدلات، أي في مرحلة ما قبل سقوط الدولة العثمانية وتثبيت الانتداب على كل من سوريا ولبنان، مجموعة من الوقائع والأحداث التي أسهمت في تعبيد الطريق نحو المسار الغربي للانخراط في ماهية التغيير التي شهدتها البنى الثقافية والاجتماعية للشرق بأكمله. ولاريب في أنّ معظم الدراسات الفنية السابقة عالجت الأثر الغربي في الثقافة والفكر في بلادنا، ودرست المناهج المتبعة وانعكاساتها، ورصدت التأثير الغربي

وعاداتهم الشّرقيّة والأثر الثقافي الغربيّ الحديث عليها.

يمكن مما تقدّم طرح الإشكاليّة التي نروم الإجابة عنها على النحو الآتي:

من ضمن هذا السّياق، ارتكز البحث على تجربة عادل قديح الفنيّة، وفق قناعة مؤداها من أنّها نموذج مهم يمكن البناء عليه في هذه الدّراسة. فقد تأثرت تجربته الفنيّة الغنيّة بشكل واضح بالمتغيّرات العالميّة، كما ظهرت تأثيرات مدرسة باريس بشكل مباشر في نتاجه الفنيّ، بعد أن كان متأثراً في بدايته بالتعبيريّة ومن ثم بالمدرسة العربيّة الحروفيّة، حيث أنتج الفنان بين عامي ١٩٧٩ و١٩٨٢ عدداً مهماً من هذه الأعمال، خاصة بعد أن تعلّم قواعد الخط العربيّ على يد أحد أبرز الخطاطين في الوطن العربيّ: «كامل البابا»، وأسهمت هذه التجربة في رفد إضافات مهمة إلى أدواته التشكيليّة، فأغنت مخزونه الفكريّ بمفردات فنية جديدة. كما كان للحرب في لبنان دورٌ بارزٌ في إعادة صياغة تجربته بالكامل.

هل استطاع الشّرق العربيّ في ظل مساره الفني نحو الحداثة الغربيّة أن يسهم في إعادة تشكيل القيم والمفردات الفنيّة بناء على مخزونه التّراثيّ؟ وهل استطاع عادل قديح أن يشكّل من خلال أعماله أنموذجاً يظهر بوضوح حجم هذه التّأثيرات؟ وهل أسهمت أعماله الفنيّة في تطوير مفهوم التّجريد الغنائيّ في هذا الشّرق العربيّ؟

- أولاً: الإطار المنهجيّ:

١,١ - أهمية البحث:

- يمثل هذا البحث محاولة لرصد المتغيّرات الفنيّة في تجارب الفنانين الشّرقيين العرب وعلاقتها في طرح أفكار جديدة أو في تأسيس طروحات فكريّة وفنيّة ذات صلة بالتّراث العربيّ.

- إعادة دراسة منطلقات العمل التّجريديّ ومعرفة طبيعة اللاشكليّة من موقعه كاتجاه فنيّ له مرجعيّاته الفكريّة والاجتماعيّة، فضلاً عن رصد مسار الحركة التّجريدية الحديثة وبخاصة التّجريدية الغنائيّة في لبنان، انطلاقاً من تجربة الفنان عادل قديح.

٢,١ - هدف البحث:

يكمّن الهدف من هذا البحث في تسليط

ويتلخّص مسار قديح الفني بثلاث مراحل أساسية:

- المرحلة الأولى: بيروت بين التّجربتين الانطباعيّة والحروفيّة.

- المرحلة الثّانيّة: استلهام «مدرسة باريس» والانفتاح على الفكر الأوروبيّ الحديث.

- المرحلة الثّالثة: مرحلة ما بعد باريس.

الضوء على فعالية الصورة ببعديها التشكيلي والفني، فضلاً عن محاولة رصد تجربة رصينة اضطلع بها فنان قدير كعادل قديح.

٣،١ - حدود البحث:

- الحدود الموضوعية: رصد التحوّلات في النتاج الفني الشّرق - عربي، وفي لبنان، للتجريدية الغنائية.

- الحدود المكانية: لبنان.

- الحدود الزمانية: ١٩٧٢ - ٢٠١٨

٤،١ - إجراءات البحث:

- عينة البحث: لقد تقصدنا اختيار أربع لوحات، منتقاة من مختلف المراحل الزمنية للفنان عادل قديح، التي يمكننا أن تدلنا على كيفية كشف التحوّلات الأساسية لبنية عمله التشكيلي والفكري، وربطها بالوقائع الاجتماعية والثقافية للمجتمع اللبناني.

- منهج البحث: إنسجاماً مع طبيعة البحث سوف نعتمد المنهج الوصفي التحليلي لقراءة عينات البحث لرصد التحوّلات الكامنة في الأعمال الفنية.

- ثانياً: الإطار النظري:

١،٢ - نبذة تاريخية عن الفنان: ولد

عادل قديح في ١٧ شباط ١٩٤٧ في بلدة النبطية جنوب لبنان في منزل جده الشيخ محمد قديح^(١)، تابع دروسه في النبطية وعاش الأوضاع الاجتماعية الصعبة التي رافقت الاحتلال الصهيوني لفلسطين وما تبعه من تأثيرات على لبنان وبالأخص جنوبه. سافر في العام ١٩٦٦ إلى مصر لإنهاء الثانوية العامة فنهل من فكر عبد الناصر العروبي، وعاش جزءاً من الحياة الثقافية والفكرية المصرية حينها، وكان قد التحق بحركة القوميين العرب، فجزر هذا النهل من تبنيه للفكر القومي. انتقل بعد نكسة ١٩٦٧ إلى منظمة العمل الشيوعي في مراحلها التأسيسية الأولى، متبنياً الفكر الأممي بعدما صدمته هزيمة الفكر القومي. وفي العام ١٩٧٠ حصل على دبلوم دراسات عليا في الرسم والتصوير من معهد الفنون الجميلة في الجامعة اللبنانية في بيروت. تابع دراسته الأكاديمية وحاز في العام ١٩٨٠ على إجازة في التاريخ من كلية الآداب في الجامعة اللبنانية أيضاً^(٢).

عاصر قديح الحرب اللبنانية التي أثقلت كاهله بشكل كبير فقرر السفر، وأخذ من

(١) الشيخ محمد قديح، أحد مشايخ مدينة النبطية في جنوب لبنان، وكان مرجعاً من مرجعيات المدينة لجهة تجويده لقراءة سيرة أهل البيت وتلاوة القرآن. وهو من الذين تركوا أثرهم في وجدان المدينة. وينبغي الإشارة الى أن الفنان استطاع، رغم تحدره من عائلة أصولية، أن يتبنى الفكر الحداثوي والتقدمي.

(٢) أيوب، زينب: الفنان التشكيلي عادل قديح من التراث إلى التجريد الغنائي، رسالة ماستر في الفنون التشكيلية، كلية الفنون الجميلة والعمارة، الجامعة اللبنانية، الحدث، ٢٠١٧، ص ١١، ١٢، ١٣.

التشكيلية من جامعة باريس الثامنة، منجزاً أطروحته تحت عنوان: «البعد التشكيلي للخط العربي وأثره على التصوير العربي المعاصر». وفي العام ١٩٩٢ عاد إلى لبنان متخذاً مساراً جديداً لحياته الفنية والعملية، فعاود التدريس الأكاديمي في الجامعة اللبنانية، وأنشأ محترفه الخاص، ثم ترأس جمعية الفنانين اللبنانيين ما بين العامين ٢٠٠٢ و٢٠٠٦، التي تعتبر من أبرز التجمعات الثقافية والفنية في لبنان^(٢).

أوروبا وجهته، وفي العام ١٩٨٢ حط رحاله في فرنسا، واستقر في عاصمة الفن العالمي «باريس» حاملاً معه القضية العربية التي ظلت المحرك الأساسي لفكره وفنه^(١).

فتحت هذه التجربة للفنان أفقاً جديدة، إذ استطاع إكمال دراسته الأكاديمية فحاز في العام ١٩٨٤ على دبلوم دراسات معمقة في الفنون التشكيلية، وفي العام ١٩٨٨ استطاع حيازة دكتوراه في الفنون



اسم العمل: تأليف حروفي

السنة: 1972

التقنية: قلم رصاص على كرتون بريستول

قياس 20 x 14

الأسلوب التشكيلي: المدرسة الحروفية



الفنان عادل قديح - السنة 1984 (فرنسا)



اسم العمل: بمر الخندق فوق جرجي

السنة: 1977

التقنية: غواش على ورق

قياس 70 x 50

الأسلوب التشكيلي: المدرسة التعبيرية

(١) مقابلة مع عادل قديح: بيروت ٢٥ تشرين الأول ٢٠١٩، سامي يحيا .

(٢) مقابلة مع عادل قديح، مرجع سابق.

٢,٢ - تجربة عادل قديح الفنيّة:
ينتمي الفنان عادل قديح إلى فئاني مرحلة السبعينيات من القرن الماضي، وهو الجيل الذي أعاد إنشاء الحركة التشكيلية الجديدة في لبنان وتركيبها في ظل الأزمات المتلاحقة التي مرت بها هذه الحركة^(١).
أقام أول معرض له في النبطية في صالة نادي الشقيف عام ١٩٧٢ متأثراً بتحصيله الأكاديمي (بورترية، طبيعة صامتة، مشاهد طبيعية) ومستلهماً من أساتذته ومنهم نقولا النمار، وعارف الرئيس، وشفيق عبود، ورفيق شرف، وسعيد أ. عقل، وإيفيت أشقر، وناديا صيقللي، وعادل الصغير... وغيرهم من رواد الفن في لبنان، وانتقل بعد ذلك إلى تصوير معاناة الشعب اللبناني في الجنوب إبان الحرب الصهيونية الهمجية على جنوب لبنان، وتأثر بالوقائع والمشاهدات اليومية. وأقام معرضه الثاني عام ١٩٧٩ بعنوان «تأملات في سياق الجرح»، وعبرت أعمال المعرض بمجملها عن انطباعات الحرب المأساوية في نفس الفنان، وجسد في تعبيرية حادة انفعالاته

وحزنه وغضبه^(٢)، فقد كانت تلك المرحلة، والحق يقال، نابعة من أعماق ارتباطه بالأرض والوطن، ومرحلة الصراع العربي الإسرائيلي، إذ كان لهزيمة ١٩٦٧ تأثير كبير في مشاعره وفكره وثقافته^(٣).

٣,٢ - مرحلة قديح الحروفية: غاص قديح في عالم الحروفية العربية، وأنتج بين عامي ١٩٧٩ و١٩٨٢ مجموعة كبيرة من اللوحات الحروفية، مشكلاً مرحلة جديدة في تجربته الفنية، وكان قد سعى إلى «تعلّم الخط العربي لدى أحد أبرز وجوه هذا الفن في لبنان والعالم العربي وهو الخطاط كامل البابا أثناء تحصيله الجامعي»^(٤)، ومكّنه ذلك من أن يدمج الحروفية، أي الأحرف والخطوط العربية، في العمل التشكيلي مستخدماً أسلوباً رمزياً مؤكداً من خلاله أفكاره الثورية ومشروعه العروبي والمقاوم.

وبعدما ساءت الأوضاع كثيراً في لبنان على الأصعدة كافة، حمل قديح متاعه وأفكاره ومشاعره وعائلته متوجّهاً إلى فرنسا أملاً أن يجد فسحة من الأمان

(١) حوار مع عادل قديح، الأهرام، تاريخ: ٢٢-١-١٩٨٩.

(٢) شرارة، وضاح: عادل قديح لا يقرأ من عنوانه، جريدة النهار، لبنان، تاريخ الاصدار: ١٦-٧-١٩٧٩.

(٣) مقابلة مع عادل قديح، مرجع سابق.

(٤) الخطاط كامل سليم البابا (١٩٠٥-١٩٩٣) هو من رواد الخط العربي في لبنان والوطن العربي، ولد في صيدا وأخذ الخط عن والده، ثم تعلم على يد نجيب هوايني خطاط ملك مصر، وتخرج على يد كامل البابا أهم الخطاطين اللبنانيين، وله كتاب «روح الخط العربي» عن دار العلم للملايين، بيروت ١٤٠٣هـ.

تحرّره من القوميات وتبعاتها، وتوجهه نحو صيغٍ عالميّة مختلفة، فوجد ضالته في بصريات التّراث الشّرقي مستحدثًا ثقافة تشكيليّة أسست للحدّثة الفنيّة وما حملته من أفكار جديدة وتحولات في المسارات الفنيّة التي أسهمت، بشكل أو بآخر، في إعادة توجيه قديم لمحاورة ذاته حوارًا جديدًا بعيدًا عن كل ما يختزنه في فكره وعاطفته ومشاعره.

وعليه، نستطيع أن نقول بأنّ الفنان عادل قديم، وبعد اطلاعه على التّجربة الفرنسيّة واتجاهاتها الفنيّة والثقافيّة والاجتماعيّة الحديثة، قرّر الاتجاه نحو لغة فنيّة جديدة في محاولة منه لفهم هذا الغرب الحديث، وبناء أسس للحوار معه، فاتجه نحو التّجريد انطلاقًا من قناعته بأنه ليس غريبًا أبدًا عن ثقافته العربيّة الموروثة. لكنّه ركّز على اعتبار التّجريد أيضًا نافذة للوصول إلى جوهر نفسه ومخاطبتها، فضلًا عن مصارحتها ومصالحتها في آن معًا، وبخاصة بعد مجاهدته في مخاطبة الآخر وحثّه على رؤية أوضاع ومعاناة الشّعب العربيّ بشكل عام واللّبنانيّ بشكل خاص، وأدرك قديم وجوب التوقّف عند نقطتين أساسيتين بغية الوصول إلى هدفه وهما: أولاً محاوره الذات حوارًا صادقًا بعيدًا عن التّأثيرات كافة، وثانيًا وجوب فهم

والأمل بإنجاز طموح غير محدود. وأثناء متابعته الأكاديمية، كما ذكرنا سابقًا، شارك في عدة معارض، ولعلّ أبرزها معرضين فرديين أقامهما في باريس، إذ طغى على الأول الأسلوب الحروفي، وانتقل في الثاني نحو المزج بين المفردات الحروفية والتلقائية الذاتية المؤسسة على التّجريد، في محاولة للتّوفيق بين قناعاته الفكرية والعقائديّة وبين اللغة التشكيليّة الحديثة، هكذا يكون الفنان قد أسهم في الحوار البصري الذي وازن بين التجارب الغربيّة وبين الرغبة الدفينة التي لم تغادره أبدًا في رسم الرموز المعبرة عن هويته العربيّة وقضاياها القوميّة والفكريّة والثقافيّة.

٤,٢ - محاوره الذات: أدرك قديم

حجم الهوية في حوار مع الغرب، بين ما كان يعتقد وبين ما توصلت إليه الحركة التشكيليّة الغربيّة ممثلة بمدرسة باريس. لذلك رأيناه يستخدم دائمًا في أعماله الجديدة ما يدل على مفردات شرق عربيّة لها تاريخها وحيثياتها، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الغرب، في مقتبل تجربته الحداثويّة، انصرف إلى التّراث الشّرقي يستحكيه، بعد أن قطع علاقته بالكامل مع موروثاته التّاريخيّة والثقافيّة والفنيّة المتمثلة بالكلاسيكية والأكاديمية. لكنه عمل على البحث عن تجارب وصيغ فكرية جديدة

اللغة التَّشكيليَّة الحديثة ومنطلقاتها بغية إعادة صياغة خطابه التَّشكيليَّ تجاه العالم. يقول الفنان: «شغفت كثيرًا بأعمال هارتونج وسولاج وماتيو أكثر من غيرهم من الفنانين، ترافق كل ذلك مع انحيازي عن أسلوب الحروفِيِّ والتَّراثيِّ وانسيافي نحو الفن اللاشكلي على الرغم من إدخاله لبعض الرموز التَّراثيَّة، أو اعتمادها أحيانًا لمعايير الوحدة التَّشكيليَّة وتكرارها ضمن التَّدليل على المضامين الموسيقية في اللوحة، أقصد بذلك مضمون الإيقاع...»^(١) ثم يضيف في مجال آخر «التَّجريد عامة يتيح إفراغ المكنونات الذاتِيَّة بكل تشعباتها وبأنني بواسطة هذا الأسلوب أعبّر بصدق عن ذاتي أكثر بكثير من السَّابق، ناهيك عن أن لهذا الأسلوب بريقًا يطل على مكنونات تختزن الانفعال بالطَّبيعة والانطلاق نحو التَّجريد في الوقت ذاته، فقد كان التَّجريد الغنائيُّ أو العاطفيُّ مصالحة بين المخزون الذي تسجله الذاكرة والوجدان والعاطفة النَّاتجة عن علاقتنا بالطَّبيعة من جهة وبين التَّجريد من جهة أخرى، فالتَّجريد الغنائيُّ هو ذلك الذي انحاز عن الهندسة بعقلانيَّتها وفلسفتها ذات المؤدى الصَّوفيِّ والبنائيِّ

في الوقت ذاته نحو مزيد من الحرية والانطلاق، ونحو الفعل الذاتِيِّ والعاطفيِّ والتَّقائيِّ للطَّبيعة بضبابيتها وضوئها»^(٢).

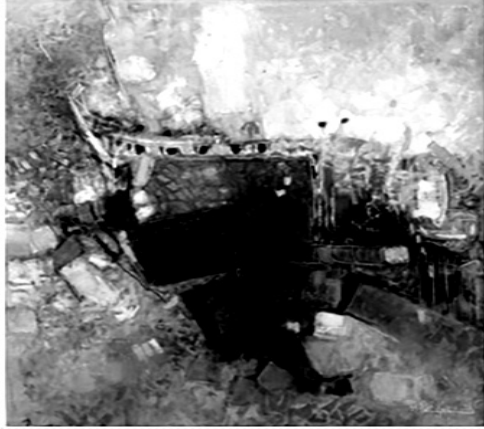
جاء العام ١٩٨٩ ليحمل معه مجموعة من التَّغيرات في لغة قديح الفنيَّة إذ استخدم لغة تشكيليَّة وأسلوبًا فنيًّا جديدًا مستقى من تجارب الغرب الحديث، وحضرت التَّجريديَّة الغنائيَّة في لوحاته، لذا لم ين يعترف بأنَّ هذا العام فتح أمامه فرصة التَّحرُّر من الأساليب والتَّقنيات التي حملها معه من الشَّرْق، ويقول: «أشعر في هذه المرحلة أنني قد تحرَّرت كثيرًا من كل القيود وخصوصًا قيد الهوية الذي ظل هاجسًا لي طوال السَّنوات الماضية»^(٣).

دخل قديح عالم التَّجريد ولكنه لم يترك لنفسه وفكره أن ينحوا كثيرًا نحو التَّجريد المطلق أو التَّجريد العفويِّ أو الصدفويِّ، وإنما وبسبب ما يختزنه من تجارب، أخَّار أن ينحو صوب التَّجريد العاطفيِّ أي نحو التَّجريديَّة الغنائيَّة التي شكلت رؤيته التشكيلة الجديدة.

(١) مقابلة مع عادل قديح: مرجع سابق.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) حوار مع عادل قديح، الأهرام، تاريخ: ٢٢-١-١٩٨٩.



أسم اللوحة: مبنيني
التقنية: أكريليك على القماش
القياس: 60 - 90 سم
التاريخ: 1994



أسم اللوحة: باقة
التقنية: أكريليك على القماش
القياس: 50 - 70 سم
التاريخ: 1994

ما أعتقد، بمرحلة جديدة بدأت بوادرها بالتجلي سريعاً إذ ولدت من مخاضات تجارب عادل قديح التجريدية وبشّرت بحركة فنيّة جديدة سوف أتجرأ أن أطلق عليها تسمية النيوتجريدية الشّرقية.

بناء على ما تقدم، نلخص مسار عادل قديح الفنيّ وتجربته ما بين الشّرق العربيّ أي لبنان، والغرب أي فرنسا ومدرسة باريس، في ثلاث مراحل أساسية من شأنها أن تظهر حجم المتغيرات وأهميتها، فضلاً عن حيثياتها الخاصة والعامة ومنطلقاتها. ويمكن تلمس هذه المتغيرات بداية مع المرحلة التّعبيرية وعلاقتها بالواقع اللّبنانيّ، ومن ثمّ التّجربة الحروفية وما نتج عنها، وصولاً إلى الحركة التّجريدية وتمفصلاتها

وفي العام ١٩٩٢ عاد قديح إلى لبنان حاملاً معه تجربته الخاصة التي اعتبرها «ارتداداً نحو الذات»^(١) إذ كانت نوعاً من المصالحة بين ذات الفنان وعلاقته مع كل ما يحيط به، ويضيف هنا: «إنّ الكشف عن مكونات الإنسانية الموجودة في داخلنا، وعمّا يجوب فيها من تناقضات ذاتية وتفاعلات مع الخارج تشكّل حقيقة لا يمكن إنكارها»^(٢). أقام أول معارضه الفردية في بيروت في دار السّندوة في خريف عام ١٩٩٢، ومن ثمّ توالى المعارض الفردية والمشاركة في لبنان والخارج وصولاً إلى معرضه الفرديّ الأخير الذي أقامه في وسط بيروت تحت عنوان: تعبيرات كامنة في ربيع ٢٠١٧، المعرض الذي بشر، وفق

(٢) أيوب، زينب، مرجع سابق، ص ٤٥.

(١) مقابلة مع عادل قديح: مرجع سابق.

بين التجريدية الهندسية والتجريدية الغنائية والنوتجريدية الشرقية.

وعليه، ندرك بأن مسار قديح الفني لم يكن في إطار السعي فقط إلى الوصول نحو حالة فنية، ومن ثم تكوين شخصية فنية خاصة به، بل جلّ ما في الأمر أنه خاض تجربة سمحت له أن ينتقل من مخاطبة الجماعة إلى مخاطبة الذات، من دون التخلي عن منطلقاته الفكرية والتراثية والاجتماعية. بوجيز العبارة، لقد تطوّرت تجربته ونضجت من خلاله آليات عمله وأسلوبه التشكيلي.

٥,٢ - التجريدية الغنائية ومفاهيمها في فنون ما بعد الحداثة:

شك بأن التجريدية كحركة فنية خطّت مسافة طويلة في كسر القيود الأكاديمية والكلاسيكية، بل وأكدت الصياغات الفلسفية الجديدة وما نتج عنها من فكر ومفاهيم خاصة وعامة، وهي حضرت بصيغة جديدة وخاصة في مرحلة ما بعد الحداثة، إذ عانت في المراحل السابقة من اختلاط المفاهيم وتعدد أساليب التطبيق، فضلاً عن إشكالية علاقتها مع مفهوم التجريد الهندسي وما

نتج عنه من تفسيرات حدّدت إطاراً عاماً لحركة فنية تبحث عن المطلق خارج المحددات المادية متخذةً مساراً جديداً نحو الروح التكوينية للأشياء.

فمع التطور المتسارع الذي رافق العمل التشكيلي والفني خلال المسار نحو الحداثة، عمد الفنانون إلى نبذ الشكل الواقعي السائد في العمل التشكيلي (في مرحلة ما قبل الحداثة)، وقد تجلّى هذا النبذ بداية مع التعبيرية واستمر مع الدادائية والسريالية والتكعيبية وغيرها، وصولاً إلى التجريدية التي قضت على الشكل الواقعي قضاءً شبه تام. بدأت التجريدية مسارها الأول مع كاندنسكي الذي كان من أوائل مؤسسيها، وقد استند إلى التجريدية الغنائية حيث أطلق على هذا النوع من الفن تسمية «فنّ الضرورة الداخلية»، وأصبح ظاهرة مهمة أثرت في العمل التجريدي بشكل كبير^(١).

يشير مارك روثكو^(٢) (Mark Rothko) في قياس تفوق عمل الفنان التجريدي إلى «قدرته على تحطيم الحواجز بينه وبين الأفكار من ناحية، والأفكار والمتلقي من ناحية ثانية، لاسيما إذا شملت

(١) سلوم، سها، وشعيرة، عبد السلام: إشكالية اللاموضوعية (المعادل الهندسي) في تجريدية كاندنسكي الغنائية، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، المجلد التاسع والعشرون، العدد الثاني، ٢٠١٣، ص ٦٦٤.

(٢) مارك روثكو (١٩٠٣-١٩٧٠)، فنان أمريكي من أصول روسية، يعتبر من رواد التعبيرية والتجريدية في العالم، تخرج من جامعة ييل، دخلت لوحته.

إلى مسطح أبيض أو مسطح أسود، انطلاقاً من كون اللونين الأبيض والأسود هما لونين محايدين (في علم الألوان)، وهذه المحايدة تعبر عن المطلق. أدى هذا المأزق الذي وقعت فيه التجريدية الهندسية إلى العودة نحو التجريدية الغنائية والتي أبقت صلتها بالموضوع، فعبرت عن علاقة الإنسان بالطبيعة والبيئة والوطن، فالتجريدون الغنائيون أرادوا الرجعة قليلاً نحو الموضوع، ولكنه كما ذكرنا «الموضوع المجرد من ذاتيته ومن علاقته المادية التي نعيشها كل يوم»^(٢).

والواقع أن فاسيلي كاندنسكي (Wassily Kandinsky) مجد اللون وأعطاه اعتباراً مستقلاً عن الشكل من خلال ما أسماه «بالضرورة الداخلية»^(٣)، فوجد بأن العلاقات اللونية ذات قوة إيحائية قادرة على الوصول إلى الجوهر والمضمون الكامنين خلف الظواهر^(٤)، فكانت معالجاته التجريدية الأولى منطلقة من مفهوم تجريد الفضاء التشكيلي انطلاقاً من علاقاته الحسية والموضوعية، وتوجيهه نحو أفق روحاني.

تلك الحواجز الأدوات التقليدية التي اعتاد المتلقي استخدامها في التقويم، كالأدلة والمقاسات الطبيعية والمعايير الهندسية، والتي ليس بإمكانها، في حقيقة الأمر، إلا تكوين أشباح الأفكار بدلاً من أصيالاتها^(١). ويشير المفهوم التجريدي فلسفياً إلى «الصراع بين المثالية والمادية، وفكرة التجريد في الأصل نبتت من رفض المادية، فدعت إلى محاكاة النفس والروح»، وتحدت مستويات العلاقة بين الواقع والتجريد ما بين «الإصرار على التجريد المطلق، أو إدخال التجريد إلى الطبيعة الممثلة بواقعية أو التجريد الوسطي الموقع المنطلق من موضوع محدد».

أما قديح فيرى أنّ المدرسة التجريدية وصلت إلى مرحلة المراوحة، لأنها لم تستطع أن تصل إلى الهدف الرئيسي الذي كانت تعمل على أساسه، وهو الوصول إلى المطلق، أي إلى الأبعاد الروحية المطلقة، على نحو ما نجده في طروحات بعض التجريدين حول التجريد المطلق، الذي وصل بالنهاية إلى مرحلة تحول معها العمل

(١) الحبيب، مصدق: منهج التجريد التشكيلي مراجعة تحليلية مقتضبة، صحيفة المثقف، العدد ٤٩٠١، المصدر: www.almothaqaf.com

(٢) حوار مع عادل قديح، جريدة الوطن، تاريخ: ١٢-١٢-٢٠١٨.

(٣) عواد مسلم، مفيد: تمثيلات التجريدية في رسوم فناني البصرة، مجلة جامعة بابل للعلوم الانسانية، المجلد ٢٤، العدد ٤، ٢٠١٦، ص ٢٣٠٢.

(٤) نفس المكان.

ومجسمات بواسطة الدوائر والمساطر والزوايا... فلا أقول عن هذه الأشكال إنها جميلة نسبيًا، كالأشياء الأخرى، بل إنها دومًا جميلة في ذاتها»^(٢).

يكشف التجريد الغنائي عن حقبة فنية نتجت عن مساهمة الفنانين الغربيين في التيار التجريدي، إذ وجد فيه هؤلاء الفنانون في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية تجريدية مبكرة، ونذكر من هؤلاء الفنانين: فاسيلي كاندنسكي (W. Kandinsky) وبت موندريان (Pet Mondrean) وكانمير مالفيتش (K. Maleivitch) وأرشيل غوركي (A. Gorky) وغيرهم. وتجدر الإشارة إلى أن التجريد الغنائي ظهرت أيضًا في أمريكا تحت مسمى المدرسة الأميركية الجديدة ومقرها نيويورك وتم تسميتها بالتجريدية التعبيرية، ومثلها جاكسون بولوك (J. Pollock)، ووليم دي كوننغ (W. de Kooning)^(٣)... أمّا في لبنان، فحضرت التجريدية الغنائية الحديثة نتيجة الروابط الثقافية بين لبنان وفرنسا، ومن أهم رواد التجريد الغنائي في لبنان^(٤): جان خليفة (١٩٢٣ - ١٩٧٧)، هيلين الخال (١٩٢٣ - ٢٠٠٩)، نقولا نمار (١٩٢٥ -



تتكيل رقم 7 اسم اللوحة للفنان فاسيلي كاندنسكي، تاريخ رسمها 1913- العفاسات: 200x300 سنه، موسكو، المصدر: www.wassilykandinsky.net

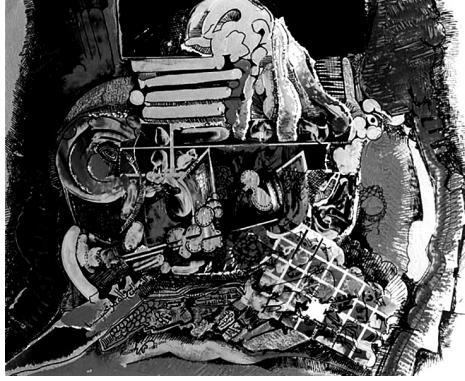
وفي العام ١٩١٠ قام الفنان برسم أول لوحة تجريدية بالألوان المائية انطلاقًا من تمثله لمنظر طبيعي، وكتب تحتها «هذا أنا عندما وجدت حقيقتي»^(١). لقد أعاد كاندنسكي بناء العالم الموضوعي مستندًا بذلك إلى آراء الفيلسوف الإغريقي أفلاطون (Plato) القائل على لسان أستاذه سقراط (Socrates) محاورًا أبروتخس: «... فجمال الأشكال ليس بالضبط ما يحسبه معظم الناس، وهذا ما أحاول الآن تبيانه، كجمال الأحياء أو جمال بعض اللوحات. وإنما أعني به، كما يديه حديثنا، الخط المستقيم والمستدير، وما ينجم عنهما من مسطحات

(١) سلوم، سها، وشعيرة، عبد السلام، مرجع سابق، ص ٦٦٦.

(٢) سلوم، سها، وشعيرة، عبد السلام، المرجع نفسه، ص ٦٦٧.

(٣) جاكسون بولوك... كيف نقرأ لوحات التعبيرية التجريدية، المصدر: <https://www.alazeera.net>

(٤) قديح، عادل، مرجع سابق، ص ٨٤-١٠٩.



أنجز الفنان هذه اللوحة إثر ولادة ابنه «ريان» فأسمها باسمه (١)، لذلك أكثر من اللون الأحمر لدلالته الولادية. وفضل، بدل من أن يرسم ما يرمز إلى الوليد الجديد القادم إلى الدنيا إثر مخاض عسير ومعاناة الأم الشديدة، أن يكتب اسمه بأحرف مبعثرة للدلالة على عسر الولادة، أحرف برزت من مساحة اللون الأسود، كتبت بروحية الخط الكوفي ولونت باللون الأخضر الذي يدل على الحياة على الرغم من تماهيه مع الأسود، والأزرق الغامق المحاط باللون الأسود كأنهما الرحم الذي يلد الجنين. أما الحياة فرمز إليها الفنان بحركة الإيقاع التي إما أن يكون رخيمة أو غير متجانسة وفقاً لأليات الحياة نفسها. استعمل الفنان تقنية الإلصاق والقص والألوان الأكريليكية والحبر الصيني مازجاً بين تقنيات تراثية وأخرى حديثة، هذا

(٢٠٠٥)، شفيق عبود (١٩٢٦ - ٢٠٠٤)،
إيلي كنعان (١٩٢٦ - ٢٠٠٩)، حليم
جرداق (١٩٢٧ - ٠٠٠٠)، أيفيت أشقر
(١٩٢٨ - ٠٠٠٠)، ناديا صيقل (١٩٣٦ -
٠٠ -).



اسم العمل: اللوحة المفروقة، وسط بيروت، 1995، عمل جماعي مشترك، جامعة تعز، حنية، قياس 10x10 أمتار.
أسماء الفنانين المشاركين: عادل فنج - يوسف خزاري - محمد عوالي - صونيا الرضي - إيمان نيب - فوزي بعلبي
المصدر: www.adelkoudah.com

- ثالثاً: الإطار التحليلي

١,٣ - العينة الأولى:

عنوان اللوحة: ريان

تاريخ الانتاج: ١٩٨٨

الأسلوب التشكيلي: بين المدرسة
الحروفية والتجريد الشكلي.

المادة: تقنيات مشتركة على كرتون.

القياس: ٥٠ × ٧٠ سنتم

(١) مقابلة مع عادل قديح: مرجع سابق.

العمل، اختفت التّفاصيل وحل محلها إيقاعات شبه هندسيّة، أشكال بيضاء تراكتت فوق بعضها بإيقاعيّة حديثة وألوان مضيئة فرحة. يبدو أن حياة الفنان اتجهت نحو الاستقرار، حيث أنهى دراسة الدكتوراه واستطاع أن يؤمّن لعائلته حياة كريمة بعيدة عن ويلات الحرب الأهليّة في موطنه. رسم الفنان ما يوحي بتصميم هندسي لمحترفه المنشود. في هذا العمل ذهب الفنان إلى استرشاد الأمل وإطلاق ذاتويته الفرحة، كان يحلم بمرسم مبني على قوس مفتوح إلى اليسار كأنه قوس قزح، فهو لم يغادر هذا اليسار، لكنه أسكنه ذاته ومحترفه المنشود وذاكرته وخياله. لم يتخلّ الفنان عن معتقده فوجدها هذه المرة بالأشكال الهندسيّة المرصوصة ضمن مربع، هو لم يكن هندسي الهوى، لكنه عرف بأن هذا المربع هو رمز، هو في صميم تراثه الشّرقي، هو في حضارته الغابرة مولدًا لكل الأشكال الأخرى، منه أيضًا تم توليد النجمة العربيّة المثلثة. الأبيض لون الصفاء، أما الأحمر فهو هنا لون الحرارة والأصفر هو لون الضوء. وما التّنقيطات الصّغيرة سوى بقايا من معالجاته التّراثيّة السابقة، حيث النقطة هي أصل الكون.

الإرهاص الذي ركّبّه من خلال العلاقات الشكلية واللونية، ومن الكتابة الخاصة والخطويّة الرّخرفيّة العشوائيّة هو ما دلّ عليه بعد ولادة ابنه «ريان» الذي أتى إلى الدّنيا في زمن شديد الارتباك والضّبابيّة. هذا العمل هو من المجموعة التي شكّلت حالة وسيطة بين استلهام التّراث ومحاكاة الذات.

٢,٣ - العينة الثانية:

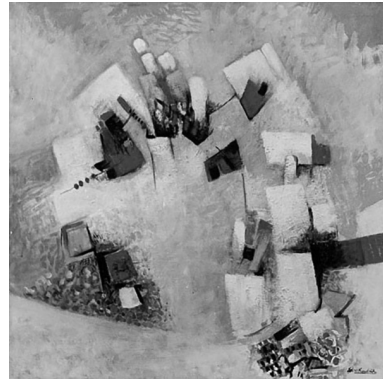
عنوان اللوحة: محترفي.

تاريخ الانتاج: ١٩٨٩ (لمقارنتها مع لوحة كاندنسكي)

الأسلوب التّشكيلي: المدرسة التّجريدية الغنائيّة

المادة: أكريليك على قماش

القياس: ٨٠ × ٨٠ سنتم



لم تطل المدة التي خرج خلالها الفنان من عباءته القديمة نحو معالجات جديدة. هي سنة تقريبيًا بين العينة الأولى وهذا

٣,٣ - العينة الثالثة:

عنوان اللوحة: كتابات على وجه أزرق.

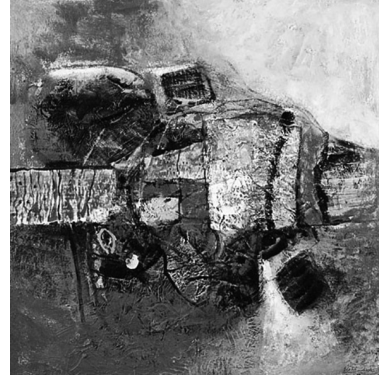
تاريخ الانتاج: ٢٠٠٣

الأسلوب التشكيلي: المدرسة التجريدية

الغنائية

المادة: أكريليك على قماش

القياس: ٨٠ × ٨٠ سنتم



يحلم الفنان بأحلامه الزرقاء ذات تجعيدات الحياة، هكذا استطاع الفنان أن يحصل على التّجعيد من خلال الصّاقه لأقمشة معالجة الوجه، كما يبدو من المربع الأبيض الذي يكاد يتوسط العمل. والذي تعلوه خطوطية كعلامة التعجب المقلوبة، هو ينمنم ويحفر ويترك لخطوطياته أن تنساب بتلقائية وجلة. لكنه يبني هضاباً مفترضة وسماء هلامية وبحر بلا قرار. ثم مربعاً كنقطة خط الثلث من دون أن يؤكد على فعالية هذا الخليط، كأنما الحياة تكمن في هذا الخليط الهجين. الأمر خطوطية

خجولة تكاد لا تطلع والأصفر ضوء يستكمل حركة الأحمر، السيادة للأبيض والأزرق، أي للفضاء والحيادية، وهما بيت القصيد أثناء محاور الذات الكامنة في العمق السحيق الذي هو الماضي بكل تبادياته.

٤,٣ - العينة الرابعة:

عنوان اللوحة: حكاية الارتقاء.

تاريخ الانتاج: ٢٠١٨ - معرض

«تعبيرات كامنة» (Latent Expressions) -

بيروت

الأسلوب التشكيلي: المدرسة التجريدية

الغنائية.

المادة: تقنيات متعددة على قماش

القياس: ٩٠ × ١٢٠ سنتم



في هذا العمل تخلى الفنان عن شكلانية هندسية ازدحمت بطلاقة في العينات السابقة. هنا أراد الفنان أن يعترف بضرورة المعالجة التعبيرية، هنا دمج بين ما يتيح

للبنانية خارج هذا المعطى. فقد أدى انفتاح الثقافة اللبنانية على المعطيات الإبداعية المتداولة في مدرسة باريس إلى سعي الفنانين اللبنانيين نحو التأكيد على هويتهم الشرقية، رغم كل محاولات تغريبهم بالكامل، وأدت هذه التحوّلات التشكيلية الحديثة التي طرأت على الفنانين في الشرق العربي ولبنان ومنهم الفنان عادل قديح إلى تفاعلهم مع الاتجاهات التجريدية العالمية.

وبعد، استطاع عادل قديح في تجربته الفنية الانتقال من المرحلة التراثية إلى مرحلة الحداثة وما بعدها من دون التخلي نهائياً عن الحركة التراثية المتمثلة بالأشكال والموتيفات الخطية والزخرفية، مستخدماً أساليب وتقنيات حديثة، فهو يسعى إلى التأكيد على المسحة الشرقية ضمن اختبارات النيوتجريدية المعاصرة، والتحرر قدر الإمكان من جمالية الزخرفة الصارمة والتوزيع الهندسي الحاد والتماثل الخطي المتواتر والترداد والتتابع التشكيلي المدروس مع التوزيع اللوني المتوازي، مستغلاً آلية عمل شبه بنائية أقرب ما تكون إلى أجواء واختبارات الحداثة الغربية المتفاعلة مع الاستقراءات الجمالية للتراث العربي، فالفنان عادل قديح يعترف صراحة بأن «تجارب استقراء التراث تراوح مكانها وتمر بأزمة حادة دلالاتها مستقاة من ارتكازات اجتماعية تبقى على علاقة وثيقة

للجليات البشرية أن تبرز بشكل هلامي بالتماهي مع اللطخة الجسورة والنممة الخطية، جعل من العالم المقفل كالأقفاص، إلى اليمين والشمال، حدوداً ضرورية لعمله أما الأعلى فقد أنشأ عالم الفضاء بمساحة زرقاء تميل إلى الخضرة فتختزن البعد والحياة في الوقت نفسه، وكتلة تتدلى من الأعلى، وتموج بتفصيلات الحياة وتناقضاتها وشكلانيات مطواعة كالبالونات المتصاعدة إلى الأعلى. أما البناء الذي يتوسط العمل فهو عالم متخيل يتضمن أمل الحياة وتجلياتها. ثم لطخات جسورة سوداء وزرقاء تعادل الحركة الكامنة في العمل، فالحركة معادلة أيضاً لفعل الحياة، والتفاصيل التنقيطية والزخرفية والخطوطيات كأنها دبيب من توقيات بشرية أو طبيعية. هذا العمل هو التبشير بالنيوتجريدية الشرقية المتماهية مع التجريدية التعبيرية.

- رابعاً: نتائج البحث

الخلاصة:

لطالما استطاع الشرق أن يفرض حضوره في وجدان الفكر الغربي، مما أسهم في إعادة تشكيل المفاهيم والقيم الغربية، فتحررت الصورة من القدسية الواقعية والفلسفة الوجودية نحو صياغة تجريدية وروحية جديدة. ولم تكن التجربة

مع الأزمة التي تمر بها حركات التحرّر العربيّة.

يبقى أن نشير إلى أن الأسلوب التشكيلي الذي اتبعه عادل قديح في أعماله الأخيرة (معرض تعبيرات كامنة) هو عبارة عن خلاصة وصل إليها، خلاصة ارتكزت على الخطوط والأشكال والمساحات اللونية التي عبرت عن قيم ثقافية تولدت في إطارها الاجتماعي، الأمر الذي يفسر تميزها عن التجريدية الغنائية الغربية. لقد استخدم فنانونا أسلوباً جديداً يحمل نفحات من تشكّل الخط والزخرفة العربيّة، على الرّغم من المحاولات الجادة إلى تطويع الأشكال للخروج على القواعد الصّارمة التي تعتمدها المدرستين الزخرفيّة العربيّة والخط العربيّ.

جاءت لوحات عادل قديح مرآة تعكس تأثره بالتّقافتين الغربيّة والشرقيّة، وتجلت في اختياره لألوان أعماله، وعلى هذا الأساس تبرز قيمة ما قدمه ليصبح وسيلة من وسائل التّعبير والمدافعة عن الانتماء الحضاريّ والهويّة الثقافيّة التي لطالما استمدت عناصرها وآليات بنائها من البيئة التي ينتمي إليها.

وفي الإطار السّوسيوثقافي قرر الفنان

أن يقول مواضيع لوحاته، استغل قديح القيم الدّلالية للألوان وتداخلها كجزء من الأشكال المؤسسة للوحة، ليحدد أطواراً زمنياً غير نهائي وأطواراً مكانيّاً بدأ في الشّرق وقد لا ينتهي فيه، وتطرق قديح في مجمل أعماله إلى مواضيع مختلفة، ترتبط بالتّاريخ والأرض والواقع الاجتماعيّ وتأثيراته وذلك عن قصد لإتمام لوحاته إذ يقول: «إنّ الصّراعات التي هي نتيجة الحرب والعنف والمقاومة موجودة في داخلي إلى الأبد»^(١)، ورغم ذلك سعى إلى إعادة بناء لوحته وعرضها مستخدماً الأسلوب الأقرب إلى فكره وهو التّجريد العاطفي (الغنائي)، إذ إن قديح لم يعمد إلى طمس هويته بل على العكس من ذلك، أصرّ على إبرازها مؤمناً بها كثروة ثقافيّة واجتماعية لا غنى عنها لبناء الحاضر والمستقبل، وإن استخدم لغة فنية حديثة استمدها من الغرب.

وعليه، شهدت هذه الحركة الفنيّة، أي التجريدية الغنائية، حالات جديدة في الشّرق أدت في نهاية المطاف إلى صياغات جديدة لها منطلقاتها التاريخيّة والموضوعية، ولا شك بأنها خرجت من إطار المراوحة المكانية والزمانية لتتأقلم وتتطور في كل مكان وزمان.

(١) يّيم، حسن: التجريد في لبنان بين التقليد والتجديد ١٩٥٠-٢٠٠٠، رسالة ماجستير في الفنون التشكيلية، كلية الفنون الجميلة والعمارة، الجامعة اللبنانية، ٢٠١٤، ص ١١٦.

٢,٤ - الاستنتاجات:

- استوجب العمل الفني في الشرق استناد بعض الفنانين إلى موروثاتهم الثقافية والتاريخية، بالإضافة إلى التراث الذي شكّل عاملاً مؤثراً وأساسياً في إنتاج الأعمال الفنية لمرحلة الحداثة وما بعدها وذلك بعكس ما مرت بها الحداثة التشكيلية في الغرب إذ قطعت علاقتها بالكامل مع تلك الموروثات.

- تنطلق جميع الأعمال الفنية التشكيلية وبخاصة التجريدية منها من معطى موضوعي، كما أنها تركز في تشكيلها على محورين أساسيين وهما المفهوم (CONCEPT) والتصور أي الحضور المادي (REPRESENTION)، وإن منح بعض الفنانين امتيازاً لمحور على حساب المحور الآخر، ومثال على ذلك التشكيليون الأمريكيون الذين يُعدون من أهم المنظرين العاملين على إعطاء الامتياز لفكرة العمل على حساب مادته وشكله.

- يتطلب العمل التشكيلي التجريدي مشاركة واعية وفاعلة من المتلقي، ذلك أن الصورة المتمثلة بالعمل التشكيلي هي مادة اتصال تقيم علاقة بين المرسل والمتلقي، إذ أنّ المرسل لا يقترح رؤية محايدة للأشياء والمتلقي يقرأها انطلاقاً مما يسميه الباحث

الفرنسي جون دوفينيويو (jean Duvignaud) «بالتجربة الجمالية والمخيال الاجتماعي»^(١)، لأن العمل الفني لا يخاطب حاسة البصر لدى المتلقي وحسب، بل يحرك حواسه وأحاسيسه كافة انطلاقاً من موروثاته الاجتماعية والثقافية وغيرهما.

- أثبتت التجريدية بمفهومها المطلق بأن التجريدية الغنائية هي حركة فنية متعددة الأساليب لا تؤيد الرؤية الواحدة بخاصة عندما ارتبطت بالفكر ما بعد الحداثي الذي يسوّق نفسه بأنه فكر متعدد الرؤى.

المراجع

١ - الكتب والمنشورات:

- أبو رزق جوزيف، صالح بركات، عمران القيسي: الفن التشكيلي في لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بيروت، ٢٠٠٢.
- أمهز محمود: الفن التشكيلي المعاصر، دار المثلث، بيروت، ١٩٨١.
- البهنسي عفيف: الفن التشكيلي في البلاد العربية، تونس، دار الجنوب للنشر، اليونسكو، ١٩٨٠.
- عادل قديح: المقاربة اللبنانية للفن التشكيلي الحديث، ط١، أنسيكلوميديا، لبنان، ٢٠١٧.
- سلطان مهى عزيزة: الهوية الراهنة للتشكيل العربي المعاصر، دار الأنوار، بيروت، ٢٠١٢.
- سلطان مهى عزيزة: رواد من نهضة الفن التشكيلي في لبنان، الكسليك، ٢٠٠٦.
- يوسف غزاوي: محطات تشكيلية، ط١، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ٢٠١٨.

(١) لعياضي، نصر الدين، مرجع سابق، ص ٣٦.

- يوسف غزاوي: رؤى تشكيلية حديثة ومعاصرة، ط١، منشورات الجامعة اللبنانية، ٢٠٠٨.
- ٢ - أبحاث ورسائل جامعية:**
- حسن يتيم: التجريد في لبنان بين التقليد والتجديد ١٩٥٠ - ٢٠٠٠، رسالة ماستر في الفنون التشكيلية، كلية الفنون الجميلة والعمارة، الجامعة اللبنانية، بيروت، ٢٠١٤.
- نصر الدين العياضي: جمالية الصورة، مجلة الاذاعات العربية، عدد ٢، جامعة الدول العربية، ٢٠٠٣.
- مفيد عواد مسلم: تمثيلات تجريدية في رسوم فنانة البصرة، مجلة جامعة بابل، مجلد ٢٤، العدد ٤، العراق، ٢٠١٦.
- فرح علي عبد الرزاق: تطبيقات اللاشكالية في المنجز التشكيلي لرسمات التعبيرية التجريدية، مجلة كلية التربية الاساسية للعلوم التربوية والانسانية، جامعة بابل، العدد ٣٤، العراق، ٢٠١٧.
- سها محمد سلوم وعبد السلام شعيرة: إشكالية اللاموضوعية (المعادل الهندسي) في تجريدية كاندنسكي الغنائية، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، مجلد ٢٩، العدد الثاني، ٢٠١٣.
- زينب أيوب: الفنان عادل قديح من التراث إلى التجريد الغنائي، كلية الفنون الجميلة والعمارة، الجامعة اللبنانية، الفرع الأول، بيروت، ٢٠١٦.
- ريتا طالو: الفنان عادل قديح، كلية الفنون الجميلة والعمارة، الفرع الثالث، طرابلس، ٢٠٠٧.
- ٣ - مقالات و منشورات دورية:**
- عادل قديح: الحركة التشكيلية في لبنان وأشكالها الهوية، الاتصال الفني، العدد ٣، أيلول ٢٠١١، دار النهضة العربية، لبنان.
- أحمد بزون: حوار مع عادل قديح، جريدة السفير، بيروت، تاريخ: ١٦ - ١٢ - ١٩٩٨.
- زهير غانم: التجريد الغنائي والبنائي و غبطة الألوان، جريدة اللواء، بيروت، تاريخ: ١٦ - ٠١ - ١٩٩٦.
- لور غريب: توازنات لونية وجدية تنفيذ للشكلانية الهادئة، جريدة النهار، بيروت، تاريخ: ٢٣ - ٠٢ - ٢٠٠٤.
- وضاح شرارة: عادل قديح لا يقرأ من عنوانه، جريدة النهار، بيروت، تاريخ: ١٦ - ٧ - ١٩٧٩.
- زهير غانم: التجريد الغنائي والبنائي و غبطة الألوان، جريدة اللواء، بيروت، تاريخ: ١٦ - ١ - ١٩٩٦.
- صالح الاشمري: عادل قديح من مخاطبة الجماعة إلى محاوره الذات، جريدة الحياة، تاريخ: ١٦ - ١١ - ١٩٨٩.
- رضوان الامين: حوار مع عادل قديح، نداء الوطن، تاريخ: ٢٣ - ٦ - ١٩٩٤.
- مها سلطان: اللبائبي عادل قديح يتقصى الشكل واللون، جريدة الحياة، بيروت، تاريخ: ٩ - ٢ - ١٩٩٦.
- ٤ - مقابلات:**
- عادل قديح، برنامج خواصي الكلام، تلفزيون لبنان، تاريخ المقابلة: ٧ آب ٢٠١٧، عبير شرارة.
- عادل قديح، ٢٥ تشرين الأول ٢٠١٩، سامي يحيى.
- ٥ - صفحات الكترونية:**
- موسوعة المعرفة الالكترونية، المصدر: www.marefa.org
- الصفحة الرسمية للفنان عادل قديح: www.adelkoudaih.com
- <https://www.wassilykandinsky.net/>
- مقابلة الفنان عادل قديح: <https://www.youtube.com/watch?v=p6-gSHJV47M>
- موقع الجزيرة الاخباري: <https://www.aljazeera.net>
- الحبيب، مصدق: منهج التجريد التشكيلي مراجعة تحليلية مقتضبة، صحيفة المثقف، العدد ٤٩٠١، المصدر: www.almothaqaf.com

أثر النفط في السياسة الأمريكية (السبعينيات)

د. عماد غملوش

السياسة الأمريكية إلى الحرب العالمية الثانية، وهذه الأهمية مرتبطة بالمصالح والأهداف الرئيسية، ومن هذه المصالح النفط، ويتعين على الإدارة الأمريكية أن تعمل على حمايتها، خصوصاً بعد تزايد الاعتماد الغربي والأمريكي على النفط، وجعل الشركات النفطية الأمريكية العابرة للحدود هي الذراع أو الأداة غير المباشرة وغير الرسمية لإدارة هذه المصالح في الشرق الأوسط.

ورافق ذلك، إدراك الدول النفطية لأهمية إلغاء تعاقدها مع الاحتكارات النفطية، وكانت إيران إحدى تلك الدول التي أثرت في السياسة النفطية في المنطقة من خلال عضويتها في منظمة (الأوبك)، ودورها في تزويد الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها بالنفط^(١)، في أثناء حرب عام ١٩٦٧م ثم

مقدمة البحث

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٣ وحتى الآن ٢٠٢٠ ونحن نعيش حرباً جديدة لا بل حروباً كثيرة تنحسر جغرافيتها العالم العربي والإسلامي، ويعود سبب ذلك إلى الآبار والحقول غير المائيّة أو الزراعية، وإنما النفطية، ترى دولاً تسقط ودولاً تتحوّل فيها الأنظمة، ودولاً يحكمها الفشل، وأخرى عليها الحظر والحصار ومنها يعيش تابعاً او بحماية بعض الدول القويّة، وآخر تلك الفصول هي الربيع العربي الذي قسّم وفصل ودمّر دولاً، وخلق حالات من التعصّب والتخبط، وكلّ ذلك يعود إلى سبب واحد ونتيجة واحدة، أي الشعار الأكبر (النفط).

ترجع أهمية منطقة الشرق الأوسط في

(١) بين التقرير الصادر عن مؤسسة أمريكان انتربرايز في عام ١٩٧٩م، أنّ السياسة الأمريكية تجاه إيران رسمت بعد الحرب العالمية الثانية إلى حد كبير عبر مؤشر مكوّن من المصالح الأمريكية في الحصول على النفط، والوصول إلى الخليج العربي، وجمع المعلومات الاستخباراتية. (برانجر، روبرت جي، وتاهتين، ديل آر: خيارات السياسة الأمريكية في إيران والخليج، دراسات استراتيجية (٣)، ص ٤).

حرب عام ١٩٧٣م. مع العلم أنّ الشّاه في إيران لجأ ومراعاة لمصالحه، وتأكيداً لزعامته إلى تضييق مجالات الاحتكارات النّفطيّة الأمريكيّة، من خلال إلغاء (الكونسرتيوم)، واستمرار رفع أسعار النّفط ضمن (الأوبك) بعد عام ١٩٧٣م.

نشوء اتحاد مصدري النّفط (الأوبك):

ارتبط سوق النّفط العالمي^(١) في كلّ مراحل تطوّره، بتأثير سياسة الطّاقة الأمريكيّة على ظروفه، ونتيجة لارتفاع سعر كلفة استخراج النّفط داخل أميركا، وتباعد حقولها النّفطيّة، قد اضطرت مبكراً إلى اللجوء إلى الاستيراد، ومع بداية السّتينيات شهد السّوق الأمريكيّ الذي كان السّوق الطبيعيّ للنّفط الفنزويلي، إنتاج بلدان الخليج، في طور الازدهار في ذلك الوقت^(٢).

وكان هناك عدة شركات لها تغطية كبرى (الكارتل النّفطي)، وهذه الشّركات حدّدت حصة دول الخليج (بما فيها إيران)، وذلك قبل ١٩٥٠م، وحُدّد سعر كلّ برميل بشكل ثابت، من دون اعتبار لسعر البرميل في السّوق، وتحت الضّغوط المتزايدة من

قبل الدّول المنتجة، قبلت الشّركات مبدأ المناصفة في الأرباح، وصار الرّزيت الخام يتّخذ لحساب سعر الأرباح، ولما كانت الشّركات هي المسيطرة على عمليات الإنتاج والتّصدير والتّسعير وحدها، خفضت الأسعار خلال عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٠م، من دون استشارة الدّول المنتجة، وكان ذلك هو السّبب المباشر لتأسيس اتحاد لمصدري النّفط الأوبك^(٣).

وقاد ذلك التّوجه في التّخفيض من شركة إكسون الأمريكيّة (Exxon)^(٤) التي قرّرت خفض سعر البرميل (١٤) أربعة عشر سنّاً عما كانت عليه من قبل، وكانت تلك النّسبة كبيرة جدّاً بمقاييس عام ١٩٦٠م، مما جعل خمس دول متضرّرة من قرار إكسون هي: إيران والسّعوديّة والعراق والكويت وفنزويلا تجتمع في بغداد (سبتمبر (أيلول) عام ١٩٦٠م؛ ليس لمواجهة إكسل فقط، ولكن لمواجهة الشّركات السّبع الكبرى التي أرادت تلك الدّول أن تجعلها مختصّة في الجوانب الفنيّة والتقنيّة فقط، وترك مهمة رسم السّياسات النّفطيّة الإنتاجيّة والسّعريّة للحكومات^(٥)، ما أدّى ذلك إلى تأسيس

(١) لمعرفة حجم احتياج العالم للنّفط مقارنة بمواد الطّاقة الأخرى انظر: ملحق رقم (١٨)، ص ٣٢٠.

(٢) متى، أنطوان: الخليج العربي، ص ٩٠. (٣) آل ثاني، منى سحيم حمد: السياسة الأمريكيّة، ص ١٥٥.

(٤) شركة أمريكيّة ساهمت في الكونسرتيوم النّفطي أو ما سُمي بالأخوات السّبع، (الكياي، عبد الوهاب، وآخرون:

موسوعة السياسة، ج ١، ص ١١١). (٥) العجمي، ظافر محمد: أمن الخليج، ص ٣٦٠.

أنها كيان غير متجانس وغير معترف به، وحافظت هذه الشركات على علاقات مباشرة مع البلدان المنتجة للنفط، متجاوزين بذلك الأوبك، وبدرجة معينة تسنى لها ذلك حتى عام ١٩٧١م، حيث استمر في الستينيات ظهور منتجين كبار في السوق العالمية للنفط مثل: ليبيا وأبو ظبي والجزائر ونيجيريا، وغيرهما من البلدان النامية، التي نافست بعضها البعض، في ظل الزيادة الجارية الدائمة للعرض على الطلب، لكن طموح تلك البلدان لرفع دخول النفط، أدى بها في الحساب النهائي إلى الانضمام للأوبك^(٥).

وقال الرئيس الأمريكي (ايزنهاور) في معرض استخفافه بأوبك: «أي شخص يمكنه أن يشق تلك المنظمة، لو عرض زيادة (٥) خمس سنوات على كل برمبل، على أي من تلك الدول»^(٦). وعلى الرغم من الجهود المبذولة لأعضاء الأوبك في محاولة منها لتغيير الأسعار في الستينيات إلا أنها فشلت، لعدم قدرتها على تغيير هيكلية الصناعة النفطية في العالم^(٧).

منظمة (الأوبك)؛ بهدف تثبيت استقرار مستوى الأسعار، ومعارضة الاحتكارات النفطية، وإعادة الأسعار الحالية إلى المستويات السائدة، قبل التخفيض الذي حدث في آب (أغسطس) عام ١٩٦٠م^(١).

وقام أعضاء الأوبك بالحد من زيادة دخول النفط، وتحقيق السيطرة الوطنية على اقتصاديات النفط، باعتبارهم جميعاً بلدان نامية، يجري تمويل اقتصادها عن طريق النفط، وأنهم كانوا هدفاً للاستغلال من جانب الكارتل النفطي، الذي قام بشكل عام على أساس اتفاقات امتيازات متشابهة مستندة إلى عدم التساوي في الحقوق^(٢).

وكانت إيران بين البلدان الأعضاء الثلاثة: السعودية، العراق، إيران في الأوبك التي تملك مخزوناً من النفط قادراً على تلبية حاجات البلدان المستهلكة، بتعبير أدق، إن العلاقات السياسية مع البلدان الثلاثة فقط، هي حاسمة بالنسبة إلى العالم الغربي، المستهلك لذلك المصدر من الطاقة^{(٣) (٤)}.

نظرت الشركات المحتركة لأوبك على

(١) متى، أنطوان: الخليج العربي، ص ٩٠؛ Han, Vo Xuan: Oil, the Persian Gulf States, p.43.

(٢) اندجيكيان، ر. و، ص ٣٠.

(٣) كانت سنوات السبعينيات بمثابة سنوات المجد بالنسبة لمنظمة الأوبك، وكان للشاه دور أساسي في تدبير ارتفاع الأسعار التي جلبت ثروات لدول الخليج. (Farber, David: Taken Hostage, p.70).

(٤) متى، أنطوان: الخليج العربيين ص ١٣٢. (٥) اندجيكيان، ر. و: الأوبك، ص ٣٠.

(٦) ليتل، دوجلاس: الاستشراق الأمريكي، ص ١٣٨.

(٧) Han, Vo Xuan: Oil, the Persian Gulf States, p.43.

وفي مذكرة استخباراتية وُضعت قبل فترة من انتهاء ولاية (ايزنهاور)، توقع خبراء وكالة المخابرات المركزية في تقييمهم «أن تعمل الدول المنتجة على نحو أكثر كفاءة من خلال في عام ١٩٧٠م هو أيضًا (١,٨) دولار وثمانية سنتات^(٣)، وكانت الزيادة في عائدات الحكومات، ترجع إلى الزيادة السريعة في الإنتاج وليس إلى ارتفاع الأسعار^(٤).

وشكّلت ليبيا بمطالبتها زيادة أسعار النفط، ردًا على تخفيض أسعارها، أول هجوم على مواقع الشركات^(٥)، وحصلت على دعم نشاط أعضاء الأوبك الآخرين منها إيران، بسبب حاجة التطور والتصنيع الذي تجري فيها بمقادير متزايدة الحجم من الاستثمارات^(٦).

وسلكت إيران منذ عام ١٩٦٧م سلوك المطالبة بالتفاوض حول النفط، بفرض زيادة الإنتاج السنوي، لتغطية مشروعات التنمية الإيرانية، على اعتبار النفط هو

بقي الهدف الأساسي للولايات المتحدة الأمريكية في ضرب الأوبك وإضعافه، لكن أشكال وأساليب الصراع الأمريكيّ ضدها تطوّرت وتأقلمت مع الإمكانيات المحدودة التي غدت بيد واشنطن لممارسة الضّغط على تلك المنظمة، واستخدمت في صراعها مع الأوبك الضّغط السياسيّ والدبلوماسيّ والدوافع الأوبك للضّغط على الشركات، أكثر مما كانت تفعل في الماضي^(١).

كانت أسعار النفط هي الوحيدة من السلع العالمية التي لم ترتفع خلال نصف قرن أو أكثر بل على العكس فإنّ الأسعار الحقيقية كانت تتضاءل، وكان سعر البرميل من النفط المنتج في بلدان العالم الثالث عام ١٩٠٠م هو (١,٢٠) دولار وعشرون سنتًا، وفي عام ١٩٦٠م كان (١,٨) دولارًا وثمانية سنتات، وبعد عشر سنوات من ظهور الأوبك، وحدثت تغييرات سياسية واقتصادية مصحوبة بالتضخم، ظل سعر البرميل الاقتصاديّة واستغلال آلية السوق الرأسمالية^(٢).

(١) ليتل، دوجلاس، الاستشراق الأمريكي، ص ١٣٩.

(٢) الرميحي، محمد: النفط والعلاقات الدولية، ص ١٢٦.

(٣) Han, Vo Xuan: Oil, the Persian Gulf States, p.43.

(٤) صرح تقرير صادر عن الإدارة الأمريكية تأييد أمريكا لليبيا في طرحها حيث ذكر: «في عام ١٩٦٩م قام انقلاب في ليبيا أطاح الملكية، وخلال وقت قصير تحركت ليبيا ضد شركات النفط الأمريكية، بالإضافة إلى منظمات نفطية أجنبية أخرى، من أجل الحصول على عوائد إضافية من إنتاج النفط للخزانة الليبية، وكان الموقف الرسمي من تلك التحركات الليبية هو البقاء بعيدًا عن الخلاف، وتشجيع الشركات على الرضوخ للمطالب الليبية». (برانجر، روبرت جي، وتاهتين، ديل آر. : خيارات السياسة الأمريكية في إيران والخليج، دراسات استراتيجية (٣)، ص ١٣).

(٥) الرميحي، محمد: النفط والعلاقات الدولية، ص ٢٥؛ اندجيكيان، ر. و: الأوبك، ص ٣٠.

المصدر الرئيسي لمواردها الاقتصادية، ويجب أن يتحمل القسط الأكبر من أعباء التنمية، وأشار الشاه إلى ذلك في إحدى خطبه عام ١٩٦٨ م^(١).

وقام الشاه بوضع معادلة ربط الحاجة التنموية بالإنتاج من النفط، لأنه رأى أنه ليس من المعقول أن تنتج الشركات العاملة في المناطق، الكميات من النفط المساوية للكميات المنتجة في إيران، مع أن البلاد التي تستخرج منها الكميات لا تستطيع أن تستوعب مداخل النفط تلك، لا من حيث المساحة ولا السكان، وإذا كانت الأمور تتطلب تخفيضات في الكمية المعروضة من النفط بناء على ميزان العرض والطلب في سوق النفط العالمي، فإن تلك التخفيضات يجب أن تتم من نفط الدول الصغيرة وقليلة السكان^(٢).

وكما هو معلوم فإن الشركات المحتكرة للنفط الإيراني كانت أمريكية^(٣)، وقد حصلت على الامتياز النفطي في إيران منذ عملية (أجاس) التي قامت بها المخابرات الأمريكية؛ لإسقاط حكومة (مصدق)، وما تلاها من إنشاء (الكونسرتيوم النفطي).

وكما هو معلوم فإن وكلاء الشركات النفطية الأمريكية، يهدفون إلى فرض سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على نفط المنطقة. بدعم من إدارة البيت الأبيض حيث شكّل ذلك برنامجهم الحقيقي التنفيذي للخطة الاستراتيجية الأمريكية^{(٤) (٥)}.

وبهدف الهيمنة على نفط المنطقة، رعت الخارجية الأمريكية عام ١٩٧٠ م، إنشاء لجنة استشارية قومية للبترول الأجنبي، بغرض تغريم سلطة الإدارة الأمريكية على الشركات المتعددة الجنسيات، التي تعمل

(١) وثائق وزارة الخارجية الأمريكية، وثيقة رقم (٤) بتاريخ ٦ آذار (مارس) عام ١٩٦٩ م، مج ٤ - e، ص ١-٤؛ آل ثاني، منى سحيم حمد: السياسة الأمريكية، ص ١٧٢.

(٢) الرميحي، محمد: النفط والعلاقات الدولية، ص ١٢٤.

(٣) حسب تقدير عام ١٩٧١ م، كانت الشركات الأمريكية تملك ٦٢٪ من الاحتياطي النفطي في الخليج وشمال أفريقيا، بموجب امتيازاتها. (سليمان، عاطف: النفط العربي، ص ٢٣-٢٤).

(٤) أكد ذلك التقرير الأمريكي الذي صدر في تشرين أول (أكتوبر) عام ١٩٨٠ م، بشأن انحسار نفوذ الشركات الكبرى، وازدياد التعامل المباشر بين الحكومات، حيث ذكر: «ليس ثمة شك في أن احتكار الشركات للنفط الخام تحت الامتيازات الممنوحة شكل في الماضي حاجزاً مفيداً بين الحكومات المستوردة والحكومات المصدرة للنفط، كما أنه ضمن مرونة كبرى في أسواق النفط، نحن نؤمن أن ذلك الوضع كان في مصلحة أمريكا، ولكن لا بد من ملاحظة أن ذلك كان في الـ (٢٥) الخمس والعشرين سنة بعد الحرب العالمية الثانية». (تقرير اللجنة الفرعية لأوروبا والشرق الأوسط في مجلس النواب: النفط والسلاح والسياسات الأمريكية في المنطقة، ص ٤-٥).

(٥) عين ملك، جورج: السياسة الأمريكية، ص ٩٦.

في الشرق الأوسط^(١). وبذلك فإن شركات النفط الأمريكية هي الأداة غير الرسمية للحكومة الأمريكية، والتي من خلالها تتم السيطرة على النفط في الدول المنتجة له.

وفي السنوات الخمس التالية لعام ١٩٦٧م، طالبت إيران بزيادة إنتاجها بمقدار (١٦,٨٪)؛ لاحتياجها مبلغ (٦,٤٩٣) مليون دولار؛ لإنجاز الخطة الخمسية الرابعة من مشروع التنمية والعمران الإيراني، وقد اجتمع البرلمان الإيراني، وأقر تلك الزيادة^(٢)، مستفيداً من بعض نصوص الاتفاق الموقع بين الشركات (الكونسرتيوم) والحكومة الإيرانية عام ١٩٥٣م^(٣).

لكن الكونسرتيوم لم يوافق إلا على نصف الزيادة، فمارست إيران ضغطاً متواصلًا على شركات النفط، لدرجة بلغت حدّ التلويح بسنّ قوانين جديدة، تنظم الاستفادة إيران من نفطه، ولوح الشّاه صراحة بذلك مبدئيًا أنه يحق دوليًا تنظيم

الاستفادة من النفط، - يعني بذلك التأميم اعتراف الأمم المتحدة به - وبدأت الصحافة الإيرانية تتناول الكونسرتيوم بالنقد والتّجريح على أساس عدم الوفاء بالتزاماته تجاه الحكومة الإيرانية، ووصفته بالاستغلال^(٤).

كان الوضع بالنسبة إلى الشركات في ذلك الوقت قد تغير^(٥)، وأصبحت للدول المنتجة - مثل إيران - القدرة على المطالبة بتغيير امتيازاتها النفطية، وكانت الشركات الأمريكية قد أدركت ذلك الوضع الجديد، ما اضطر رجال النفط إلى الاعتراف بذلك. ونتيجة للضغط الإيراني المتواصل من الإيرانيين والبرلمان والحكومة، بالإضافة إلى خشية الكونسرتيوم أن تتخذ إيران موقفًا فرديًا، بعد أن كثر اتهامها بالعمالة، ووقوعها تحت تأثير الدول الغربية الكبرى بخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، وافقت الشركات الممثلة في الكونسرتيوم على الدّخول في مفاوضات مع الحكومة الإيرانية في المدة ما بين ٧ إلى ١٥ تشرين ثانٍ

(١) ليتل، دوجلاس: الاستشراق الأمريكي، ص ١٤٦-١٤٧.

(٢) آل ثاني، منى سحيم حمد: السياسة الأمريكية، ص ١٧٢.

(٣) الرميحي، محمد: النفط والعلاقات الدولية، ص ١٢٥.

(٤) آل ثاني، منى سحيم حمد: السياسة الأمريكية، ص ١٧٢-١٧٣.

(٥) في ٢١ كانون ثاني (يناير) عام ١٩٧٠م، أبلغ جيمس أكينز (James Akins) خبير النفط في شركة فوجي بوتوم المستشار القانوني للشركات جان ماكلوي (Jean McCloy): كنا في يوم جديد، وعصر جديد، وكان هناك سعيًا متناميًا نحو التأميم أو المشاركة، لذا كان لابد من الاعتراف بالواقع، في العالم الذي نعيشه. (ليتل، دوجلاس: الاستشراق الأمريكي، ص ١٤٦-١٤٧).

فرصة لمنتجي النفط للضغط على عملائهم^(٤)، لذلك فإن دول الخليج طلبت زيادة كبيرة وعامة، في مستوى الأسعار المعلنة^(٥) من خلال استراتيجية موحدة يتم تنسيقها والإعلان عنها في اجتماع منظمة الأوبك، الذي عُقد في فنزويلا في كانون أول (ديسمبر) عام ١٩٧٠م^(٦)، حيث قام الشاه بجمع لجنة دول الخليج، وحصل على حصة أكبر من الأرباح، وارتفاع لسعر البرميل الواحد للنفط^(٧).

وأدى دوراً مهماً في المفاوضات التي أعقبت المؤتمر؛ لرفع أسعار النفط، وتحسين شروط التعاقد^(٨)، حيث أعطى قادة أوبك للشركات النفطية مهلة لا تتجاوز الشهر الواحد للتفاوض حول القرارات، وأعلن الملك السعودي أنه في حال عدم التوصل إلى حلول مع الشركات، فإن تلك القرارات ستعد سارية من طرف واحد، وأمام تصاعد حدة الخلاف بين الشركات

(نوفمبر) عام ١٩٧٠م، وانتهت المفاوضات لصالح إيران، وتراجع الكونسرتيوم، ثم صدر بيان مشترك، أقر فيه رفع الضريبة على عائد شركات النفط من ٥٠٪ إلى ٥٥٪، ورفع سعر البرميل الخام تسع بنسات من آخر سعر سابق^(١).

كان لهذه الاتفاقية التي حدثت بين الكونسرتيوم وإيران تأثير على باقي الدول في الخليج، لذا كان ذلك الأمر في تفكير مسؤولي الشركات العاملة هناك^(٢)، حيث أرادوا ألا تزايد تلك الدول على المكاسب الإيرانية، فقاموا بعرض الصيغة نفسها التي توصلوا إليها مع إيران على دول المنطقة؛ بهدف تعميمها، حيث استطاعت الشركات النفطية حتى ذلك الوقت، تجاهل طلب منظمة الأوبك للمفاوضات الجماعية^(٣).

لكن بعد الزيادات الهائلة في الطلب العالمي على النفط، والنتيجة عن التنمية الاقتصادية الدولية، فإن هذا الأمر كان

(١) آل ثاني، منى سحيم حمد: السياسة الأمريكية، ص ١٧٣-١٧٤.

(٢) برانجر، روبرت جي، وتاهنتين، ديل آر: خيارات السياسة الأمريكية في إيران والخليج، دراسات استراتيجية (٣)، ص ١٣.

(٣) Han, Vo Xuan: Oil, the Persian Gulf States, p.43.

(٤) Farber, David: Taken Hostage, p.70.

(٥) لا تمثل الأسعار المعلنة أسعار الصفقات الحقيقية، ولكنها تستخدم كأساس لحساب مدفوعات الربح، والربح هو التزام مالي قدره (١٢,٥٪) وأيضاً ضريبة الدخل التي بلغت في أغلب البلدان الأوبك مع بداية الخمسينيات (٥٠٪) من السعر المعلن، ثم زادت في السبعينيات إلى (٥٥٪). (اندجيكيان، ر. و: الأوبك، ص ٢٥).

(٦) آل ثاني، منى سحيم حمد: السياسة الأمريكية، ص ١٧٤.

(٧) Farber, dAvid: Taken Hostage, p.70. (٨) الرميحي، محمد: النفط والعلاقات الدولية، ص ١٢٦.

والدول المنتجة، اقترح المستشار القانوني للشركات^(١)، طلب مساعدة الحكومة الأمريكية للتدخل؛ لأن موقف الشركات لم يكن قوياً أمام الأوبك^(٢).

في ١١ كانون ثاني (يناير) عام ١٩٧١م اجتمع ممثلو (٢٣) ثلاث وعشرون شركة، ومن بينهم ممثلو الأخوات السبع، من أجل الإعداد لاجتماع مشترك مع الأوبك في ٢٨ كانون ثاني (يناير) عام ١٩٧١م في طهران^(٣)، حيث زعمت أنها تلاقى أزمة بسبب الأوبك، وذلك لتسوية الأسعار العالية التي كانت تنوي الحصول عليها في الاسواق^(٤).

أثار الأمر اهتمام إدارة الرئيس نيكسون، لرسم سياسة قوية؛ لحماية الحصص القانونية للولايات المتحدة الأمريكية في نفط الشرق الأوسط^(٥)، وفي ١٦ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٧١م، عندما بدأت

المفاوضات في طهران، أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية وكيل وزارة الخارجية جون اروين (John Erwin) بتفويض شخصي من الرئيس نيكسون^(٦)؛ بغية تهدئة الأوضاع، في وقت بدأ فيه الرأي العام العربي يضغط من أجل استخدام سلاح النفط للتأثير على الموقف الأمريكي المنحاز (إسرائيل)، بالإضافة إلى بوادر ظهور أزمة النفط، بعد تزايد الطلب عليه من قبل الدول الصناعية الكبرى^(٨). وقد كان الرئيس نيكسون يهدف من إرسال نائب وزير خارجيته إلى طهران، ليضخم الأمر في عقول الأمريكيين^(٩). ولكن المساعي الأمريكية فشلت في الضغط على الأوبك المجتمعة في طهران^(١٠)؛ بغرض تطبيق قرارات منظمة الأوبك، وزيادة أسعار النفط المعلنة، وزيادة مستوى مدفوعات الضرائب، وتقديم ضمانات للشركات لتحقيق الاستقرار في المشاركة الحكومية

(١) كان جان ماكلوي (Jean Macloy) هو المستشار القانوني للشركات في ذلك الوقت. (ليتل، دوجلاس: الاستشراق الأمريكي، ص ١٤٦-١٤٧).

(٢) آل ثاني، منى سحيم حمد: السياسة الأمريكية، ص ١٧٤؛ ليتل، دوجلاس: الاستشراق الأمريكي، ص ١٤٦-١٤٧.

(٣) دولونيه، جاك، وشارلييه، جاك ميشيل: التاريخ السري للبتترول، ص ١٥١.

(٤) ستورك، جو: أزمة الطاقة، ص ١١٩. (٥) ليتل، دوجلاس: الاستشراق الأمريكي، ص ١٤٦-١٤٧.

(٦) وثائق وزارة الخارجية الأمريكية، وثيقة رقم (١١٠) بتاريخ ١٦ كانون ثاني (يناير) عام ١٩٧١م، مج ٤-E، ص ١.

(٧) كانت أمريكا في عهد إدارة (نيكسون) قد بلورت خططها الاستراتيجية بكل أوضوح، عبر صانعيها الذين تمثل احتكارات النفط جزءاً منها، والذين يقودون أمريكا أساساً، ويوجهون سياستها. (عين ملك، جورج: السياسة الأمريكية، ص ٩٧).

(٨) آل ثاني، منى سحيم حمد: السياسة الأمريكية، ص ١٧٧. (٩) ستورك، جو: أزمة الطاقة، ص ١١٩.

منظمة الأوبك قد أصبحت أقوى من السابق»^(٦)، وأكد المعنى نفسه تقرير للإدارة الأمريكية حيث ذكر: «كانت النتيجة انتصارًا [مهمًا جدًا لمنظمة الأوبك، إذ لم يرتفع سعر النفط، ولم توضع أسس زيادات أخرى فقط، بل تبين أيضًا أن الأوبك تملك بالفعل قوة هائلة؛ باعتبارها تجمعا للدول المنتجة للنفط، بل البعض سماها كارتل»^(٧).

بعد المفاوضات توصلت الشركات ودول الخليج إلى اتفاقية، عُرفت باتفاقية طهران لعام ١٩٧١م، وقد تم توقيعها في ١٤ شباط (فبراير) عام ١٩٧١م بطهران^(٨)، حيث تم جمع قانون منظمة الأوبك وتدوينه، وإقراره نهائياً، وتسليمه إلى شركات النفط والدول المصدرة للنفط في العالم في إطار ذلك الاتفاق، ونصّ الاتفاق على زيادة الضرائب بنسبة تساوي نحو نصف مطالب

في تعهداتها^(١). وبشهادة الجميع، لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية ناجحة في التفاوض مع دول منظمة الأوبك، أو في التنسيق مع حلفائها، في اجتماعات طهران^(٢).

وعليه، لجأت الخارجية الأمريكية إلى حثّ الشركات بالتفاوض مع منتجي النفط الخليجي، ثم تعقبها مفاوضات مع باقي دول الأوبك، وذلك وفق ما جاء في الاجتماع الذي عُقد بين الشاه والمبعوث الأمريكي^(٣)، وهو ما وافقت عليه الشركات، على أن يتم تعميم ما سيتم الاتفاق عليه مع دول الخليج على باقي دول الأوبك^(٤).

كانت هذه الحوارات هي المرة الأولى التي قبلت فيها الشركات مناقشة الأسعار مع منظمة الأوبك، حيث نتج عن تلك الاتفاقيات عصر جديد عرف فيما بعد بمفاوضات طهران^(٥)، وصرح مسؤول في الأوبك بذلك بقوله: «بعد اتفاقية طهران، فإن

(١) Simpson, EbowBondzi: Legal Relationships, p.86.

(٢) Keohane, Robert O.: The International Politics, p.94.

(٣) وثائق وزارة الخارجية الأمريكية، وثيقة رقم (١١١) بتاريخ ١٦ كانون ثانٍ (يناير) عام ١٩٧١م، مج ٤-E، ص ١، ٥؛ وثيقة رقم (١٠٩) بتاريخ ١٤ كانون ثانٍ (يناير) عام ١٩٧١م، مج 4-E، ص ١، ٦.

(٤) آل ثاني، منى سحيم حمد: السياسة الأمريكية، ص ١٧٨.

(٥) Han, Vo Xuan: Oil, The Persian Gulf States, p.43.

(٦) Farber, David: Taken Hostage, p.70.

(٧) برانجر، روبرت جي، وتاهتين، ديل آر. : خيارات السياسة الأمريكية في إيران والخليج، دراسات استراتيجية (٣)، ص ١٣.

(٨) وثائق وزارة الخارجية الأمريكية، وثيقة رقم (١١٥) بتاريخ ١٨ شباط (فبراير) عام ١٩٧١م، مج 4-e، ص ١، ٥.

منظمة الأوبك الأولى، مع زيادة معدل الضريبة بنسبة ٥٠ - ٥٥٪^(١).

كما نصّت الاتفاقية على أن تكون مدة الاتفاق خمس سنوات (تنتهي عام ١٩٧٦م)، وتعهدت حكومات منظمة الأوبك أنه لن يكون هناك قفزات أخرى أو مطالب للخليج، وأن ذلك الاتفاق سيصمد حتى العام ١٩٧٥م^(٢) (٣). واهتمت اتفاقية طهران على رفع نصيب الدول المنتجة من الأرباح، وشاركتها في تحديد الأسعار، ولم تمس نظم الامتياز ذاتها^(٤)، وظلت سارية لمدة عامين، ثم انهارت بعد ظهور مستجدات سياسية واقتصادية جديدة إثر حرب تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٧٣م^(٥).

وللتاريخ، كانت المرة الأولى التي حاولت الحكومة الإيرانية السيطرة على مواردها النفطية، وإلغاء الاحتكار النفطي أثناء حكومة مصدق، لكن نتج عنها فشل عملية التأميم فاستيلاء كونسرتيوم النفط على النفط الإيراني، وأدرك الشاه المؤامرة

التي قامت بها تلك الشركات، والاتفاق السري الذي تم بينها، لكنه لم يتمكن في ذلك الوقت من القيام بإلغاء الاتفاقية، بسبب الظروف التي مر بها حكمه؛ إلا أنه مع بداية السبعينيات ظهرت مجموعة من العوامل أسهمت في قيام الشاه بالحصول على امتيازات نفطية أفضل.

إنهاء الكونسرتيوم:

رغبت إيران باستعادة مواردها النفطية، وذلك من خلال تحسين شروط الامتياز من دون المساس بها، إلا أن تلك التحسينات لم تكن لتفي بالخطط التي وضعها الشاه؛ لتصبح إيران أقوى دول المنطقة.

فقد كان رفع أسعار النفط وفق اتفاقية طهران غير مرضٍ لإيران، بسبب الانخفاض في قيمة الدولار، والأسعار كانت مقيمة بالدولار، وأدى انخفاض قيمة الدولار إلى انخفاض القيمة الحقيقية للأرباح، مما قلل بشكلٍ حاد حصتها من الأرباح الإجمالية^(٦). واتضح الأمر بالنسبة إلى الشاه، وذلك

(١) Ghosh, Arabinda: OPEC, The petroleum Industry, p.27.

(٢) كانت تلك هي ذات الشروط التي تم الاتفاق عليها بين الشاه والمندوب الأمريكي جون اروين في الاجتماع الذي تم بينهما. (وثائق وزارة الخارجية الأمريكية، وثيقة رقم (١١١) بتاريخ ١٦ كانون ثانٍ (يناير) عام ١٩٧١م، مج 4-E، ص ١، ٤).

(٣) الرميجي، محمد: النفط والعلاقات الدولية، ص ١٢٦؛

Ghosh, Arabinda: OPEC, The Petroleum Industry, p.27.

(٤) العيدروس، محمد حسن: تاريخ الخليج العربي، ص ٣٤٢؛ الجلبي، فاضل والجنابي، عدنان: سياسات الإنتاج والتسعير، ص ٣٤.

(٥) آل ثاني، منى سحيم حمد: السياسة الأمريكية، ص ١٧٨.

(٦) Keohane, Robert O.: The International Politics, p.95.

بشركة وطنية للنفط الإيراني^(١)، واستطاع في ١٩٧٣م من إرغام أعضاء الكونسرتيوم، الذي تشكل بموجب اتفاق النفط عام ١٩٥٣ على زيادة المدفوعات لإيران، عندما أعلن إلغاء اتفاق عام ١٩٥٣م، ومن ثم سيطر كلياً على عمليات البيع والإنتاج التي تعهّدت بها شركة النفط الوطنية الإيرانية^(٢)، وأجبر الكونسرتيوم التفاوض على عقد جديد، اعتقد الشاه أنه مجزٍ، حيث توصل من خلاله إلى اتفاق مدته عشرون عاماً بدءاً من عام ١٩٧٣م^(٣). واستطاع أن يجهر بقوله: «وأخيراً فزت بها... وانتهت اثنتان وسبعون سنة من السيطرة الأجنبية على عمليات صناعتنا»^(٤).

الولايات المتحدة الأمريكية وإنهاء الكونسرتيوم:

كان لإلغاء اتفاق الكونسرتيوم الذي أصدره الشاه في ٣١ يوليو ١٩٧٣م، أثر سلبيّ وغضب على الولايات المتحدة الأمريكية^(٥)، على الرغم من محاولات منعه أمريكياً، خوفاً من انتقال هذه الرغبة في التأميم إلى دول المنطقة. فقال الرئيس الأمريكي نيكسون، عبر مذكرة أرسلها إلى الشاه:

بإنهاء الاحتكار النفطي، عبر اتفاق جديد يحفظ لإيران حقها في نفطها، وساعده في رؤيته تلك اختلاف الموازين الدولية والداخلية من خلال الأحداث التي حدثت في عهد مصدق، وعملية التأميم التي كانت من جملة تلك الظروف التي ساهمت في بلورة التفكير في إعادة طرح عملية تأميم النفط الإيراني ما يلي:

أ - ازدياد قوة إيران عسكرياً، بعدما أصبحت الشرطي الأمريكي في المنطقة بعد الانسحاب البريطاني.

ب - رغبة إيران في مزيد من التسليح العسكري؛ للقيام بالمهام الموكلة إليها وفق شرطي الخليج، مما يستدعي زيادة العائد المالي الذي تعتمد عليه في تمويل عملية شراء السلاح، لا سيما النفط الإيراني السلعة الأولى لإيران.

ت - أثر زيادة الرئيس الأمريكي نيكسون لإيران، أظهرت مدى أهمية إيران للإدارة الأمريكية، وحاجتها لها في المنطقة. وتبعاً لذلك، استمر الشاه محاولاته في تهميش (الكونسرتيوم الدولي، ائتلاف شركات النفط الدولي) الذي تشكل بعد انقلاب عام ١٩٥٣م وللاستعاضة عنه

(١) Farber, David: Taken Hostage, p.71. (٢) Daniel, Elton L.: The History of Iran, p.160.

(٣) الرميحي، محمد: النفط والعلاقات الدولية، ص ١٢٦.

(٤) Farber, David: Taken Hostage, p.71. (٥) مهابة، أحمد: إيران بين التاج والعمامة، ص ١٢٢.

«أخاف من أنّ العروض الأخيرة المقدمة من حكومة جلالتكم قد تؤثر بشدة على المنطقة بأكملها، وعلى وضع علاقتنا المشتركة، كما تعلم أنني في الوضع الراهن مهتم اهتماماً بالغاً بالأنشطة المرتبطة بهذه المفاوضات للوصول إلى السلام في منطقة جنوب شرق آسيا، وإعادة تنظيم الجهاز الإداري الخاص بي يوم تولي السلطة، وهذا لا يجعلني أستطيع أن أعرض الموقف الحالي، فأني خطوة انفرادية من جانب واحد لا تقابل الفائدة الشرعية للجانبين وقد تكون لها آثار ضارة بالنسبة إلى الأهداف التي نسعى إليها سوياً، أنا أتمنى أن تؤجل أي عمل فردي حتى أتمكن من دراسة الموقف، ووضع وجهات نظر بالنسبة لي»^(١). وفي تلك المرحلة كانت الولايات المتحدة أكثر حاجة إلى الطاقة ومصادرها، فأصبحت الولايات المتحدة الأمريكية خاضعة لتبعية مصادر الطاقة الخارجية، وارتفعت نسبة تبعيتها النفطية للخارج من ٥٪ عام ١٩٦٠م إلى ١٦,٣٪ عام ١٩٧٤م^(٢).

كان الانطباع سلبياً لدى الشاه على ما ورد في التهديد الأمريكي، لذلك لم يترك الشاه خطاب نيكسون من دون تعقيب. وكان رد الشاه في ٢٠ يناير ١٩٧٣م:

«نحن نظنّ أنّ جميع شركات البترول لديها متسع من الوقت؛ للوصول إلى اتفاقية معنا، ولكنهم يقضون هذا الوقت في أشياء جانبية أخرى»، وطلب إبلاغ السفير الأمريكي استياء الشاه من خطاب الرئيس نيكسون، «الذي هدد بالعلاقات الأمريكية الإيرانية لمجرد شكوى شركة نفط»، وأضاف لرجاله بقوله: «لن نقبل أي نصيحة من عدو أو صديق»^(٣).

وفي ٢٧ كانون ثانٍ (يناير) عام ١٩٧٣م، ناقش الشاه التطورات الأخيرة في مفاوضات النفط، وكان متذمراً من طلب الرئيس نيكسون، تحديد الحصص الإيرانية بمستوى أقل الدول في الشرق الأوسط بأكمله، وقال: «إن إيران لديها متطلبات للتنمية، ومتطلبات جماهيرية، لا يمكن مقارنتها إطلاقاً، بتلك المتطلبات الخاصة بجيراننا العرب»^(٤).

إيران وإنهاء الكونسرتيوم:

حصدت إيران عوائد أكبر من خلال القانون، وحصدت مشروعات اقتصادية، والعديد من خططها، ما مكن إيران من تحقيق مكانة كبيرة عالمياً، فساهمت بدعم عدة دول من العالم الثالث، فوصلت إيراداتها من النفط (١٨,٦) مليار دولار عام

(١) علم، أسد: الشاه وأنا، ص ٣٨٢.

(٢) متى، أنطوان: الخليج العربي، ص ٨١.

(٣) علم، أسد: الشاه وأنا، ص ٣٨٢.

(٤) علم، أسد: الشاه وأنا، ص ٣٨٤.

١٩٧٥م، وبلغ حجم تصدير إيران للنفط الخام من العام نفسه (٩,٦) ملياراً متراً مكعباً، بزيادة مقدارها ٥، ٣٥٪ عن عام ١٩٧٤م^(١).

وأبرمت إيران أكبر صفقة لتصدير الغاز الإيراني الخام في العام ١٩٧٦م، عن طريق الاتحاد السوفيتي والنمسا وألمانيا الاتحادية وفرنسا^(٢)، وطبقاً لذلك الاتفاق أصبحت إيران تصدر سنوياً إلى الدول الأوروبية (١٣,٤م) مليار متراً مكعباً، كما وقعت إيران مع فرنسا اتفاقاً للتعاون يُعد فريداً من نوعه، بحيث أثار قلق الولايات المتحدة الأمريكية، بلغت قيمته (٩) تسعة مليار دولار، تقيم فرنسا بمقتضاه محطات كهربائية نووية ومصنع لإنتاج الغازات السائلة، وناقلات لنقل ذلك الغاز السائل، ثم مدّ خط أنابيب بين طهران وأوروبا لنقل الغاز، وتوسيع مصانع الحديد والصلب الإيرانية، وبناء مترو طهران^(٣)، وذلك كلّه في سبيل الحصول على النفط متدفقاً ومستمرّاً، كما استطاعت تسديد ديونها التي استدانته بعد الاحتفال الذي أقامه الشاه في

نهاية عام ١٩٧٣م، بمناسبة مرور ألفين وخمسمائة عام على الملكية في إيران^(٤) (٥).

وأهم من ذلك أن الشاه اقترح تأسيس منظمة جديدة بمساعدة مالية من جميع الدول الأعضاء في الأوبك، ومن اثنتي عشرة دولة صناعية في العالم، تتخذ شكلاً صندوق، تقديم القروض للدول النامية بشروط سهلة وبفائدة (٢٪) لمدة خمسة وعشرين عاماً، وتلك التطورات أثارت قلق الولايات المتحدة الأمريكية وغضبها، بخاصة أن دولاً مثل بريطانيا أسعدها أن تقترض منها^(٦).

إشكالية حرب ١٩٧٣م والحظر العربي للنفط:

تأتي أهمية النفط في الشرق الأوسط بالنسبة إلى النظرة الأمريكية، منذ عهد الرئيس نيكسون، ومروراً بحرب ١٩٧٣م، وحظر النفط المؤثرفي الحرب، وبخاصة أنّ هذه الحرب جاءت بعد الانسحاب البريطاني، وصعود دور إيران كراعية للمصالح الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط. وكانت المرة الثانية التي استخدم

(١) مهابة، أحمد: إيران بين التاج والعمامة، ص ١٢٢.

(٢) السبكي، آمال: تاريخ إيران السياسي، ص ١٧٧.

(٣) مهابة، أحمد: إيران بين التاج والعمامة، ص ١٢٣.

(٤) أطلق الشاه على الاحتفال اسم (مهرجان برسوبوليس). هيكل، محمد حسين: مدافع آية الله، ص ١٢٩، ١٥٦.

(٥) الرميحي، محمد: النفط والعلاقات الدولية، ص ١٧٥؛ هيكل، محمد حسين: مدافع آية الله، ص ١٢٩، ١٥٦.

(٦) السبكي، آمال: تاريخ إيران السياسي، ص ١٧٧؛ هيكل، محمد حسين: مدافع آية الله، ص ١٢٩.

وقامت الحرب^(٤) بدعم أمريكي؛ لذلك تبعها قطع للنفط العربي عن الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وألمانيا^(٥).

فيها سلاح النفط في حرب ١٩٧٣ م^(١)، وبعد استخدامه في حرب ١٩٦٧ م^(٢).

١ - النفط العربي عام ١٩٦٧ م وعام

١٩٧٣ م:

توقف النفط عن الغرب، مؤقتًا إلا أنه كان أطول من خلال أنبوب التابلاين (TAPLINE)^(٦) وكان هناك محاولات لأميركا وإيران لإيصال النفط الإيراني إلى إسرائيل عبر سفن أميركية تحمل أعلامًا لدول أجنبية لكنها فشلت. ففي ٢٧ أيار (مايو) عام ١٩٦٧ م، أُختبر

ولننذكر رفض بداية الستينيات، وعقب هدوء نسبي بين إسرائيل والعرب، بدأت الاختراقات الحدودية بينهما تزداد، وفي أيار (مايو) عام ١٩٦٧ م أجلت الأمم المتحدة قواتها من مصر^(٣)، وهاجمت الطائرات (الإسرائيلية) المطارات المصرية،

(١) حرب عام ١٩٧٣ م: هي الحرب التي شنتها مصر وسوريا، وانضم إليها العراق وغيره من الأقطار العربية ضد (إسرائيل) في ٦ تشرين أول (أكتوبر) عام ١٩٧٣ م، ورافق الحرب حظر نفطي فرضته الدول العربية المنتجة للنفط. (الكيالي، عبد الوهاب، وآخرون: الموسوعة السياسية، ج ٢٠٨، ص ٢١٠).

(٢) كانت المرة الأولى التي ظهرت فيها فكرة استعمال سلاح النفط في تشرين ثاني (نوفمبر) عام ١٩٥٦ م، حين وقع العدوان الثلاثي على مصر، وكانت سوريا الدولة العربية الوحيدة التي استطاعت أن تستخدم سلاح النفط، حينما فجرت الأنابيب التي تنقل النفط من العراق عبر أراضيها إلى البحر المتوسط، وكان نجاحها في أضيق الحدود. (غالي، بطرس: الاستراتيجية الدولية، ص ٩).

(٣) كانت قوات المراقبين التابعة لهيئة الأمم المتحدة، ترابط في مضائق تيران منذ حرب عام ١٩٥٦ م، لحماية الملاحة المتوجهة إلى (إسرائيل) خلال خليج العقبة وإيلات، وتؤمن وصول النفط وحركة السفن التجارية، وفي أيار (مايو) عام ١٩٦٧ م، أصدر الرئيس المصري جمال عبد الناصر وأمره لمراقبي الأمم المتحدة بالانسحاب من مضائق تيران، ثم أرسل قواته إلى سيناء. (بيرغين، دانييل: الجائزة، ص ٢١٤).

(٤) كان السبب المباشر للحرب قيام مصر بإغلاق مضائق تيران أمام الملاحة (الإسرائيلية)، لكن اليهود خططوا لتلك الحرب منذ مدة، بناء على دوافع اقتصادية وديموغرافية وتوسعية ومائية، وحددوا أهدافها الاستراتيجية التوسعية والأمنية، وأعدوا القوى اللازمة لتحقيق تلك الأهداف، وانتظروا الوضع الملائم لهم على الصعيدين العربي والدولي؛ بغية تحديد ساعة الصفر. (الأيوبي، الهيثم: إغلاق مضائق تيران، ص ٣٧).

(٥) العجمي، ظافر محمد: أمن الخليج، ص ٣٦٠-٣٦١.

(٦) أنبوب التابلاين: خط من خطوط الأنابيب الرئيسة في منطقة الشرق الأوسط، يبلغ طوله ١٠٦٨ ميلًا أي ما يعادل (١٧٠٩ كيلومترات)، كان ينقل ما يصل إلى (٥٠٠) ألف برميل / يوميًا من شرق السعودية إلى صيدا في لبنان، وقد تم إنجازه في عام ١٩٥٠ م، وساهم في تقريب المسافة على ناقلات النفط المتجهة إلى أوروبا بحوالي (٢٠٠٠) ميل أي ما يعادل (٣٢٠٠) كيلومتر.

(Drysdale, Alasdair and Blake, Gerald H.: The Middle East and North Africa, p.338).

(٧) العجمي، ظافر محمد: أمن الخليج، ص ٣٦١.

(إسرائيلية)، وقاموا بإرسال أولادهم للانضمام في صفوف الجيش (الإسرائيلي) (٣) (٤). كذلك أدى حظر النّفط إلى دعم الولايات المتحدة الأمريكية لمشروع إنشاء أنبوب نفط إيالات عسقلان، لتزويد (إسرائيل) والغرب بالنّفط الإيراني.

والمعروف أن إيران زودت (إسرائيل) الحليف الأميركي بالنّفط قبل عام ١٩٦٧م بشكل مستقل (٥)، وطالما كانت قناة السويس مفتوحة؛ لم تكن إيران تواجه مشاكل تسويق خاصة، وكان قد أدى إغلاق القناة إلى المس بقدرة إيران على مواصلة تصدير نفطها، وأثار ذلك الوضع في فكرة أن تكون (إسرائيل) ناقل نفط بدلاً من قناة السويس المغلقة، عن طريق مد أنبوب جديد

الحصار المفروض على (إسرائيل) عند وصول نفط إيراني على بواخر تحمل علم ليبيريا، لكن تلك الوكالات لم تلبث أن أكّدت في ٢٩ أيار (مايو)، أن باخرة أمريكية تحمل علم ليبيريا اتجهت نحو المضائق، ثم عادت بعد القصف التهديدي من مدفعية خفر السواحل (١).

وفي أثناء الحرب انضم الشّاه إلى الولايات المتحدة الأمريكية في دعمه للكيان الصهيوني، وأمدّه بالنّفط والعتاد والمال، وذلك بعد زيارة موشي ديان (Moshe Dayan) (٢) لظّهْران، حيث حصل من الشّاه أيضاً على كلّ ما تريده (إسرائيل)، التي تلقت الأموال والتّبرعات من يهود إيران الأغنياء الذين حملوا جوازات سفر

(١) الأيوبي، الهيثم: إغلاق مضائق تيران، ص ٣٥.

(٢) موشي ديان (١٩١٥-١٩٨١): قائد عسكري وسياسي، خدم في صفوف القوات اليهودية خلال الثورة الفلسطينية ما بين (١٩٣٧-١٩٣٩م)، عُيّن عام ١٩٥٨م رئيساً لهيئة أركان الجيش (الإسرائيلي) حتى عام ١٩٥٨م، تولى خلالها العملية العسكرية لاحتلال سيناء عام ١٩٥٦م، تولى وزارة الدفاع في حكومة ليفني اشكول، عشية حرب ١٩٦٧م، شارك في اتفاقية كامب ديفيد بين (إسرائيل) ومصر عام ١٩٧٨م. (عيلام، يغال: ألف يهودي في التاريخ الحديث، ص ١٥٣؛ منصور، جوني: معجم الإعلام، ص ٢٣٦).

(٣) لم يقتصر الدور الإيراني في الحرب على الدعم النفطي، إذ أن شاهة شاهد عيان إيراني - نشرتها مجلة فرنسية في تموز (يوليو) عام ١٩٦٧م - قررت أن الطائرات الحربية الأمريكية كانت تهبط في المطارات الحربية الإيرانية أثناء الحرب، وهناك يتم تغيير ألوانها، وترسم عليها علامات نجمة داود المميزة لسلاح الطيران (الإسرائيلي) ثم تنقل بعد ذلك إلى (إسرائيل). (كرم، سمير: إيران يابان الشرق الأوسط، ص ٦٩).

(٤) جبريل، حسن: أدلة على العلاقات الإيرانية الإسرائيلية، ص ٤٨.

(٥) في الستينيات والسبعينيات، قامت حكومات أمريكا المتعاقبة بتنمية وتقوية العلاقة مع إيران، لأن الشاه قام بتدعيم الأهداف المعلنة للسياسة الخارجية للولايات المتحدة في المنطقة، أكثر من أي زعيم آخر في الشرق الأوسط، وكان أهم تلك الأهداف الأمريكية، توفير إمدادات النفط، ودعم (إسرائيل)، كونها إحدى الدول الرئيسة المنتجة للنفط، فإن إيران قامت على الدوام بدعم استمرار تدفق النفط إلى أمريكا وحلفائها. (McAlister, Melani: Epic Encounters, p.203).

٣ - حاجة إيران إلى العائد المالي للنفط؛ لتتمكن من تنفيذ برامجها التطويرية على المستويين العسكري والتنموي، والذي قامت على أساس عائد النفط.

وكانت موافقة الشاه على المشروع، على الرغم من معارضة شركة النفط الوطنية الإيرانية، ثم بدأ تنفيذ عملية مد الأنبوب في حزيران (يونيو) عام ١٩٦٨م، وانتهى العمل منه في كانون أول (ديسمبر) عام ١٩٦٩م^(٥)، وفي عام ١٩٧٠م، أي السنة الأولى من تشغيله، تم ضخ ما يقرب من (٢٢٠) مائتين وعشرين ألف برميل/ يومياً من خلال الخط، وبحلول العام ١٩٧٢م، كانت طاقة الخط تمكنه من ضخ ما يقرب من (٦٠٠) ستمائة ألف برميل/ يومياً، أو ما يفوق طاقة ضخ التابلاين^(٦).

وللتدقيق، فإن مشروع مد الأنبوب كان في الشهر نفسه الذي أغلقت مصر مضائق تيران أمام الملاحة (الإسرائيلية)، ما يؤكد

من إيالات إلى عسقلان، ومن هناك يُنقل النفط إلى أوروبا بواسطة ناقلات النفط، لكن إيران رفضت اقتراحاً بذلك المعنى في صيف عام ١٩٦٥م، ومع تغير الظروف إثر حرب ١٩٦٧م، تقرر عرض الموضوع على الشاه لمعرفة موقفه، وكلّفت الحكومة (الإسرائيلية) بنحاس سفير (Pinhas Sapir)^(١) بتلك المهمة^(٢) (٣). لذلك في أثناء اجتماع وزير المالية (بنحاس سفير) مع الشاه في إيران بتاريخ ١٢ أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٧م، بينت له تأييد الولايات المتحدة الأمريكية للفكرة^(٤). وكانت أهداف الشاه في الموافقة على مشروع الأنبوب كالتالي:

١ - الرغبة الأمريكية للمشروع، الذي يُعد ضمان لمزيد من المساعدات العسكرية الأمريكية.

٢ - تواصل بيع النفط الإيراني وتسويقه إلى الدول التي كانت تستهلكه قبل الأزمة.

(١) بنحاس سفير (١٩٠٧-١٩٧٥م): ولد في بولندا، ثم هاجر إلى فلسطين عام ١٩٣٠م، من زعماء حزب العمل، تولى في مطلع الخمسينيات مناصب إدارية وزارية مالية، عُين وزيراً للتجارة والصناعة في الدورة الثالثة للكنيست، ثم تولى حفاثب التجارة والمالية وكاد يصبح رئيساً للحكومة بعد استقالة جولدامير (Golda Meir) عام ١٩٧٤م. (منصور، جوني: معجم الإعلام والمصطلحات الصهيونية والإسرائيلية، ص ٢٦٣؛ عيلا، يغال: ألف يهودي في التاريخ الحديث، ص ٣٧٥).

(٢) مع التنويه أن مناقشة مشروع مد خط ذلك الأنبوب بدأت لدى الإدارة الأمريكية منذ عام ١٩٥٧م. (وثائق وزارة الخارجية الأمريكية، وثيقة رقم (٢٠٢) بتاريخ ٢١ آذار (مارس) ١٩٥٧م، مج ١٢، ص ٤٦٤-٤٦٥).

(٣) سيجف، شموئيل: المثلث الإيراني، ك ٢، ص ٩٣. (٤) المصدر السابق، ك ٢، ص ٩٣-٩٤.

(٥) المصدر السابق، ك ٢، ص ٩٤.

(٦) Drysdale, Alasdair and Blake, Gerald H.: The MIDDLE East and North Africa, p.339.

التّخطيط المسبق بين الولايات المتحدة الأمريكية و(إسرائيل)، لإنشاء الأنبوب، وأن (إسرائيل) تداولت المشروع مع الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٩٦٥م، لكن حرب عام ١٩٦٧م كانت نقطة انطلاق للتنفيذ. بعد ذلك أصبحت عملية نقل النّفط الإيراني من خلال الأنبوب آمنة، من وجهة نظر الشّاه، ولم يعد يخشى رد فعل الدّول العربيّة، وفي رده على سؤال صحيفة تونسية في ٧ تموز (يوليو) عام ١٩٧١م، قال الشّاه: «في اللحظة التي تغادر فيها الناقلات الموانئ الإيرانيّة، لا نعرف هدفها النهائي، فالناقلات تغير اتجاهها حسب رغبة أصحابها، وهي في الطريق، لذلك من منا يضمن عدم وصول نفط عربي إلى (إسرائيل)؟!...»^(١).

انتهت عملية حظر النّفط عام ١٩٦٧م

بالفشل، وفسر وزير النّفط السعودي الأسبق أحمد زكي يماني سبب الفشل بقوله: «إن فشل المحاولة يعود إلى أن النّفط كان في يد الشّركات الأمريكيّة أكثر مما كان في يد الدّول العربيّة استخراجًا فتكريرًا ثم تصديرًا»^(٢). كما لم يكن حظر النّفط العربي حظرًا شاملًا، وعليه فالشّركات كانت قادرة على مبادلة الشحنات، في أماكن ووجهات مختلفة، فكانت النتيجة الرئيسيّة للحظر خسارة للدخل بالنسبة إلى الدّول العربيّة المصدرة للنّفط^(٣)، ومن أسباب فشل تجربة المقاطعة آنذاك أن الولايات المتحدة الأمريكيّة لم تكن تعتمد على نفط العرب^(٤) بالحجم نفسه الذي اعتمدت عليه في عام ١٩٧٣م، إذ بلغت قيمة ما تستورده ٥٪ من إجمالي استهلاكها من نفط الدّول العربيّة، وأن الشّاه وفنزويلا استمرّا في

(١) سيجف، شموئيل: المثلث الإيراني، ك٢، ص ٩٥-٩٦.

(٢) العجمي، ظافر محمد: أمن الخليج، ص ٣٦٢.

(٣) Claes, Dag Harald: The Politics of Oil-Producer Cooperation, p.218.

(٤) كانت أمريكا لا تعتمد على النفط العربي حتى عام ١٩٦٧م لسد احتياجات استهلاكها المحلي؛ إلا ضمن حدود ضعيفة جدًا، ولكن القوات الأمريكيّة فيما وراء البحار، لا سيما في فيتنام والأسطولين السادس والسابع، اعتمدت اعتمادًا كليًا على مصادر النفط العربي في منطقة الخليج العربي، حيث أخذت النفط أما على شكل خام تكرر خارج المنطقة، وأما على شكل مواد نفطية مكررة، وكانت تحصل عليه بأسعار منخفضة، لذا فإن قطع إمدادات النفط العربي عن تلك القوات ألحق ضررًا كبيرًا، من جراء اضطرابها تأمين تلك الإمدادات من مصادر أخرى بعيدة، أسعارها أعلى وتكاليف الشحن منها أكثر ارتفاعًا، لا سيما نظرًا لضرورة استخدام عدد أكبر من الناقلات؛ لنقلها من مصادر أبعد، وحسب تقرير أمريكي رسمي نشر في أعقاب حرب ١٩٦٧م، فإن وزارة الدفاع الأمريكيّة قدرت النفقات الإضافية التي تعتقد أنها ستتكبدها زيادة على ما تصرفه حاليًا؛ لتأمين المنتجات النفطية اللازمة للقوات الأمريكيّة، إذا ما قطع نفط الشرق الأوسط، بما مجموعه (٢١) واحد وعشرون مليون دولار شهريًا. (سليمان، عاطف: النفط العربي، ص ٢٧).

تزويد الغرب بحاجته من النّفط^(١) (٢).

وفي عام ١٩٧٣م، لم يكن لدول الأوبك التأثير الكافي على الأسعار، وخلال حرب عام ١٩٦٧م قامت الدّول العربيّة الأعضاء في منظمة أوبك بفرض حظر للنّفط لها ضد الغرب، لكن ذلك الحظر سرعان ما تلاشى، عندما قامت الدّول المنتجة من غير الدّول العربيّة بتنزعمها إيران وفنزويلا بملء الفجوة، فضلاً عن أن تلك الدّول التي فرضت الحظر وجدت نفسها متضررة أكثر من أي طرف آخر^(٣).

ويمكن القول إنه في العام ١٩٧٣م، تكاملت السّياسة مع النّفط وترابطتا بشكل كبير، وشهدت الولايات المتحدة الأمريكيّة زيادة في الاعتماد على النّفط المستورد من أوبك^(٤)، ولم تكن منظمة الأوبك الكارتل المناسب والملائم لتوفير احتياجات

الولايات المتحدة الأمريكيّة إلا عام ١٩٧٣م^(٥)، عندما بدأت الولايات المتحدة الأمريكيّة باستيراد كميات متزايدة من النّفط بعد انخفاض المخزون الأمريكي^(٦).

كذلك كانت هنالك رغبة بين القوى العربيّة؛ لاستخدام النّفط كسلاح مرة أخرى في مواجهة (إسرائيل)، لذلك عندما عبرت القوات المصرية قناة السويس إلى شبه جزيرة سيناء المحتلة في ٦ تشرين أول (أكتوبر) عام ١٩٧٣م، معلنة بدء الحرب العربيّة (الإسرائيلية)، بدأت نهاية حقبة سوق النّفط المستقرة نسبياً في العالم^(٧).

وبتاريخ ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٧٣م، قررت الدّول العربيّة المصدرة للنّفط الأعضاء في الأوبك، بفرض حظر مؤقت على تصدير النّفط إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة^(٨)؛ لدعمها (إسرائيل) في

(١) زادت فنزويلا إنتاجها في ذلك الوقت بـ (٤٠٠,٠٠٠) أربعمائة ألف برميل يومياً، وزادت إيران إنتاجها بـ (٢٠٠,٠٠٠) مائتي برميل يومياً، وزادت أمريكا إنتاجها بـ (١٠٠,٠٠٠) مائة ألف برميل يومياً (بيرغين، دانييل: الجائزة، ص٢١٧).

(٢) العجمي، ظافر محمد: أمن الخليج، ص٣٦٢؛

Claes, Dag Harald: The Politics of Oil-Producer Cooperation, p.218.

(٣) نيكسون: مذكرات الرئيس نيكسون، ص٧٣.

(٤) Claes, Dag Harald: The Politics of Oil-Producer Cooperation, p.215, 218.

(٥) لمعرفة كمية النّفط الخام الذي تستورده أمريكا عام ١٩٧٣م من دول الأوبك، انظر ملحق رقم (٢١)، ص٣٢٣.

(٦) Cleaver, Tony: Economics: The Basics, p.98.

(٧) Claes, Dag Harald: The Politics of Oil-Producer Cooperation, p.218; Lowell S., Feld: Oil Markets in Crisis, p.105.

(٨) لمعرفة مستوردات النّفط الأمريكيّة عام ١٩٧٣م من الدول العربيّة الأعضاء في الأوبك، انظر ملحق رقم (٢٢)، ص٣٢٤.

بتخفيض الإنتاج بنسبة (١٠٪) إلى فرض حظر نفطي على الولايات المتحدة الأمريكية وهولندا، وشاركه القرار أعضاء منظمة الأوبك العرب^(٥).

ثم اجتمع وزراء النفط العرب مرة أخرى في الكويت يومي ٤ و ٥ تشرين ثانٍ (نوفمبر) عام ١٩٧٣م، وقرروا الإبقاء على مقاطعة الولايات المتحدة الأمريكية وهولندا، وزيادة إجمالي التخفيض إلى نسبة ٢٥٪، مع استمرار الخفض الشهري بنسبة ٥٪^(٦).

كان رد الفعل الفوري لمستهلكي النفط العربي الذي وقع في وقت كان مخزون النفط منخفضاً اندفاعاً مفاجئاً نحو السوق الفورية؛ لشراء النفط بأي سعر كان، على الرغم من أن الخفض في إنتاج النفط العربي كان معادلاً فقط لواردات النفط الأمريكية من الأقطار العربية في ذلك الوقت، حوالي ٥ - ١٠٪، إلا أنه أعطى انطباعاً بأنه

الحرب ضد مصر وسوريا، وذلك في الاجتماع الذي عقده (الأوبك) في الكويت^(١)، حيث قررت أنها ستخفض إنتاجها بنسبة (٥٪) في ذلك الشهر، وأن هذه التخفيضات ستستمر حتى انسحاب (إسرائيل) من جميع الأراضي المحتلة، والاعتراف بالحقوق الوطنية للفلسطينيين^(٢).

ولجأت تلك الدول لرفع السعر الصريح للنفط الخام الخفيف السعودي بنسبة (٧٠٪)، وعُد ذلك، القرار الأول لاستخدام (سلاح النفط) ردًا على عملية النقل الجوي^(٣) من المعدات العسكرية الأمريكية لإسرائيل (التي بدأت في ١٣ تشرين أول (أكتوبر)^(٤)، وبعد ذلك بيومين طلب الرئيس نيكسون من الكونجرس مساعدة عسكرية (إسرائيل) بقيمة (٢,٢) اثنان فارزة اثنان بليون دولار، وفي ١٩ تشرين أول (أكتوبر) لجأ الملك فيصل الذي كان يطالب

(١) عتيقة، علي أحمد: الاعتماد المتبادل، ص ١٠٠؛ بحيري، مروان: النفط العربي، ص ٩.

(٢) Goldschmidt Jr, Arthur: A Concise History of the Middle East, p.301.

(٣) فشل الحظر النفطي لوقف الجسر الجوي الأمريكي في مساعدة (إسرائيل)، ولكنه دفع العديد من البلدان الأوروبية لحرمان حقوق الهبوط للطائرات الأمريكية التي تحمل أسلحة لإسرائيل، وسارعت كل تلك البلدان لدعم التفسير العربي لقرار ٢٤٢. ومع ذلك، تضاءلت إمدادات النفط. ومع اقتراب فصل الشتاء، اعتمدت الحكومات الأوروبية إجراءات تقشفية لخفض استهلاك الوقود وتجنب حدوث أزمة.

(Goldschmidt Jr, Arthur: A Concise History of the Middle East, p. 302).

(٤) Lowell S., Feld: Oil Markets in Crisis, p.105.

(٥) بحيري، مروان: النفط العربي، ص ٩؛ Lowell S., Feld: Oil Markets in Crisis, p.105.

(٦) العجيزي، عبد العزيز: أزمة الطاقة، ص ٦٣.

وصول الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت محدودة بالفعل، إلى موانئ الخليج العربي والمحيط الهندي، في وقت كانت الولايات المتحدة الأمريكية تحتاج خلالها إلى زيادة وجودها البحري في المنطقة^(٥).

وكان لحرب ١٩٧٣م أثر في إعادة صياغة أولويات الولايات المتحدة الأمريكية: ذلك أنّ الحظر لفت نظر الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا إلى المنطقة؛ لأنها تحتوي أكبر احتياطي نفطي في العالم يحتاج إليه الغرب واليابان؛ لاستمرار تقدمهم الصناعي، وفتت نظرهم إلى ضعف نظام الأمن الغربي في المنطقة الذي لم يمنع دولاً صغيرة من وقف النّفط، وتم لأول مرة وضع النّفط والمصالح الاقتصادية في مرتبة واحدة مع الأمور الاستراتيجية، التي كانت طاغية على الفكر الاستراتيجي الأمريكي، لأن الخليج لم يكن إلا الجناح الجنوبي للحزام الشمالي لوقف السوفييت^(٦)، مما اضطر الولايات المتحدة

ستكون هناك ندرة على نطاق واسع في المستقبل في النّفط، وأدت حالة الرعب في السوق التي أعقبت ذلك إلى رفع السّعر^(١). فهناك علاقة بين أسعار النّفط ومعدلات الاستهلاك، فإذا انخفضت أسعار النّفط؛ فإن الاستهلاك يرتفع والعكس صحيح، ففي السّتينيات والسّبعينيات عندما كانت أسعار النّفط منخفضة ومحدودة من قبل الشركات التي تحكمت بالأسعار تحت توجيهات الحكومات الغربية المعنية، فإن الأقطار المستهلكة توجّهت للإكثار من استهلاك النّفط^(٢).

٢ - الانعكاسات السّلبية للمقاطعة النّفطية العربيّة على الولايات المتحدة الأمريكيّة:

كان أثر الحظر واضحاً، فامتدت طوابير طويلة للسيارات، كما تأثر الجيش الأمريكي بالحظر، وبالذات الأسطول السّادس^(٣) المسؤول عن حماية الدّول المصدرة للنّفط^(٤)، وأعاقت نتائج الحرب طرق

(١) عتيقة، علي أحمد: الاعتماد المتبادل، ص ١٠٠.

(٢) كوانت، وليم: السعودية في الثمانينيات، ص ١٧٨.

(٣) الأسطول السادس الأمريكي: قوة بحرية أمريكية ضاربة، دائمة التواجد في البحر المتوسط، ويشكل الأسطول السادس ركناً من أركان الاستراتيجية الأمريكية في العالم بشكل عام، وأداة سياسية عسكرية مطوعة؛ لتهديد شعوب المنطقة؛ وحماية المصالح الإمبريالية الأمريكية، بما في ذلك الكيان الصهيوني والأنظمة التابعة لأمريكا. (الكياي، عبد الوهاب، وآخرون: موسوعة السياسة، ج ١، ص ١٨٤).

(٤) قناوي، سليمان: البترول وأمريكا، ص ٢٤٨-٢٤٩.

(٥) بالمر، مايكل أ.: حراس الخليج، ص ١٠١.

(٦) العجمي، ظافر محمد: أمن الخليج، ص ٣٨٢.

الأمريكية إلى التلويح بتهديد احتلال منابع النفط^(١) (٢).

كما أنّ النافذين في الإدارة الأمريكية، تبنوا فكرة التّدخل العسكري في الخليج ففي كتاب صدر في كانون الأول (ديسمبر) العام ١٩٧٧م، ورُفِع إلى هنري جاكسون^(٣) أنّه: «إذا طلب من إيران التّدخل في الشؤون الداخليّة لأية دولة خليجيّة، فعلى الولايات المتحدة الأمريكية أن تعترف مسبقاً، بأنّ هذا هو الدور الذي تهيأ من أجله، وأنّ اللوم لا يقع على إيران إذا نفذت مهمتها الضمنية»^(٤).

بينما عدّ البعض أنّ عملية التهديد

الأمريكي بالتّدخل العسكري، كان أحد مؤشرات التراجع الجزئي عن (مبدأ نيكسون)، وعن الاعتماد على الشّاه فقط، لأنّ ذلك الحدث فرض على المسؤولين الأمريكيين تطوير استراتيجية مبدأ نيكسون القائم على عدم التّدخل إلى استراتيجية ردع وتطويق^(٥) (٦).

ومن هنا نجد، أنّ حرب ١٩٧٣م، زادت ثوابت جديدة إلى ثابت الدّعامين الذي أقامه نيكسون في الخليج، منها سهولة الوصول إلى منابع النفط، وبقاء الأسعار معتدلة، ووصوله بكميات وافية، ثمّ توظيف عائداته ضمن الاقتصاد الغربي^(٧). كما أنّها

(١) في كانون الأول (ديسمبر) العام ١٩٧٤م، ظهر على السطح لأول مرة كقضية عامة، إمكان استخدام أمريكا القوة العسكرية؛ للاستيلاء على حقول نفط أجنبية إذا اختنق العالم الصناعي بواسطة منظمة الأوبك، وحدد الرئيس فورد وأعضاء بارزون في وزارته، التّدخل المسلح كملجأ أخير إذا فشلت كافة الجهود الأخرى لكسر حظر أو لتحديد أسعار محتملة، كذلك من الدلائل الخطيرة على نية أمريكا التّدخل العسكري، أن الإعلام المرئي الفرنسي عرض تجربة إنزال قوات قام بها مشاة البحرية الأمريكية في برنامج بتاريخ ٩ كانون ثاني (يناير) عام ١٩٧٥م، وكانت تلك التجربة قد تمت على شواطئ جزيرة سردينيا في ٢٠ كانون أول (ديسمبر) عام ١٩٧٤م، كما قامت القوات الأمريكية بإجراء عدة تجارب على شواطئ البحر المتوسط، التي يتقارب وضعها الجغرافي والاستراتيجي من وضع شواطئ الخليج. (غالي، بطرس: الاستراتيجية الدولية، ص ٢٠؛ كولنز، جان م.، ومارك، كلايد ر.: تأمين واردات النفط، دراسات استراتيجية (٨)، ص ١٥).

(٢) الرمحي، محمد: النفط والعلاقات الدولية، ص ١٧١.

(٣) هنري جاكسون: رئيس لجنة مجلس الشيوخ للطاقة والموارد الطبيعية ذات النفوذ الواسع، وأحد المتحمسين المناصرين للشّاه (إسرائيل). (بحيري، مروان: النفط العربي، ص ٥١).

(٤) بحيري، مروان: النفط العربيين ص ٥١.

(٥) يهدف الردع من الوجهة الاستراتيجية والنوعية إلى إفهام الخصم المحتمل أن الثمن الذي سيدفعه، نتيجة لعمله العدائي أكبر بكثير مما يمكن أن يفوز به من مغانم، ومن الوجهة النفسية يرمي الردع إلى إقناع الخصم أن الأسلحة الذرية ستستعمل بالفعل في بعض الحالات. (الكياي، عبد الوهاب: موسوعة الساسة، ج ٢، ص ٨١٦؛ مقلد، إسماعيل بصري: الاستراتيجية والسياسة الدولية، ص ١٥٦).

(٦) شكر، زهير: السياسة الأمريكية، ص ٧١. (٧) العجمي، ظافر محمد: أمن الخليج، ص ٣٨٢.

مصر بـ (٦٠٠) ستمائة ألف طن من النّفط، ونقلت طائرات إيرانيّة كتيبة مشاة سعوديّة ومعدّات عسكريّة إلى جبهة القتال في هضبة الجولان، ونقلت جرحى سوريين إلى طهران للمعالجة، كما سمح للقطار الجوي السّوفيتي بالمرور عبر أجواء إيران في طريقه إلى سوريا والعراق، ومنع مرور متطوعين يهود من استراليا عبر الأراضي الإيرانيّة^{(٤) (٥)}.

وتم تعديل سلوك حظر النّفط، وذلك في اجتماع لأوبك في ديسمبر العام ١٩٧٣م؛ لمنع توحيد موقف الدّول الغربيّة، بحيث توجه الحظر نحو الولايات المتحدة الأمريكيّة وهولندا^(٦)، وصنفت دول غربية

عزّت النوايا الأمريكيّة في المنطقة الاستعماريّة. بالمقابل عندما فُرض الحظر العربي للنّفط على الغرب والولايات المتحدة الأمريكيّة، رأّت إيران أنّ الأمر لا يخصّها، وأنّها في وضع لا يجبرها على استخدام النّفط كسلاح سياسيّ، ومن واجبها كما قال الشّاه: «أن تفي بما التزمت به من عقود»^(١).

كما ادّعى الشّاه تبني سياسة متوازنة تجاه الشّرق الأوسط^(٢)، وأكد ذلك بسلوكه تجاه الطرفين. لأنّه في الوقت الذي استمر بتزويد (إسرائيل) والولايات المتحدة الأمريكيّة بالنّفط بصورة مثيرة للدهشة^(٣)، ساعد آلة الحرب المصريّة، عن طريق تزويد

(١) مهابة، أحمد: إيران بين التاج والعمامة، ص١١٩.

(٢) كان الشاه قد رفض المطالب بشأن إغلاق الممثلة (الإسرائيلية) في طهران، وفي المقابل رفض محاولات أمريكا بشأن تسليم (إسرائيل) طائرات الفانتوم من إيران؛ كتعويض عن طائراتها التي فقدتها في الأيام الأولى للحرب، كما رفض مقترح السناتور الأمريكي هنري جاكسون (Henry Jackson) على وزير الدفاع الأمريكي جيمس شليزinger (James Schlesinger) دراسة إمكانية تزويد (إسرائيل) بطائرات فانتوم من إيران، خشية أن يؤثر ذلك على محاولات التقرب إلى العرب، وخلافاً لموقفه في حرب عام ١٩٦٧م، حيث اتخذ الشاه خطوات جعلت من العالم العربي يميل إلى أن الشاه يؤيد المواقف العربية (سيجف، شموئيل: المثلث الإيراني، ك٢، ص١٠٥-١٠٦).

(٣) Farber, David: Taken Hostage, p.71.

(٤) استمر الشاه في محاولاته التقرب للعالم العربي، ففي اجتماع عقد بينه وبين كيسنجر في سويسرا، في ١٨ من شباط (فبراير) عام ١٩٧٥م، وعد الشاه ببيع النفط (لإسرائيل) إذا تخلت الأخيرة عن حقول نفط أبو روديس، التي استولت عليها (إسرائيل) في عام ١٩٦٧م في شبه جزيرة سيناء، وقد تم تسليمها إلى مصر في عام ١٩٧٥م. (Nachmias, Nitza: Transfer of Arms, p.80)

(٥) سيغف، شموئيل: المثلث الإيراني، ك٢، ص١٠٥-١٠٦.

(٦) أشارت الدول العربية إلى هولندا، لأن معظم صادرات النفط التي يتم شحنها إلى شمال أوروبا، تعبر عن طريق الميناء الهولندي روتردام، وبسبب مواقف حكومتيهما المنحاز إلى (إسرائيل) والمساند لها. (كامبيل، كولن، وآخرون: نهاية عصر البترول، ص١٦٩).

(Goldschmidt Jr, Arthur: A Concise History of the Middle East, p.302).

أخرى على أنها تمتاز بوضع أفضل^(١)، لم تشارك إيران العرب في الاجتماع بالحظر المفروض على الولايات المتحدة الأمريكية، لكنها شاركت في الاتجاه المطالب برفع سعر النفط داخل الاجتماع^(٢).

وقامت إيران برفد أمريكا بالنفط، بحيث اعتمدت عليها الولايات المتحدة الأمريكية اعتماداً كلياً؛ لتأمين وصول الوقود والنفط في ظل الحصار النفطي^(٣)، فأصدر الشاه شخصياً أوامره إلى شركة النفط الوطنية الإيرانية بتحويل الوقود إلى الأسطول الإمبراطوري الإيراني، الذي أرسل بدوره الوقود إلى الأسطول الأمريكي، وأتاحت تلك المساعدة من جانب الشاه للبحرية الأمريكية أن تواصل عملياتها في المحيط الهندي، وهو تطور عدّه الكثيرون في ذلك الوقت، وما زالوا مسوّغاً لقرار إدارة نيكسون بالاعتماد على الشاه^(٤).

من هنا حظيت إيران بالرّضى الأمريكي،

وانعكس ذلك بتزايد صفقات السلاح الأمريكية^(٥)، وشراء تقريباً أي نوع من الأسلحة، بل جميعها باستثناء الأسلحة النووية من ترسانة الولايات المتحدة الأمريكية، بما في ذلك أكثر الأسلحة تطوراً في الترسانة الأمريكية الخاصة^(٦)، وعليه حصل الشاه على طائرة (ف - ١٥) التي كان مولعاً بتزويد جيشه بها.

ولم يقتصر الدور الإيراني في الحرب على إمداد الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها بالنفط، بل امتد ليساهم بدور فعال في نجاح المفاوضات القائمة؛ لفك الاشتباك بين الأطراف المتنازعة في الحرب.

ذلك أنه عند توقيع اتفاقية فك الاشتباك بين مصر وسوريا من طرف و(إسرائيل) من طرف آخر، بعد تدخل وضغوط أمريكية، كانت العراق القوة الفاعلة والقادرة على إعاقة ذلك الاتفاق^(٧)، ولكن كيسنجر

(١) آغا، حسين وآخرين: وثائق، ص ١٧٩؛ قناوي، سليمان: البترول وأمريكا، ص ٢٤٩؛

Glaes, Dag Harald: The Politics of Oil-Producer Cooperation, p.219.

(٢) McAlister, Melani: Epic Encounters, p.203; Goldschmidt Jr, Arthur: Arthur: A Concise History of the Middle East, p.302.

(٣) Sick, Gary: The Middle East and the united States, p.279.

(٤) بالمر، مايكل أ.: حراس الخليج، ص ١٠٢.

(٥) بيرغين، دانييل: الجائزة، ص ٢٥٣.

(٦) McAlister, Melani: Epic Encounters, p.204; Hoff, Joan: Nixon Reconsidered, p.170.

(٧) ترأست العراق قرار حظر النفط العربي عام ١٩٧٣م، ورفعت شعار (النفط في خدمة المعركة)، وتنفيذ الأمة العربية. (الفلاح، سهيل داود: أوراق أمريكية، ص ٢٠٢).

لأنه عدّ ذلك تعدياً على الهيمنة التي رسمها لإيران في المنطقة، وهو ما كان الشّاه قد استبعده من خيارات السّياسة الأمريكيّة منذ الانسحاب البريطاني. لذلك ردّ على التّهديدات الأمريكيّة بالتّدخل العسكري لاحتلال منابع النّفط، في ١٦ كانون ثاني (يناير) عام ١٩٧٤م - رغم أنه من المفهوم ضمناً أنه لم يكن معنياً بالتهديدات الأمريكيّة، بأنه إذا استمرت سياسة التهديدات ضد الدّول المنتجة للنّفط «فإننا سنتخذ الإجراءات اللازمة؛ لمواجهة هذه التهديدات»^(٢). ما يشير إلى رغبة الشّاه في أخذ دور الحارس في المنطقة، من دون التّدخل الأمريكي، واستبعاده وجود أي قوة أجنبية في المنطقة، حتى وإن كانت الولايات المتحدة الأمريكيّة نفسها التي رسمت له الدّور.

تغيير أسعار النّفط وأثرها على السّياسة الأمريكيّة:

وبرؤية فاحصة لموقف وسلوك الولايات المتحدة الأمريكيّة بما يتعلق برفع سعر النّفط العام ١٩٧٣م نرى أنّها كانت مؤيدة لرفعه في هذا العام، ومتراجعة وغير مؤيدة لرفع السّعر بعد ١٩٧٣م.

أكد للمفاوضين المصريين عندما كان في القاهرة في كانون الثاني (يناير) العام ١٩٧٤م، أنّه لا يوجد مسوغ للقلق من الدّور العراقي، وقال: «الشّاه سوف يتولى أمر العراق»، ولم تمضِ أيام على تطمينات الولايات المتحدة الأمريكيّة لمصر بعدم القلق من معارضة العراق، لاتفاق فكّ الاشتباك بين مصر و(إسرائيل)، حتى نقلت وكالات الأنباء رسالة صادرة من طهران قالت: «أعلن متحدث عسكري إيراني أنّه قُتل عديدون، وجُرح واحد وثمانون شخصاً، في اشتباك وقع على الحدود بين القوات الإيرانيّة والعراقية»، وجاء في بيان عراقي أنّ خسائر الطّرفين كانت فادحة، وقال بيان عراقي: «إن القوات الإيرانيّة بدأت تحشد جنودها على الحدود، وأن وحدات الطيران الإيراني اخترقت المجال الجوي العراقي»^(١).

وعلى الرغم من ذلك الوفاق والتّخطيط المشترك بين إيران والولايات المتحدة الأمريكيّة الذي وصل إلى إدراج الولايات المتحدة الأمريكيّة إيران ضمن آلية تطبيق خطة التّدخل العسكري واحتلال منابع النّفط، إلا أن الشّاه لم ترق له فكرة تهديد الولايات المتحدة الأمريكيّة بذلك التّدخل؛

(١) المسفر، محمد صالح: البعد السياسي، ص ٨٧.
(٢) عبد الخالق، جودة: منتج المواد الأولية، ص ٩٧.

١ - تأثير إيران الكبير في أوبك:

كما هو معروف أثّرت حرب العام ١٩٧٣م على سياسة الأوبك، وذلك في المدة من تشرين الأول (أكتوبر) إلى كانون الأول (ديسمبر)، حيث تركت آثارًا كبيرة على سعر النّفط في السّوق، ومن ثم كانت لأعضاء أوبك الفرصة لرفع أسعار البيع الرّسميّة^(١). واستغل الشّاه حالة الفوضى في سوق النّفط العالميّة التي سببتها الحرب، وتلتها حظر النّفط، فقام من خلال مبادرة بمنح منظمة الدّول المصدرة للنّفط (الأوبك) السند لتحديد سعر عام للنّفط^(٢)، وبعد شهرين ونصف من زيادة مستمرة في سعر السّوق، عندما اجتمع أعضاء (الأوبك) في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٧٣م، طالب أعضاء الأوبك رفع أسعار النّفط الرّسميّة، وترأس الشّاه التيار المطالب بذلك، حيث طالب برفع أسعار النّفط الخام أربعة أضعاف^(٣).

كانت لجنة الأوبك قد اقترحت سعر (٢٣) ثلاثة وعشرين دولارًا للبرميل، في حين اقترحت السّعوديّة سعر (٨) ثماني

دولارات، لكن إيران اقترحت سعر (١١,٦) أحد عشر دولارًا فارزة ستة للبرميل الواحد؛ لأن الشّاه كان يعلم أنّ بدائل النّفط التي تحدثت عنها الدّول الغربيّة وهم، وفي نهاية الاجتماع أتفق على سعر (١١,٦) أحد عشر دولارًا فارزة ستة دولارًا، كما اقترحت إيران، وهو ما عدّ إنجازًا كبيرًا، إذ كان السّعر في عام ١٩٧٠م هو (١,٨٠) دولارًا واحدًا فارزة ثمانين فقط^(٤)، على الرّغم من أنّ السّعوديّة هي المنتج الأول في الأوبك عام ١٩٧٣م (٧,٥٩٥ مليون برميل يوميًا)، وكانت إيران تنتج (٥,٨٦١ مليون برميل يوميًا)، وأن الشّاه هو الذي هندس رفع السّعر بتلك النسبة، من أجل الاستغلال الأقصى لحالة السّوق، وزيادة السّعر بصورة كبيرة بقدر الإمكان^(٥).

وقد طالبت السّعوديّة بزيادة أقل على الأرجح، بسبب دوافع ماليّة، منها الرغبة في تحسين العائدات على المدى الطويل، بالإضافة إلى ذلك أنّها ربما خشيت أنّ الرّيادة الكبيرة، ستؤدي إلى تحوّل ميزان القوى في منطقة الخليج نحو منافسيها

(١) Claes, Dag Harald: The Politics of Oil-Producer Cooperation, p.219.

(٢) Daniel, Elton L.: The History of Iran, p.160.

(٣) عتيقة، علي أحمد: الاعتماد المتبادل، ص ١٠٠؛ آغا، حسين وآخرين: وثائق، ص ١٧٩.

(٤) فتاوي، ليমান: البترول وأمريكا، ص ٢٤٩.

(٥) Han, Vo Xuan: Oil, the Persian Gulf States, p.25; Claes, Dag Harald: The Politics of Oil-Producer Cooperation, p.219.

Halliday)، قد نوّه من خلال بحث إلى دور إيران في رفع أسعار النّفط في الأوبك؛ لتنفيذ مصالحها العسكرية، وتقوية قدراتها العسكريّة، لتوافق ذلك ومصالحها بقوله: «بعد الاتفاق السري الذي كان وثيق الارتباط بالدوائر المالية العليا، وبين شاه إيران لبيع الأسلحة لإيران طلبت طهران في عام ١٩٧٣م من دول الأوبك زيادة أسعار النّفط الخام، الأمر الذي تم بنسبة كبيرة، تركت آثارها المدمرة على كثير من الدّول، وفي مقدمتها دول أوروبا الغربيّة، ما أشار بالاتهام إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة ورئيسها، بالنسبة لزيادة أسعار النّفط لأغراض خاصة، وبالتالي أصبح في وسع إيران نتيجة لذلك؛ تمويل أضخم عملية شراء للأسلحة عرفها التاريخ الحديث»^(٧).

وكانت تقارير كثيرة ذكرت أنّ الإنجاز الرئيس (لمبدأ نيكسون) في الشّرق الأوسط، هو تشجيع (الشّاه)، دون خوف من المعارضة الأمريكيّة، أو حتى من الاعتراضات المبدئيّة من قبل السعوديين، للبدء في رفع أسعار نفط أوبك؛ لدفع ثمن مشترياته الباهظة^(٨).

إيران والعراق^(١)، لكن للحفاظ على وحدة الأوبك، وافق (أحمد يمانى) وزير البترول والثروة المعدنية السعودي الذي تزعم بشدة رفض الزيادات الكبيرة في الأسعار، معللاً أنّها قد تدفع اقتصاد البلدان الصّناعية إلى الركود^(٢)، وأشار تقييم لوزارة الخارجية الأمريكيّة إلى دور الشّاه القياديّ في رفع أسعار النّفط في عامي ١٩٧٣ و١٩٧٤م^(٣).

على الرغم من تأثر المصالح الأمريكيّة، نتيجة ارتفاع أسعار النّفط عام ١٩٧٣م؛ إلا أنّ مصلحة الولايات المتحدة الأمريكيّة كانت في ذلك^(٤)، وكان موقف الشّاه بخصوص رفع أسعار النّفط، قد نال دعماً فعلياً من إدارة نيكسون، على الرغم من تحذيرات وزارة الخزانة وشركات النّفط^(٥)، فحسب ما أشارت إليه بعض وثائق وزارة الخارجية الأمريكيّة المنشورة بذلك الموضوع، أن الولايات المتحدة الأمريكيّة شجعت خلال عام ١٩٧٣م، البلدان المنتجة على رفع أسعار النّفط^(٦). وكان المحلل الإنجليزي فرويد هوليداي (Fred

(١) Han, Vo Xuan: Oil, the Persian Gulf States, p.25.

(٢) Claes, Dag Harald: the Politics of Oil-Producer Cooperation, p.219.

(٣) بالمر، مايكل أ. : حراس الخليج، ص٩٤.

(٤) Daniel, Elton L.: The History of Iran, p.161.

(٥) مهابة، أحمد: إيران بين التاج والعمامة، ص١١٩.

(٦) Hoff, Joan: Nixon Reconsidered, p.170.

السوق الأمريكية أم الأسواق الخارجية^(٤)، بمعنى: أن ارتفاع الأسعار ساهم في ارتفاع أسعار السلع الأوروبية، وساعد في منافسة السلع الأمريكية لها، ورفع سعر الفائدة على الدولار، كما ساهم في ارتفاع قيمته تجاه العملات الأوروبية، فأفقد أوروبا فرصة الإفادة من اعتدال أسعار النفط في تلك المرحلة؛ نتيجة احتساب الفاتورة النفطية الأوروبية بالدولار^(٥).

ويكفي أن نذكر أن صناعة السكر الألماني تعرضت لخطر الدمار الشامل، لأنها إذا حرمت من النفط (٢٤) أربع وعشرين ساعة، سيتبلور السكر في الأنابيب، وعليه تخرج ألمانيا من سوق السكر العالمي^(٦)، وذلك يعني أمرين: ارتفاع سعر السكر بارتفاع الكلفة الإنتاجية له، أو انهيار صناعته، وفي الحالتين استفادة للولايات المتحدة الأمريكية، وقياساً على ذلك معظم المواد الاستهلاكية

وكان الصمت الأمريكي، أعطى الشاه حصانة، وأكدت له أن ما قام به إنما هو لصالح الأمريكيين، لأن ارتفاع الأسعار له أثر أقل على الولايات المتحدة الأمريكية من البلدان الصناعية الأخرى^(١) ^(٢). فأدركت إيران أنه في حال رغبتها في زيادة تسليحها، فعليها العمل على زيادة عوائدها^(٣)، ما دام ذلك لا يضر بالمصالح الأمريكية.

٢ - الموقف الأمريكي من زيادة أسعار النفط العام ١٩٧٣م:

شجعت الولايات المتحدة الأمريكية إيران وأيدتها في توجيهها بزيادة أسعار النفط لما للأثر الإيجابي لرفع الأسعار على الولايات المتحدة الأمريكية:

- كانت أسعار النفط المنخفضة أحد أسباب المقدرة التنافسية العالية للسلع الأوروبية واليابانية، التي حلت بالجملة مكان المنتجات الأمريكية سواء أكانت في

(١) صرح بذلك الرئيس كارتر في مذكراته بقوله: «كان ما عندنا من احتياط بترولي ومن غاز طبيعي يسمح لنا بأن نصمد، بل وحتى كان يسمح لنا أن نستمر على ازدهارنا لحقبة قصيرة من الزمن، في حال تقلص وارداتنا منه أو توقفها منه أو توقفها نهائياً، لكن عددًا كبيراً من البلدان الأخرى لتمكن لديها هذه الإمكانيات، فإن الحظر في عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٤م أوقفها وظهرها إلى الحائط، وجعلها تعي حالة التبعية التي هي فيها على صعيد الطاقة». (كارتر، جيمي: مذكرات جيمي كارتر، ص ٦).

(٢) Quandt, William B.: U.S. ENERGY POLICY, P.287.

(٣) DORON, GIDEON: Peace or Oil, p.143.

(٤) اندجيكيان، ر. و: الأوبك، ص ٣٤.

(٥) حتى، ناصيف: الشرق الأوسط في العلاقات الأمريكية، ص ٢٢.

(٦) كنعاني، سمير: الموقف الأمريكي، ص ٤٤.

الأمريكية في النفط العربي هي ٢٪ فقط من مجموع استثماراتها، تجني في المقابل أكثر من (٣٣٪) من الأرباح الكلية لاستثماراتها في العالم^(٣).

المصلحة الضريبية في الولايات المتحدة الأمريكية^(٤)، في أن تكون هناك أسعار مرتفعة للخام، ومن ثم تسند لعملية إنتاج الخام نسبة من الأرباح تزيد عن النسب المسندة إلى العمليات التالية، وكلما كانت الأسعار المعلنة أعلى، زادت من ثم الإعفاءات الضريبية المسموح بها التي بلغت (٢٧,٥٪) من الدخل الإجمالي من الإنتاج^{(٥) (٦)}.

- تزايد حاجة بلدان أوروبا واليابان إلى المعونة العسكرية، كلما اضطرت أوضاعها الاقتصادية وساد فيها اضطراب اجتماعي نتيجة لرفع سعر النفط^(٧).

التي تعتمد عليها الصناعة الإنتاجية. وكما قال هنري كيسنجر بشأن رفع سعر النفط: «هذه هي نهاية مشروع مارشال» حيث كان تزويد أوروبا بالطاقة نظير سعر منخفض، من أهم فوائد المشروع التي جنتها أوروبا بعد أن مزقتها الحرب^(١).

ساعدت زيادة الأسعار الشركات المتعددة الجنسيات أن تنقل إلى المستهلكين، لا الزيادة في التكلفة فحسب؛ بل تضخيم مثل تلك الزيادة أيضاً، وبما أن معظم الشركات أمريكية القاعدة فإنه يصح القول: إن إيراداتها الأعلى أفادت الاقتصاد الأمريكي، وزادت من قدرتها على تنويع مصادر الإمدادات، ومكنتها من مواصلة عملية نقل الموارد من بلدان العالم الثالث إلى الولايات المتحدة الأمريكية^(٢)، وكفي أن نشير إلى أن نسبة الاستثمارات

(١) هيكلم، محمد حسين: مدافع آية الله، ص ١٣٠.

(٢) النصراوي، عباس: الطاقة والسياسة الخارجية، ص ٩٥.

(٣) جواد، سعيد: الاستراتيجية الأمريكية، ص ١١٦.

(٤) كانت تسيطر الشركات الأمريكية على ٦٠٪ من نفط الشرق الأوسط (خليل، مصطفى: أزمة الطاقة، ص ٣٨٥).

(٥) لم ترغب الشركات إلى حد كبير في زيادة الأسعار بصفة عامة؛ لأنها كانت ذات صفة مزدوجة، فمن ناحية رأت فيها تجلياً لهجوم البلدان النامية على النظام الاستعماري الجديد للاستغلال، وطموحها للوصول لوضع قيادي في السوق والسيطرة على صناعتها النفطية، كما خشيت اكتمال زيادة دخول تلك البلدان وتوطيد اقتصادياتها، وبالأخص في قطاع النفط الوطني بانتقال السيطرة على أسعار النفط، في المستقبل من الاحتكارات إلى أعضاء الأوبك، ومن ناحية أخرى فالشركات ذاتها لم تكن بعيدة عن رفع أسعار الوقود السائل، حيث أنها بدأت تجهيز مصادر النفط الجديدة والمكلفة في البحار في القطب الشمالي، وبدأت تتحول بالتدريج إلى الفروع الاقتصادية الأخرى للطاقة (الفحم والطاقة الذرية وغيرها)، متحولة بذلك من احتكارات نفطية إلى احتكارات للطاقة (اندرجيكيان، ر. و: الأوبك، ص ٣٣).

(٦) غبريال، وهيبي: الكارتل البترولي، ص ٥٦. (٧) غالي، بطرس: الاستراتيجية الدولية، ص ١٨.

في مجال الطاقة، تلخص هدف ذلك البرنامج في تقليص تبعية الغرب لمصادر الطاقة المستوردة، وتعزيز تضامن الأقطار المستهلكة في ظروف الأزمات، ووضع حد لخضوع الغرب لرغبة (الأوبك) في فرض أسعار النفط^(٥).

– الرغبة الأمريكية في زيادة الإيرادات الإيرانية برفع أسعار النفط، والذي سيستخدم في تسديد ثمن المشتريات العسكرية الإيرانية من الولايات المتحدة الأمريكية^(٦). من هنا نجد أن خطوة رفع سعر النفط في بداية السبعينيات، أثبتت فعاليتها واستفادت الولايات المتحدة الأمريكية، وبرمجة ترتيب أولوياتها بالنسبة للشرق الأوسط وبلدان أوروبا.

زيادة أسعار النفط والموقف الأمريكي بعد عام ١٩٧٣م:

استمرت أسعار النفط بالازدياد، من خلال (الأوبك)، ما دفع الشاه الإيراني إلى محاولة تنفيذ برامجه العسكرية والاقتصادية، وبالوقت نفسه شكّلت هذه الزيادة إلى تهديد المصالح الأمريكية والغربية.

– زيادة فرص حصول الولايات المتحدة الأمريكية على حقول جديدة للنفط وموارد الطاقة أكثر مما سبق^(١)، كما أملت كثير من الشخصيات الأمريكية أن تتمكن البلاد بعد رفع الأسعار أن تكسب الاستقلالية في مجال الطاقة^(٢)، وتوحيد صفوف الدول الأوروبية واليابان في الميدان النفطي، ما سيؤدي إلى تدعيم النفوذ الأمريكي عليها^(٣)، لذلك قامت الولايات المتحدة الأمريكية لكي تعيد تجميع شركائها التجاريين وراء قيادتها، وتعيد تثبيت مركزها إزاء شركائها التجاريين والبلدان المنتجة للنفط، بإنشاء وكالة الطاقة الدولية في أوائل العام ١٩٧٤م، وتلك الوكالة في الأساس ائتلاف البلدان المتطورة ما عدا فرنسا، وقصد منها أن تستخدم كقوة موازية ضد (الأوبك)^(٤)، وقد تزعمت الولايات المتحدة الأمريكية الدور القيادي فيها بحكم امتلاكها مصادر كبيرة للطاقة بالمقارنة مع الأقطار الأخرى، وفيما بعد في كانون الثاني (يناير) العام ١٩٧٦م بُدئ العمل ببرنامج التعاون الطويل الأمد لأقطار وكالة الطاقة الدولية

(٢) اندجيكيان، ر. و: الأوبك، ص ٣٤.

(١) غالي، بطرس: الاستراتيجية الدولية، ص ١٨.

(٣) غالي، بطرس: الاستراتيجية الدولية، ص ١٨.

(٤) النصراوي، عباس: الطاقة والسياسة الخارجية، ص ٩٧.

(٥) بوريسوف، ر.: السياسة الأمريكية، ص ٩٤.

(٦) Daniel, Elton L.: The History of Iran, p.161.

١ - الأثر الاقتصادي على زيادة سعر النفط:

أثرت عملية زيادة سعر النفط على الدول المستهلكة للنفط، والتي وُصفت بأنها أكبر عملية تحويل رؤوس الأموال من مجموعة واحدة من الدول إلى مجموعة أخرى^(١). وتغير الوضع الأمريكي بتحويلها إلى دولة استيرادها النفطي في ازدياد باختصار أن ارتفاع النفط أصبح عائقاً للنمو الاقتصادي الأمريكي والغربي على السواء^(٢).

وأكدت الولايات المتحدة الأمريكية أن القفزات المفاجئة في سياسة رفع أوبك سعر النفط، نسفت استقرار الوضع المالي والنقدي للولايات المتحدة الأمريكية، وبلدان العالم الثالث الرأسمالي الأخرى، وبخاصة الدول النامية، وبذلك فإن الولايات المتحدة الأمريكية التي شرعت زيادة أسعار النفط، كانت أول المتضررين منها^(٣).

عملياً، يمكن القول إن التغيير في السياسة الأمريكية تجاه زيادة الأوبك للنفط، قد بدأ بعد حرب عام ١٩٧٣م بعدة سنوات، حيث كانت الولايات المتحدة

الأمريكية ضاقت بسياسة (الأوبك)، التي وصفت الشاه بأنه أحد صقورها البارزين، الذين يمارسون ضغوطهم على المنظمة؛ لزيادة رفع أسعار النفط، واحتد النقاش أحياناً بين المسؤولين الإيرانيين والشاه شخصياً، وبين المسؤولين الأمريكيين وأجهزة الإعلام والصحافة في البلدين^(٤).

ومن خلال المراسلات الخاصة، حاول الرئيس نيكسون إقناع الشاه لإبطاء مطالبه برفع الأسعار، فرد الشاه وهو غير نادم قائلاً: «نحن مدركون لأهمية مصدر النفط كأحد مصادر الطاقة؛ لتحقيق الازدهار والاستقرار للاقتصاد الدولي، ولكننا نعرف أيضاً أن هذا بالنسبة لنا هو مصدر ثروة قد تنفذ خلال ثلاثين عاماً»^(٥).

وأصبحت الولايات المتحدة الأمريكية إحدى أهم الدول الرأسمالية الكبرى التي نادى بإضعاف الأوبك، وتزعمت ذلك خلال المؤتمرات السنوية لقادة الدول الرأسمالية السبع الكبرى (الولايات المتحدة الأمريكية، بريطانيا، ألمانيا، فرنسا، إيطاليا، كندا، اليابان). التي بدأ بعقدتها منذ عام ١٩٧٥م، التي ركزت كل الدورات الست التي عقدتها تلك الدول بين عامي ١٩٧٥ و ١٩٨٠م، على

(١) Daniel, Elton L.: The History of Iran, p.161.

(٢) بالمر، مايكل أ. : حراس الخليج، ص ١٠٢؛ متى، أنطون: الخليج العربي، ص ٩٠.

(٣) بوريسوف، ر. : السياسة الأمريكية، ص ٩١؛ الرميحي، محمد: النفط والعلاقات الدولية، ص ١٧١.

(٤) مهابة، أحمد: إيران بين التاج والعمامة، ص ١١٩. (٥) Farber, David: Taken Hostage, p.71.

مسألة البحث عن مخرج من أزمات الطاقة التي تعاني منها دول الغرب، وقد حاولت الولايات المتحدة الأمريكية في كل مرة أن تسحب الدول الأخرى المشاركة لاتباع خط متشدد نحو (الأوبك)^(١).

٢ - الدور الإيراني في أوبك:

أصبحت إيران مهمة دولياً بفعل هذه الأزمة، فبدأت بتنفيذ مشروعات في كافة النواحي لإنعاش المجتمع الإيراني، لا سيما أن الشاه كان يرى أن ثمن النفط يذهب بنسبة (٤٥٪) إلى حكومات الغرب، (٣٥٪) للمصدرين، (٢٠٪) مصاريف نقل وما شابه^(٢). ومع استمرار الضغط على سوق النفط، وارتفاع أسعار النفط الخام في السوق الفوري أو الثانوي فوق أسعار المنتجين المعلنة بكثير، استمرت إيران باستغلال الوضع المضطرب، ورفع أسعار صادراتها النفطية^(٣).

واستطاعت حسب اتفاق ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٧٣م، أن تبيع برميل

النفط بسعر (٥,٥٠) دولار، بينما باعت نيجيريا البرميل بسعر (١٦) ستة عشر دولار في شهر تشرين ثاني (نوفمبر) من نفس العام، أي بزيادة تصل إلى (٢٠٠٪) تقريباً عن السعر الإيراني^(٤)، مع التنويه أن سعر برميل النفط العربي كان (٢,٨٩) دولار في ذلك الوقت^(٥)، وبذلك تمكنت إيران منذ العام ١٩٧٣م من توفير إيرادات أعلى من النفط عن طريق ما يلي:

أ - إعدادات النفط بعد إلغاء امتياز الكونسرتيوم.

ب - ازدياد أسعار النفط الذي تضاعف بسبب الأزمة.

ج - زيادة حجم الكمية المباعة من النفط الإيراني؛ بسبب تعويض الشاه الإيراني للسوق ما امتنعت الدول العربية من تزويده بسبب الخطر.

فزيادة الأسعار، ساعد إيران بتنفيذ مشاريعها العسكرية والتنمية، وساعد الشاه في بناء إيران وفق طموحاته في المنطقة^(٦)، لا سيما أنها وصفت في ذلك

(١) بوريوسف، ر.: السياسة الأمريكية، ص ٩٥.

(٢) مهابة، أحمد: إيران بين التاج والعمامة، ص ١١٨-١١٩؛ بيرغين، دانييل: الجائزة، ص ٢٥٠.

(٣) آغا، حسين وآخرون: وثائق، ص ١٨٠. (٤) قناوي، سلميان: البترول وأمريكا، ص ٢٤٨.

(٥) الجبالي، عبد الفتاح: الأوبك، ص ١٤٣.

(٦) أكد على ذلك تقرير أمريكي جاء فيه: «في بداية السبعينيات كانت إيران تتمتع بازدهار هائل؛ نتيجة ثرواتها النفطية، كما أن هذه الثروات خلقت قدرًا من القوة السياسية، فبدأت إيران وكأنها تستطيع شراء استقلالها ومجدها في المستقبل، بعوائدها النفطية». (برانجر، روبرت جي، وتاهتين، ديل آر.: خيارات السياسة الأمريكية في إيران والخليج، دراسات استراتيجية (٣)، ص ١١).

الإيراني قابل للنضوب سريعاً، تبنت إيران دائماً مبدأ المطالبة بزيادة الأسعار في الأوبك ضمن مجموعة الأوبك التي تتدنى عائداتها عن نفقاتها، وليس لها مدخرات كبيرة^(١). وعلى الرغم من أن إيران كانت المطالبة في اجتماعات الأوبك بأعلى الأسعار، إلا أن غضب الرأي العام في الولايات المتحدة الأمريكية والدول المستهلكة الأخرى، والصعوبات الاقتصادية الناجمة عن ذلك الارتفاع، لم يوجّه إلى إيران والشاه، ولكن وُجه إلى الدول العربية التي كانت تسعى فعلاً للحد من ارتفاع الأسعار^(٢)، وفي الصحافة الأمريكية، وحتى غالباً في الدوائر الرسمية، كان العرب عادةً هم الذين يصورون على أنهم الأشرار المفتعلون لأزمة النفط وكانت إيران بشكل عام ينظر إليها بطريقة مختلفة تماماً من قبل صانعي السياسة^(٣).

٣ - الدور السعودي في أوبك:

منحت الولايات المتحدة الأمريكية منذ

الوقت بارتفاع نسبة التخلف والأمية^(٤). كما نتج عن رفع أسعار النفط حتى عام ١٩٧٥م، أن تلقت إيران (٢٠) عشرين مليار دولار سنوياً من عائدات النفط، في مقابل (٢٠٠) مليون دولار فقط قبل بضع سنوات^(٥).

وقادت إيران موجة رفع الأسعار لاعتقادها بعدم دوام إنتاجها النفطي، حيث كان الشاه يردد دائماً: «أن معجزة النفط ستنتهي بعد خمسة وعشرين عاماً، ويجب أن نفكر من الآن في أنواع بديلة من الطاقة»^(٦). فقال دائماً، وغالباً بصورة معادية للدول الغربية أن سعر النفط الخام أقل من قيمته، وينبغي أن يرتفع بما فيه الكفاية؛ ليتناسب مع تكاليف أنواع الوقود البديلة^(٧)، وأن النفط مادة خام للعديد من الصناعات، ولا يجب تبذيرها واستخدامها كوقود، بل طالب بربط أسعار النفط بمعدل التضخم العالمي، وأسعار عشرين إلى ثلاثين سلعة تؤخذ كقياس^(٨).

وعلى أساس أن الاحتياط النفطي

(١) مهابة، أحمد: إيران بين التاج والعمامة، ص ١١٩.

(٢) Daniel, Elton L.: The History of Iran, p.160, 161.

(٣) النصراوي، عباس: الطاقة والسياسة الخارجية، ص ١٠٧؛ مهابة، أحمد: إيران بين التاج والعمامة، ص ١١٩.

(٤) Amuzegar, Jahangir: The Dynamics of the Iranian Revolution, p.238.

(٥) النعيمي، عبد الرحمن محمد: الصراع على الخليج العربي، ص ٣٩.

(٦) النصراوي، عباس: الطاقة والسياسة الخارجية، ص ١٠٧.

(٧) Daniel, Elton L.: The History of Iran, p.161.

(٨) Quandt, William B.: U. S. ENERGY POLICY, p.287.

حظر النّفط العام ١٩٧٣م، علاقاتها مع بلدان الخليج أولوية عالية، وخاصة مع كلّ اجتماع نصف سنوي للأوبك، وبرزت إمكانية ارتفاع جديد في الأسعار، وحافظت على علاقات جيدة مع البلدان المنتجة الرئيسية لا سيما السّعودية^(١). فتبنّت أمريكا سلوك ضرب الأوبك من الداخل، وذلك بإحداث انقسام داخل أوبك بتشجيع الدّول المؤيدة لأمريكا في الأوبك الذي جسّد صراع قوتين: حلف الأقطار المحافظة وعلى رأسها السّعودية وإيران، وحلف الأقطار المناهضة للإمبريالية، وتمكن الحلف الأول خلال أعوام معينة من فرض خطه في بعض الأحيان على المنظمة، فبقيت الأسعار مجمدة^(٢).

لوقف حدة مطالبة الشّاه برفع سعر النّفط في الأوبك^(٣)، لأن السّعودية بالرغم من انضمامها إلى الحظر النّفطي عام ١٩٧٣م؛ إلا أنها لم تغير السّياسة الودية مع الولايات المتحدة الأمريكيّة، التي أنتهجها الملك فيصل وولي عهده الأمير خالد بن عبد العزيز^(٤)، حيث قام ولي العهد خالد بزيارة رسمية للولايات المتحدة الأمريكيّة في حزيران (يونيو) عام ١٩٧٤م، نجم عنها اتفاق شامل بشأن التعاون الاقتصادي والتقني والعسكري، وقد أعربت السّعودية عن استعدادها؛ للمساعدة في الحفاظ على الإمدادات المنتظمة من النّفط إلى الأسواق، وكبح ارتفاع أسعار النّفط^(٥).

لكن بعد رفض الشّاه الانصياع للإدارة الأمريكيّة، ووقف المزايدة على أسعار النّفط، اتجهت لدراسة إمكانية وقف الشّاه من خلال دول الأوبك، لا سيما الدّول التي تقع في نفس المنحنى الإيراني داخل الأوبك. وعلى أساس ذلك اتجهت السّعودية

وأكدت التقارير الأمريكيّة أن واشنطن اعتمدت على السّعودية؛ للتخفيف من حدة زيادة الأسعار النّفطية في المنطقة، وحسب رؤية المسؤولين الأمريكيّين؛ «فإن السّعودية وحدها بإمكانها أن تتحدى منظمة الأوبك، بل وأن تمزقها وتقضي عليها»^(٦). وعلى الرّغم من أن السّعودية

(١) تهتين، ديل آر. : تحديات الأمن القومي، دراسات استراتيجية (٤)، ص ٣.

(٢) النصراوي، عباس: الطاقة والسياسة الخارجية، ص ٩٧.

(٣) Claes, Dag Harald: The Politics of Oil-Producer Cooperation, p.220.

(٤) خالد بن عبد العزيز (١٠١٣م): ملك السعودية منذ عام ١٩٧٥م، وهو ابن الملك عبد العزيز آل سعود. (الكليالي، عبد الوهاب، وآخرون: موسوعة السياسة، ج ٢، ص ٦٠٢).

(٥) Claes, Dag Harald: The Politics of Oil - Producer Cooperation, p.220.

(٦) النعيمي، عبد الرحمن محمد: الصراع على الخليج العربي، ص ٣٨.

لأنها كانت تغرق السوق بالنفط، مما يؤدي إلى فشل الشاه برفع سعر النفط^(٤) (٥).

كانت السعودية تدخل كل اجتماع لأوبك بسعر ثابت للنفط الخام محدد مسبقاً^(٦).

وتتوقع ما يقابله نتيجة استجابتها للمطالب الأمريكية^(٧)، لذلك وضعت السعودية كل مشاريعها وإنفاقها المالي، وسياساتها النفطية والإنمائية تحت سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية^(٨)؛ لأن الولايات المتحدة الأمريكية ربطت بين بيع أسلحتها وتكنولوجياها، ودعم الأنظمة لقاء سيطرتها غير المباشرة على قرارات الأوبك^(٩) (١٠).

حاولت السعودية الحفاظ على دورها القيادي المتعلق بالنفط طوال سنوات السبعينيات من خلال الإصرار على زيادة

أبدت استعداداً للمطالب الأمريكية، ونظرت إليها الإدارة الأمريكية بأنها الحليف المحتمل في عملية خفض أسعار النفط؛ إلا أنها عُدت مصدرًا للنفط أقل وثوقًا واعتمادًا من المصدر الإيراني^(١).

عملت السعودية على التخفيف من حدة الأسعار في المنظمة، وحاولت منع حدوث مثل تلك الزيادة التي حدثت العام ١٩٧٣م، ساعدت السعودية على ذلك مركزها في السوق النفطي إنتاجًا ومخزونًا^(٢)، وعائداتها المالية وودائعها الضخمة، وقد مارست ضغطًا اقتصاديًا وسياسيًا على بلدان الأوبك^(٣)، وكانت قوة مهيمنة على قرارات التسعير داخل الأوبك، وتمكنت من خلال زيادة إنتاجها جعل الأسعار معتدلة؛

(١) Quandt, William B.: U.S. ENERGY POLICY, p.287.

(٢) كانت للسعودية مقدرة على رفع إنتاجها وتخفيضه، ضمن حدود (٣) ثلاثة ملايين برميل في اليوم دون أن تتأثر بذلك. (بدوي، رهنف: تقرير حول التطورات الأخيرة على جبهة النفط، ص ٢٠٤).

(٣) تهتين، ديل آر. : تحديات الأمن القومي، دراسات استراتيجية (٤)، ص ٣؛ متى، أنطوان: الخليج العربي، ص ٩١.

(٤) ورد في الدراسة الأمريكية التي صدرت في عام ١٩٧٨م أنه بعد رفع الحظر، كانت السعودية تشكل قوة رئيسة في مجال الاعتدال في أسعار النفط. (تهتين، ديل آر. : تحديات الأمن القومي، دراسات استراتيجية (٤)، ص ٤).

(٥) كوانت، وليام ب. : الأولويات الأمريكية في الشرق الأوسط، دراسات استراتيجية (١٦)، ص ١٢؛ بيرغين، دانييل: الجائزة، ص ٢٥٣.

(٦) Claes, Dag Harald: The Politics of Oil-Producer Cooperation, p.220.

(٧) كوانت، وليام: السعودية في الثمانينيات، ص ٧٣.

(٨) النعيمي، عبد الرحمن محمد: الصراع على الخليج العربي، ص ٣٨.

(٩) هدفت السعودية أيضًا من تنفيذ السياسة الأمريكية عدم قيام مشاكل اقتصادية في الغرب؛ لأن ذلك يفسح المجال للأحزاب اليسارية، كما حدث في إيطاليا، حيث صعد الشيوعيون إلى السلطة بهدوء عبر الانتخابات، وبالتالي خشيت وصول النفوذ السوفيتي إلى الشرق الأوسط. (بيرغين، دانييل: الجائزة، ص ٢٥٠-٢٥١).

الأبحاث العربيّة (ترجمة)، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت - لبنان، د. ط، ١٩٨٠م.

ثانياً : الموسوعات :

٤ - الكيالي، عبد الوهاب وآخرون: موسوعة السياسة، ٧ أجزاء، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، د. ط، ١٩٨٥م.

٥ - منصور، جوني: معجم الإعلام والمصطلحات الصهيونية والإسرائيلية، مدار - المركز الفلسطيني للدراسات الفلسطينية، رام الله، ط١، ٢٠٠٩م.

ثالثاً : الرسائل العلمية :

٦ - آل ثاني، منى سحيم حمد: السياسة الأمريكيّة في منطقة الخليج العربي في الفترة ما بين ١٩٤٥ - ١٩٧٣م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الزقازيق، مصر، ١٩٩٦م.

٧ - العجمي، ظافر محمد: أمن الخليج العربي، تطوره وإشكالياته من منظور العلاقات الإقليمية والدولية، رسالة ماجستير منشورة، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت - لبنان، ط١، آذار (مارس)، ٢٠٠٦م.

رابعاً : المراجع العربيّة :

٨ - بحيري، مروان: التّفط العربي والتهديدات الأمريكيّة بالتّدخل (١٩٧٣ - ١٩٧٩م)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٠م.

٩ - آغا حسين وآخرين، وثائق سلسلة الدراسات الاستراتيجية، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، مركز العالم الثالث للدراسات والنشر، لندن، بريطانيا، ط١، ١٩٨٢م.

١٠ - بوريسوف، ر. : السياسة الأمريكيّة والشرق الأوسط في السبعينيّات، شوكت يوسف (ترجمة)، دار دمشق، بيروت: لبنان، د. ط.

الأسعار المعتدلة^(١)، وظلت المنافس الأبرز لشاه إيران، في المقابل قاد شاه إيران هجوماً مضاداً ضد السّعوديّة، مصرّاً على أن مبدأ الأوبك نصّ على أنّه لا يمكن لإيرادات المنتج أن تنحدر، وكانت تلك المواجهة بين السّعوديّة وإيران بداية لصراع طويل بين هذين المنتجين الرئيسيين في منظمة أوبك بشأن مسألة السّعر^(٢)، الأمر الذي هدد في مناسبات عديدة، بزيادة الإنتاج وخفض الأسعار، إذا تبنت منظمة الأوبك مستويات الأسعار المقترحة من قبل إيران التي شكّلت أحد صقور (الأوبك)^(٣).

قائمة المراجع والمراجع

أولاً : الوثائق :

- ١ - تهتين، ديل آر. : تحديات الأمن القومي في العربيّة السّعوديّة، دراسات استراتيجية (٤)، مؤسسة أمريكان انتربرايز، واشنطن - الولايات المتحدة الأمريكيّة، مؤسسة الأبحاث العربيّة (ترجمة)، مؤسسة الأبحار العربيّة، بيروت، لبنان، ط. ط، ١٩٨١م.
- ٢ - ستورك، جو: أزمة الطّاقة في الولايات المتحدة ونفط الشّرق الأوسط، دار ابن خلدون للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٧٤م.
- ٣ - كوانت، وليام ب: الأولويات الأمريكيّة في الشّرق الأوسط، دراسات استراتيجية (١٦)، مؤسسة بروكينجز، الولايات المتحدة الأمريكيّة، مؤسسة

(١) Ahrari, M. E.: Iran, GCC and the security dimensions, p.201.

(٢) Claes, Dag Harald: The Politics of Oil-Producer Cooperation, p.220.

(٣) Ahrari, M. E.: Iran, GCC and the security dimensions, p.201.

- ١١ - خليل، مصطفى: أزمة الطّاقة، تطور إنتاج النّفط ومناطق الاحتياطي الرئيسيّة، الدراسات والأبحاث التي أُلقيت في دورة أساسيات صناعة النّفط والغاز التي عقدت في الكويت من ٥ كانون الثاني/يناير، إلى ٤ مارس ١٩٧٦م، ج١، الدراسات الفنيّة، منظمة الأقطار العربيّة المصدرة للبتروك، الكويت، ١٩٧٧م.
- ١٢ - الرميحي، محمد: النّفط والعلاقات الدّولية، وجهة نظر عربيّة، عالم المعرفة، مج٥٢، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٢م.
- ١٣ - السبكي، أمال: تاريخ إيران السّياسيّ بين ثورتين (١٩٠٦ - ١٩٧٩م)، عالم المعرفة، مج٢٥٠، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٠م.
- ١٤ - شكر، زهير: السّياسة الأمريكيّة في الخليج العربي «مبدأ كارتر»، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٢م، ط١.
- ١٥ - عتيقة، علي أحمد: الاعتماد المتبادل على جسر النّفط، المخاطر والفرص، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت - لبنان، د. ط١، ١٩٩١م.
- ١٦ - العبدروس، محمد حسن: تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، مركز عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، القاهرة: مصر، ط٢، ١٩٩٨م.
- ١٧ - عين ملك، جورج: السّياسة الأمريكيّة آليّة العدوان والتّدخل، مكتب الخدمات الطّباعيّة، دمشق، سوريا، د. ط١، ١٩٨٦م.
- ١٨ - قناوي، سلميان: البترول والولايات المتحدّة الأمريكيّة. (الإمبراطوريّة الأمريكيّة صفحات من الماضي والحاضر)، ج٢، مكتبة الشروق، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠١م.
- ١٩ - متى، أنطوان: الخليج العربي من الاستعمار البريطاني حتى الثورة الإيرانيّة (١٧٩٨ - ١٩٧٨م)، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣م.
- ٢٠ - المسفر، محمد صالح: البعد السّياسيّ في العلاقات العربيّة الإيرانيّة، التعاون العربي الإيراني، المحاور السّياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، منتدى الفكر العربي، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٣م.
- ٢١ - مهابة، أحمد: إيران بين التّاج والعمامة، ط١، ١٩٨٩م.
- ٢٢ - النعيمي، عبد الرحمن محمد: الصراع على الخليج، دار الكنوز الأدبيّة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٤م.
- ٢٣ - هيكل، محمد حسنين: مدافع آية الله، قصة إيران والثورة، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط٦، ٢٠٠٢م.

قصة: بين الأمس واليوم

ربيع عرنديس⁽¹⁾

تقدمت بخطوات ثابتة حتى وصلت إلى مدخل القاعة، فلما رآها، صُدم لهول المشهد، والعيون تترقب ردّة فعله.

اقترب منها والغضب بارٍ على ملامحه، فقال بصوت خشن مستاء: «لِمَ قَبَّحْتَ وجهك هكذا؟!»، فأجابت ببرود: «أريد أن أطمئن نفسي بأنك لن تتركني أو تعشق فتاة أخرى مهما كبرت في السن، وأعتقد أن ذلك من حقي!»

فكر قليلاً بعدما حاول تهدئة أعصابه الثائرة ثم طلب منها العودة لتغيير ملامحها، وأن تظهر بأبهى حلّتها، لكنّها سرعان ما رفضت، قائلة إنّها حرّة فيما تفعل، ولن تبرح مكانها، إضافة إلى أنّه مجبر على قبول شكلها كما تريد.

وما إن سمع ذلك حتى كادت الحرب الكلاميّة أن تندلع بينهما لولا أنّ المدعويين قد استدركوا الموقف وأبعدوهما، ثم عمداً إلى تهدئة كلّ منهما، كما حاولوا إقناع كلا

في ليلة من ليالي الشّتاء الحزينّة، صعد رجل سبعينيّ إلى غرفته ليرتّب بعض أغراضه المبعثرة، وبعد برهة وقعت عيناه على دفتر مذكراته الخاص. ومن دون قصد، بدأ بتصفّحه وقراءة بعض ذكرياته الخاصة التي دوّنها، لتطلّ محفورة في ذاكرته كلما عاود قراءتها، إحداها ذكرى مثيرة لا زال يعبّها أهمّ حادثة في حياته.

بدأت حين أقيم حفل زفافه في قاعة قريبة من بيته، وقد حضر إلى الحفل بعد أن اكتمل عدد المدعويين الذين دعاهم، فأقبل بعضهم ورحّب به، والبعض الآخر تمنى له حياة زوجيّة هانئة.

وبعد مدّة وجيزة، وصلت سيارة عروسه، فلما فُتِح بابها وخرجت منها، ارتسمت علامات الدّهول والحيرة على وجوه الحاضرين. العروس لم تبدُ أمامهم كما حسبوا، جميلة متألّثة كنجوم السّماء في ذروة اللّيل، بل ظهرت بمظهر عجوز قبيحة بفعل مساحيق التّجميل.

(1) طالب في الجامعة اللبنانيّة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الخامس، ماستر.

الطرفين بالنزول عند رغبة الآخر ولكن ذلك لم ينجح.

ولمّا ساد الصمت وسكنت النفوس، قرّر إنهاء العقدة بطريقته الخاصة، فطلب من زوجه التّقدّم إلى منتصف القاعة حتى يتسنّى لهما الحديث، فعاود سؤالها إن كانت لا تزال مصمّمة على قرارها بعدم تنفيذ طلبه، فأومأت برأسها موافقة.

نظر إليها نظرة تأمل، ثم قال: «إنّما أنا اخترتك زوجة لي لأنني اعتقدت أنّ الفتاة المناسبة بكل المعايير الخلقية والخلقية التي أحبّها وأرضاها فيك، واتخذت قرارًا حاسمًا بعقد القران لأنني كنت واثقًا بأنّه ما من شيء سيتغيّر في الحقيقة التي رأيتها أمامي ألا وهي أنت، كما عرفتك. لكن الآن، أرى أنّني كنت مخطئًا! أما بالنسبة إليك، فيبدو لي جليًا أنّك لم تكوني واثقة من اختيارك لي قبل عقد قراننا، فأقدمت على هذه الخطوة المخجلة، والتي لا تستحق - في نظري - لكي تمتحنيني للمرة الأخيرة. أما من جهتي، فقد وثقت باختياري، ومن جهتك فقد أوقعت نفسك في دوامة سرمدية لا نهاية لها، وأنا متأسف لذلك.

ولأكون واضحًا، فإنّ لكلّ مرحلة من العمر حقّ يجب الحفاظ عليه، فيما أنّي رجل شاب في العقد الثّاني من العمر، يجب عليّ أن أختار امرأة أمضي معها تجارب الحياة لنتعلّم منها سوية ويكمل بعضنا بعضًا،

وحينما أصبح كهلًا في العقد السّابع - إن عشت إلى تلك الأيام - فإنني سأكون قد تقبّلت حقيقتي وحقيقة من أعيش معها - على الأقل - لطول السنين وكثرة ما مررنا به حتى وصلنا إلى ما أصبحنا عليه.

ثم لو أنّي أردت الزّواج من امرأة عجوز، لفعلت ذلك منذ أمد بعيد، لكن آنذاك أكون قد أجبرت نفسي على طاعة كبريائها واحترام كبر سنّها لا بوصفها زوجة بل أشبه بجدة لي.

ولئن كنت لا تزالين مصرّة على رأيك، فأنصحك أن تتزوجي كهلًا يناسب ملامح وجهك، لربما تكتسبين منه الحكمة، ولكني أدعو للمسكين الذي سينخدع بمظهره ألا تصيبه سكتة إن علم بحقيقتك، ولا تنسي أبدًا أنّ الحقيقة ليست مساحيق تجميل، وأنّك لست تلك الحقيقة التي كنت أعرفها، ولكي أكون منصفًا، سأدع الزّمن يدلّني على طريق السّعادة، ويدلك على درب الثقة». وبعد أن تأمّل تعابير وجهها، بدت عليه علامات الخيبة، مما اضطره إلى ترك حفل الزّفاف.

وها هو يطوي صفحات ذكرياته، ويعيش حالة متذبذبة من الحيرة والانزعاج، والبحث عن الجواب الذي لم يتيقن منه إلى الآن، من منهما على صواب؟!

الكائنُ القلقُ

فاطمة علي سليمان^(١)

وتمحيصه لاستنباط أصله، فقيرةً من اليقين النهائي والخلصات، حتى يوشك البعض على التسليم بشكلٍ كاملٍ والخضوع الكامل إلى النصِّ الدينيِّ لعجزهم عن العثور على الحقيقة المطلقة وذلك بسببِ «أعمارِ الإنسانِ القصيرة، وأعماله الكثيرة»^(٤)، وجهله بالكثير من البنى المعرفية التي تخبئ نفسها لزمنٍ آخر، أو لرحلةٍ زمنيةٍ كونيةٍ أخرى، أو لرقودٍ في عقلٍ أحقُّ من سواه بامتلاكها. ونحن هنا لا نقولُ بأنَّ الخضوعَ والتسليمَ للنصِّ الدينيِّ كإحجٍ لسلطةِ العقلِ وإرادةٍ ساكنةٍ للمادة، بل على العكس لأنَّ الخضوعَ قد يأتي كنتيجةٍ حسمٍ بعدِ سنينَ شاقّةٍ من البحثِ والإعمالِ، بما رُوِّدَتِ النَّفسُ البشريّةُ من معارفٍ طيلةً

الإنسانُ بينَ الماهيةِ الجزئيةِ والكليةِ:

داخلَ الجذورِ التّربيعيةِ لمصطلحِ «الإنسان»، تغصُّ المعاجمُ بإدراجِ وصفٍ دقيقٍ لهذا المصطلحِ، فقد يكونُ هذا الوصفُ عقلياً أي ناتجاً من تصوّراتٍ تقومُ على جملةٍ من التّجزئةِ والتّفصيلِ والتّشريحِ الدّقيقِ لجذرِ الكلمةِ بغيةِ الوصولِ إلى معناها وفقِ التّصوّرِ العقليِّ الإنسانيِّ. وقد يكونُ نقلياً مُستنداً إلى تنزيلٍ حقٍّ قيلَ ما فيه، وليسَ كلُّ ما قيلَ فيه. حيثُ نلقفُ في القرآنِ خلقاً قويمًا ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(٢). كذلك فقد قال السّير جون أليكس: «كلُّ نفسٍ هي من خلقِ الله»^(٣).

وقد تبقى عمليةُ البحثِ عن هذا المصطلحِ، أو بالأحرى عمليةُ تأصيله

(١) طالبة في قسم اللغة العربيّة وآدابها، الجامعة اللبنانيّة، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، الفرع الخامس .

(٢) سورة التّين، الآية ٤ .

(٣) دافيز، بول، الله والفيزياء الحديثة، ترجمة هالة العوري، دمشق، صفحات للنشر والتوزيع، طبعة أولى، ٢٠١٣، ص ١٠٩ .

(٤) البعلي، فؤاد، فلسفة إخوان الصّفاء الاجتماعيّة والأخلاقيّة، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٨٥، ص ٧٠ .

فترة استكشافاتها للعوالم المتوافرة والمتوالدة تبعاً لخيالها وارتشافاتها للعلوم.

لولادة كونٍ متناسقٍ متراتبٍ، متشعبٍ لانهائي، لولادة حقيقةٍ إلهية.

التَّشْرِيحُ أَوْلًا ثُمَّ التَّجْمِيعُ:

استهله بول دافيز الفصل السادس من كتابه «الله والفيزياء الحديثة» بقول لكارل جوستاف هونغ مفاده: «أعتقد أنَّ بعض أجزاء الإنسان أو روحه، ليست خاضعة لقوانين الزمان والمكان»^(١).

فالكائنُ الإنسانيُّ مفطورٌ على التَّأَنُّسِ - وليس كلُّ حيٍّ إنسانٍ - . هو عقلٌ أرخبيليٌّ، كلُّما كبرَ العالمُ الَّذي في رأسه، زادت المسافات بين الأرخبيلات، وزاد معها زخم التَّفاصيلِ والجزيئياتِ الصَّغيرةِ التي تشرعُ في الوجودِ. حالةٌ من عدم الاستقرار لعدم اعتمادها على الأماكنِ والتَّصنيفاتِ الفصل. حالةٌ سيولةٍ حركيةٍ في مباحج الأزمنة المتعدِّدةِ والفرضياتِ المتخابطةِ، وتكرارِ عمليَّاتِ التَّنشيطِ والغزوِ المعلوماتيِّ. عيشُ الفكرةِ إلى أقصاها في أيما أحوالٍ من أخاديد الدِّماغِ، في أزمنةٍ محمومةٍ، المجهولُ منها وحده المتختم بمعانٍ خفيةٍ. ومع الاتِّساعاتِ العظميةِ وذوبانِ الحدودِ بينِ أرخبيلاتِه، يشرعُ في وضعِ ما اكتسبه ونثره في أقاصي معمورات عقله داخلَ علبةٍ

هذا وبتزاحمِ الفرضياتِ المُكتشفةِ والتي تتوافرُ في قبضةِ عقلِ الإنسانِ، يصعبُ تحديدِ الحقيقةِ المطلقةِ في إطارِ إنسانيِّ ديكالكتيكيٍّ، زئبقيٍّ. لكنَّ العمليَّةَ التي تتصارعُ عليها القوى الإنسانيَّةُ في السَّاحاتِ الفلسفيَّةِ والأدبيَّةِ والعلميَّةِ... تُفضي إلى جدليَّاتٍ هابطةٍ فصاعدةٍ ثم إلى يقينٍ عذبٍ هو الله.

والإنسان لا يعدو كونه كائنًا روتينيًا تنطبقُ عليه العمليَّاتِ الحيويَّةِ والتي هي واحدة بالمقارنة مع جميع النَّاسِ على هذا الكوكبِ، بل هو الكائنُ الممتازُ بما ندر، وصفةُ الامتيازِ ليست بالضرورةِ لصيقةً بالإيجابية. بل قد تكونُ قطبًا سلبيًّا من القوى المغناطيسيَّةِ الفكريَّةِ، وقد تكونُ قبل هذا كله حالة تفرُّدٍ - وهي كذلك -، تفرُّدُ الإنسانِ بما يحويه في رحمهِ الفكريِّ الخصبِ، تفرُّده بمبادئه، بفيضِ علومه. والتَّفرُّدُ سمةٌ إنسانيَّةٌ بحتة، وامتيازٌ من النَّاحيةِ الفكريَّةِ والفلسفيَّةِ. أسئلةٌ تشكُّلُ موادَ ذريَّةٍ من أجل انفجارِ شكوكه العنيفِ،

(١) دافيز، بول، الله والفيزياء الحديثة، ص ٩١.

يجزئ محلاً، من الخصوص إلى العموم،
تراتبية عمودية تفضي في نهاية المطاف
إلى الكل المتكامل.

أما الآن وفي خضم ذلك الضجيج
العقلي نسأل: متى يستقر الإنسان؟ وهل
محكوم عليه بالكلية؟

ذكرنا أن الإنسان كائن انشقاقي
بالمصطلح العملي والواقعة الفردية لكل
شخص غزا الكوكب بمجيئه صاحب الأثر
على الساحة المعرفية، والذي قد يظنه
البعض تحاملاً، يحصل هذا عند افتقار
التفاصيل، المبادئ، الأفكار الرئيسية من
تركيبته الإنسانية، وقاعدة وجوديته، أو عند
الغرق في أمرين، تربصه بالمادة، أو
انغماسه في حالته القلقة من غير أن يحق
أسبابها ويزعزع مخاوفه بالإقدام على
الخطوة الرئيسية من عملية صناعته لذاته
وقولبتها كي يحصل التغيير الذي يخشاه.
المهم الآن الانتقال إلى القطب الآخر.

تناقضات الفكرة والتكوين

وقد يكون الإنسان وليد التناقضات كما
يقول سارتر، وقد يكون حالة ثبات لا
تحدث شرحاً في عقول الأجيال. لكن ألا
يسعنا القول: إنه يجب تمحيص تلك
التناقضات، لأن الإنسان هو الذي يصنع

مجهرية، بحيث يبدأ في اختلاس النظر عما
بداخلها عبر ثقب صغير كما في
الفوتوبلاستيكون⁽¹⁾، مندهشاً من كل
تفصيل خزنه، من عوالم الميثولوجيا داخل
رأسه، من الإنتماءات الكاملة للكل المتكامل.
كائن انشقاقي، يميل إلى التجزئة والتفتت،
تجزئة تحصيلاته المعرفية، تشريحها إلى
أصغر تناهياتها وتماهياتها. متدرج في
حالات التعريفات والمسلمات
والاستنتاجات... كائن قلق من أمرين، المادة
والمجهول، انحلال المادة ومعميات
المجهول وأسراره. حالة قلقه هذه تستمر
معها في عمليات تأنسبه وفك شيفرات هذا
العالم، وكما أشرنا سابقاً، فهو تفتتي من
حيث التصنيف وعمليات القولية الذهنية،
ينطلق بصفة الجزئية؛ يُمحّص، يشذب،
يسأل... فإن انتقد كتاباً كان قد ولج إلى
تفاصيل الأفكار قبلاً، وإن بنى هرمًا
زجاجيًا حصل أن درسه قبلاً؛ شظاه إلى
كريستاليات رملية في رحلة معرفية
لأعضائه، قواعده الفيزيائية، مواده
العضوية، تركيبات عناصره الكيميائية،
تراصات المعادلات والمبادئ الرياضية.

وبما أن معرفة الأشياء تكون عبر
أوصافها، كذا بحكم جزئية الإنسان طفوق

(1) الفوتوبلاستيكون: مسرح الصور المجسمة في وارسو، بحيث تستطيع اختلاس النظر إلى ما بداخله عبر ثقب صغير.

ذاته بذاته، يمرّ بالتّجارب المتناقضة؛ والمشاعر المتناقضة، والاستنتاجات المتناقضة، والفرضيات المتناقضة، ليركن نفسه في تلك الكليّة: الجزء الممّحص في الأجزاء هو جزءٌ من كمالية الله. قد يمضي جلّ حياته بالبحث عن حقيقة أضمرتها بحوثه وعقله، ولا يستطيع التّعبير عنها بمصطلح كافٍ يعطي المفهوم حقّه وصورته الكاملة، ثمّ قد يمضي حقبةً أخرى من البحث عن المفهوم، ويكتفي بالتلميح اللغويّة لأنّها تكون سبيله الوحيد لرسم صورة الشّيء المضمور في أصقاع رأسه. قد تكون الفكرة جليّة في رأسه، لكنّها في الوقت نفسه متهرّبة من الكلمات والترابيط اللغويّة، فتحافظ على رسمتها بصورتها الرياضيّة ربّما أو الفيزيائيّة، ألا تظلم الكلمات أفكارًا بقيت قيد البحث بسبب قصورها عن الفكرة؟ كم من فكرة ظلّت حبيسة حلق صاحبها بسبب قصور لغويّ أو نقصانٍ في بئر الكلمات؟

ولسنا الآن بصدد البحث في موضوع الفكر واللّغة، وقد شارف مقالنا على الإنتهاء، على الرّغم من أنّه لا ينته بتشعباته الممتدّة. ما يهّمنا هو سبر غور ذاك الإنسان، وتحديد مُستقرّه، وإن كان مصطلح التّحديد يعني التّقييد أحيانًا، غير

أنّ الإنسان لا يجبُ عليه بتاتًا تقييد نفسه بدائرة ما، أو حصر نفسه بزمانٍ ومكانٍ ورؤوسٍ دائريّة تغزوها الطّحالب. عليه دائماً حملُ الأمور بأبعادها الشّموليّة، بأجزائها الشّموليّة كي يكون حريصًا على عدم فقدان جزءٍ هو أساسٌ في عمليّة ارتقائه بمراتب العقول، وتحصيله الدّرجات المؤتّقة في سدرّة التّناهيات العلى. من جهةٍ أخرى، صُنّف العديد من العلماء والفلاسفة في دائرة الإلحاد، ما يهّم قوله إنّ الملحد هو ملحدٌ بذاته، متشكّكٌ بأعطافه الدّائيّة، حين يدافع الذي تسمّونه بالملحد - وأسميه بالقلق - عن فكرة ما، نظام ما، مقدّمات ما، نظريّات ما، أليست هذه الأفكار والمبادئ والأنظمة والمقدّمات أجزاء من الكلّ المتكامل؟ أليست الفكرة إلهاً آمن بها، عملٌ بها، دافعٌ عنها، حتّى وإن كان رافضاً لوجود الله، لكنّه رافضٌ لوجود نفسه، مناقضٌ نفسه، مليءٌ بالمربّعات السّوداء في مكعبه الرّوبيكي الذي افتقد مبدأ اتّساقه وترتيبه، يعيش مثل بطلٍ باربوس^(١)، غرقتُه هي حدود إدراكه، يرى العالم الخارجيّ من ثقب الحائط ويطلق الأحكام بفراغاتٍ عديدة. نحن هنا لا ندافع عن من تنعتونهم - بالملحدين - ولا نسوّغ نظريّاتهم. لكنّنا

(١) كولن ولسن بطل رواية الجحيم للكاتب هنري باربوس.

نقول إنّ المؤمن بالأجزاء كيف له ألاّ يكون مؤمناً بالكلية وربّ الأشياء الصغيرة؟

خاتمة

هذا هو الإنسان، يجتهد ليعرف، بتسرّب بالشكوك، لا يطمئن لحكم، يتأكل بالخوف والقلق واليأس، أنانيّ أحياناً، مُتغطرس في أحيانٍ أخرى، يهرب متجرّداً من هويّاته، يتملّص، يشتت نفسه، يرى ما يريدُه هو لا ما هو عليه حقاً، لا يكتفي، يريد أكثر، آخر، جديد. لا يعجبه إلهه، لا يعجبه شخصه، لا تعجبه مساحات الإحاطة، فيتجدد. من لا يتجدد يبقى ساكناً؛ يكبر أكثر، يشعر أقل، يموت أسرع، يوتر أقل. متآلف متنافر، لفيّ الأجزاء. حتى تلك الكلمات المتناهية - التي سبق وأجزنا الحديث عنها - هي إسقاط جزئيّ من فكرة نحن نبتدعها، نحاول قدر المستطاع أن نصل لأقصاها والتعبير عنها بكلماتها، لكنّ التعبير يبقى قاصراً عن التّحديد الدّقيق والإحاطة بالشّموليّة الكاملة. كذا الإنسان، الجزء المصنوع من كامل صانع، يمضي حياته في محاولة الوصول إليه قدر الإمكان عن طريق الفحص في الموجودات والمصنوعات والتأمّلات وشتى الوسائل المعرفيّة «فإنّ من لا يعرف الصّناعة لا

يعرف المصنوع، ومن لا يعرف المصنوع لا يعرف الصّانع»^(١). إذن هو جزء في مملكة متراتبّة، عقلٌ يجتهد لبلوغ الحقّ، حتى وإن احتوى والكون على ما لانهايات الأجزاء المادّيّة وغير المادّيّة فهو محكوم عليه بالكلية، وتوقه لقوّة أعظم منه، تحويه ويحويها: إلى الكمال المطلق، حيث الإستقرار من خلال إزالة اللبس الفكريّ المسبّب للقلق الوجوديّ.

حقاً: عقيم هو ساكن الجانبين، فارغ هو مميت الحركات.

(١) ابن رشد، فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من الاتّصال، تحقيق د. محمد عمارة، القاهرة، دار المعارف، ص ٢٦.

يا واحة الظلّ

زهراء الموسوي

لأمي أقدمُ قلبي، وما فيه من أمنياتٍ
ولستُ على ضفّة الحبّ حتى
أقولَ تقدّم من النخلِ يا أيها النهرُ،
إنّي أنا النهرُ، خلّ الضفافَ لغيري
وليس سؤالَ الجذور عن الماء يحتاجُ
أجوبةً
فإنّ حنينَ النخيلِ إلى النهرِ مسألةٌ
وحده النهرُ يدركُ تفسيرها،
إنّ ثديّ الأمومة ليس يعرفه غير ثغرِ
الولدِ
لأمي أقدمُ ثغرَ الطفولة، إنّي أريدُ
الرجوعَ إلى قلبِ أُمّي.
ومن فسّرَ الحبّ يقتلهُ
ليس سؤالَ الجذور عن الماء يحتاجُ
أجوبةً
هو ثغرٌ وثنديٌّ وأمي وقصّةُ حبّ
ويا ثمرًا يسألُ الجذرَ عن سرّه،
إنه الحبُّ، والحبُّ في القلبِ أسمى عقيدةً

إذن أنتِ يا أمّ كنتِ السببُ
وحيثُ تكونين قربي
أحسّ مساحاتِ حبّ تؤنّق لي فرحًا
وسعادةً.
فأنسى النوبُ
وحيثُ تكونين أنتِ بقلبي
أحسُّ بأنك أنتِ أنا
وأنسى بأنّي أرى في الوجود سواك
لقد ملأتُ عالمي ذكرياتُ هواك
فهايتي لي الأمسَ يا أمّ إنّي
أنا الآن في كلّ شيءٍ أراكِ
أيا فرحي وكياني
فقد كنتِ ترنيمَةَ الليلِ حتى أنامُ
وكنتِ ضياءَ الصباحِ لأصحو
ويا بحةَ الناي هاتي أنينَ القصبِ
* * *
ويا أوّلَ الغيثِ حين تجفُّ حياتي
ويا مطرًا هاطلاً فيّ اليبابِ

ويا واحة الظلّ في رحلة العمر
إني أحبك قبل مماتي، وبعد مماتي.
خذييني إليك، فأنت الوسادة حين أنام
وأنتِ لحافُ الأمانِ بفصل الصقيع
وأنتِ الربيعُ
وأنتِ إذا انسدتِ الطرقاتُ أجيءُ إليك
دعي كلَّ شيء، ففي شفّتي أرى ظمًا
لألثم أقدامكِ الطاهرة.
فمن تحتِ رجلكِ تنبُعُ جناتِ عدنٍ
وأنهارُها الخالدةُ.

الإعلام في الرواية إبان الربيع العربي

«رواية أجنحة الفراشة أنموذجا»

الباحثة هدى محمد الرزوق^(١)

الإعلامي لدولة مصر، وتأثيره على الثورة المصرية ونجاحها، فتّمت دراسة وسائل الإعلام التي تطرّق إليها «محمد سلماوي» في روايته، بشقّها التقليديّ، متناولين الصّحف والتّلفاز، وصولاً إلى وسائل الإعلام الجديد، لتحديد تأثيرها على مجريات الثورة. فمتى تمتّع الإعلام بالحرّية، وتمكّن من انتزاع حقّ المجتمع في حرّية الرّأي والتّعبير، فإنّه بذلك يؤسّس مجتمعاً ديمقراطياً.

المقدمة:

يُعدّ الإعلام اليوم أحد أهمّ العناصر التي تتأثر بكافة مجالات الحياة: الاقتصادية والسياسية، والاجتماعية، وتؤثر بها في الوقت ذاته؛ إذ يُعرف الإعلام بأنّه الوسائل والتقنيات على اختلاف أنواعها والتي يتمّ توظيفها في عملية نشر الأخبار،

ملخص البحث:

بات الإعلام لاعباً رئيساً في المجتمع، ومؤثراً على السّاحتين المحليّة والعالمية؛ فجميع النّاس يتعاملون مع وسائل الإعلام بطرق مباشرة وغير مباشرة، حيث تعدّ هذه الوسائل المصدر الأوّل للأخبار والمعلومات، ووسيلة للتّخاطب بين الحكومات ورجال السّياسة، وأصحاب الأقالام وغيرهم من جهة، وبين أفراد الشّعب بكافة أطيافه من جهة أخرى.

وانطلاقاً من هذا الدّور المهمّ للإعلام، عمد البحث إلى توصيفه إبان ثورات الربيع العربيّ الذي أثار على جميع مناحي الحياة، فما قبله ليس كما بعده، وذلك من خلال رواية «أجنحة الفراشة»، فهي من أوائل الروايات التي تنبأت بالثورة المصرية. فاستطعنا من خلالها تصوير الواقع

(١) طالبة دكتوراه في جامعة القديس يوسف.

وسياسية أطاحت بأنظمة استبدادية اعتقد الطغاة فيها أنهم خالدون.

انطلاقاً مما سبق، كان لا بد من معالجة إشكالية فرضها الواقع الاجتماعي والأدبي: كيف نظرت الرواية إبان الربيع العربي إلى الإعلام؟

ولقد وقع الاختيار على رواية أجنحة الفراشة لـ «محمد سلماوي» لأنها من الروايات النادرة التي تنبأت بحدوث عاصفة الغضب المصرية التي ضربت البلاد في ٢٥ كانون الثاني ٢٠١١ م، فقد صدرت قبل وقت قصير من ثورة الشباب التي هزت أركان الحكم المصري.

وسأنتبع في هذا البحث المنهج الوصفي الذي يهتم بدراسة الظواهر كما هي موجودة في الواقع، إضافة إلى أنه يهتم بوصف الظاهرة وصفاً دقيقاً يبين أهميتها. والمنهج الوصفي هو أساس لتوضيح أي ظاهرة، وفي هذا البحث سأقوم بوصف ظاهرة الإعلام في الرواية العربية

ولقد أضاء الكاتب «محمد سلماوي»، في روايته أجنحة الفراشة على عدة أنواع من وسائل الإعلام: الصحف الرسمية والمعارضة، التلفاز، ووسائل التواصل الحديثة. ولكن لا بد من التطرق إلى بعض التعريفات المساعدة على فهم مفاتيح هذا البحث، قبل الولوج إليها:

والمعلومات، والأفكار المختلفة بين الناس، مما جعله يكتسب أهمية بالغة في حياة الإنسان، نظراً للتحوّلات التي شهدتها العالم، في نهاية القرن السابق، وبداية القرن الحالي. وهناك مصطلحات أساسية في التعبير عن وسائل الاتصال والإعلام؛ أهمها: الوسائل الجماهيرية، ووسائل الاتصال، ووسائل الإعلام. ولقد أدت ثورة المعلومات والاتصالات، على اختلافها وتنوعها، دوراً هاماً في تكوين رأي عام مؤثر على توجهات الشعوب في القرون الماضية.

وبنظرة أولية على أحداث الربيع العربي، لا يمكن التغاضي عن الدور الذي أدّاه الإعلام الاجتماعي في خلق منصات بديلة للألة الإعلامية الرسمية والآلات المتحالفة معها. فقد كانت صفحات التواصل الاجتماعي وسيلة اتصال بين المحتجين، وقناة لتوصيل رسائلهم إلى الجمهور وحشده وتوجيهه ونقل الصورة كما هي في مواقع الاحتجاج.

من جهة أخرى، يسير المنتج الإبداعي جنباً إلى جنب مع الحراك الاجتماعي، وربما يتخطاه أحياناً، أو يتأخر عنه بطريقة جمالية؛ صحيح أنّ الكتابة الإبداعية لم تطلق لنفسها العنان بعد الربيع العربي إلا أنه ظهرت بعض الكتابات السردية والشعرية التي وصفت ما جرى من تغييرات اجتماعية

● وسائل الإعلام:

«الإعلام هو عملية ديناميكية تهدف إلى توعية وتثقيف وتعليم وإمتاع مختلف فئات الجمهور التي تستقبل المواد المختلفة، وتتابع برامج وفقراته، فهو العملية التي يترتب عنها نشر الأخبار والمعلومات الدقيقة التي تركز على الصدق والصراحة ومخاطبة عقول الجماهير وعواطفهم»^(١). ولا ريب في أنّ وسائل الإعلام هي «جميع المؤسسات الحكومية والأهلية التي تنشر الثقافة للجماهير، وتعنى بالنواحي التربوية كهدف لتكثيف الفرد مع الجماعة، ومن هذه المؤسسات: الصحافة، الإذاعة، التلفزيون، ودور السينما»^(٢).

يمكننا القول، إنّ وسائل الإعلام أداة تسمح بالاتصال بين طرفين، وتولد شعوراً جماهيرياً عاماً، فتوقظ الرأي العام، وتوجهه وتحرك مشاعره، وتستميله وتفرض عليه منطقتها، وهي توزع أفكارها على الملايين بسرعة وفي وقت واحد، فتولد بينهم نوعاً من التوافق الفكري.

● الربيع العربي:

«إنّ الغرب هو من أطلق مصطلح الربيع

العربي على الأحداث التي جرت في المنطقة العربية بدءاً بتونس بداية العام ٢٠١١م، حيث كانت صحيفة «الاندبندنت» البريطانية أول من استخدم هذا المصطلح. وقد يكون لذلك علاقة بثورات الغرب، عبر تاريخه، الذي يُعرّف هو أيضاً بثورات الربيع الأوروبي، واستخدام مصطلح «ربيع براغ» للتعبير عن انتفاضة الشعب الجيكوسلوفاكي عام ١٩٨٥م»^(٣).

وقد أطلق مصطلح «الربيع العربي» على الثورات العربية والاضطرابات الاجتماعية والسياسية، التي مثلت حركات احتجاجية سلمية في بداياتها، انطلقت في معظم البلدان العربية منذ أواخر عام ٢٠١٠م، ومطلع عام ٢٠١١م، وكانت شرارتها البارزة في تونس مع انتحار «محمد البوعزيزي» احتراقاً.

أولاً - الصحف في رواية «أجنحة الفراشة» - الصحيفة.

الصحف هي وسيلة الفرد للحصول على المعلومات، بمعنى أنّها توفر له العناصر التي تمكّنه من الحكم على الأمور والوصول إلى فكر معين بشأنها^(٤). ويقول مارشال

(١) حسين عبد الحميد، أحمد رشوان. العلاقات العامة والإعلام من منظور علم الاجتماع. ص ٥٠.

(٢) عبد الله محمود عبد الرحمن. سيولوجيا الاتصال والإعلام: النشأة التطورية والاتجاهات الحديثة والدراسات الميدانية. ص ٦٢. (٣) مصلح الجبوري. جذور الاستبداد والربيع العربي. ص ١٨٥.

(٤) انظر: خليل صابات. وسائل الاتصال: نشأتها وتطورها. ص ٣٣٢.

– الصّحف الرّسميّة في رواية
«أجنحة الفراشة».

إنّ وسائل الإعلام والاتّصال الوطنية الرّسمية تابعة للحكومات، فتعكس من خلالها رؤيتها ومقاربتها لتدبير الشّأن العام، وهي وسائل محلية تتّسم بالتّخلف والقمع والرّأي الواحد الوحيد، وعدم المهنية، وتزييف الحقائق، لأنّها تعكس نظرة الحكومات لشعوبها وتعتبرها قاصرة لا حقّ لها بالمبادرة والتعبير؛ «ففي أنظمة الحكم غير الديمقراطيّة فإنّ وسائل الإعلام نتيجة لسيطرة السّلطة الحاكمة عليها فإنّها تصبح قنوات التعبير عن الصّوت الحكومي وتنشر أفكار وفلسفة السّلطة السياسيّة وتوجيهها لتحقيق التنمية السياسيّة وفق مراجع مرسومة مسبقاً تتفق وأهداف الحكام»^(٣).

فنلاحظ أنّ محمّد سلماوي في رواية «أجنحة الفراشة» صوّر لنا وسائل إعلام السّلطات الحاكمة التي عمدت إلى تضليل الرّأي العام، فزوّرت الحقائق ونشرت الأضاليل، فأتهمت «وزير الدّفاع» بأنّه ضالع في مؤامرة ضدّ البلاد، ولا يريد الخير لمصر، بل ينفذ أجندة خارجيّة هدفها

مالكوهان: «إنّ الصّحافة كرسّي اعتراف جماعيّ، يتيح مشاركة مشتركة، إذ إنّ في استطاعتها تلوين الأحداث لاستخدامها أو عدم استخدامها»^(١). وتعدّ الصّحف مصنّفات أدبيّة، فتحظى بالحماية القانونيّة المقرّرة لقواعد حماية الملكيّة الأدبيّة والفنيّة.

وتتعدّد وظائف الصّحافة والخدمات التي تقدّمها إلى جمهورها، إلّا أنّ أهمّ وظيفة لها هي الإخباريّة، أي «تزويد القراء بالأخبار الداخليّة والخارجيّة التي تهتمهم وتهتمّ بلادهم بصفة عامّة، ويتعيّن على الصّحافة أن تقدّم القدر الكافي من هذه المعلومات، حتّى يستطيع النّاس أن يكوّنوا رأياً عامّاً سليماً في شؤونهم الداخليّة والخارجيّة، أي أنّها تُقدّم الأخبار والالتزام بمعايير الصّدق والأمانة والنّزاهة»^(٢).

من خلال ما سبق، نتبيّن أنّ أهميّة الصّحافة تكمن في تزويد الأفراد والجماعات بالمعلومات التي يحتاجونها في حياتهم، والمهمّة في صنع القرارات على مستوى الفرد والمجتمع، فما هي رؤية سلماوي للصّحف المصريّة في روايته؟

(١) مارشال مالكوهان. كيف تفهم وسائل الاتّصال؟؛ ترجمة خليل صابات وآخرون. ص ٢٢٨.

(٢) إبراهيم المسلمي. التشريعات الإعلاميّة. ص ١٧.

(٣) محمد محسن العامري، عبد السلام محمد السعد. الإعلام والديمقراطيّة في الوطن العربي. ص ١٦٣.

السُّلطة الحاكمة، دون تحديد الجهة المسؤولة عن هذه المؤامرة بشكل واضح، فكلٌّ مَنْ يطمح لتغيير وضع البلاد هو في عداد الخائنين. يقول سلماوي:

«ونشرت إحدى الصحف تحقيقاً حول مجموعة الشَّبَاب الذين تم اعتقالهم، قالت فيه إنَّ سلوى العليمي وهالة عبد الشَّهيد كانتا تتبادلان المواقع ما بين المظاهرات وغرفة العمليات مع عدد من المتطوعين (...). أمَّا حسن الليثي فقد توصل إلى طريقة تسمح بتضليل السُّلطات كلِّما استخدم أحد النُّشطاء الإنترنت»^(٣).

ومن خلال التعمُّق في الرواية، نلاحظ أنَّ الشَّعب لم يصدِّق ما جاء على ألسنة الصَّحف، فقد كان واعياً، وذلك لأنَّ «من شأن توافر كمِّ متَّسع باطراد من المعلومات للقراء والمشاهدين العرب، بالإضافة إلى ارتفاع مستويات التعليم، أن يحفِّز أعداداً واسعة من العرب على تفسير المعلومات بطريقة جديدة وأكثر حذقاً، وسيتعين على الحكومات تغيير طريقة تفاعلها مع مواطنيها، إذ ستكون قد خسرت احتكارها للإعلام من جهة، وستواجه صعوبة متزايدة في إقناع الجمهور بدعم سياسات قليلة

زعزعة الاستقرار، جاء في الرواية: «وفي اليوم التَّالي تصدرَّ صحف الحكومة وأجهزة إعلامها الرسمي بياناً رسمياً، يقول: إنَّ وزير الدفاع كان ضالِعاً في المؤامرة، وإنَّه رفض تنفيذ قرار الحكومة بأن يتولَّى الجيش حفظ الأمن، حتى يعطي الفرصة للمتمرِّدين لإحداث الفوضى وفق المخطَّط المرسوم»^(١).

فيما الحقيقة والواقع يقولان غير ذلك، فقد رفض زجَّ الجيش في مواجهة الشَّعب، ورفض قرار رئيس الحكومة، وأمين عام الحزب بإنزال الجيش لفضِّ الاعتصامات، وقدَّم استقالته عندما أُجبر على تنفيذ الأوامر، وقبل بالاعتقال، ولم يتزحزح عن موقفه، في رفض زجَّ الجيش في مواجهة الشَّعب، فالتَّاريخ لا بدُّ أنَّه سيقول كلمته يوماً ما: «رفض وزير الدِّفاع إنزال الجيش وألقى كلمة تاريخية ذكر فيها الحكومة أنَّ الجيش وجد للدِّفاع عن أرض الوطن ضدَّ الغزاة والمحتلين، وليس لضرب المصريين أيًّا كانت انتماءاتهم أو أفعالهم»^(٢).

يمكن القول، إنَّ الصَّحف الرِّسمية في رواية «أجنحة الفراشة»، قد صوّرت ما يجري، وكأنَّه مؤامرة كونيَّة تستهدف

(١) محمد سلماوي. أجنحة الفراشة. ص ١٧٨. (٢) م. ن. ص ١٧٧.

(٣) م. ن. ص ١٧٦.

عقب. صدرت الصّحف وقد تصدّرتها صور المظاهرة الحاشدة عند دار القضاء العالي مبرزة خبر القبض لأوّل مرّة على الدّكتور أشرف الرّيني أستاذ الجامعة والنّاشط السّياسيّ الذي أصبح يجسّد آمال الجماهير في التّغيير»^(٣).

– الصّحف المعارضة في الرّواية:

بموازاة الصّحف الرّسميّة، كان هناك وسائط إعلام واتّصال وطنيّة غير حكوميّة، تحاول أن تتلمّس تطلّعات الرّأي العام بمهنيّة أعلى، أكثر اتّساعاً من الفضاء السّائد، إلّا أنّها بحسب «أشرف الرّيني» - بطل الرّواية، والمعارض السّياسيّ الأبرز فيها - لم تكن على المستوى المطلوب. جاء في الرّواية:

«صمت لحظات وهو يقرأ الحديث ثمّ صاح: «لقد حذفوا أهمّ جملة في الحديث، ويسمّون أنفسهم صحافة معارضة. إنّ لكلّ جريدة «أجندتها» الخاصّة ولا أحد يهتمّ بالصّالح العامّ»^(٤).

ومردّ ذلك إلى أنّ وسائل الإعلام في العالم العربيّ عمومًا، والقنوات الفضائيّة بوجه خاصّ، تعمل «تحت قيادة صاحب عمل يتمثّل إمّا في الحكومة أو في مالك

الصحافة أو ضعيفة»^(١). وهو ما لم تفعله السلطة المصرية ممّا أجاج الشارع، فعمّت المظاهرات البلاد، ممّا أدّى إلى إسقاط النّظام، فلو تعامل الإعلام بحنكة مع ما جرى لكان بالإمكان أن تؤوّل الأمور غير ما آلت إليه.

جاء في الرواية: «زادت هذه المعلومات الأمور اشتعالًا، ولم تكفّ الجماهير بالتزام المنازل بل نزلت إلى الشوارع في مظاهرات عمت جميع أنحاء القاهرة (...) وذلك بعد أن أحسّ النّاس بأنّه لا أمل في عدول الحزب عن وسائله البالية في عدم الاستجابة لمطالب الجماهير، وفي التنكيل بأيّ قوة سياسية معارضة»^(٢). فالشّعب لم يعد يثق بمركزيّة الإعلام تحت سلطة النّظام الحاكم، فطالب بالتّغيير الجذريّ لجملة من المفاهيم الخاطئة التي تأصّلت على مدار سنين طويلة من الاستبداد بأنواعه.

يمكن القول، إنّّه قد تمّ تسخير وسائل الإعلام التي يسيطر عليها النّظام وقواه السّياسيّة والاجتماعيّة المتحكّمة، من أجل الدّعاية للشّكل الديمقراطيّ الذي يطرحه هذا النّظام:

«وفي اليوم التّالي، انقلب البلد رأسًا على

(١) John alterman, new politics? From satellite television to theinternet in the arab word, policy paper. p.xii.

(٢) محمد سلاموي. أجنحة الفراشة. ص١٧٦. (٣) م. ن. ص١٣٨.

(٤) محمد سلاموي. أجنحة الفراشة. ص٢٦.

وحول الفساد، وإنّما البلاد كلّها، فالسلطة تُحكّم الإطباق على زمام جميع المؤسسات، لمنعها من ممارسة الديمقراطية، أو السماح لها بالتعبير بحريّة. يقول:

«لو كانت المشكلة هي الصحافة لهان الأمر، لكنّ الحقيقة أنّ البلد كلّها فاسدة. كلّ من فيها له أهدافه الخاصّة ولا أحد يهتمّ بالصّالح العامّ»^(٣).

نتبيّن ممّا سبق، أنّ الصّحف المصريّة في الرّواية، تخضع بشكل تامّ للسلطات الحاكمة، فتكتب ما يُملى عليها، ممّا جعلها على قدر غير عالٍ من المسؤوليّة تجاه الشعب المصريّ. ولم يكن وضع صحف المعارضة أفضل حالاً، فقد كانت تعمل وفق مصالحها الخاصّة، ضاربة بعرض الحائط المصلحة العامّة.

ثانياً: القنوات الفضائيّة (التلفاز) في رواية «أجنحة الفراشة»

- التّلفزيون:

التّلفزيون كلمة لاتينيّة «télévision» مركّبة من «télé» ويعني عن بُعد، و«vision» يعني الرّؤية، وبهذا فالتّلفزيون يعني الرّؤية عن بُعد.

يعرّف التّلفزيون اصطلاحاً بـ «وسيلة

ثريّ يرتبط في حالات كثيرة، بطريقة أو بأخرى، بالنّخبة الحاكمة أو الحكومة. وتلقّى أغلب نظم التلفزة في العالم العربي دعماً من حكومات، لأنّها تحتاج إلى قدر كبير من المال من جهة، ولأنّ الحكومات العربيّة شديدة الاهتمام بالإعلام من الجهة الأخرى»^(١).

فالصحف لم تحفّز المشاهدين على إبداء اهتمام أكبر لما تنشره، فهي لا تنقل الأحداث بمصداقيّة، بقدر ما تنقل وجهات نظر مالكيها، ممّا أدّى إلى نفور الجمهور المصريّ منها، وفقدان ثقته بها؛ فهذا هي «ضحى الكنانى» - بطلة الرّواية، وزوجة المسؤول في الحزب الحاكم-، ترفض قراءة أيّ نوع من أنواع صحف بلدها. جاء في الرّواية:

«نظر إليها وكأنّه ينتظر تعليقاً على كلامه. قالت: «أسفة. أنا لا أتابع صحف المعارضة». ابتسم وهو يقول: «أه بالطبع فأنت لا بدّ تقرأين صحف الحزب الحاكم فقط...» وقالت: «الحقيقة أنّي لا دخل لي بالسّياسة ولا بالأحزاب، ولا أقرأ أيّ صحف»^(٢).

من جهة أخرى، يرى سلماوي أنّ الصّحافة ليست الوحيدة المنغمسة في

(١) جليبر الأشقر. الشعب يريد: بحث جذريّ في الانتفاضة العربية؛ ترجمة عمر الشافعي. ص ١٤١.

(٢) محمد سلماوي. أجنحة الفراشة. ص ٢٦. (٣) م. ن. ص ٢٦.

الاتصال والإعلام، لأنّه يخاطب عددًا كبيرًا من الأفراد في نفس اللحظة، وهو وسيلة سمعية بصرية تعتمد أساسًا على الصورة والصوت»^(١). وإنّ وسيلة التلفزيون «تقدّم الحياة كمشهد مرئيّ أو عرض (spectacle) ... وهذا المشهد في الواقع يسلب الوجود الإنسانيّ من التجربة الحقيقيّة والمعنى»^(٢).

وهو «يحتلّ مكانةً هامّةً وفعالةً في حياة كلّ فرد، وذلك من أجل الإعلام، أو من أجل الترفيه الذي توفره هذه الوسيلة التي أصبحت تشكّل نافذة مفتوحة على عالم آخر، غير العالم المعاش في حياتنا اليوميّة»^(٣).

إذا، يُعدّ التلّفاز واحدًا من أهمّ الاختراعات التي باتت جزءًا أساسيًا في حياة الإنسان، حيث إنّّه ساعد على تقليل المسافات، وجعل الإنسان أكثر قدرة على معرفة ما يدور في العالم.

– القنوات الفضائية في الرواية.

يعدّ التلّفاز من أقوى وسائل الإعلام وأكثرها تأييدًا، إذ بواسطته يمكن نقل الصورة والصوت والحركة واللون إلى

المشاهدين. وفي رواية أجنحة الفراشة، نجد أنّ هذه الوسيلة قد أدّت دورًا، وإن كان خجولًا، في نشر ما يتعرّض له المتظاهرون من اعتداءات، فدور الفضائيات جاء «ليضاعف آلاف المرّات تأثيرات المواقع الاجتماعيّة، ولتبلغ مناطق كان من غير الممكن وصول هذه الأخيرة إليها (بسبب الفقر والجهل وتخلف البنى التحتيّة، وبسبب العمر أحيانًا)»^(٤)، فهي تجعل ديناميات تفاعل المجتمع وتواصله قائمًا على تبادل الأفكار والآراء، سواء أكانت على الصعيد السياسيّ، أم الاقتصاديّ، أم الوطنيّ. و«من المرجّح أن تصيغ وسائل الإعلام العربيّة ملامح نشوء نوع جديد من الهوية العربية خلال السنوات المقبلة. فالتكنولوجيا الجديدة تتيح للعرب عبر أنحاء المنطقة وفي جميع أرجاء العالم قراءة المعلومات ذاتها، ورؤيتها وسماعها في نفس التوقيت بدرجة غير مسبوقّة»^(٥). ورد في الرواية:

«أفردت القنوات الفضائية مساحات كبيرة لحوادث العنف التي وقعت، ولاعتداءات قوّات الأمن على المتظاهرين، ولتحرّش بعض هذه الأفراد والذين كانوا

(١) فضيل دليو. مقدّمة في وسائل الاتصال الجماهيرية. ص ١٤٣.

(٢) عبد الرحمن عزّي. «الإعلام والبعد الثقافي: من القيمي إلى المرئي». ص ١٠٦.

(٣) Walton Dominique. Eloge, du grand public: Une théorie critique de la television. p42.

(٤) الشّبكة العربيّة لدراسة الديمقراطيّة. الربيع العربيّ، ثورات الخلاص من الاستبداد. ص ٤٨٨.

(٥) جليبير الأشقر. الشعب يريد. ص ١٤٣.

يرتدون الملابس المدنية بالفتيات المشاركات في المظاهرة، ونشرت إحدى الصحف صورة متظاهر بملابسه الداخلية بعد أن جرّده هذه القوات من الملابس التي كان يرتديها»^(١).

إذا، إنّ القنوات الفضائية في الرواية، لم تُخَيَّب آمال الناس، فنقلت الاعتصامات والمظاهرات وآراء الشعب المصري وتطلّعاته.

ثالثاً: وسائل الإعلام الجديد (الإعلام الاجتماعي) في رواية «أجنحة الفراشة»
- الإعلام الجديد:

الإعلام الجديد هو نمط اتّصالي حديث، يختلف أو يتجاوز نمط الاتّصال التقليديّ البسيط، بين المرسل والمرسل إليه، وسمّي بالإعلام الاجتماعي، وهو «شبكات افتراضية تجمع بين مجموعة هائلة من الشبكات، وتقتضي الولوج للشبكة حيث يتفاعل مع الآخرين افتراضياً، فهي شبكات مفتوحة تتيح التّواصل في بيئة مجتمع افتراضيّ تجمعهم عدّة عوامل، ومن الجدير بالذكر أنّ معظم الشبكات هي عبارة عن مواقع ويب تقدّم مجموعة الخدمات للمشاركين، منها المحادثة الفورية، الرّسائل

الخاصّة، البريد الإلكترونيّ، الفيديو والتّلوين، مشاركة الملقّات والتّحميل والعديد من التّطبيقات الأخرى، ومن أشهر الشبكات عالمياً Facebook»^(٢).

أمّا أشكال وأهداف الشبكات الاجتماعية فمتنوّعة، «بعضها عامّ يهدف إلى التّواصل العامّ، وتكوين الصّدقات حول العالم، وبعضها الآخر يتمحور حول تكوين شبكات اجتماعية في نطاق محدود في مجال معيّن»^(٣).

مما سبق، يمكن القول إنّ الإعلام الاجتماعيّ هو مجموعة مواقع تتيح لأفراد يتشاركون الاهتمامات نفسها التّواصل في مجتمع افتراضيّ يجمعهم، فيبقون على اتّصال مع بعضهم البعض، ويمكن استغلال هذه الشبكات للعثور على أشياء ممتعة ومثيرة للاهتمام عبر الإنترنت، ومشاركتها مع الآخرين.

- وسائل الإعلام الجديد في الرواية.

لعبت وسائل الإعلام دوراً في تأليب الجماهير المشاركة في الثورة وهذا يعود لطبيعة هذه الوسائل، فثمة «قناعة لدى فريق من الخبراء والباحثين بأن وسائل الإعلام أداة أساسية في الانتقال

(١) محمّد سلماوي . أجنحة الفراشة . ص ١٣٨ .

(٢) عامر إبراهيم القندلجي . الإعلام والمعلومات والإنترنت . ص ٣٣٥ .

(٣) مصطفى السّيد . دليلك إلى شبكة الإنترنت . ص ٢٣٣ .

الديمقراطي والإصلاح السياسي بشكل عام^(١)، فقد دفعت القيود المفروضة على الإعلام القديم بالمواطنين في العالم العربي إلى البحث عن قنوات جديدة للتواصل والفرار إلى العالم الافتراضي، وفي بداية الربيع العربي استخدمت الحركات الاحتجاجية مواقع التواصل الاجتماعي للدعوة للاحتجاج والتظاهر في العالم الواقعي:

«ووفق حالة الطوارئ التي أعلنت فقد تم حظر إصدار الصحف إلا ما كان يتبع الحكومة، وفرضت الرقابة العسكرية على البرقيات الصحفية الصادرة من مصر، وأوقف إرسال بعض القنوات الفضائية التي تبث إرسالها من القاهرة، وانتقلت المعركة إلى الساحة الإلكترونية عبر الانترنت والتليفون المحمول»^(٢).

فكان لوسائل الاتصال الحديثة دور بارز في التصدي لتضييق الخناق الذي تفرضه السلطة على المتظاهرين، وهذا يبين مدى صعوبة لجم الأصوات المعارضة، التي بات باستطاعتها تنظيم تحركاتها بشكل سلس، وجمع أكبر عدد من المساندين لها، وذلك لأن «محاولات منع

انتشار الأطباق الفضائية باتت محكومة بالفشل»^(٣).

فيرى وائل غنيم، مطلق صفحات الفيس بوك على الشبكة العنكبوتية أنه «من الضروري عدم تضخيم دور الانترنت، وفي الوقت عينه، لا ينبغي التقليل من تأثيره. وكذلك يذكر بأن عام ٢٠١٠، شهد من الاعتصامات التي خرجت لأسباب اقتصادية، أكثر مما شهدته العقود الثلاثة الأخيرة. لكنه لا ينفي كذلك أنه لو جرت أحداث يوم ٢٥ كانون الثاني قبل عشرين عامًا، لكان مصير المتظاهرين السجن والنسيان، مُذكرًا بـ «ثورة العيش (الخبز)» التي وقعت في ١٩٧٧، والتي قمعها الرئيس الراحل أنور السادات بصورة عنيفة»^(٤)، فوسائل الاتصال الحديثة دورها في جمع شمل المتظاهرين على موقف واحد، وتناقل الأخبار والتعليمات:

«كانت وسيلة الاتصال بين مختلف التجمعات الشعبية التي لبّت نداء الدكتور الزيني للعصيان المدني هي الانترنت والتلفون المحمول، حيث عجزت الصحف والقنوات الفضائية عن متابعة التطورات التي بدأت تتلاحق بشكل غير مسبوق.

(١) محمد محسن العامري، عبد السلام محمد السعد. الإعلام والديمقراطية في الوطن العربي. ص ١٥٦.

(٢) محمد سلماوي. أجنحة الفراشة. ص ١٧٨ - ١٧٩. (٣) جليل الأشقر. الشعب يريد. ص ١٤٢.

(٤) الشبكة العربية لدراسة الديمقراطية. الربيع العربي: ثورات الخلاص من الاستبداد. ص ٤٨٦.

وهكذا بدأ بث الرسائل على التلفونات المحمولة وعبر العناوين الالكترونية والتي كانت تدعو كل من يرفض حزب القهر والاستبداد وحكومته الفاسدة أن يبقى في بيته ولا يذهب إلى عمله حتى تتم الاستجابة للمطالب الشعبية التي طرحتها قوى المعارضة^(١).

المسيلة للدموع، وأساليب التصدي لهرات رجال الأمن المركزي، وحيل الفرار من ضباط مكافحة الشغب وغيرها. وانتشرت الدعوات إلى التظاهر عبر ملايين الرسائل القصيرة الخليوي، مع أعداد مماثلة من النقرات على زر «شارك» («شير» share) في صفحات «فايسبوك»^(٢).

ومن الملاحظ أنّ الكاتب «محمد سلماوي»، قد وظّف وسائل الإعلام الحديثة في روايته كعامل أساسي لنجاح الثورة المصرية، فقد بدت شخصياته المعارضة لأنظمة الحكم واضحة الأهداف ومنظمة، تعرف تحركات خصمها وآلياته المتبعة لفضّ المحتجين، لذا لجأت إلى وسائل الاتصال الحديثة للتواصل وحشد أكبر عدد ممكن لمواجهةهم، ومنعهم من قمع مطالبهم كما كان يحصل سابقاً، فكانت هذه الوسائل صلة الوصل بين الثوار والساحات، ولها دور في التعبئة العامة للشعب، وإرسال الرسائل القصيرة، وإيصال صوتهم إلى الرأي العام العالمي، وليس المحلي فحسب:

وهذا ما ظهر جلياً، أيضاً، على لسان «مشيرة»، حينما كانت توجه بعض الإرشادات لـ «ضحى الكنانى» التي قرّرت أخيراً الانضمام لصفوف المعارضة:

«إذنا، عليك اتّباع بعض التعليمات... ثم خذي عندك هذا الرّقم. سجّليه فوراً على تليفونك المحمول إذا وقع لك أيّ مكروه اتّصلي به فوراً». «رقم من هذا؟» سألت ضحى. ردت مشيرة: «إنّها غرفة عمليات خاصة أقامتها المنظمات المدنية المطالبة بالتغيير، ويعمل بها مجموعة من الشباب المتطوعين والذين يعرفون ماذا يفعلون وبمن يتصلون في حالة الطوارئ... الشّيء الثّاني: سجّلي أيضاً رسالة تقول: «تمّ القبض على...» وخرّنيها عندك، وفي حالة أيّ اعتقال يمكن إضافة اسم من ألقى القبض عليه إن كنت تعرفينه، أو يمكنك أن تضعي أوصافه أو عدد من ألقى القبض عليهم».

«وعلى صفحات «فايسبوك» (وكذلك عبر تغريدات موقع تويتر)، جرى تناقل المعلومات عن مداخل ساحات التّجمّع ومخارجها، وسبل الوقاية من القنابل

(١) محمد سلماوي. أجنحة الفراشة. ص ١٧٤.

(٢) الشبكة العربية لدراسة الديمقراطية. الربيع العربي: ثورات الخلاص من الاستبداد. ص ٤٧٥.

«ولمَنْ أُرْسِلْهَا؟»... قالت مشيرة: «لغرفة العمليات أيضًا، وهناك مَنْ سيتولّى إبلاغها لبقية الناس، كما أنّ هناك مَنْ سينقلونها إلى منظمات حقوق الإنسان وإلى أجهزة الإعلام سواء المحليّة أو الأجنبيّة»^(١).

إنّ تطوّر تكنولوجيا الاتّصال والانترنت، وانتشار الإعلام الجديد وشبكات التّواصل الاجتماعيّ قد حدّت قدرة الأنظمة العربيّة على احتواء آثار عولمة الإعلام وعالميّته، ونجح الشّباب العربيّ في الدّعوة للتّورة والحشد الافتراضيّ، والانتقال به إلى أرض الواقع الفعليّ؛ وهنا برز دور المواطن الإعلاميّ في التّأثير بأنظمة الحكم العربيّة. خاصّة أنّ التّورة الإعلامية الجديدة قد أثّرت على مسار المعرفة السياسية لدى المواطنين، وذلك عن طريق «تسهيل إيصال المعلومات إلى الجمهور دون تحكم الحكام المستبدين أو رجال المال المحتكرين لملكية وسائل الإعلام وتوفير المعلومات الصحيحة هو أولى خطوات التّغيير، وقد كان احتكار أهل السلطة والثروة للمعلومات في الماضي من أهمّ الوسائل التي يحتمون بها»^(٢).

هذه الوسائل قوّة كامنة خرجت عن

سيطرة الحكومات، وآليّة ساهمة في صنع التّغيير في الخارطة السّياسيّة، من خلال قدرتها على حشد الجماهير التي أسّست دولة افتراضيّة على الإنترنت، وكانت هذه الدّولة فضاء مناسبًا لمناقشة الأوضاع بين الجميع والتّنسيق بينهم للتّحرّك في الوقت المناسب للاحتجاج، فوسائل الإعلام والاتّصال الحديثة كفايسبوك وتويتير ويوتيوب، أدّت دورًا رئيسًا في تمّتين الوحدة المجتمعيّة، «إذ أمكنها أن تصنع في المجتمع مساحة شبكيّة واسعة، للتّواصل والتّفاعل بين الأفراد والجماعات حول برنامج سياسيّ موحد، وخصوصًا حول فكرة التّغيير»^(٣). يقول سلماوي:

«بدأت الصّحف الأجنبيّة تقول إنّ «الكاسيت» هو الذي أسقط حكم الشّاه في إيران في السّبعينيّات الماضية ويبدو أنّ التليفون المحمول هو الذي سيُسقط الآن الحزب الحاكم في مصر»^(٤).

كما أنّ هذا ما دفع أحدهم للقول ساخرًا: «إنّ الرّئيس «مبارك» التقى بسلفيه عبد النّاصر والسّادات في العالم الآخر، فذكر كلّ منهم سبب موته: «مرض القلب»

(١) محمّد سلماوي. أجنحة الفراشة. ص ١٤٠ - ١٤١.

(٢) محمد محسن العامري، عبد السلام محمد السّعد. الإعلام والديمقراطيّة في الوطن العربي. ص ١٧٦.

(٣) إبراهيم المدهون وآخرون. ثورات قلقة: مقاربات سوسيو استراتيجية للحراك العربي. ص ٧٨.

(٤) محمّد سلماوي. أجنحة الفراشة. ص ١٧٩.

الاجتماعي في رواية «أجنحة الفراشة»، قد أدت دوراً حاسماً في إنجاح ثورة الشباب المصري، فمع تضيق الخناق على القنوات الفضائية، استطاع أن ينجح في نقل المعاناة والظلم الذي يعيشه المجتمع المصري، واستطاع أن يكون جسراً بين مختلف المناطق.

الخاتمة

ختاماً، إنَّ محمدَ سلماوي في روايته قرأ الواقع والأحداث والتاريخ جيداً، فاستطاع التنبؤ بثورة هزت أركان الحكم المصري، ثورة ٢٥ يناير، من خلال روايته أجنحة الفراشة، وقد سلط الضوء فيها على الواقع الإعلامي في مصر لما له من أهمية على الصعيدين المحلي والعالمي.

صوّر سلماوي سعي الحزب الحاكم في البلاد، من خلال الصحف، لكسب الرأي العام، محاولاً الدفاع عن توجهاته السياسية وتحقيق أهدافه ومصالحه، فعمد إلى طمس الحقائق، وتزوير الوقائع، وسعى إلى قمع الأصوات التي لا تتماشى مع توجهاته؛ كما ظهرت الصحف المعارضة، ولكنها لم تكن على المستوى المطلوب، إذ لا تتمتع بحرية مطلقة من جهة، وتعمل وفق مصالحتها الخاصة من جهة أخرى.

بالنسبة إلى عبد الناصر، و«الاعتقال» بالنسبة إلى السادات و«الفييس بوك» بالنسبة إلى مبارك^(١). فشبكة الفييس بوك هي مظهر جديد لصياغة هوية الذات والتعبير عنها، فهي من هذا المنظور من التجليات الزاهنة للظاهرة الفردية في حدّها الأقصى الذي هو تحكّم الفرد المطلق في صورته وقيمة رغباته خارج سيطرة المؤسسة الأسرية والاجتماعية. «فمن خلال النافذة الافتراضية ينقذ الجيل الجديد إلى العوالم المحرّمة والممنوعة ويربط الصّلات بحرية وجرأة مع الآخر، دون أي قيود، حتّى في المجتمعات الأكثر محافظة وانغلاقاً»^(٢).

وقد واجهت النظم السياسية القائمة على تقييد المعلومات المتاحة للأفراد صعوبات جمّة، في ظلّ تداول كمّيات متزايدة من المعلومات بسرعات أكبر وتكلفة أقلّ، ممّا ساعد النّاشطين على نشر ما يتعرّض له المتظاهرون من ظلم وتعذيب وإهانة، وإبراز كلّ ذلك للرأي العام المحلي والدولي: «وعبر صور الإنترنت والتلفون كان يتمّ تداول وقائع التعذيب التي كان يتعرّض لها بعض المعتقلين»^(٣).

نتبيّن ممّا سبق، أنّ شبكات التّواصل

(١) السيد ولد أباه. الثورات العربية الجديدة المسار والمصير يوميات من مشهد متواصل. ص ٤٣.

(٢) م. ن. ص ٤١. (٣) محمد سلماوي. أجنحة الفراشة، ص ١٧٩.

- صابات (خليل). وسائل الاتصال: نشأتها وتطورها. ط ١. القاهرة: مكتبة إنجلو المصرية، ١٩٨٧م.
- العامري (محمد محسن)، السعد (عبد السلام محمد). الإعلام والديمقراطية في الوطن العربي. لا ط. القاهرة: دار العربي، لا تا.
- عبد الحميد (حسين)، رشوان (أحمد). العلاقات العامة والإعلام من منظور علم الاجتماع. لا ط. الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ٢٠٠٣م.
- عبد الرحمن (عبد الله محمود). سيولوجيا الاتصال والإعلام: النشأة التطورية والاتجاهات الحديثة والدراسات الميدانية. لا ط. القاهرة: دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٥م.
- عزّي (عبد الرحمن). «الإعلام والبعد الثقافي، من القيمي إلى المرئي». المجلة الجزائرية للاتصال، العدد ١٣، ١٩٩٦م.
- القندلجي (عامر إبراهيم). الإعلام والمعلومات والإنترنت. ط ١. الأردن: دار اليازودي، ٢٠١٣م.
- مالكوهان (مارشال). كيف تفهم وسائل الاتصال؟؛ ترجمة خليل صابات وآخرون. لا ط. القاهرة: دار النهضة العربية- مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٧٥م.
- المدهون (إبراهيم)، وآخرون. ثورات قلقية: مقاربات سوسيو استراتيجية للحراك العربي. ط ١. بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي- سلسلة الدراسات الحضارية، ٢٠١٢م.
- المسلمي (إبراهيم). التثريعات الإعلامية. لا ط. القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠٤م.
- John alterman, new politics? From satellite television to theinternet in the arab word, policy paper (Washington, dc; the Washington institute for near east policy, 1998).
- Walton Dominique. Eloge, du grand public: Une théorie critique de la television. Ed, Flamarion, France, 1990.

ومع انطلاق شرارة الربيع العربي، لم تستطع السلطات الإمساك بزمام الأمور من خلال الإعلام، فقد نقلت بعض الفضائيات ما جرى من اعتصامات ومظاهرات وتنكيل بحق المواطنين، ولقد استفاد الشباب من الإعلام الجديد وشبكات التواصل الاجتماعي التي كانت صلة الوصل بينهم، فنظّموا توجهاتهم، واستطاعوا إظهار مطالبهم للعالم أجمع.

أخيراً يمكننا القول، الإعلام الجديد يعدّ بحقّ السبب الرئيس في نجاح الثورة.

المصادر والمراجع

- سلماوي (محمد). أجنحة الفراشة.
- الأشقر (جليبر). الشعب يريد: بحث جذري في الانتفاضة العربية؛ ترجمة عمر الشافعي. ط ١. بيروت: دار الساقي، ٢٠١٣م.
- الجبوري (مصلح). جذور الاستبداد والربيع العربي. ط ١. الأردن: الأكاديميون للنشر والتوزيع، ٢٠١٤م.
- دليو (فضيل). مقدّمة في وسائل الاتصال الجماهيرية. لا ط. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٨م.
- السبيد (مصطفى). دليلك إلى شبكة الإنترنت. لا ط. القاهرة: دار الكتب العالمية، ٢٠٠٦م.
- السبيد ولد أباه (عبد الله). الثورات العربية الجديدة المسار والمصير يوميات من مشهد متواصل. بيروت: جداول للنشر والتوزيع، ٢٠١١م.
- الشبّكة العربية لدراسة الديمقراطية. الربيع العربي: ثورات الخلاص من الاستبداد. ط ١. بيروت: دار شرق الكتاب، ٢٠١٣م.

tion and their first interest. This modesty creates a climate of peace and calmness in the organization, which leads to high performance and to move forward. "A leader's display of humility has positive motivational effects on individual employees" (Owens et al., 2013).

An effective humble leader is the one who cares about his/her employees' needs and listens to their opinions and suggestions. "Humility-based leadership removes barriers and generates personal and organizational trust in followers" (Argandona, 2015).

Conclusion

As a result of the study that describes the characteristics of an effective leader and its challenging role, we can conclude that a leader's presence in the organization is necessary. "Effective leadership is the main factor that brings success to organization; if there is no leadership there will be no chance at all" (Atkinson, 2015). The leader must have knowledge and must be able to communicate it with others. Many features of the leaders refer to the ethics of him/her. An effective leader is the one who has the power to create leaders from every individual of his/her team and not followers.

References

- Argandona, A. (2015). Humility in Management. *Journal of Business Ethics*.
- Atkinson, P., & Mackenzie, R. (2015). Without leadership, there is no change. *Management services*, 59(2), 42-47
- Blaskie, C (1995) "Leadership and integrity". *Optimum* 26 (2): 37.
- Deborah, J., (2006), "Leadership Communication: A Communication Approach for Senior-Level Managers",
- Ganta, V. C. and Manukonda, J. K. (2014). *Leadership During Change And Uncertainty In*
- Hosmer, L.T. (2010). *The ethics of management*. McGraw-Hill, New York, NY.
- Igbaekemen, G. O., 2014. Impact of Leadership Style on Organization Performance: a strategic Literature Review, *Public Policy and Administration Research*, 4(9), pp.126-136
- Kantabutra, S., & Avery, G. C., (2002). "Proposed model for investigating relationships between vision components and business unit performance." *Journal of management and organization*, Vol. 8, Iss. 2, pp. 22-39.
- Melnyk, B.M. and Davidson, S. (2009). "Creating a culture of innovation in nursing education through shared vision, leadership, interdisciplinary partnerships, and positive deviance". *Nursing Administration Quarterly*, Vol. 33, Issue 4, pp. 288-295, doi: 10.1097/NAQ.0b013e3181b9dcf8
- Organizations. *International Journal of Organizational Behaviour & Management Perspectives*, 3(3), 1183.
- Owens, B.P., Johnson, M.D., & Mitchell, T.R. (2013). *Expressed Humility in Organizations: Implications for Performance, Teams and Leadership*.
- Pearce, J. (2004). *Strategic management: formulation, implementation, and control*. Irwin/McGraw-Hill. New York, NY.
- Yukl, G (2013). *Leadership in Organizations* (8th ed.). Boston: Prentice Hall.

order to stay competitive in the market and ensure continued success. There are two sources for innovation: internal and external actions. Internally, the leader should look for innovators and turn their energy into actions that cultivate results. Leaders must create a safe and comfortable environment in the organization and a good listener to empower employees for new ideas, while externally is by studying the weak and strong points of their competitors, and analyzing the needs of their clients in both quality and product.

K - Clear vision

An effective leader should have a futuristic vision and a strategy to perform it into reality. Kantabutra and Avery (2002) suggest that vision consists of “brevity, clarity, abstractness, challenge, future orientation, stability desirability, plus vision content relating to employee and customer.” It is a big challenge and responsibility to lead the company toward the safe side, where leaders must focus at all external and internal issues related to the organization. “Sharing visions empowers others (Pearce, 2004), Encourage positive deviance (Melnik & Davidson, 2009) and include multiple moral assumptions about the leader’s responsibility to stakeholders” (Hosmer, 2010). In the absence of a clear vision, communication may decrease individual and organizational performance.

L - Resilience

One of the most important qualities of a leader is resilience. True leader are distinguished not through their behavior during the good times but rather by how they display emotional strength, courage and professionalism during bad times. It is impossible to demonstrate resilience unless the leader has gone through these times. An effective leader should have the capacity to face adversity, setbacks and then recover from them. Resilience is the “successful adaption to life tasks in the face of social disadvantages or highly adverse conditions (Garmezy, 1993; Fin 1997).” It is the responsibility of the leader to lead through good and bad times, where the company is focusing and watching every single step and act of the leader. At this moment, the leaders’ role is to prove intelligence, knowledge and experience to get out from any bad circumstance.

M - Positive behaviors

An effective leader should always be positive in mind and behavior. A happy leader can be a powerful tool to motivate employees to work hard in order to achieve the target. “A Leader’s positive effect has been shown to increase group performance (Visser, Knippenberg, & Van Kleef, Wisse, 2012).” Regardless of any difficult circumstance, the company is going through, an effective leader should think positively. The leader must not show the fear and confusion in his/her behavior, because this will also lead to tension and fear in the employees, which makes them unfocussed at work and gradually makes them lose confidence in themselves. Robert Louis Stevenson stated, “Keep your fears to yourself, but share your inspiration with others.”

N - Humility

Humility is a great character of a leader’s personality that makes him/her a respectable and a trustworthy person. Modest leaders place the needs of employees above the organiza-

son and make decisions that positively affect themselves, their employees, their customers and their organizations. Apart from having a futuristic vision, knowledge and experience, a leader should have the ability to take the right decision at the right time.

Nelson Mandela stated, “It’s better to lead from behind and to put others in the front, especially where you celebrate victory when nice thing occur. You take the front line when there is danger. Then people will appreciate your leadership”. The strength of an effective leader is to not blame their employees of an unexpected result of a taken decision, but taking the whole responsibility. While at the celebrating moment of success, let the staff feel of this victory and that they had been the reason of it.

d - Inspiration

Inspirational leaders must have the following qualities such as motivation, competence and honesty.

An effective leader should have a charismatic style, which is an additional characteristic of having the power to influence others. Inspirational leaders play a crucial role in inspiring and motivating their teams for achieving superior performance benchmarks through continuous learning and improvement. Inspiring a team is by:

- Caring as much about employees as the business, which is an essential part and make them more comfortable.
- Pushing for excellence.
- Valuing the input of everyone on the team.
- Developing others.
- Leading with both “head and heart”.

e - Good Communication

Towler (2003) stated, “Communication is the essential key to great leadership”. There are many secrets for being a good communicator, which leads to be an effective leader. Leaders must encourage and empower teams because their words push them and stay in their minds. “Communication plays a significant role in building trust by creating an environment that empowers leaders to lead efficiently, motivating employees to work and achieve the ultimate goals” (Jodi Macpherson). Their communication must be simplified and saying directly what they mean. Leaders should be less speakers and more listener to employee needs, opinions and ideas. They must be experts in capturing the reactions of their teams because this is the only way they can get the feedback of the information said. They must be strong, confident and honest, in each word they say. They should identify and illustrate through stories that give life to their vision, goal or objective. Telling a good story creates trust, captures the heart and mind and serves as a reminder of the vision. An effective leader must ensure that the message is well received and understood by their teams. It is “effective communication which makes leaders lead successfully” (Frese. et.al.2003, Deborah J. Barrett, 2006).

j - Improvement and Innovation

Due to the rapid changing world today, it is crucial for organizations to be innovative in

be done and how to do it, and the process of facilitating individual and collective efforts to accomplish shared objectives” (Yukel, 2013).

An effective leader is the one who cares and stands up with employees at any circumstance, the one who looks to the growth and development of others and the one who has the power to encourage the least employee of his/her role. Harvey S. Firestone said, “The growth and development of people is the highest calling of leadership.” The role and strength of effective leadership is to find the safe strategy to get out of trouble, unexpected result and economic crisis. Leadership is not an individual decision, it is a cooperative effort of listening, sharing ideas and opinions, formulating new effective strategies for the benefit of the institution.

Leader’s character

Effective leadership is not about the title or the position, but it is more deeply related to the ethics, character, knowledge, and experience of the leader, which are gained throughout the leader’s life.

a - Honesty, Integrity and Trust

Honesty and integrity are two essential features of an effective leader. Each company has goals and plans to accomplish. If leaders are not honest, firstly toward themselves, they must not expect followers to be honest and follow them because they lack these qualities and that will inevitably lead to failure in achieving goals. Honesty and integrity refer to the ethics of a person who has been raised up in the house or environment where they became a natural reality in their life. “Trust is an essential issue in leadership for leaders, as gaining the trust of group members or employee could help to improve the overall performance and commitment of the group members or employee (Lee et al., 2010).”

Without integrity, no real success is possible. The origin of the word integrity is a great place to start the conversations in the context of leadership. It is a belief and value of a person’s character. To Blaskie, integrity simply “implies a consisting or a coherence between one’s personal beliefs and behavior and is the result of a coherence of values, aims and behaviors.”

b - Confidence

Self-confidence is an essential part of leadership. Confident leaders provide security and stability for their teams, and ensure that others follow their commands. Self-confidence is a key to help leaders in persevering and insisting on achieving the target. Self-confidence has a positive impact on a leader’s ability to manage conflict that will positively affected employees’ performance. In addition, self-confidence is necessary for leaders to take risks and accomplish high goals. Francisco Dao said, “Self confidence is the fundamental basis from which leadership grows.” The more leaders believe in themselves, the more they will be able to manage any situation.

c - Decision making capabilities

Taking a decision is the most important and difficult issue for a leader. Any decision is related to emotion or reason. Great leaders understand how to balance emotion with rea-

Characteristics of an effective leader

Ziad Chakra

Abstract

The purpose of this article is to show the characteristics of an effective leader and how can make change in the organization to improve and be innovative in the current business environment. An effective leader is the one who can create a positive ambiance in the organization and especially between employees. Trust, clear vision, good communication and inspiration are some features of a distinguished leader that the study is going to focus on.

Key words: Leadership, Effective leadership, leaders' character.

Introduction

Due to the rapid economic environmental growth that was facilitated by the internet, communication between countries around the world became easier, causing competition in the market that is increasing with each passing year. Therefore, organizations need to sustain their business afloat in the huge environment of competition where they need to offer better product qualities at a lower cost for their clients. In addition, they need to have a clear vision and a strategy to work on. These needs cannot be done without a leader.

Numerous studies have been carried out to define leadership. John C Maxwell defines a leader as "the one who knows the way, goes the way, and shows the way." Ig Baekemen (2014) defines leadership as "Simply the act of influencing people that they will strive willingly towards the goals achievement." Therefore, an effective leader is the one who has the potentials to take charge and the ability to influence employees by encouraging them to accomplish the main objective. A leader is the person who takes the right decision at any situation in the organization. An effective leader should be highly educated, and very articulated, and must have the knowledge and experience in managing, empowering and organizing a teamwork. As David R. Gergen said, "A leader's role is to raise people's aspirations for what they can become and to release their energies so they will try to get there". An effective leader is the one who not only has a clear vision but also who shares this vision with employees to translate it into reality.

Effective leadership

"Leadership is a kind of power where one person has the ability to influence or change the values, beliefs, behaviors and attitudes of another person." (Ganta, and Manukonda, 2014). If the leader is not an expert realistic communicator, he/she cannot convince or change the behaviors and attitudes of any person.

"Leadership is the process of influencing others to understand and agree what needs to

Miller, A. (2019). Writers for Peace. Pen International. <http://www.pen-international.org/who-we-are/writers-for-peace/>. Retrieved Nov. 8, 2019.

Munro, J. (2016). Jawdat R. Haydar: The Voice from Baalbek. Beirut: Librairie Antoine.

Said, E.(2002).The Public Role of Writers and Intellectuals".The Nation.

<http://www.beirut.com/l/28928>. Retrieved Oct. 25, 2019.

The Guardian (nd).White Masks by Elias Khoury- review.

<https://www.the.com/books/2013/mar/22/white-masks-elias-khoury-review>. Retrieved Nov. 9, 2019.

Uppsala Conflict Data Program UCDP (2018). Department of Peace and conflict Research. <https://ucdp.uu.se>. Retrieved Oct. 22, 2019.

www.jstor.org/stable/23607874. Retrieved Dec. 15, 2019.

Burt, S., Fried, D., Warn, E. & Jackson, M. (2006). "Does Poetry Have a Social Function?"

<https://www.poetryfoundation.org/poetrymagazine/articles/detail/68755>. Retrieved Oct. 25, 2019.

Campbell, D. Why Art Is Just As Important As Science. <http://www.dugcampbell.com/why-art-is-as-important-as-science/>. Retrieved Nov. 12, 2019.

Carlsen, K. S. (2016). "Literature is just as important as science", in The Right to Art and Culture 2013-2016 Maria Bierbaum Oehlenschläger (Ed). Centre for Culture and Development (CKU). https://issuu.com/cku-centerforkulturogudvikling/docs/cku_final_report_web. Retrieved Nov. 2, 2019.

Cultural Expression (2007). World and its People. New York: Marshall Cavendish Corporation.

Dalal, M. (2013). Five Love Quotes We Adore from Lebanese Writers <http://www.beirut.com/l/28928>. Retrieved Nov. 8, 2019.

El Chidiac, E. (2008). "Gibran Kahlil Gibran & William Blake: Poets of Peace and Redemption". lebanonism.com. Retrieved Nov. 12, 2019.

Four Lebanese Writers You Should Know. Culture Trip. <https://theculturetrip.com/middle-east/lebanon/articles/four-lebanese-writers/>. Retrieved Nov. 1, 2019.

Guéhenno, J.M. (2016). 10 Conflicts to Watch in (2016). <http://foreignpolicy.com/2016/01/03/10-conflicts-to-watch-in-2016/>. Retrieved Nov. 10, 2019.

Hartlep, M. (2014). The world's 10 worst conflicts (2016). Heidelberg Institute for International Conflict Research (HIK). Deutsche Wellw. <http://www.dw.com/en/the-worlds-10-worst-conflicts/g-17454987>. Retrieved Nov. 2, 2019.

Haugbolle S. (2010). War and Memory in Lebanon -p. 198.

<https://books.google.com/books?isbn=0521199026>. Retrieved Nov. 11, 2019.

Henry, P. & Middleton-Kaplan, R. (2010). Using Literature to Teach Peace *Peace Research*, 42, (1/2), pp. 142-166. Canadian Mennonite University <https://www.jstor.org/stable/23607881>. Retrieved Dec. 15, 2019.

Kozah, M. (2016). Jawdat Haydar's Poetic Legacy (ed). Newcastle upon Tyne: Cambridge Scholars Publishing.

Little, W. (2012). Society and Modern Life- Chapter 4. Introduction to Sociology. Creative Commons Attribution 4.0 International License. Houston, Texas: **OpenStax College**.

Maalouf, A. (2014). PEN Interview. <http://www.pen-international.org/newsitems/in-conversation-with-the-renowned-novelist-amin-maalouf/> Retrieved Nov. 9, 2019.

McGuire, M. (2014). When the war is over, literature can help us make sense of it all. The Conversation. <http://theconversation.com/when-the-war-is-over-literature-can-help-us-make-sense-of-it-all-32424>. Retrieved Nov. 1, 2019.

series of interviews looking into the brutal and senseless murder of a Beirut citizen (The Guardian,nd).

For some, the work may seem to be a collection of interconnected short stories put together into the shape of “a rather unsatisfying novel” but Khoury seems to aim for a textual representation of a city torn apart by war: “the familiar made strange, with all the accompanying confusion this entails”. (The Guardian, nd).

There is no doubt that the above mentioned Lebanese writers- among many others- have written their master pieces after experiencing social turmoil in their countries or exile. Gibran, Maalouf, Haydar, Najjar and Khoury were influenced by the unstable situation and insecure environment in Lebanon and the Middle East, and through their writings aimed to correct any disequilibrium and injustices in their societies as well as worldwide.

Conclusion

Could a work of fiction constitute a truth commission in its own right? The question raised by McGuire (2014) in his article entitled “**When the war is over, literature can help us make sense of it all**” can now be answered. And the answer is: yes. Literary works can awaken the people’s awareness about their nations- the dangers as well as the solutions. Writers have the potential and the duty to reflect social issues in their writings in an attempt to promote peace in their communities as well as the world. The Writers for Peace Committee was created in 1984 to bring writers together to exchange ideas. Writers in the 1980s and 1990s told their stories knowing that their voices would be heard. Committee members meet every year in Slovenia where PEN writers from around the world discuss issues of conflict, peace and freedom of expression, and create a space for dialogue between writers from all parts of the world - especially from regions in conflict (Miller, 2019). Such committees and meetings are very much needed, especially in this era of advancement in science and technology. We need to put all efforts to promote writing and discovering potential writers in our societies. Astonishing things happen when science and art unite. As Campbell(nd) wrote, science makes the world easier to live in but it’s art that makes it worth living in. This can start in our schools and in making parents aware of the importance of developing their children’s writing skills to help in finding peace in the community.

Haydarmade great efforts to promote literature as a creative force in Lebanon as he believed that poetry was the most powerful medium of expression; it captures the fullness of both material and spiritual human experience in a way that no other medium could. He strongly believed “in the comprehensive power of poetry to instruct and inspire (Munro, xvii in Kozah, 2016).

Mikhail Naimy wrote: “Aye, fight! But not your neighbor. Fight rather all the things that cause you and your neighbor to fight.”

References

Adolf, A (2010). What Does Peace Literature Do? An Introduction to the Genre and its Criticism. *Peace Research*, 42, (1/2). pp. 9-21 Canadian Mennonite University. <https://>

lived through the big changes in the Middle East: the fall of the Ottoman Empire, the British and French occupation of the Arab countries, and the rise of Independent Lebanon. Haydar also had a bitter experience in Lebanon's civil war in which he witnessed death, destruction and severe dislocation. However, he stood for the careless disregard of his beliefs through his writings (Munro, 2016).

Countrymen enough destruction, awake

And wash out the sand deployed in your eyes

Haydar wrote about love as necessary for the proper functioning of the universe. He was called him 'a messenger of peace' who believed that wars do end, civilisations come and go, and peace is eventually restored (Munro, 2016). Haydar refused to give up into despair; he could see beyond ugly prevailing chaos. He showed glimpses of optimism; he wrote about his faith in the superseding significance of love for the welfare of nations as well as the universe (Munro, 2016).

Withal out from flames we shall rise again,

With our flags of love and liberty unfurled

Haydar's writings refuse to surrender to despair. He expressed his belief in the need for mankind to raise above its instincts, anger and folly and it will surely come to its senses (Munro, 2016). "Peace should be mankind's collective goal; love informed by reason should be its main aim; and above all, we should be guided by God" (Munro, 2016, p. 184). He was delighted that his poetry was considered universal and not limited to a specific time and place (Khairallah in Kozah, 2016).

Among contemporary Lebanese writers are Alexandre Najjar and Elias Khoury. They both lived in a society in which its people were fighting against each other. Najjar was born in Beirut (1967) and went to university in Paris. He is a trained lawyer but is an award-winning novelist, a columnist, and literary critic. He is the author of more than 30 novels translated into 12 languages. Najjar wrote poetry, fiction, as well as the biography of Khalil Gibran and a book about the Arab Spring. He wrote about his touching childhood memories of growing up during the Lebanese War and its effect on his character). Najjar in 2001, along with other journalists, argued that 'memory of the war had been swept under the carpet and must be brought out in open daylight for the Lebanese to move forward and restore the human and social links between individuals belonging to different communities (Haugbolle, 2010). Najjar used narrative elements from Lebanese folklore to comment on the universality of war and the suffering it causes, such as in his novel *The School of War* written in 2006 (*Four Lebanese Writers You Should Know*). Boyd reviewed the novel as "a marvelously affecting memoir of the war in Lebanon: perfectly pitched and intensely evocative, and all the more powerful for being seen through the eyes of a child" (*The School of War*).

Khoury's (1948) work is like Najjar's semi-autobiographical accounts of growing up in Beirut during the civil war. A good example is *White Masks* which was translated into English in 1981. It is set during the early years of the Lebanese civil war and assembled from a

kind. Gibran viewed himself as a poet who had a message to deliver, and he took his mission very seriously. He believed that the poet was a prophet. It was his responsibility to lead the people back to a world of higher innocence and Divine truth through imagination (El Chidiac, 2008).

Another prominent Lebanese writer is **Amin Maalouf** (1949-) who was greatly affected by the civil war which started in Lebanon 1975; he had to leave Beirut for Paris after he had worked as director of the daily newspaper *An-Nahar*. His writings are influenced by the history and suffering of his native country, as well as his experience of exile. His literary work, written in French, is today translated into more than 40 languages. Many of Maalouf's novels are set in historical periods of interest for the contemporary Middle East. For example, in *Gardens of Light* he returns to third century Mesopotamia and depicts the instability of the Middle East as it was fought over by Romans, Persians, Christians, Jews and Zoroastrians; in doing so he mirrors the situation of modern day Lebanon (Four Lebanese Writers You Should Know).

Maalouf (2014) described himself as a writer, an observer trying to understand and interpret the world; his writing doesn't come out of life experience. Yet he did not believe that the observer's role is the natural one for most novelists; it is based on his background and temperament. There are all kinds of writers. Writers should not worry about the content of their life, but should be concerned with what they can write and must write. Important works of art and literature come out of tragedies. Maalouf(2014) wrote that when a nation is on the edge, there will be an a creative drive of great force to accompany it.

Maalouf wrote about human identity raising awareness of other cultures, and of the importance of having a 'wider' identity.

- *Never hesitate to go for away, beyond all seas, all frontiers, all countries, all beliefs.*
- *What makes me myself rather than anyone else is the very fact that I am poised between two countries, two or three languages, and several cultural traditions. It is precisely this that defines my identity. Would I exist more authentically if I cut off a part of myself.*
- *I am the son of the road, my country is a caravan and my life is the most unexpected of voyages. I belong to earth and to the god and it is to them that I will one day soon return.*
- *We are not just visitors on this planet, it belongs fo us just as we belong to her, its past is ours so is future.*

Maalouf in these quotations talked about the importance of going beyond one's self, country and culture to construct a wider identity that encompasses other nations. And here starts the path of peace- realizing there are other beings that I believe in and respect their existence.

JawdatHaydar is also a prominent poet from Baalbek (1905-2006), often grouped with the *Mahjar poets* but with a more positive experience as *Munro* wrote in *Kozah*(2016). He

On a more practical level, Henry and Middleton-Kaplan (2010) presented their experience in teaching the literature of peace and nonviolence at college. The aim was to implement education to awaken students from apathy and urge them toward social action. Some students responded first with a socialized skepticism or even dismissal of nonviolent peace-makers, while others welcomed the opportunity to survey what is for them uncharted territory. The researchers reported a relation between peace education and engaging in active work to promote peace and concluded that peace education teaches alternatives to societal violence. Henry and Middleton-Kaplan (2010) recommended employing a pedagogy based on the elements of peace-building: respectful dialogue, recognition of a common ethos, and interracial and interfaith cooperation. The students would be well-equipped to put these principles into practice in their own lives as well as others'.

Lebanese writers on peace

Lebanon has had such a disputed national identity more than any other Arab country. Lebanon is the home of an active literary heritage because of conflict, different religions and cultures, and a rich ethnic mix are art (Cultural Expression, 2007). Lebanon suffered from a civil war in 1975 which was the climax of a complex political, ethnic and religious history. Since then, Lebanon has been suffering from various problems such as economic, social and educational. The wounds of this war and the broken sense of national identity created a national literature which often explores the displacement of the individual self and the crack of memory (Cultural Expression, 2007).

Among the most prominent writers are Gibran Khalil Gibran and Amin Maalouf. **Gibran** is the most famous Lebanese artist, poet, novelist, philosopher and writer. He was born in Lebanon in 1883 and died in the United States in 1931 (Dalal, 2013). Gibran was a pillar in the *Nahda Literature* (Renaissance) and *Mahjar School* (emigrant, exile) at the start of the twentieth century and has left a lasting legacy on the literature world. Gibran's famous prose poem 'The Prophet' has been translated into 40 languages which made him the third best selling poet of all time, after Shakespeare and Lao-Tzu (an ancient Chinese philosopher and writer). The poem is a collection of twenty-six poetic essays which follow prophet Al Mustafa as he entertains a group of strangers with his musings on topics ranging from the worldly- childhood, eating and drinking, work, clothes, etc.- through to the metaphysical- religion, beauty, death, self-knowledge, etc. (Four Lebanese Writers You Should Know).

Gibran wrote in The Prophet "You talk when you cease to be at peace with your thoughts". He meant that a person who is not satisfied with his thoughts 'talks'. That person just talks, he says anything! A person who has clear thoughts, an identity, and self-awareness does not need to 'talk'. A thinker, a writer uses language rationally to express peace- inner peace. This inner peace reflects on others constructively (El Chidiac, 2008).

Gibran saw himself as a guide for his friends, a peacemaker and spiritual healer. He was willing to carry the burden of his own people and to offer his life for the redemption of man-

Carlsen(2016) in “Literature is just as important as science” wrote about memories of war. She quoted Hamza, the student in Northern Uganda, reading aloud his poem My Memory: “I want to forget, I don’t want to remember. Do you remember?” Many other students who were young or were just born before the civil war ended live in a post-conflict environment. They expressed the psychological and social consequences of the war through rhymes, poems, metaphors or articles and short stories. The memories of the civil war that still affect the majority of the families in Northern Uganda are brought to light through literature. School writing clubs were established to reach out to youth to build a new reading and writing generation (Carlsen, 2016).

In an attempt to focus on the function of poetry, Burt, Fried, Warn, and Jackson held a debate in the Poetry Magazine (Burt, Fried, Warn, & Jackson, 2006). **Burt** explained that different poets relay different senses. Armantrout’s poetry seeks social function in the sense of *social good and social policy*. James Merrill’s poetry has a social function in the sense of "social event": it tries to produce a sense that the poet has friends who get his jokes, share his sense of things and respond in kind. Both poets wanted ‘to say something about a society and do something "social" but they differ in what they want to do, and in why (Burt, Fried, Warn, & Jackson, 2006).

Fried wrote that some people believe that poetry’s social value comes from the content. But politically-alert poetry is no more intrinsically *useful* than any other poetry. The only kind of poetry that doesn’t have social function is that which tells us how to think about people and that the world is a wonderful place; it is High Art- inexpensive, portable, reproducible, and quickly consumed. Fried provided an example of the Romantics- Shelley, Byron, or Blake- who were revolutionaries opposing the system and spoke to and for the individual, including the poor and oppressed (Burt, Fried, Warn, & Jackson, 2006).

For **Jackson**, poetry has no function beyond its own construction and being-in-the-world. Thus, poetry makes everything happen. Its social value is in its perception of human creativity. He believed that poetry ought to be taught as an opportunity to learn to live in doubt. Jackson wished that poets would consider the greater vocation of art which has a vision of the social not of the self. He gave the example of Maya Angelou, Billy Collins, and the Palestinian-American poet Suheir Hammad who reached beyond mere aestheticism and challenge (Burt, Fried, Warn, & Jackson, 2006).

Warn wrote that poetry enacts a central human paradox: we exist as singular selves, yet can only know them through our relations. A poem creates a charged presence- physically, emotionally, and intellectually- that we encounter ourselves in our response to it. The encounter preserves and enlarges our solitude and points out our connections. Warn agreed with Burt that a poem should have single ethical purpose and address an ideal. An example is “The Mill-Race” by **Anne Winters** that reflects a social condition that shapes relations; if it had insisted on the fragmented self of modern consciousness, the self-limiting, it wouldn’t have been able to respond to the woman standing with Ahkmatova in the prison line who asked, "Can you describe this?" (Burt, Fried, Warn, & Jackson, 2006).

insights that are rooted in, rather than at odds with, literature's distinctive uses and configurations of language" (p. 1). Post-Conflict Literature involves "a self-conscious examination of literature, and the discipline of literary studies, considering the ability of both to interrogate and explore the legacies of political conflict around the world" (McGuire, 2014, p. 1). The value of literature is that it helps us understand the world; it helps us think through and make sense of the moral complexities that define post-conflict societies. Literary texts of post-conflict literature offer insights into our social wellbeing. They help us come to terms with the traumatic past. When we read memoir and life writing, we realize that narrative art attempts to make sense of the chaotic nature of traumatic experiences; this is therapeutic storytelling (McGuire, 2014). A new vocabulary has been introduced such as truth and reconciliation, post-traumatic memory, historical reckoning and therapeutic storytelling. McGuire (2014) explained that other genres, such as science fiction and the crime novel, have also made important and original contributions to this field. He gave the examples of the crime fiction of writers like Meyer and Beukes in South Africa, and Neville and McKinty in Northern Ireland, who wrote about historical justice, law and order, aiming to restore moral order.

This paper is also related to Peace Literature, a genre which writers seldom aim to write but it is the critics who apply this label. Adolf(2010) stated that self-aware peace *writers*, *peace literature scholars*, or *peace literature critics* are rare. The effective critical strategies for peace literature differ from those of other genres that are deliberately chosen by their writers, and whose critics can thus draw upon an established corpus and frame of reference. The critical strategies for peace literature consider readers to be active agents in the production of meaning (Adolf, 2010).

There are three key terms in this study: writers, peace and society. Writers include poets, novelists, researchers, academics, journalists, etc. Peace as defined in various sources⁽¹⁾ encompasses tranquility and quietness, security and calmness, self-satisfaction, clear identities, friendship and harmony, agreement, openness, and cultural awareness. A society refers to a group of people who interact in a definable territory and share the same culture. In practical, everyday terms, societies consist of various types of institutional constraint and coordination exercised over our choices and actions (Little, 2012).

Literature review

Periods of uncertainty usually produce marvelous literature. Russia during the period when the old system was collapsing was a wonderful time in the history of world literature. Europe between the two wars was the same - one could sense the impending tragedy, but it was a great period for books (Maalouf, 2014).

(1) Merriam-Webste. <https://www.merriam-webster.com/dictionary/peace>.

Dictionary Definition. Vocabulary.com <https://www.vocabulary.com/dictionary/peace>

The Cambridge English Dictionary <https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english/peace>

Writers for Post-Conflict Peace

Dr. Rula Yazigy- Lebanese University

Abstract

Many nations have suffered from wars that have left societies divided and people hurt physically, emotionally and psychologically. One ought to question if writers and poets, can promote post conflict peace through their use of literary works. McGuire (2014) asked how literature can help understand the difficulties of social reconciliation and contribute to peace building and whether a work of fiction could remind people of the past, learn from it, forget it and move on. This paper examines the significance of the writers' role in promoting peace among societies. The first section of this paper reviews the some international literature on peace, the second studies how some prominent and contemporary Lebanese writers have reflected their life experience through their literary works. The paper concludes with a general note on the role of writers in promoting peace.

Introduction

According to the Heidelberg Institute for International Conflict Research (HIK), 2013 witnessed 400 conflicts worldwide, 20 of which were wars (Hartlep, 2014). After the end of the Cold War, fatal conflicts were decreasing for 20 years. There were fewer wars and fewer killed people. However, in 2011 the world witnessed more conflicts, victims, and refugees and the worst humanitarian consequences in a number of countries such as Syria, Iraq, South Sudan, Afghanistan, Yemen, Turkey and Libya (Guéhenno, 2016.) Countries suffered from at least 10,000 direct violent deaths in 2017- Turkey, Somalia-Kenya, Nigeria, Sudan, Yemen-Saudi, and Egypt (8 Conflict Data Program- UCDP, 2017).

Edward Said (2002) a Palestinian professor of literature and a public intellectual [1935-2003] wrote that writers, being witnesses to persecution and suffering, speak the truth, send a rebellious voice in conflicts with authority, and devote themselves to intolerance, the dialogue of cultures, civil, freedom of speech and censorship, truth and reconciliation. A writer is a person who produces literature, a novelist, poet, and a dramatist. Writers are creative and capable of originality- qualities that intellectuals may not be known for (Said, 2002).

The realm of the study

This paper falls in the field of post-conflict literature- a relatively new field in the discipline of literary studies. It demands a self-conscious examination of literature which helps us understand the world. McGuire (2014), a Senior Lecturer in English Literature at Sydney University, wrote, "Post-Conflict Literature can offer insights into our social wellbeing,

- Midnet (M) et Favre (J.P): Psychiatrie infantile à l'usage de l'équipe medico-sociale, éd.Masson et C, Paris 1975.
- Nadel L.J. Imitation et communication entre jeunes enfants, éd. P.U.F Paris 1986.
- Spok B: Comment soigner et éduquer son enfant éd. Gérard et C^{ie}, coll. Maarbout 1960.
- Sous la direction de profeta. Grande encyclopédie mensuelle de la santé, éd. EMPA.Ltd, Jersy, CI 1970.
- Groupe d'autres (dirigé par Pelicier, Yves), Univers de la psychologie, éd. Lidis, 1978-1979. (encyclopédie en 7 volume).

- المصادر العربية:

- الدكتور فاخر عقل: علم النفس، دراسة التكيف البشري، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت.
- الدكتور مصطفى فهمي: سيكولوجية الطفولة والمراهقة، دار مصر للطباعة، ١٩٧٤.

Nous avons constaté, dans le stade foetale que les divers organes du fœtus ne croissent pas au même rythme.

Par la suite, le développement psychomoteur nous a révélé en détails ce que l'enfant peut acquérir au fil des mois en période de relative impuissance motrice de la naissance jusqu'au moment où il se tiendra debout et où il pourra tenir un objet.

Les capacités sensorielles, bien que certaines fonctionnent dès la naissance (ouïe et goût), elles acquièrent leur maturation avec l'évolution de l'enfant comme nous l'avons déjà montré, si l'enfant peut s'adapter à son environnement c'est grâce aux réflexes qui s'améliorent et se généralisent par la pratique.

Pour le développement langagier, son acquisition est d'abord considérée comme étant un processus concernant à la fois le fonctionnement des organes phonateurs et des données sociales permettant d'apprendre les mots et leur valeur sémantique sans pour autant écarter l'idée d'influences de mécanismes héréditaires.

Il est traité selon deux périodes: période prélinguistique et période linguistique.

35

Pour le développement social, nous avons opté pour les réactions positives sociales du nouveau-né dès sa naissance en se référant aux recherches des psychologues en ce domaine et aux observations et remarques personnelles.

Dans ce domaine comme dans celui du développement langagier l'enfant peut présenter un retard par rapport aux données citées sans que cela puisse présenter un quelconque inconvénient pour la suite de l'épanouissement de l'enfant car ceci a un rapport avec les stimulations reçues et les caractères héréditaires.

Quand à la deuxième partie, nous l'avons consacrée: au rapport mère-enfant, en commençant par la période prénatale moment où les premières réactions de l'enfant commencent vis-à-vis du monde extérieur.

Par la suite nous avons traité les divers moyens de communication non verbale en cette période de relative impuissance. Les socialisations et les premiers échanges sont traités en détail.

36

BIBLIOGRAPHIE.

- Deajuri Aguerre (J.) : Manuel de psychiatrie de l'enfant, édition Masson et C^{ie}, 1971.
- Dufoyer J- P: Le développement psychologique de l'enfant de 0 à un an. éd. P.U.F.1979.
- Herman Claus Ritter, S.O.S Docteur,éd. Kalmthout Anvers 1976.
- Jakobson. R.: Langage infantin et aphasie.éd. Flammarion, Paris 1980.
- Lentin Laurence: Apprendre à parler à l'enfant de moins de 6 ans, éd. O.C.D.L Paris 1979.

3- 3 Le rôle du jeu:

Au cours de la première année, la mère fera jouer l'enfant en mouvant des objets sous ses yeux, tout en surveillant la manière dont il les perçoit. Ces jeux procurent à l'enfant un plaisir fonctionnel: il attrape ses jouets par ce faisant il se sent en quelque sorte responsable de leurs mouvements ce qui le valorise.

Les jouets stimulant l'enfant par leur réponse sont d'autant d'éléments encourageant ses propres mouvements et le développement d'autres capacités plus importantes.

Le rôle de la mère est de mettre l'enfant en contact avec des situations, des jouets, des événements enrichissants qui l'aideront à poursuivre ce processus d'apprentissage.

Elle doit aussi répondre à ses demandes, à ses signaux, l'adopter à toutes ses nouvelles expériences et surtout le récompense de ses efforts.

En jouant, l'enfant s'instruit, se familiarise avec des situations nouvelles, commence à entrevoir des rapports objets-espace; communique avec sa mère (en lui tendant et lui enlevant des jouets) développe sa coordination musculaire et apprend qu'il peut modifier l'environnement grâce à ses actions: " il prend ainsi conscience de sa personnalité."⁽¹⁾

Avec l'âge, l'enfant explore son environnement sous un angle plus grand: manipule les objets bien plus facilement, les regarde les fait bouger, les jette, les reprend et fait des expériences. C'est une période très importante pour le développement de l'enfant pour la mise en valeur de ses capacités pour qu'il prenne confiance en lui.

Vers un an, l'enfant entame une nouvelle découverte, il commence à laisser tomber exprès ses objets par dessus sa chaise ou son lit. Puis, il pleure parce qu'il s'ennuie, et pour ce geste il n'est fasciné que par cette nouvelle découverte. Il est capable de rester jouer et s'amuser de la sorte pendant des heures; si la mère intervient pour lui rendre ses jouets au fur et à mesure qu'il les lance sur le sol, l'enfant croira qu'il a inventé un jeu à deux et il en sera davantage intéressé par cette présence avec qui il ne veut point en être séparée.⁽²⁾

Conclusion:

Que ce travail malgré sa modestie contribue à l'enrichissement de la recherche psycholinguistique est bien notre vœu. Pour l'élaboration de cette recherche deux parties sont élaborées. Dans la première partie de développement de l'enfant est abordé de tous les côtés, depuis la conception de cet enfant jusqu'au moment où il peut se mettre en position debout sans l'appui de l'autre.

(1) Sous la direction de profeta Rymand Abram, Op. cit.p.115.

(2) Spok. Benjamin,op.cit.p.247.

n'est pas une relation simple mais diadique c'est pour cela qu'on parle de dyade; et dans cette relation la mère agit sur l'enfant et l'enfant sur la mère.

Tout ce qui peut être relevé dans cette partie est que l'inégalité des compétences des deux partenaires peut poser un problème pour certains chercheurs qui pensent que les comportements imitatifs constatés sont le fait du plus compétent des deux partenaires.

Pour Newson: "il y a toute chance pour qu'on indexe de nombreux actes du bébé comme communicatifs parce que la mère attentive répond à un grand nombre d'entre eux"⁽¹⁾

3- 2 Les mouvements de rotation de la tête:

Dès les premières minutes de la vie extra-utérine, le nouveau-né au contact du sein cherche la mamelon par des mouvements de la tête exactement semblables au mouvement négatif: " Lorsque 'un bébé de six mois refuse sa nourriture par des mouvements rotatoires de la tête cela correspond déjà à une «affirmation du moi»"⁽²⁾

32

Ce n'est que vers le quinzième mois que le comportement de rotation de la tête sera interprété comme un message adressé à l'autre.

Quand au geste du "oui" on ne le remarque que vers le troisième mois lorsque l'enfant devient capable de soulever sa tête de haut en bas.

En dehors de cette gestique qui correspond aux premières ébauches de la communication, on peut dire que " l'enfant a pour s'exprimer toute une activité motrice, gutturale et sphinctérienne qu'il utilise pour la communication avec autant d'adresse que ces mouvements de tête. Il existe entre la période du gazouillement et celle du langage toute une période de communication qui peut avoir une valeur de satisfaction et de pré-acquiescement et une valeur de négation."⁽³⁾

Par ce moyen de communication qu'est les mouvements de rotation de la tête. La mère saura comment interpréter chaque mouvement de son enfant tout en participant à développer ses activités.

Il se peut aussi qu'un enfant refuse son biberon bien qu'il a faim, alors là, la mère doit intervenir pour donner une raison à ces pleurs.

Il se peut aussi que le mouvement de rotation dans le sens négatif n'est pas toujours interprété comme tel pour tout enfant, qu'en fait un l'utilise juste pour changer de position ou fuir une stimulation indésirée.

(1) Midenet M et Favre J.P. Op-cit. p80.

(2) Nadel Jacqueline, Op.cit. p88.

(3) Midnet. (M) et Favre JP. Op.cit, P80.

naux du bébé, elle participera à ses activités et l'aidera à les structurer, tout en lui permettant de les développer.

D'après le docteur Vloo: " L'enfant dans son berceau a besoin de stimulations sensorielles: du sourire et du visage de sa mère, certes, mais aussi des couleurs, des forms, des sons.

30

Le cerveau humain se nourrit de ce qui le stimule». ⁽¹⁾

Ainsi donc le développement de l'enfant ne se fait pas au hasard, il requiert des soins et un environnement ordonné. Sa capacité d'adaptation au monde a besoin de références, des point de repère qui lui permettront d'acquérir les informations nécessaires aux stimulations qui l'aideront à s'adapter, et en particulier durant la période de relative impuissance motrice des premiers mois de la vie.

La mère peut fournir à son enfant un grand nombre d'informations stimulantes: en l'embrassant, en le berçant, en le caressant, en lui parlant et en le faisant sauter sur ses genoux. Elle le rend ainsi attentif au monde et l'aide à éveiller en lui sa curiosité visuelle: lorsqu'elle le promène reposant dans ses bras ou sur son épaule.

3-1 L'imitation:

Pour Pawlby, l'imitation est à considérer comme étant un moyen pour le bébé et sa mère d'établir un code de communication non verbale. ⁽²⁾

Pour Jacqueline Nadel il s'agit: " plutôt d'une production à laquelle peut être imputée une relation avec un acte similaire précédemment émis quelque soit le délai entre l'acte initial et son itération" ⁽³⁾

31

Seule l'imitation répétée peut aboutir à un objectif car l'acte répété retient plus longtemps l'attention visuelle du bébé retient plus longtemps l'attention visuelle du bébé et aboutit sûrement à une réponse de sa part.

Il y a une interaction au sein de ce moyen de communication en effet pour ce qui est des expériences émotionnelles, les imitations de la mère sont accueillies par des sourires et des vocalisations joyeuses de la part du bébé dès le troisième mois.

De même, les mères réagiraient par des sourires et des baisers aux imitations de leurs bébés de six mois.

A partir des travaux de Eschaffer en 1975 on pourra dire que la relation mère-enfant

(1) Groupe d'auteur, Op.cit,p.286.

(2) Nadel Jacqueline, Imitation et communication entre jeunes enfants, Paris,éd.P.U.F 1986,p.86.

(3) Nadel Jacqueline, Imitation et communication entre jeunes enfants, Paris,éd.P.U.F 1986, p.86.

3- La mère: Premier stimuli perçu:

Pour le docteur Fotogram: " Au premier horizon du monde, lorsque l'enfant ouvre les yeux, il ya d'abord la mère. On peut dire que la relation maternelle, affective, sensorielle aussi bien visuelle que tactile ou olfactive, structure le monde suivant lequel l'enfant apprehende le monde"⁽¹⁾

La mère est donc le médiateur indispensable d'une bonne perception du monde. En effet lorsque le bébé est au sein, fixe sans le visage de sa mère qui est vu plus souvent que tout autre et donc est plus familier. La mère constituerait donc le premier objet perçu

parce que le plus régulièrement retrouvé. La mère serait l'objet libidinal par excellence, dans un environnement dont la nourrisson ne perçoit d'abord que les variations d'intensité lumineuse, puis des densités relatives de couleur des objets et les mouvements. Les échanges vécus par lui, suites d'excitations conduisant à des états de tension ou de détente, l'amènent à distinguer ce qui est réel de ce qui ne l'est pas, et ce qui peut être touché, vu, entendu ou éprouvé.⁽²⁾

29

Donc c'est à la mère de veiller à ces stimulations nourricières d'informations et d'expériences de grandes intensités affectives qui permettent à l'enfant de découvrir le monde et à petites doses.

Elle doit aussi apprendre à répondre à son enfant: elle doit lui sourire le caresser, lui parler à ses moindres sollicitations, il faut qu'il soit immédiat de manière à ce que l'enfant prenne conscience que quoi qu'il fasse une réponse extérieure lui sera donnée.

Il est certain que l'enfant, dans sa première exploration du monde a besoin de sa mère dans la mesure où elle est toujours prête à répondre à ses appels, à partager son enthousiasme, à l'encourager dans sa quête, sans le limiter, ni dresser autour de lui des " barrières psychologiques".

Chaque mère saura les caractéristiques, les attitudes de son enfant, et réglera les stimulations en fonction de sa réceptivité, en tenant d'établir un rapport réciproque, même si les deux rôles- celui de l'enfant et celui de la mère ne sont pas au même niveau.

Et ce qui est important, c'est que la mère comprenne que chaque regard, chaque mouvement, chaque vocalise de son enfant sont une réponse positive à leur rapport; elle doit donc tenter de reproduire les situations qui les ont provoqués, créer de habitudes, des routines auxquelles l'enfant adhèrera.

Tout cela permettra à la mère, en comprenant l'expérience de l'enfant, de s'introduire dans son activité en cours: (mouvements, vocalise...) en interprétant correctement les sig-

(1) Groupe d'auteur, Op.cit.p. 286.

(2) Groupe d'auteur, Op.cit.p. 286.

- 2 - Les pleurs augmentent avant le moment qui précède son repas.
- 3 - Les bébés en bonne santé pleurent moins que les autres.
- 4 - Les raisons des pleurs sont variées: 35% des cas sont dus à la faim, 35,1% pour des raisons inconnues, 20,6% des cas quand ils sont mouillés, 8,3% à cause des selles et les 0,8% des cas restant sont dus aux vomissements.⁽¹⁾

27

2-1-2 Le rôle du regard:

La fascination du regard a une importance capitale dans l'évolution de l'enfant.

H.L. Rheingold considère que «le contact non pas physique mais visuel est à la base de la sociabilité humaine et que l'exploration par le nourrisson de son environnement est une activité primaire de base.»⁽²⁾

Wolf. K.M admet que " dès la quatrième semaine. Le nourrisson vise les yeux de l'observateur comme s'il y avait un véritable contact oeil à oeil."⁽³⁾

Ce type de contact s'est avéré être un facteur dans la matrice de comportements maternels et du nourrisson qui comprend très tôt l'interaction réciproque.

L'importance de ce contact dépend de l'attitude et de l'ambiance dans lesquelles il se déroule: durée du regard de la mère par rapport au regard de l'enfant, moment adéquat de la rencontre par rapport aux besoins du nourrisson, climat affectif et émotionnel dans lequel se déroulent ces échanges.

K.S Robson admet que " la quantité de contacts oculaires qu'une mère fournit à son nourrisson en terme de fréquence de réciprocité et de degré soutenu devrait agir sur le développement de l'attachement-visage"⁽⁴⁾.

Avec l'âge, ce contact prend d'autres aspects et apparaît à des dates différentes: le sourire, le regard interrogateur vers le douzième mois et le regard qui implore l'aide à 16 mois...

2-1-3 Le sourire:

Contrairement aux pleurs, le sourire ne cherche pas l'approche de la mère mais vise à la maintenir.

28

Il augmente l'attraction de la mère par son enfant et établit entre eux des liens privilégiés. Il est difficile de préciser la date de l'apparition du sourire, pour certains, il est très précoce, pour d'autres on ne le rencontre pas avant l'âge de 3 mois, cependant il peut varier selon le sujet, le degré de stimulation, de l'adulte et le type de relations préexistant.

(1) Fahmi Mostapha, op-cit p.40.

(2) Midenet (M) et Favre J.P, Psychiatre Infantile à l'usage de l'équipe medico-sociale, t Cie. 1975.

(3) Midenet (M) et Favre J.P, Psychiatre Infantile à l'usage de l'équipe medico-sociale, t Cie. 1975.

(4) Ibid. p.78.

Elles font partie de la constitution évolutive, modifient la personne au cours de leur réalisation et se modifient elles mêmes au cours du développement suivant l'importance que l'enfant ou autrui leur accorde, ou l'importance qu'elles prennent dans le cadre général de la socialisation.

2-1-1- Les pleurs:

Le premier système de communication sociale d'un nouveau-né sont les pleurs qui lui sert d'abord à se faire remarquer et à inciter l'approche des autres. Ils apparaissent dès la naissance selon trois modes distincts:

Le modèle de base qui signifie " faim " ou "dérangement " est faible et non rythmé au départ,

puis se fait rythmé et plus fort.

Les pleurs violents dus à la colère se différencient des précédents par la durée des phénomènes physiques, et sont accentués par le fait que le bébé ne peut se déplacer comme il le voudrait.

Enfin, la douleur provoque des pleurs forts au début, puis suivis d'inspirations brèves et haletantes.

26

Un bébé ne choisit évidemment pas de quelle manière il va pleurer faim, soif, douleur, froid,

chaud... provoquent la "réclamation" appropriée.

Ainsi le bébé transmet un message, ses pleurs sont un langage qui peuvent prendre une valeur de signal. Et la mère utilise tout un contexte pour donner une signification à ces pleurs

et dès le troisième mois, elle peut distinguer ce qu'elle appelle des " colères " déclenchées par des stimuli intéro et extéroceptifs.⁽¹⁾

Si les pleurs sont au début purement automatiques, le bébé apprendra rapidement quels effets ils peuvent avoir sur son entourage: arrivée de la mère, satisfaction du besoin, il aura alors tendance à pleurer intentionnellement. Et c'est à la mère de bien interpréter ces pleurs. Les pleurs changent et se modifient avec l'âge pour pouvoir répondre à un certain nombre d'insatisfaction, la preuve, les expériences faites par les docteurs Adrich et Knop sur les pleurs de 50 bébés durant la première semaine qui a suivi leur naissance, a pu le démontrer. On peut résumer ses résultats en:

1 - Pendant la première semaine qui suit la naissance, le degré moyen des pleurs par enfant est de 117 secondes durant toute la journée.

(1) Deajura Aguerra, op-cit pp.339-340.

l'attaque. Au cours de la première année deux facteurs conditionnent les réponses de fuite et de défense de l'enfant: l'emprise diminuant sa liberté et l'étrangeté.

Le développement social croit avec le développement physique, mental, émotionnel de l'enfant et avec son milieu, car l'enfant adopte et reflète par la suite les comportements de son entourage.

Dans ce domaine aussi, l'enfant peut présenter des différences par rapport à la classification citée dans la page précédente sans que cela présente un cas anormal; car ce domaine dépend aussi des "stimuli" que l'enfant peut avoir à sa disposition pour éveiller et établir ses contacts.

24

Deuxième partie: Rapport mère- enfant:

1 - Période pré-natale:

Dès le quatrième mois, le cordon ombilical assume la fonction de contraction musculaire et de là commence les premières réactions de la part du fœtus qui pourra accepter ou refuser les divers stimulations chimiques.

Dès là, la mère connaîtra les divers mouvements de son enfant à l'égard de ce qu'elle pourra manger ou faire (activité).⁽¹⁾

Le rôle de la mère intervient dès cette période qui est très importante pour le développement de l'enfant car à travers ses mouvements, la mère connaîtra son caractère et ses réactions vis à vis des stimulations extérieures.⁽²⁾

D'autre part, il est tout légitime comme la suggère l'expérience chez les nouveau-né, une imprégnation langagière intra-utérine sous la forme d'une expérience auditive.

Le docteur Alfred Tomatis est le premier qui a entrepris de rendre compte du fonctionnement audio-phonatoire précoce.

Partant de l'hypothèse que le fœtus perçoit les divers sons de la chaîne parlée et les battements du coeur de la mère.

25

2 - Période natale:

2-1- Premiers échanges:

L'enfant expérimente un certain nombre d'activités qui sont la base des premiers échanges et qui prennent des valeurs différentes au cours de l'évolution.

(1) Chakouri Omar, op-cit, p.37.

(2) Ibid. p.39.

non social⁽¹⁾, mais dès qu'il affronte ce nouveau monde, il finit par s'y adapter parce qu'il possède toutes les capacités qui l'aideront surtout dans le domaine socio-émotionnel." ⁽²⁾

Pour Ch. Bùhler le petit bébé est déjà profondément social. Elle en fait la démonstration en montrant que même les cris du nouveau-né seraient inconsciemment des cris d'appel, mais qui petit à petit ces cris se différencient et servent alors intentionnellement à établir les contacts avec les personnes de l'entourage; et ce qui est pour elle un signe positif de contact social c'est le sourire qui peut être observé dès le troisième mois⁽³⁾.

Ainsi les premières réactions de l'enfant envers les êtres humains sont positives, les réactions sociales négatives sont plus tardives.

Le comportement social précoce chez le bébé se caractérise par le sourire, le cri et les mouvements de l'oeil comme réponse en regardant l'autre.

- **1^{er} mois**: Le bébé manifeste son désir de voir l'adulte en pleurant mais ce n'est pas l'individu en lui même qui l'intéresse c'est la stimulation qu'il lui apporte.

- **2^{ème} mois** : Le bébé se calme par simples caresses et sourit en réponse à l'adulte.

- Entre le **2^{ème}** et: il se met à crier dès que son contact se rompt avec **3^{ème}** mois l'adulte.

23

-**3^{ème}** mois: Ce mois est caractérisé par la sourire, l'enfant prend conscience de son impact et il montre lorsqu'il voit un visage familier ou étranger.

4^{ème} : Il répond au regard souriant de l'adulte par des gazouillements et il manifeste son mécontentement lors que l'adulte l'ignore.

5^{ème} : L'enfant devient un être socialement actif, c'est à dire qu'il cherche un contact spontané avec tout ce qui s'approche de lui, soit par l'intermédiaire des sons, soit par le contact physique.

De 6 à 7 mois: Il essaie d'inclure dans son jeu les personnes qui l'entourent. Il commence aussi à sélectionner: il sourit aux gens qui lui plaisent, et fait la grimace ou pleure devant les autres, il marque ses préférences.

8^{ème} mois: Il attire l'attention de l'adulte en tendant son bras dans sa direction.

9^{ème} mois: Pour garder le contact avec l'autre il va jusqu'à le tirer par son vêtement et lui présenter certaines choses lui appartenant.

Les conduites sociales négatives se caractérisent par la fuite, la défense et

(1) الدكتور فاخر عاقل، علم النفس، دراسة التكيف البشري دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٩ نص ٥٥١.

(2) Traduit par: Fakir Akil; La psychologie. Etude d'adaptation humaine,
Dar EL MLELMALAIN. Beyrouth, 1969, p551.

(3) Cité par Fakhir Akil, Ibid, p556.

des enfants. En effet chaque enfant diffère tellement en vitesse de développement et précisément dans la domaine d'acquisition du langage; on observe des différences importantes d'un enfant à l'autre sans que cela présente un caractère anormal.

Ainsi, pour ce secteur de développement précisément, on ne peut parler que de façon approximative concernant la norme d'âge.

A part ce problème de delimitation, ces premiers mots ont un caractère polysémique et un trait référentiel. C'est à dire qu'un mot peut vouloir dire plusieurs choses et qu'une même chose peut être désignée par plusieurs mots.

21

Ce qui est important à noter aussi, c'est qu'une même après l'apparition des premiers mots le babillage persiste encore.

Comme tout acte moteur la production verbale repose sur la maturation des organes phonateurs, l'exercice vocal, sur le milieu dans lequel le sujet baigne et aussi sur tout ce qui a un rapport au développement mental de l'enfant, en particulier tout ce qui attrait à l'acquisition de la fonction symbolique avec une représentation mentale et une reconnaissance des mots. Et aussi sur l'existence de mécanismes d'apprentissage tels que le conditionnement et l'imitation.

Pour Piaget: " La fonction sémiotique n'apparaît qu'avec la fin de la période sensori-motrice (vers un an et demi à deux ans), il ajoute que des activités tels le jeu ou l'imitation participant à sa genèse.»⁽¹⁾

Par la suite, on passe à la période de " mot-phrase"; vu le nombre très réduit de mots que l'enfant à sa disposition, il utilise un seul mot pour toute une phrase.

Par exemple: quand un enfant prononce le mot "ballon", quand il le voit, cela a plusieurs interprétations, ça peut vouloir dire: " c'est mon ballon" " donne-moi le ballon", ou bien, joue avec moi avec ce ballon.

Par la suite le nombre de mots augmente avec l'âge, le degré d'intelligence et aussi avec l'influence de l'entourage.

22

6 - Développement social :

La notion de socialisation est mise en discussion pour les chercheurs car pour les uns c'est chez le tout petit bébé qu'existe le maximum de socialisation et que le processus est un fait régressif, alors que pour d'autres il en est progressif et n'est acquis que relativement tard. Pour le docteur Fakhir Akil: " l'enfant à sa naissance n'est ni social, ni associal mais

(1) Dans le sens de celui n'as pas eu l'occasion d'avoir de contacts sociaux.

Certaines études ont prouvé que les premières consonnes présentées dans le babillage sont labiales: [m.p.b] étant pour justification que les premiers mots des enfants présents dans presque toutes les langues sont mama, papa, baba.

Cette théorie est justifiée par le fait que l'ordre d'apparition des labiales obéit à la loi du moindre effort physiologique, en effet leurs émissions correspondent à une simple ouverture et fermeture des lèvres accompagnées d'un souffle.

Irwin refuse d'accepter cette théorie en prouvant que "les premières consonnes sont des gutturales".

Donc pour ce qui est de l'apparition des sons dans la langue il y a les voyelles en premier lieu et en particulier celles qui sont formées par la partie antérieure de la bouche [a, e] apparaissent par la suite les gutturales postérieures telles que gue, Ke, arreu puis les linguo-dentales telles que: pe, be, te, de.

Tabouret-Keller renforce cette théorie en prouvant qu' «un bébé de cinq mois en voyant sa mère penchée sur son berceau mettra un grr avec un rr guttural très prolongé et ce à plusieurs reprises alors qu'à trois ans l'enfant ne saura toujours pas prononcer gros et grand et il dira dro-dran»⁽¹⁾.

c - Le gazouillis ou préverbiage:

Par la suite le babillage se transforme en gazouillis, ce dernier est plus musical et traduit toute une activité ludique; car l'enfant, en cette période qui s'étend du quatrième au huitième mois joue avec ses oreilles et ses organes phonateurs.

Pour Grégoire: " Entre les âges de 4 et 10 mois, se produit un grand développement linguistique. L'enfant s'attarde à certains sons, les modules, en varie l'accent et la durée."⁽²⁾

On parle de préverbiage, car le babil s'adapte en partie à ce que l'enfant entend; et c'est en quelque sorte le début de l'acquisition par l'imitation, imitation et répétition de sons syllabiques, qui en outre est due à l'intérêt que l'enfant semble porter à l'entourage.

5-1-2 - La période linguistique:

Cette période est difficile à limiter. Pour certains, elle commence dès l'apparition du premier mot; mais même ce dernier soulève certains problèmes. Qu'est-ce que le premier mot?

Pour certains, il est considéré comme étant la première association de syllables reconnaissable; pour d'autres c'est le mot à véritable valeur sémantique.

Le problème de délimitation de cette période a un rapport étroit avec le développement

(1) Cité par Dufoyer- Jean Pierre, Op.cit, p91.

(2) Cité par Dufoyer, Op.cit,p. 92

et / ou de pleurs». ⁽¹⁾ Par contre Lezine admet que cette période «est riche en exercices» ⁽²⁾ .

En fait c'est cette «période de cri» qui permettra à l'enfant de passer à la seconde étape du développement du langage, puisque les organes vocaux de l'enfant ne possèdent pas dès le début toute la souplesse nécessaire.

b-Le babillage:

L'âge de deux à trois mois présente de départ. Pour Richelle par exemple «c'est le moment où l'étude de l'acquisition du langage peut véritablement débiter car les productions prennent un caractère différencié.»⁽³⁾

Ainsi, au cri des premiers jours s'ajoute et fait bientôt suite le babillage aux environs de la dixième semaine, au fur et à mesure que les périodes de réveil augmentent chez l'enfant. Le babillage correspond donc à l'émission d'un considérable de sons plus ou moins articulé souvent qualifiés de lallation du fait de la dominante «la la.»

Donc à partir de cet âge se produit un notable accroissement en quantité, en variété complexité, des productions vocales; et c'est le début de ces émissions qui deviennent peut à peu cequ'on nomme babil, babillage, gazouillis. gazouillement, lallation.

18

Cette activité est essentiellement de nature sensori-motrice non ou peu imitative et ne paraît pas particulièrement liée à l'entourage; au début en effet un enfant émet des sons qui n'appartiennent pas à la langue utilisée autour de lui, comme le dit d'ailleurs Jakobson l'enfant articule dans son babil «une somme de sons qu'on ne trouve jamais réunis à la fois dans une seule langue, ni même dans une famille de langue.»⁽⁴⁾

Malgré tout ceci, cela ne signifie pas que la productions verbales sont totalement dépourvues de toute coloration affective ou précommunicative.

Pour Koupernik et Daily, vers deux à trois mois, "les cris se différencient progressivement selon l'état biologique ou émotionnel de l'enfant"⁽⁵⁾.

Pour Lewis: "Le nombre de sons émis est plus élevé en présence d'un adulte qui parle qu'en présence d'un adulte silencieux"⁽⁶⁾.

Donc, dans cette période pré-imitative l'interlocuteur ici n'a que le rôle de stimulation.

Or les études qui ont été faites sur l'apparition des divers sons de la langue se sont mises d'accord sur le fait de l'antériorité des voyelles par rapport aux consonnes.⁽⁷⁾

(1) Dufoyer Jean Pierre, Op.Cit,p.87.

(2) Dufoyer Jean Pierre, Op.Cit,p.85.

(3) Ibid.p.89.

(4) Jakobson Roman Langage enfantin et aphasie Paris éd. Flammarion,1980.P.24

(5) Citépar Dufoyer Jean Pierre,Op.cit.pp.90-89

(6) Citépar Dufoyer Jean Pierre,Op.cit.pp.90-89

(7) Deajuri Aguerrã Manuel de psychiatrie de l'enfant éd. Masson et C.I 1971 p.341

opération. De cette façon, le mamelon ne sera pas donné à l'enfant selon sa demande quand on veut le faire taira pour une raison qui est autre que celle de la faim, car cette manière, il prendra ses pleurs comme moyen de satisfaire ses désirs et de là il apprendra l'entêtement. Comme dit Freud: «La bouche devient le moyen don l'enfant ne peut plus s'en passer pour se procurer du plaisir».⁽¹⁾

5 - Développement du langage:

Juste après sa naissance le bébé est attentif aux sons, mais ne peut les reproduire, car il ne maîtrise pas encore le mouvement de ses lèvres, de son palais et de ses cordes vocales.

En fait parler est un comportement moteur c'est aussi une conduite qui s'acquiert par la maturation et l'apprentissage.

Ainsi l'acquisition du langage est à considérer comme étant un processus cocernant à la fois «le fonctionnement des organes phonateurs et de données sociales permettant d'apprendre les mots et leur valeur sémantique, sans pour autant écarter l'idée d'influence de mécanismes héréditaires.»⁽²⁾ Nous pouvons diviser l'apprentissage du langage en deux périodes: période prélinguistique et période linguistique.

17

5-1 La période prélinguistique:

Elle s'étend de la naissance jusqu'au début de la communication verbale avec l'apparition du premier mot. Et le problème posé est celui de savoir si l'on considère la production sonore du nourrisson du point de vue de sa valeur phonétique et sémantique par référence au «langage d'adultes» ou si on s'attache avant tout à sa valeur de communication. Cette période est difficile à dater, selon certains auteurs, «elle s'achève entre le huitième et la quatorzième mois»⁽³⁾ car chaque enfant présente des caractéristiques qui lui sont propres dans ce domaine.

Mais l'essentiel c'est qu'il y a reconnaissance d'un enchaînement assez précis aux activités de l'enfant pendant cette première année de son existence.

5-1-1 Les premières productions:

a- Le cri :

Les deux premiers mois sont ponctués sur le plan sonore par le cri; en effet les émissions vocales auxquelles se livre l'enfant paraissent peu variées. Pour Richelle «il n'ya que de cris

(1) Freud cité par Fahmi Mostapha, Op. Cit P.42.

(2) Dufoyer Jean Pierre, Op.Cit.p.85.

(3) Dufoyer Jean Pierre, Op.Cit.p.87.

Il est donc évident qu'il existe chez le nouveau-né une sensibilité intérocéptive et proprio-céptive qui «malheureusement ne peuvent pas être étudiées expérimentalement»⁽¹⁾.

3-2 Les réflexes:

L'enfant s'adapte à son environnement de la manière la plus simple et la plus primitive: Il a des réflexes, mais aucune volonté: «Ce sont des connexions neuromusculaires qui le dominent et lui permettent d'établir les premiers rapports avec le monde environnant.»⁽²⁾

Les principaux réflexes mis en cause sont: Le réflexe palpébral, pupillaire, de la succion, la phonation et de la préhension.

En effet, le nouveau-né réagit de manière réflexe aux stimulations qui peuvent l'atteindre: une forte lumière par exemple amènera un rétrécissement de ses pupilles et la fermeture de ses paupières.

De même il serrera automatiquement n'importe quel objet placé dans sa main et il sucera tel autre objet approché de sa bouche.

Avec la pratique, les réflexes s'améliorent et se généralisent par exemple: Au temps de l'allaitement au sein, l'enfant est très gauche et a du mal à saisir le mamelon maternel entre ses lèvres au début, mais avec l'expérience il résout le problème.

Ainsi donc, les mouvements s'affinent et se précisent. L'adaptation s'améliore, tout en continuant de présenter des différences selon que l'appétit est plus ou moins fort. Par la suite et de la même manière il apprend à sucer de divers objets, à commencer par son doigt, un objet, ou un doigt que l'on approche de sa bouche.

16

4 - La période de la «La phase orale»:

L'enfant ressent le plus de sensations autour des lèvres, et dès la naissance il manifeste le réflexe de succion.

Dans les premiers trois mois de sa vie, sa bouche est donc sa principale source de satisfaction.. C'est pourquoi on appelle cette période «La phase orale»; une phase qui dominera la vie de l'enfant durant un certain temps.

L'enfant en suçant, se procure à la fois plaisir et nourriture, en effet ce réflexe est son premier contact avec le monde. Et par cet intermédiaire (la bouche) l'enfant reçoit amour et affection.

En étant en possession du mamelon, l'enfant est heureux et confiant, mais quand on l'en prive il devient coléreux; l'allaitement est donc une phase importante dans le développement psychologique de l'enfant d'où la nécessité de planifier cette

(1) Sous la direction de profeta Roymond Abram, OP.cit, p.108.

(2) Dofyer Jean Pierrê Le développement psychologie de l'enfant de O à un an, édition P.U.F; 1979, p. 35.

b - L'ouïe:

A la naissance, les oreilles du nouveau-né sont remplies de mucosité, les liquides se trouvant au canal stakios l'empêche d'entendre il est presque sourd.

Mais avec la disparition de ce liquide, il réagit dès les premières heures après sa naissance aux sons aigus, forts et brusques.

Même si le nouveau-né est incapable de les interpréter car ses simples expériences l'empêchent d'associer le sens au son.

Ainsi donc le système auditif du nouveau-né est capable de traiter de manière efficace une quantité surprenante d'informations sensorielles qui restent sans significations.

c-L'odorat :

Ce sens ne fonctionne pas dès la naissance. Il acquiert sa maturation avec l'évolution de l'enfant. Et ce n'est que vers un an que l'enfant parvient à manifester une série de notion d'odorat.

Par exemple: un enfant d'une année imite l'adulte, en sentant l'odeur d'une rose, et réagit de la même façon que lui.

d-Le goût:

Le nouveau-né fuit la nourriture qui est acide ou salée mais accepte celle qui est sucrée; et ceci dès les premiers jours qui suivent sa naissance.

e-Le toucher et la sensation du mal:

A la naissance, la sensibilité tactile est localisée autour de la bouche. Ainsi donc cette zone est la plus importante.

La sensation du mal peut être sentie chez les nouveau-né dès la première semaine: D'après des expériences faites par Milfen et Gesell: «un nouveau-né de quatre ou cinq jours ne réagit pas quand il est piqué ou quand il est soumis à une force électrique; et il ne présente des réactions vis-à-vis de ces stimulants que vers le huitième ou le dixième jours qui suit sa naissance»⁽¹⁾.

3-1 Les sensibilités intérocéptives et proprioceptives:

Certains cris du nouveau-né sont attribués à des sensations internes (coliques, douleurs gastriques de la faim) ou liés à la position du corps (perte d'équilibre, membres tordus ou coincés).

(1) Cité par Fahmi Mustapha. Op.cit,pp.99-100.

Avec la marche, l'enfant s'enrichit davantage de son entourage, il apprend à s'orienter dans l'espace, découvre une certaine autonomie et enrichit ses sensations.

La découverte de l'espace l'incitera à en savoir plus, il part à la découverte du monde, il veut tout toucher, découvrir et expérimenter les espaces et les situations différentes

Sur le plan moteur, l'enfant en cette époque fait de gros progrès surtout dans la marche et l'usage de la main.

Avec l'âge, l'exercice l'amène à assouplir sa démarche et vers dix huit mois, il est capable de faire marche arrière, de trotter et de sautiller.

Alors que pour ce qui est de la maîtrise de la main, vers la fin de sa première année, il sait l'approcher d'un objet avec précision et agilité.

Tenir un verre est aussi important dans son développement car la manière dont il s'y prend en est excellent indice. En principe vers dix-huit mois il y arrive à deux mains, apprend à utiliser certains objets, commence à griffonner avec un crayon, tente d'ouvrir la porte et d'utiliser sa cuillère pour manger.

Par la suite, les progrès constants dans la coordination entre la vision et la main lui permettront de faire de nouvelles expériences.

3 - Capacités Sensorielles:

Les capacités sensorielles du nouveau-né sont inférieures à celles de l'adulte, mais elles lui permettent quand même de répondre à un certain nombre de sollicitations et de stimulations.

a - La vue:

L'efficacité des organes de la vue est faible lors des premiers mois mais finit par progresser.

Ces organes fonctionnent normalement dès les premiers jours de la vie: Le réflexe pupillaire est présent dès la naissance bien que la capacité de centrer les objets ne soit pas évident.

Le nouveau-né a du mal à suivre le déplacement des objets en dehors d'une certaine distance focale; les images plus proches ou plus lointaines lui apparaissent floues⁽¹⁾.

A partir du deuxième mois, le bébé commence à suivre des yeux un objet en mouvement avec difficulté, et avec le temps, ses mouvements oculaires deviennent plus harmonieux, sa vision recouvre un champ plus vaste et il est capable de tourner la tête pour suivre des yeux l'objet en mouvement qui a attiré son attention vers le cinquième mois.

Ce n'est que vers le quatrième mois que la synergie des yeux apparaît, avant cette époque les yeux fonctionnent mais comme s'ils étaient atteints de strabisme.

(1) Sous la direction de profeta Roymond Abram, OP.cit, p.106.

Outre ses actes, les capacités de perception du bébé ont fait alors d'énormes progrès. Il se met à observer beaucoup plus attentivement ce qui se passe autour de lui. De lui-même, il commence à troner la tête dans tous les sens et paraît heureux de voir ce qui l'entoure. Il découvre ses extrémités en observant le mouvement de ses mains devant ses yeux ou en tentant d'atteindre ses pieds, d'en attraper un et de la porter à sa bouche. Tout ceci signifie en fait qu'il commence sa première activité de jeu avec son propre corps et avec les objets qu'on lui aura permis de porter. Son environnement l'attire aussi, il le regarde sérieusement et c'est ainsi qu'il s'intéresse aux mains qui le portent.⁽¹⁾

11

Entre cinq et six mois, le bébé devient encore plus attentif, le monde l'intéresse et il surveille attentivement: «les sons et les lumières déclenchent en lui les activités motrices incésantes»⁽²⁾.

Et physiquement aussi, il est plus puissant: il se met à volonté sur les dos ou le ventre, atteint des pieds avec les mains, et peut presque se tenir assis: résultat obtenu définitivement à sept mois. Ainsi donc plus il apprend à se tenir assis, à se servir de ses deux mains: «il saisit les objets, les porte à la bouche; les en retire, les regarde, recommence la même manoeuvre les fait tomber, les reprend, continue. Tout cela est parfaitement volontaire: «l'enfant apprend»⁽³⁾

L'enfant acquiert progressivement le contrôle psychomoteur des différentes parties de son corps; et comme le monde qui l'entoure, le fascine, il faut bien qu'il apprenne à se déplacer pour le découvrir: Alors le bébé se met à propulser, comme l'on dit «sur quatre pattes» vers 8^{ème} mois. A ce moment là, le petit enfant lorsqu'il est assis peut se tourner sur le côté, se pencher et retrouver son équilibre. S'il le veut, il se met sur le ventre alors qu'il était sur le dos, ou bien se met à genoux et rampe.

A cette époque l'enfant doit être bien surveillé mais sans pour autant «le brider»

Il doit être libre de ses mouvements, et ne point être en permanence installé dans un parc ou une chaise car ces solutions de facilité empêchent l'enfant d'explorer son environnement ce qui est préjudiciable à son développement et à son équilibre.

12

Vers l'âge d'un an l'enfant aura acquis. L'essentiel de son développement moteur: il passe de la position assise à la position debout en s'agrippant d'abord à un support puis sans aide aucune par la suite si ce n'est que pour la marche: Avec ses premiers pas, ses jambes sont tendues, ses bras écartés et ses mouvements assez gauches lui font perdre l'équilibre.

(1) Spock Benjamin, Comment soigner et éduquer son enfant, édition Gérard et C¹e collection Marabout 1960 p. 206.

(2) Sous la direction de profeta Roymond Abram, OP.cit, p.102-103.

(3) Sous la direction de profeta Roymond Abram, OP.cit, p.102-103.

ments, agit, se souvient, fait de choix, ce sont les premières marques de sa future indépendance.

Comme le rassure le docteur Magnum:

«La santé et la joie vont de pair chez l'enfant, durant tout le développement la croissance harmonieuse du corps est parallèle à celle des relations de la curiosité, de l'apprentissage en un mot de l'épanouissement mental.⁽¹⁾

9

2-2 Le développement psychomoteur:

À la naissance, l'enfant ne dispose pas de possibilités motrices.

Elles sont en effet liées à la maturation du système nerveux, à la capacité de reconnaître les objets et à celle d'apprécier l'espace environnant. Juste après sa naissance, l'enfant peut sucer et avaler. Son développement psychomoteur s'effectue de la tête vers le bas du corps:

«L'enfant apprend en premier lieu à maîtriser les muscles des lèvres; puis des yeux, du cou des épaules, du tronc, des jambes, et enfin ceux des pieds.⁽²⁾

Lors de la naissance, les muscles qui sont les plus actifs de l'enfant sont ceux des yeux et de la bouche. Ceux du cou sont encore assez faibles: c'est pourquoi «il dodeline de la tête.»⁽³⁾

Presque invariablement, il étend le bras du côté où il tourne la tête, et fléchit l'autre bras. Il maintiendra cette position aussi durant les trois premiers mois de sa vie, et n'arrivera que rarement à placer sa tête en position médiane.

Il est évident qu'au fil du temps où le bébé grandit, ses actes moteurs et sa coordination deviennent plus complexes. Par exemples, il tente de se mettre sur le côté, ou bien essaie de se mettre sur le ventre lorsqu'il était sur le dos. Tout cela se passe au cours des deuxième et troisième mois après la naissance.

«Et durant cette période, le bébé vit entièrement replié sur lui-même, il n'a en fait que très peu de contacts avec le monde extérieur. La plupart du temps, il semble obéir fidèlement à ses besoins. Lorsque ses stimulations instinctives sont assouvies⁽⁴⁾, il est calme; et lorsqu'il est sous le coup de la faim, de la fatigue ou d'une indigestion, l'enfant se sent tout à fait misérable car rien ne vient le distraire de son état.

10

C'est une période assez pénible pour certains bébé: les uns souffrent de coliques, d'autres traversent des périodes de pleurs colériques, d'autres encore crient toujours durant quelques minutes avant de trouver leur sommeil.

(1) Groupevd'auteur, Op. cit, page 42.

(2) et (3) Sous la direction du docteur Roymond Abram, op-cit p.102-100.

(4) Spock Benjamin, Comment soigner et éduquer son enfant, édition Gerard et collection Marabout, 1960.p. 206.

La toute première inhalation de l'air extérieur doit être assez puissante pour ouvrir les poumons et expulser le liquide qu'ils contiennent encore. Voilà pourquoi ce premier cri est si important et pourquoi le médecin aide le bébé à le pousser en donnant une bonne claque sur les petites fesses.

Ce cri n'est pas accompagné de larmes; «en effet pendant les premières semaines les glandes lacrymales ne fonctionnent pas encore»⁽¹⁾.

L'épreuve de la naissance est difficile pour le bébé: il se retrouve en effet dans un monde différent de celui qu'il vient de quitter, c'est pourquoi il est nécessaire de le replacer dans les conditions sensiblement identiques. Il a besoin de chaleur, de calme et de tranquillité, «afin de lui éviter au maximum ce que les spécialistes appellent le traumatisme de la naissance» ou bien d'épreuve «d'adaptation néo-natale»⁽²⁾

Cela peut se faire en le plaçant dans une chambre calme tout en l'habillant des vêtements qui lui permettront de se sentir au chaud.

8

2 - Croissance et développement pendant la première enfance:

Passée la période difficile d'épreuve d'adaptation néo-natale de tous les premiers jours de la vie- c'est à la période néo-natale - la croissance et le développement de l'enfant vont s'effectuer d'une manière harmonieuse et progressive pendant les premiers mois de la vie.

Pour Gesell: "Le développement est une opération continue qui commence dès la fécondation, et passe par divers stades et étapes.

Et chacune de ces divers stades étapes acquiert un degré de maturation supérieur».⁽³⁾

Pour Tomkiewicz: "L'évolution est l'ensemble des spécificités qui permettront à l'enfant de se développer dès l'instant de sa formation dans l'utérus jusqu'au moment où il deviendra après la naissance nourrisson puis enfant. Et les deux éléments essentiels dans cette évolution sont: le développement et la maturation."⁽⁴⁾

2-1- Le développement de l'enfant:

La personnalité d'un enfant se développe dans la premières années de sa vie et même dès les premiers mois. C'est ainsi que se produisent des modifications extraordinaires à tous les niveaux qui conditionnent tout l'avenir de l'enfant tant dans les domaines physiologiques que psychologiques.

En effet, le bébé à travers des stimulations, manifeste des réflexes, éprouve des senti-

(1) Herman Claus Retter, OP.cit, p.19.

(2) Sous la direction de profeta Roymond Abram OP.cit, p.43.

(3) Giselle, Cité par: الدكتور فهمي مصطفى، سيكولوجية الطفولة والمراهقة، الناشر مكتبة مصر دار مصر للطباعة ١٩٧٤ ص ٩٧.

(4) Tomkiewicz, Cité par: عمر الشقوري، التطور البيولوجي والعقلي عند الطفل، توزيع مكتبة مطبعة المنية الرباط صفحة ٣٧

dans le système circulation du foetus qui doit à l'instant même du clampage du cordon, faire face à de nouvelles voies sanguine»⁽¹⁾.

Pour les connexions et les structures nerveuses les derniers jours qui précèdent la naissance, sont d'une importance capitale, car c'est de la bonne marche du système de contrôle qui dépend la mise en route correcte de toutes les fonctions de régulation dont la principale est celle de la respiration.

6

1-2- La naissance:

La naissance ou l'accouchement est l'ouverture de la matrice et l'expulsion du fruit corps maternel par les contractions musculaires. La présentation de l'enfant par le sommet est la position normale (95% des cas).

Dans cette position l'enfant couché le tronc courbé, le menton sur la poitrine glisse facilement dans le bassin. En général l'accouchement a lieu lorsque l'enfant est arrivé à maturité c'est-à-dire entre le 270 et le 280 jour de la grossesse. On dit alors que l'accouchement est à terme.

Pour le nouveau-né, le début de son existence indépendante entraîne de profonds changements. La naissance, est pour l'enfant la découverte d'un nouveau monde auquel il lui faudra s'adapter.

«Après neuf mois de vie utérine, baigne dans le monde tiède du liquide amniotique où tout est silence ouaté, mais qui en même temps satisfait tous ses besoins»⁽²⁾. Le nouveau-né voit son existence jusqu'à là si tranquille entièrement bouleversée.

Il lui faut donc mobiliser toutes les ressources de son organisme pour affronter de difficultés jusqu'ici inconnues:

Il y a d'abord l'énorme différence de température car dans le ventre de la mère régnait une chaleur constante de 36° celsius.

Les yeux qui, au cours des derniers mois s'étaient recouverts, toutefois dans une obscurité totale se referment maintenant sous l'effet de la lumière trop forte.

7

Et le fait capital, il commence à respirer. Jusque-là ses poumons n'étaient pas dilatés: immergés dans le liquide amniotique ils recevaient l'oxygène nécessaire du sang de la mère par l'intermédiaire du cordon ombilical. Au moment de la naissance lorsque l'on coupe ce lien, la brusque carence en oxygène que subit le nouveau-né le pousse à avaler de l'air par ses poumons, et c'est ainsi qu'il pousse son premier cri.

(1) Groupe d'auteurs, Op.cit. p. 42.

(2) Sous la direction de profeta Roymond Abram, «Grande encyclopédie mensuelle de la santé, édition: EMPA ltd, Jersey, CI1970, p.14.

a - Le stade préembryonnaire:

Il commence dès l'union de la gamète femelle avec la gamète mâle qui donne un oeuf ou zygote, qui en se développant donne un individu de sexe mâle ou femelle.

Ce stade dure trois semaines. Au cours de la dernière d'importants phénomènes s'accomplissent.

Cette troisième marque aussi une étape capitale dans l'histoire du couple mère-embryon. Ce dernier est si minuscule que la future mère ne s'en aperçoit pas extérieurement, et pourtant un développement impressionnant est en cours dans son corps. Déjà les organes commencent à se former «(Au 18^{ème} jour un petit coeur primitif: une ventricule entre en fonction)⁽¹⁾».

Donc ce n'est pas qu'après la troisième semaine que la mère ressent organiquement pour la première fois qu'elle est enceinte à cause des nausées et des vomissements.

b - Le stade embryonnaire:

Il correspond aux deux premiers mois de gestation pendant laquelle l'oeuf se transforme en embryon, durant cette phase les divisions cellulaires sont multipliées et à la fin tous les organes sont pratiquement mis en place.

c - Le stade foetale:

Il dure du troisième mois à la naissance pendant laquelle l'embryon se transforme en foetus. C'est essentiellement une phase de croissance, durant laquelle les organes mis en place durant la phase embryonnaire se développent et certains entrent en activité et commencent à fonctionner. Les diverses parties du foetus ne croissent pas au même rythme.

1-1-La période prénatale:

Elle correspond aux quelques jours qui précèdent et qui suivent la naissance.

Les derniers jours de la période foetale avant l'accouchement permettent une adaptation préalable à la vie extra-utérine, le parachèvement d'un certain nombre de structures et la maturation des fonctions essentielles. Parmi celles-ci, la fonction respiratoire:

«La maturité du système pulmonaire qui tend à changer d'un seul coup son fonctionnement pour être capable d'assumer en quelques instants la lourde charge de l'oxygénation du sang⁽²⁾». On peut faire allusion aussi à l'adaptation du couple coeur - poumons: révolution

(1) Herman Claus Retter, Op, cit, p. 19.

(2) Groupe d'auteurs, Op.cit. p. 42.

que nous avons opté pour ce sujet «Développement langagier du nouveau-êtré social».

En effet, le développement ordonné ne se fait pas par hasard, il requiert des soins et un environnement ordonné; la capacité de l'enfant concernant son adaptation au monde a besoin de références et c'est là qu'intervient le rôle de la mère pour veiller à ses stimulations nourricières d'informations et d'expériences.

Dans ce travail, nous n'avons fait que toucher de près ce sujet; en fait il a été traité par d'éminents chercheurs: par des linguistes, par des psychologues et des docteurs.

Pour la réalisation de cette étude, il nous fallait une bibliographie variée; ce qui nous a été difficile car les ouvrages touchant de près ce sujet relevant du domaine de la psychologie.

Ce travail aurait été plus fructueux s'il avait été renforcé par des films illustrant davantage le rapport mère-enfant, ainsi les jeux des mères avec leurs progénitures, leurs mimiques, leurs intonations et leurs gestes.

3

Première partie: I- Développement de la période prénatale

1 - Conception et développement de l'être humain:

C'est la fécondation qui marque l'instant commence à exister en tant qu'individu. Elle consiste en la fusion de deux entités, d'une par l'oeuf vierge ou l'ovule, et d'autre part, le spermatozoïde; «marque en même temps l'avènement d'un être nouveau dont la réalisation est tout entière à venir»⁽¹⁾

Ainsi donc la vie naît de la vie. Elle jaillit dès où l'ovule est fécondé par le spermatozoïde.

Aussitôt après cette union, la nouvelle cellule commence à subdiviser et par conséquent à se multiplier. Ce noyau d'un être nouveau est pourvu de tous les propriétés de ses procréateurs.

Cette première originelle se divise aussitôt en deux cellules nouvelles qui à leur tour se divisent en deux, formant ainsi successivement 4, 8, 16, 32,46..... cellules.

La division et la multiplication des cellules continuent. Toutes fois, celles-ci groupent en trois couches distinctes: L'ectoderme, le mésoderme et l'endoderme qui forment les éléments constitutifs du corps humain c'est à dire; les os, les muscles, les nerfs et tous les organes⁽²⁾.

Ainsi donc, au niveau de l'utérus l'être humain passe par trois stades de développements:

- a - Stade pré-embryonnaire.
- b - Stade embryonnaire.
- c - Stade foetal.

(1) Groupe d'auteur , Univers de la psychologie encyclopédie en 7 volumes édition Lidis Paris 1977-78; p.40.

(2) Herman Claus Retter, SOS DOocteur, Walters Bekers, éditions Kalmthout Anvers - 1976, pp,16-17.

Développement langagier du nouveau être social

Dr. Berrissoul Samira

INTRODUCTION

C'est un penchant personnel pour la psycholinguistique et plus précisément c'est le domaine de l'enfant qui m'a le plus attiré à cette voie de recherche; car la personnalité de l'enfant se développe dès les premiers mois de sa vie, c'est ainsi que se produisent de modifications extraordinaires à tous les niveaux qui conditionnent tout l'avenir de l'enfant; d'où ce choix pour acquérir le plus de connaissances en ce sujet:

- Comment une petite masse de cellules se développe, croît pour donner un embryon, un fœtus, un nouveau-né, un nourrisson et un enfant?

Comment la naissance est conçue du côté de l'enfant qui découvre un monde tout nouveau: c'est un phénomène merveilleux; dès sa sortie, l'enfant est posé sur le ventre de sa mère pour garder le plus longtemps possible le contact intime entre la mère et son enfant. Puis, dès que l'enfant va commencer à gesticuler, le cordon ombilical sera sectionné; l'enfant trouvant tout d'un coup une autonomie propre, il peut commencer à vivre à propre vie.

- Comment se produit par la suite, le rapport entre la mère et son enfant?

Et montrer jusqu'où va le rôle de la mère dans ces premières adaptations qui aide l'enfant à appréhender le monde, vu le rapport insinctif qui les lie.

1

La première partie de ce travail est réservée au développement de l'être depuis sa conception jusqu'au moment où il sera capable de se mettre en position debout, en essayant de mettre l'accent sur tout ce qu'il peut acquérir au fil des semaines et des mois.

La deuxième partie est réservée au rapport mère enfant avec les diverses méthodes de communication non verbale.

Ce qu'une mère pourra apporter et offrir au nouveau citoyen du monde durant toute cette période. Ce qu'elle pourra aussi donner par instinct et amour.

Et montrer que l'enfant n'est pas inerte à toutes les stimulations mais qu'il est un extraordinaire observateur du visage de la mère: il peut rire ou pleurer pour y avoir deviné des expressions imperceptibles.

2

OBJECTIF.

C'est grâce au rôle de la mère et à ce qu'elle apporte par sa présence à l'enfant

Leçon morale:

La question morale qui se pose à la fin de ce commentaire est la suivante:

Pour toute grande œuvre, il faut de la passion et pour la Révolution il faut de la passion, de l'audace, de la résistance et de la solidarité à hautes doses. Quand cette révolution est dans les cœurs et les esprits, personne ne pourrait la brûler. Son avenir ne peut appartenir qu'à ceux qui ont réagi et supporté le mal intolérable au fil des années.

Tous les jours, il faut lutter pour que cet amour de l'humanité vivante se transforme en gestes concrets, en gestes qui servent d'exemple et qui mobilisent. La levure fondamentale de notre œuvre est la jeunesse. Il faut y déposer tous les espoirs et la préparer à prendre le drapeau de ses propres mains. C'est elle qui reconstruit, en peu de temps, tout ce que l'incendie a ravagé, les pyromanes ont détruit.

L'organisation, la précision des buts, le respect de la loi aboutissent à coup sûr au triomphe recherché.

Cette révolution tant attendue par les libanais les conduira sans doute à la rive du salut. En effet, le rêve ne peut devenir réalité que par la volonté d'un peuple solidaire, insoumis à aucun parti, aucune confession.

Ce peuple sait bien que sa révolution est la seule occasion qui lui reste pour pouvoir vivre honnêtement et humainement. C'est par la persévérance et la longue haleine que les droits s'acquièrent.

Le Liban ne se mesure ni par sa géographie, ni par le nombre de ses soldats, mais par le courage de ces révolutionnaires qui ont rempli les rues et les places, armés de leur civilisation, de leur patience et de leur bonne lucidité car ils savent où leurs pas les amènent.

La victoire est proche.

Quand?

Les Libanais se sont réveillés, vendredi matin du 22 novembre 2019, sur les images tristes du "Poing de la révolution" en flammes. Tarek Chehab, qui l'avait dessiné, conçu, installé, et en avait assumé lui-même les frais, le remplaça par un autre, similaire à l'original, suite à un incendie provoqué, selon des témoins, par un inconnu qui y a lancé des produits combustibles. Le "Poing de la Révolution" se lève une nouvelle fois sur la place des Martyrs.

Comment?

Interrogé par une chaîne de télévision locale, un témoin qui avait passé la nuit sous une tente place des Martyrs avec d'autres contestataires avait affirmé dans la matinée qu'un homme était venu à moto à six heures. Il s'est approché d'une tente et a dit à ses occupants qu'il allait faire quelque chose qui leur ferait du mal. Selon le jeune homme, l'inconnu a ensuite lancé des bouteilles, probablement remplies d'essence, sur le "Poing de la révolution" et y a mis le feu.

Que paraît dire ce tableau à travers ces deux symboles?

Cet emblème de la Thaoura signifie pour les Libanais beaucoup de choses. Tout d'abord c'est, d'une part, la révolution contre la corruption, l'incurie politique, contre un État décadent, impuissant, et d'autre part une réponse défensive du peuple qui réclame droits et justice. Ce soulèvement se veut pacifique, loin de toute violence, sous l'égide du patriotisme qui supprime tout confessionnalisme, afin de refléter le visage civilisé du Liban connu à travers l'histoire. Brûler cette figure de «poing» est un acte ignoble et lâche qui doublera, à coup sûr, la force des révolutionnaires qui, en un mois, ont renversé la table avant que les politiciens véreux la renversent à leur profit. Ce mouvement, né en Serbie, non violent, initié par des étudiants a joué un rôle dans la chute de Milosevic. L'emblème d'un poing levé, a été arboré dans les rues de Tunis, du Caire ou de New York en 2011.

Il paraît que, même si ce symbole a été brûlé, les poings levés de tous les révolutionnaires en feront un autre plus résistant à toute attaque destructive. On peut brûler un symbole mais pas l'esprit de la révolution, qui, aujourd'hui a gagné tous les esprits. Le Phénix des Phéniciens n'arrêtera pas de renaître. L'auteur de cette lâcheté ne sait pas qu'il a bien choisi la date pour commettre son délit. Dorénavant le 22 novembre de chaque année, le peuple s'en souviendra et l'indépendance prendra une nouvelle tournure. Un vent nouveau soufflera et un nouvel élan de patriotisme s'établira.

Cet acte odieux que des milliers de Libanais de tous bords dénie, va insuffler l'espoir d'une refonte du système de gouvernance, inchangé depuis des décennies et jugé sectaire et défaillant.

Ils jugent que c'est le moment ou jamais, aux hommes du pouvoir, de se montrer compréhensifs à l'égard des revendications du peuple en démissionnant et en dénonçant publiquement tout acte barbare au lieu de le passer sous silence et de continuer à gouverner au moment même où tout le monde les chahute.

Au premier abord de cette image, fort évocatrice, reflétant un environnement révolutionnaire émouvant, deux modèles du même symbole se présentent à nous dans deux cadres opposés.

Le premier modèle:

Un poing, aux doigts serrés, levé au ciel, planté, ancré, comme il paraît, dans un sol de révolution. Il semble pousser un cri, jurer une promesse, marquer un repère. Un poing fermé, tendu, fier, qui n'est pas sans rappeler par son graphisme, les nombreux symboles des révolutions dans le monde, à leur tête le poing levé de Nelson Mandela. Ce poing-message brandi aux yeux du monde, plus qu'un bras d'honneur contre l'adversaire, est un «poing d'honneur», un point d'honneur, haut de 9 mètres environ. Il occupe le centre névralgique de la place des Martyrs au Liban, entouré de milliers de personnes dans un décor de culte et de vénération qu'avivent des centaines de drapeaux libanais mouvant dans tous les sens.

Le deuxième modèle:

Il porte le même symbole, sauf que celui-ci est incendié. Le feu qui le consume prête à deux interprétations:

- Est-ce l'éclat et la lueur jaillissant de la révolution, rappelant le buisson embrasé de Moïse avec tout ce que cela suppose comme salut, espoir et délivrance avant de lui fournir les tablettes des 10 commandements?

- Ou bien, est-ce du vrai feu qui dévore ce symbole afin de l'éliminer et de détruire le soulèvement qui le représente? Tout cela se passe dans un décor de dégâts et d'ambiance noire et triste comme si ces derniers sont provoqués puis abandonnés par une bande de voyous en fuite, laissant la place sinistrée et livrée au désespoir.

L'approche de cette image suscite plusieurs questions concernant les circonstances qui ont amené cette opposition à se trouver dans un seul et même contexte: **Qui? Pourquoi? Quand? Comment? Où? Nous y répondons immédiatement dans l'analyse qui suit.**

Qui:

Ce poing, dont on a fait mention ci-haut, est l'œuvre d'un jeune homme de 32 ans, Tarek Chehab. Nous l'imaginons assis silencieusement dans un coin, loin de la foule enflammée, autour de ce Grand Symbole, «complètement spontané» à son dire, et qui donne visage et histoire à cette révolution de 2019 au Liban, en ce nouveau jour de mobilisation à Beyrouth. Il confie, dans un murmure: «Oui, le poing, c'est moi qui l'ai fait.»

Pourquoi?

Pour nous rappeler de Mandela qui, grâce à ce symbole de poing levé, dans un geste de colère et de combat, a pu devenir président et réconciliateur de la nation sud-africaine. Cette présentation appelle, dans une même optique de rébellion, le peuple libanais, à agir, à se réconcilier et obtenir par la force leur droit naturel qui leur a été usurpé. Le poing levé devient alors emblème de courage, de solidarité et de force intérieure plutôt qu'un rituel associé à la violence ou signalant qu'on est prêt à en faire usage. Quelque soit l'origine de ce symbole, il devient un message du peuple défiant l'oppression de ses dirigeants, il demeurera le vrai slogan de la Révolution libanaise.

passer le peuple d'Israël afin de le sauver de la tyrannie de Pharaon. Moïse ici est la Révolution et la Tour Eiffel est ce bâton symbole de puissance et de délivrance.

Cependant, cette image ne porte pas seulement des réflexions à la chrétienne car on peut voir aussi, dans la Tour Eiffel, Borj Khalifa à Doubaï. Musulmans et Chrétiens s'accordent à l'unanimité que le drapeau libanais est supérieur à toutes autres considérations (intérêts, partis, confessions...).

Abstraction faite à toutes autres connotations, Borj Khalifa en porte une religieuse (qui devient un symbolique doctrinal). Il est, de par sa forme rectiligne et pointue, ce crayon dont fait mention le Coran dans Sourate Al-alaq.

Ce verset constitue l'ouverture de la révélation du ciel, ce qui signifie que la chose la plus importante que l'Islam soit parvenue à réaliser est la diffusion du savoir dans toutes ses branches: alphabétisation, sciences et éducation. Ce grand créateur a fait du stylo la base de la science. Ce stylo a acquis beaucoup de connaissances à travers l'homme et ce dernier a encore beaucoup à apprendre. Un stylo d'écriture n'est que cette note que la civilisation de l'Islam ne sera construite que par cette discipline, et le pilier de la science humaine est cette forme rectiligne et pointue érigée en hauteur et symbole de l'Islam: Le crayon de Dieu, Borj Khalifa.

Leçon morale:

La question morale qui se pose à la fin de ce commentaire est la suivante:

Le discours politique n'est pas destiné à donner aux mensonges l'accent de la vérité, à rendre la corruption respectable et à accorder, à ses acteurs assoiffés de vices, une confiance pour sauver un pays qui va à la dérive.

Non! Le vrai sauvetage du Liban n'est autre que la volonté du peuple uni pour basculer les gouverneurs corrompus, pour les juger et pour les chasser du pouvoir, avec tous ceux qui puissent en dépendre de près ou de loin, afin d'instaurer un pays libre, dominé par la justice et l'égalité. C'est cela se réunir autour d'un drapeau libanais de par le monde, c'est cela un peuple qui mérite respect.

Analyse d'une image N° (3)



La contestation au Liban s'est toujours poursuivie après cette date et le pays se trouve toujours dans une impasse politique et le Liban est le théâtre d'une vague d'oppositions sans précédent contre la classe politique, jugée corrompue et accusée d'avoir ruiné le pays. Les protestataires continuent la pression sur leurs dirigeants, afin d'obtenir un changement radical du régime politique en place. Les manifestations étaient toujours pacifiques et souvent festives. La mobilisation touche toutes les régions du pays, et même des territoires où l'on n'avait pas l'habitude de voir des rassemblements. Même des partisans de partis politiques sont descendus spontanément dans les rues pour rejoindre les révoltés, alors que d'habitude ils obéissent aux mots d'ordre de leurs leaders respectifs.

Ce mouvement semble avoir changé la donne au sein d'une société souvent décrite jusqu'ici comme divisée. On perçoit clairement à travers cette révolution spontanée un changement des mentalités, des clivages ont été surmontés. Parmi les protestataires, on ne parle plus de chrétiens, de musulmans ou de druzes. Il y a une unité parmi les manifestants que l'on ne voyait pas forcément avant dans le pays, que l'on ne pouvait même pas imaginer. C'est assez impressionnant de les voir se réunir autour du seul drapeau libanais, indépendamment de leur confession, de leurs partis politiques, de leur âge ou de leur condition sociale. Il manquait cruellement au pays un esprit citoyen, malgré les efforts d'une minorité de personnes engagées ou des associations, or nous sommes en train d'assister à son émergence sur un plan plus large à travers ces événements. Il y a également une forte mobilisation des femmes, dont les droits sont lésés au Liban - et différents selon les communautés - qui sont extrêmement présentes dans les rues depuis le début du mouvement.

Cependant, l'analyse de cette image ne se complète pas, tant qu'on n'a pas parlé du fond de ce tableau. Nous voudrions dire ce côté supérieur qui coupe ce dernier en deux parties distinctes. Il s'agit exactement du ciel. Ceci est lugubre, envahi de nuages couleur de cendre. Ce décor nous rappelle exactement le Vendredi Saint, alors que la Tour Eiffel dans sa hauteur majestueuse ne peut que reproduire le plancher du Salut sur lequel le Christ est crucifié. On voit se refléter dans le drapeau, étendu aux pieds de la Tour, avec sa couleur rouge, le sang que le Christ a déversé pour notre salut. Sa rétrospective suggère le chemin de la Golgotha. Cette immense longueur de ce drapeau qui, en forme de pont, et que l'image n'arrive pas à tout montrer, ne rejoint-il pas les autres drapeaux libanais dans les autres pays du monde réunis au même moment, dans cette même scène jusqu'à se raccorder avec les étendards des libanais qui se sont serrés les uns contre les autres à partir du Nord du Liban jusqu'au Sud dans un contexte de solidarité et de fraternité?

Les gens des 2 côtés de ce chemin de calvaire paraissent acclamer quelqu'un, implorant à voix haute: descends Christ de ta croix et sauve nous, alors on voit tout se dissiper, les nuages s'éclaircir et la résurrection se préparer et s'approcher tout doucement dans un cadre de grande Croix de salut entourée de deux autres à droite et à gauche. Les gens vocifèrent et se remuent exactement comme on le voit dans cette image. On la voit la détresse se dissiper et la crise disparaître et un nouveau jour apparaître: Liberté égalité, fraternité ne tardent pas à s'instaurer sur le territoire libanais et les confessions quitter le terrain sans aucun espoir de retour. Le patriotisme règne et seul le drapeau libanais bat dans le ciel.

Ce drapeau rappelle aussi la mer Rouge que Moïse a coupé avec son bâton pour faire

ment distingué. La révolution qu'ont manifesté ces libanais de la diaspora répond par tous ses constituants à ce symbolique susmentionné. Le soulèvement du peuple libanais sorti si nombreux, ce jour-là, n'est-il pas en fait un événement unique en son genre et dont l'aspect reflète justement quelque chose de solennel et de glorieux? Ce grand drapeau ne serait-il pas une invitation à accueillir une personnalité illustre qui n'est autre que les révolutionnaires eux-mêmes appelés à changer le cours de l'histoire du Liban couronné par son cèdre qui se trouve au cœur de cet étendard comme dans le cœur de tout libanais?

Le rassemblement des libanais, non loin de la Tour Eiffel, fait revenir à l'esprit l'image de la révolution française et le souhait profond des français, à cette époque, de changer la Nation et d'abolir à tout jamais la monarchie absolue, afin d'instaurer une République dont la force émane du pouvoir du peuple lui-même. Toutes les classes sociales étaient présentes, sans distinction aucune. Les libanais, dans cette photographie, et dans un fort élan politique, ont pour une fois, oublié la question confessionnelle et communautaire pour redonner à leur pays la vraie face de la convivialité, loin de toute dépravation morale, de toute décadence de principes. Enflammés par les Grandes Vertus, les citoyens du pays des cèdres se sont retrouvés sur le terrain, par milliers, dans ce pays de France, symbole de Liberté, d'Égalité et de fraternité. Ceux-ci réclament un grand changement dans le régime de ce pays du Proche Orient, caractérisé par les influences extérieures et l'emprise des partis politiques de tous genres.

La tour Eiffel, mise face à face avec le cèdre libanais, dans un contexte de majesté et de souveraineté, rappelle à la mémoire les événements français à la veille du grand bouleversement que doit subir la France dans le but d'instaurer les grandes valeurs perdues à travers les époques monarchiques. Le cèdre évoque ici la même ambiance et reflète les mêmes sentiments qui ont animé le peuple parisien qui s'est armé de piques et a envahi rapidement les Tuileries. Le 10 août on avait préparé une insurrection, des insurgés s'étaient armés, Danton qui organisait la rébellion avait pris possession de l'Hôtel de Ville. Le roi, à peine éveillé, tente de se réfugier à l'Assemblée. Aux Tuileries, les gardes suisses font feu sur les insurgés. Mais une fureur habite les émeutiers qui massacrent des gentilshommes (Clermont-Tonnerre). Pendant ce temps, à l'Assemblée, on avait voté la suspension du roi et son internement dans la prison du Temple. Les sans-culottes prennent d'assaut le château des Tuileries, les gardes suisses tirent sur la foule. La République tant désirée, se prépare petit à petit.

Les libanais, quant à eux, ils ont procédé de la même façon, sauf que ceux-ci ont agi avec moins de violence et de victimes.

Les manifestations libanaises de 2019 étaient une série de protestations au niveau national, en réponse à l'échec du gouvernement à trouver une solution à la crise économique qui menace le Liban depuis près d'un an. Les contestations interviennent directement après l'annonce de nouveaux impôts sur l'essence, le tabac et les appels en ligne par le biais d'applications comme WhatsApp. Treize jours après le début du mouvement, le président du Conseil des ministres Saad Hariri annonce sa démission et celle de son gouvernement.

celle des martyrs. Les mots suffoquent dans ma gorge. J'adore l'odeur qui émane, en ce moment, du sang qui gicle de ton corps parfumé d'encens et d'olibans.

Ma voix n'arrêtera pas d'exalter tes mérites jusqu'à ce que je me rende chez toi, papa. Liban sera autre. Pour être un stimulant pour les autres, je souhaite dissiper le chagrin qui habite les martyrs.

Leçon morale:

La question morale qui se pose à la fin de ce commentaire est la suivante:

Qu'est-ce, en fait, un martyr et que nous apprend-il?

Un martyr nous apprend comment s'effacer ou se dessaisir de soi pour le gain de la cause désirée, c'est un signe de sainteté. C'est un acte héroïque qui ne transige jamais avec ce qui pourrait le dévier de l'union avec les grandes valeurs.

Analyse d'une image N° (2)



Il s'agit, ici, d'une photographie d'actualité concernant la révolution éclatée au Liban depuis le 17 novembre et dont le but principal est la lutte contre la corruption qui a érodé le gouvernement libanais contre lequel le peuple s'est soulevé demandant sa chute immédiate.

La place des droits de l'homme du Trocadéro était pleine de monde ce dimanche 20 octobre 2019. Rouge et blanc dominaient avec des centaines de drapeaux libanais et des milliers de Libanais de la diaspora.

Paris méritait son surnom de deuxième capitale du Liban après Beyrouth.

L'étendue du drapeau rappelle, ici, de par la couleur rouge qui s'impose à nous au premier abord, les tapis rouges dont le symbolique est celui des grandes cérémonies et du grand prestige d'un invité exceptionnel. La couleur rouge représente le caractère officiel de l'évène-

partout, par terre, sur les mains de l'épouse, sur ses jambes, sur ses vêtements.

Que paraît dire ce tableau à travers ses trois personnages?

Le père:

Ne t'affole pas ma femme. J'ai voulu t'éviter la balle pour que tu restes en vie afin de pouvoir t'occuper de nos enfants et de leur apprendre ce que c'est qu'être martyr. Je me sens très bien là où je suis en ce moment. Je suis survivant, ne t'inquiète pas. Je suis près de vous, mais tu ne me vois qu'étendu par terre, alors que je suis debout, face à vous deux. Je vois, autour de moi, tous les martyrs qui m'ont précédé à la vie éternelle et qui m'accueillent dans une immense cérémonie de fête, de lumières et de lauriers. Poursuis la lutte, n'abdique pas. Notre pays agonise, il faut le soutenir coûte que coûte et sortir du grand fossé de la corruption et de la misère. Surtout, ne te venge pas de mon assassin. Ici, on ne lave pas le crime par le crime, mais on oublie, on aime et on pardonne. Garde mon souvenir jusqu'à ce qu'on se retrouve dans le vrai monde où règnent la Justice et l'Amour.

L'épouse:

Tu m'as quitté si tôt, cher Alaa'. Aurait-il fallu que cette journée se terminât ainsi? Nous étions si bien ensemble. Est-ce cela vraiment le patriotisme? Aurait-il fallu, à tout prix, que tu tombasses si perfidement, si promptement, devant les yeux de ton fils et des miens? L'événement était tellement dur que je ne m'arrive plus à me tenir debout. Je crois que je vais ge-
sir ici pour l'éternité, notre fils dans mes bras, entourés par le vacarme des gens et les cris de la foule qui hulule autour de nous, à nous assourdir et nous étouffer jusqu'à la tombe. Écoute toujours mon appel, quand je serai en détresse, du fond de cette terre qui bout sous la pression de la révolution. J'ai demandé aux anges des Cieux et aux habitants du Paradis, d'être les témoins, en vérité, de la Souvenance de Dieu.

O bien-aimé! Tu ne seras pas un homme comme les autres. Je serai patiente dans tout ce que Dieu a ordonné pour notre famille. En vérité, ton fils emboîtera tes pas. Il sera un jour, un Grand Héros, comme son père l'était.

Le fils:

Seigneur! Fallait-il à mon âge, assister à ce coup fatal qui emportera si vite, et à tout jamais, l'âme de mon père vers les hautes sphères des étendues lumineuses et me laisser dans les ténèbres de la corruption endurcie dans les têtes de nos gouverneurs? Nos chers révolutionnaires se sont soulevés pour une fois contre cette politique infâme qui soumet tout pour les propres intérêts de ses représentants.

Malgré la détresse, malgré le sang que vous allez désormais faire couler tous les jours, malgré les gémissements... je ne quitterai pas mon drapeau libanais. Laisse-moi voir mon père, maman, arrosé, telle une fleur, par le sang de l'honneur et de la magnanimité. Ne me couvre pas les yeux avec ta main. Elle est si tendre pour répondre à ce choc indélébile. Il faut la porter si dure contre celui dont l'outrage ne cesse de nous déshumaniser au fil des jours. J'enseignerai une chose à mon enfant. La résistance, c'est la vie et il n'y a de vie que

- Le martyr gît immobile, sur le sol, baignant dans une mare de sang.
- L'épouse, à deux pas de lui, abattue par l'incident, yeux fermés, détournant le visage de la scène et semble perdue dans un monde ailleurs.
- Son fils, âgé de sept ou huit ans environ, blotti dans le giron de sa mère, genoux ensanglantés, serré fort contre la poitrine de la maman, par son bras droit, yeux masqués par la main gauche de cette dernière.

Au premier abord du spectacle, concernant cette personne étendue par terre, plusieurs questions travaillent l'esprit du spectateur, touchant aux circonstances qui ont amené cet homme à sa destinée fatale de ce jour: **Qui? Pourquoi? Quand? Comment? Où? sont les points d'interrogation auxquels nous devons répondre, dans notre étude, avant d'aborder l'analyse proprement dite de cette image.**

Qui:

Un individu du commun des gens se trouvant, ce jour là, avec sa femme et un de ses trois enfants, au sein du chaos qui animait la scène libanaise révolutionnaire, identifié sous le nom de Alaa' Abou Fakhr, un druze de 37 ans, de la ville de Choueifat, gaillard, enthousiaste, bien constitué, beau et spontané...

Pourquoi:

Atteint par une balle dans le crâne, provenant d'un fusil mitrailleur, chargé immédiatement par un militaire libanais, Charbel Houjeil. Ce dernier lui tira dessus et l'abattit sur le coup, suite à une violence verbale:

- «Arrête espèce de m...»

- «C'est toi la m...»

Quand:

À la fin de l'après-midi du 12 novembre 2019, au passage d'une voiture Toyota, tout terrain, dotée d'une plaque d'immatriculation ordinaire.

Où:

Croisement de Khaldé.

Comment:

Le véhicule tentait de forcer le passage, alors que les manifestants avaient coupé la route pour exprimer leur colère. Une altercation verbale avait éclaté entre les personnes à bord de la Toyota et les manifestants.

L'homme au volant voulait traverser le barrage qui coupait la route. Alaa' est intervenu, a interpellé le chauffeur Charbel Houjeil et lui a adressé de gros mots. Ce dernier reçoit immédiatement l'ordre de tirer, de son accompagnateur, Nidal Daou, officier des Services de Renseignements de l'Armée, de la communauté druze et proche du Parti Socialiste Nationaliste Syrien PSNS (selon certaines sources). Le chauffeur a tiré deux coups dans l'air, puis a pointé son arme sur Alaa'. L'épouse de ce dernier, a voulu le protéger en criant: «Tue-moi à sa place». Le mari la repousse. La balle est partie et le coup fatal se produisit. Le sang était

Des images révolutionnaires qui parlent Eliane Toni Abboud

Docteur ès lettres

Les révolutions possèdent partout dans le monde des aspects qui les rendent tantôt violentes, tantôt pacifiques. C'est un changement brusque qui vient troubler la structure politique et sociale d'un État. Il se produit quand un groupe se révolte contre les autorités en place, et ce, afin de réclamer des droits que le gouvernement tarde à les lui accorder pour une raison ou pour une autre. C'est, dans ce cas, qu'un appel à un changement de régime politique s'impose. La révolution pourrait aussi prendre la forme d'un coup d'état. Elle bascule violemment les dirigeants incompetents et tyranniques pour les remplacer par d'autres plus équitables, plus capables d'amener le pays vers la paix et la prospérité.

Nous prenons dans notre étude 3 images caractéristiques de la révolution libanaise du 17 octobre afin de les analyser dans leur contexte d'agitation et de revendication de droits dans un aspect tout particulier de convivialité, de solidarité, mais aussi dans une ambiance originale de festivité et de chant sans aucune ingérence des partis politiques.

Analyse d'une image N° (1)



Cette image, fort suggestive, inscrite dans un contexte révolutionnaire pathétique nous impressionne jusqu'à la moelle. Elle choque le spectateur par son caractère accidentel et foudroyant mais aussi par l'ambiance qu'elle a dû susciter au moment même du martyre. Trois constituants principaux nous frappent par l'aspect douloureux et sinistre qui plane sur ce tableau: